



بِقِتَارَةِ الْأَمَانِ بِمَوْعُودِ الْأَدْيَانِ

آيَةُ اللَّهِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ أَمَامِ كَاتِبَانِي

الجزء الأول

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بشارة الأمان بمعود الأديان (المباحث الفلسفية والكلامية)

تأليف

آية الله الشيخ محمد إمامي كاشاني

الجزء الأول

المقدمة

الحديث عن المصلح العالمي، والمنقذ النهائي، وإمام العصر، وصاحب الزمان، والمهدي الموعود (عجل الله فرجه)، حديث عن المستقبل المشرق، ومرحلة الكمال، وغاية التاريخ البشري.

هذا الموضوع واضح لدى الشيعة وراسخ في أذهانهم وضمائرهم إلى درجة بحيث ربما يتصورون أنّ أي بحث إضافي حوله، لا يخرج عن دائرة تكرار المكررات. والمسلمون من أهل السنة أيضاً لا يختلفون عن الشيعة في هذا الأمر إلا من حيث هوية هذا الإمام المصلح. وقد ألف علماء الإسلام مئات الكتب والرسائل المستقلة في موضوع «الإمام المهدي» أرواحنا فداء.

والديانتان الإلهيتان اليهودية والمسيحية تتفقان مع الإسلام في انتظار ظهور منجٍ ومصلح عالمي ونهائي على أقل تقدير.

إذن لماذا نتناول هذا الموضوع من جديد؟ ولماذا نسعى للبرهنة على وجود هذا الإمام الأخير والوصي الخاتم؟ ثم: هل لدى المجتمع البشري حاجة لبحث أكثر حول آخر الزمان والمهدوية؟ وهل يعود هذا البحث بالفائدة على البشرية؟ للإجابة على هذه التساؤلات، أعتقد اعتقاداً جازماً - ويشترك معي في ذلك جميع العلماء والمفكرين المسلمين والنصارى الذين قابلتهم وحاورتهم - بأن إجراء هذا اللون من البحث وبطريقة علمية وبعيداً عن التعقيد، - لاسيما في العصر

الراهن والظروف الخاصة التي يعيشها العالم - ليس مفيداً ونافعاً فحسب، وإنما ضروري ولازم أيضاً، لأنّ البشرية تقف على مفترق طريقيين فإذا تقاعس الأخيار - من أي دين ومذهب وقومية - عن أداء دورهم الإنساني والمعنوي والديني، وتراجعوا عن تسليط الضوء على الحقائق وتنوير عقول الشباب، ولم يفكروا إلا في أنفسهم ونجاتهم، حينذاك سيُغلق طريق الصلاح والسعادة، ويُفتح طريق الفساد والشقاء.

إنّ أهم الأهداف التي نتوخاها من تناول هذا الموضوع والتي تُعدّ مسؤولية لا بدّ من تحملها، هي:

١- إثبات وجود المصلح العالمي وظهوره طبقاً للمشيئة الإلهية على أساس الأدلة العقلية، وتحديد هويته على أساس الأدلة النقلية. ورغم أنّ القدماء قاموا بهذه المهمة أيضاً لكنّ أعمالهم ورغم أهميتها، لم تتسم بالشمولية التي عليها هذا الأثر.

٢- دحض الرأي السائد لدى بعض فلاسفة المسيحية ومتكلميها القائل بأنّ ظهور المنقذ والمنجي سيتحقق في عالم الآخرة، ولا شك في أنّ مثل هذه الفكرة لن تزرع أي أمل في قلوب جيل الشباب، ولن تدفعهم نحو السعي والحركة.

٣- إبطال عقائد وأفكار بعض الكتّاب الذين يعتقدون بأنّ انتظار ظهور المنجي يبعث حالة الخمول لدى الشباب المسلم ويحول دون انطلاقهم نحو العمل والإبداع.

٤- دحض شبهات حفنة من الكتّاب الذين قد يُظنّ بهم أنّهم يحسنون صنعاً، ومنهم من يحسب نفسه على الشيعة لكنهم يتميزون بسوء النية وعدم الأهلية والصلاح، فيحاولون إرباك أذهان الشباب وخلق حالة الشك لديهم في هذا الموضوع الحياتي.

٥- تنوير أذهان وأفكار أغلبية أتباع الأديان الإلهية الذين يعيشون في

العصر الراهن حالة اللامبالاة إزاء مستقبل البشرية، إذ إن أي تقاعس عن أداء هذا الواجب سيلقي بهم في هوة الأفكار الملحدة بسهولة.

٦- مجابهة الأخطار الجادة التي تشكلها المشاريع والحركات السياسية والثقافية الغربية والتي تسعى للانحراف بالبشرية والعالم عن الطريق القويم نحو المستقبل، وتضليل أفكار الشباب الساذج الحائر بإسم الحرية والديمقراطية والرخاء المزيف. ولا ريب في أن هذه المهمة، تستدعي تعاون وتآزر جميع الموحدين وأتباع الأديان السماوية، وتضافر جهودهم.

وبالرغم من الاختلافات الأساسية بين الإسلام، والمسيحية، واليهودية، لكنها تشترك جميعاً في الأمر التالي وهو أنها تحمل رسالة عالمية تتمثل في الإيمان بظهور المصلح العالمي، وإقامة دين سماوي واحد.

مما يبعث على الأمل أن مجموعة من كبار الفلاسفة والمتكلمين المسيحيين، أدركت أهمية وسمو عقائد الإسلام وثقافته وحضارته، وقد تحدّثنا عن هذا الموضوع بشكل مفصل في هذا الكتاب، ونشير هنا إلى جزء مما ذهب إليه الفيلسوف واللاهوتي المسيحي الشهير البروفسور جون غيتون حينما قال في محاورتي إياه: «أنا على معرفة بجميع الأصول والعقائد الإسلامية، ولديّ تخصص في عقائد المسيحية، وأتوقع أن يُقبل على الإسلام في المستقبل كثير من أتباع الأديان الأخرى. وهذا يعتمد على تعاملكم الصحيح الهادئ البعيد عن التعصّب أنتم علماء الإسلام». وأضاف: «الكلمة التي نقلتموها عن رسول الإسلام، يجب عليّ أن أكتبها على جدران مكتبي، وأن أرسم زهرة إلى جانب كل كلمة كي يطلع الذين سيزورون هذه الدار في المستقبل على المكانة الإلهية والإنسانية السامية لرسول الإسلام العظيم».

سعيًا في هذا الكتاب إتخاذ طريق الاستدلال العلمي، وتجنّب أي خطاب يثير الاستياء ويعكر الصفو، والدخول في حوار مع علماء المذاهب والأديان

الأخرى بعيداً عن أي تعصب. وإنني إذ أسجد لله العظيم وأمرغ جبهة الحياء والجريرة بتراب العبودية، أشكره تعالى أن وفقني في سني الكهولة والضعف البدني لشدّ الرحال إلى البلدان الغربية والالتقاء برجال الديانة المسيحية ومفكريها، وكذلك إلى البلدان الإسلامية والاجتماع بعلماء مذاهب أهل السنة والتحاور معهم، فكان الترحيب الذي حظيت به، والتجاوب الفكري والقلبي الذي أبدوه أكثر مما كنت أتوقع بكثير، فشجّعني جميع هؤلاء العلماء المسلمين والنصارى - عدا النزر اليسير منهم - على تناول هذا الموضوع ومتابعته.

اعتمدنا في شرح أساس المهدوية وتسليط الضوء على هذا الموضوع، العديد من الأدلة والأسس العقلية، والفلسفية، والفطرية، والمنطقية، وما يتعلق منها بعلم الاجتماع، والعرفان، وعلم النفس، وفلسفة التاريخ، وكذلك موضوع عالمية الدين.

أما في هوية الإمام الموعود، وحسبه، ونسبه، وبرامجه، وأعماله، فاعتمدنا الأسلوب النقلي. فأوردنا جميع الأحاديث النبوية وروايات أهل البيت عليهم السلام، وكذلك آثار الصحابة، وأقوال المحدثين الشيعة وأهل السنة في موسوعتنا هذه (بشارة الأمان بموعود الأديان) بعد التحري والتنقيب في مئات الكتب نقلاً عن آلاف الرواة والمحدثين.

ولاريب في أنّ تلك الموسوعة تشتمل على الغث والسمين بحكم كونها موسوعة. ومع أنّ بوسع القارئ الواعي المنصف تمييز الحقائق عن غيرها حتى وإن لم يكن عارفاً بجميع قواعد الرواية والدراية، لكننا بيّنا الصحيح من تلك الأحاديث والآثار لدى الفريقين اعتماداً على وثاقة روايتها في كتب الرجال، ثم ترجمنا رواية تلك الأحاديث الذين بلغوا أكثر من سبعة آلاف رجل في موسوعتنا الثانية (أحوال الرواة في بشارة الأمان بموعود الأديان) لنساعد القراء على معرفتهم، والوقوف على مدى صحّة رواياتهم.

المصلح العالمي كما استنبطه الفلاسفة والمتكلمون المسيحيون من الأتاجيل

يؤمن أتباع السيد المسيح ﷺ أنه سيظهر في آخر الزمان. كذلك لدى كثير من علماء الديانة المسيحية إيمان راسخ وعميق بظهور منج ومصلح في آخر الزمان يعمل على نشر الأمن والعدالة في سائر أرجاء المعمورة. يمكن تقسيم العلماء والباحثين المسيحيين إلى ثلاث فئات من حيث موقفهم إزاء هذه الفكرة:

الفئة الأولى:

تتمثل في العلماء والمتكلمين الذين يعتقدون أن ظهور المسيح ﷺ محدود بمرحلة آخر الزمان. وقد أوردنا آراء هؤلاء ووجهات نظرهم في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وكانت لدينا رحلة ممتعة إلى هولندا، وإيطاليا، والفاثيكان، وفرنسا (مرتين)، وسويسرا، فأجرينا خلالها مناظرات وحوارات متعدّدة مع أبرز علماء الديانة المسيحية ومشاهير الفلاسفة في هذه البلدان، وكذلك مع أشهر المتكلمين

المسيحيين ، وأساتذة ورؤساء الجامعات وعمداء الكليات ، ومدّرسي اللاهوت المسيحي ، وخبراء الدراسات المقارنة بين الإسلام والمسيحية في جامعات بروكسل ، وروما ، وفلورنسا ، وباريس ، وجنوى. هذا فضلاً عن المباحثات الجادة التي جرت بيني وبين أقطاب الفكر المسيحي في مركز المسيحية - أي الفاتيكان - حيث كان محور جميع تلك المباحثات ، مستقبل البشرية في ظلّ بشارة جميع الأديان السماوية بمصلح عالمي وإشارات الإنجيل إلى هبوط السيد المسيح ﷺ من السماء وظهوره في آخر الزمان ، وهي الحقيقة التي يؤكّد عليها الإسلام كثيراً.

من بين الإشكالات التي ظهرت خلال مسار هذه المباحثات والمناقشات وطريقة الحوار ، هو أنّ بعض أقطاب الفاتيكان كانوا يتصورون أنّ ظهور السيد المسيح ﷺ يقترن مع حلول يوم القيامة. وقد قلت لهم: إذا كان ظهور السيد المسيح ﷺ متزامناً مع يوم القيامة ، فلن نجد حينئذٍ تفسيراً معقولاً لما ورد في الإنجيل من «أنّ المسيح سيقوم في الأرض حكومة عادلة». ثمّ أشرت إلى أمرين حول عبارة الإنجيل:

الأول: إنّ تقارن ظهور السيد المسيح مع حلول يوم القيامة المشار إليه في الإنجيل ، لا يراد به التزامن ، إذ من الممكن أن يكون هناك فاصل زمني يمتدّ لمئات الأعوام بين إقامة حكومة العدل ويوم القيامة ، وإنّما يراد به أنّ ظهور السيد المسيح بمثابة مقدّمة ليوم القيامة .

الثاني: يعود هذا الاستنتاج إلى التشابه أو الانسجام في المعنى بين قيام القيامة وتحقق العدالة ، لأنّ هذين المفهومين يتحدّثان عن ظهور الحقّ وشموع العدل مع الفارق التالي ، وهو أنّ ظهور المسيح ﷺ في هذا العالم يمثل مرحلة واحدة من مراحل العدالة الشاملة التي ستظهر في الآخرة في أحسن وأجمل

صورها. وقد تحدّثت بعض الأحاديث الإسلامية عن تقارن هذين الحديثين بسبب التشابه فيما بينهما.

ومن الجدير بالذكر أنّ بعض علماء المسيحية وزعماء الفاتيكان، أولوا اهتماماً كبيراً نحو هذه الملاحظة، كما أنّ الفلاسفة والمتكلمين المسيحيين الذين التقيت بهم بعد ذلك في فرنسا وسويسرا، نظروا إلى هذه الملاحظة التي أبديتها، بعين الرضا والقبول.

الفئة الثانية:

تتمثّل في الفلاسفة المسيحيين المتألّهين الذين لديهم معرفة بالإسلام وينظرون إليه باهتمام، ولدى هؤلاء رأي خاص في هذا المضمار. فحينما تحدّثت مع الفيلسوف الفرنسي جون غيتون حول ضرورة الإيمان فلسفياً بالمصلح العالمي الذي تحدّث عنه الإنجيل وأكّد عليه الإسلام، قال هذا الفيلسوف: «لا شأن لي بالتفسير التي تجتهد في بيان عبارات الإنجيل. فأنا أعتقد علمياً أنّ العدالة لا بدّ وأن تخيم على الأرض، وأنّ هذه الظاهرة ستتحقّق على يد منجٍ إلهي. وبما أنّني أعتقد أنّ الإسلام دين متطوّر وشامل، إذن فالموضوع الذي تثيره، موضوع يتمتّع بالحقيقة».

قلت له: إنّ المصلح العالمي من وجهة نظر الإسلام هو الإمام المهدي (عجل الله فرجه) الذي سيقود نظام العدل العالمي، فيما سيتولّى السيد المسيح عليه السلام إدارة هذه الحكومة. فشرع بالسرور حينما سمع هذا الكلام واعتبره بشارة إسلامية قيّمة، وأضاف قائلاً: «على ضوء ما يتميّز به الدين الإسلامي وثقافته من رقي حيث يوجّه البشرية في جميع جوانب حياتها، لذلك اتّفق معكم تماماً في جميع ما ذكرتموه».

وأطمئن القارئ الكريم بصحة ما أنقله من كلمات العلماء والفلاسفة المسيحيين الذين تحدّثت معهم، لأنّها جميعاً مسجّلة لديّ على أقراص آلة التسجيل وقد تمّ تعريبها بكلّ حرص ودقّة. وينطبق هذا الأمر على تسجيل أقوال العلماء المسلمين أيضاً، سواء أولئك الذين زرتهم في بلدانهم أو الذين أتوا إلى إيران للاشتراك في بعض المؤتمرات العلمية الدولية.

تمّ طرح العديد من الموضوعات الجذابة المهمّة خلال لقائنا بالبروفسور جون غيتون، يمكن الرجوع إليها في الفصل الخاص بها، وممّا قاله: «أعتقد أنّ العصر الذي نعيش فيه يحظى بأهمية كبيرة جداً، لأنّ كلّ شيء فيه يتّجه بسرعة نحو التغيير. والعالم يسير نحو نمط من الوحدة والاندماج. وتلعب حركة الاختراعات والإبداعات المتسارعة دوراً مهماً في الإسراع بتحقيق هذا الأمر.. أما بشأن عودة السيد المسيح عليه السلام فلا بدّ من القول بأنّه سيأتي ليحكم، وهذا اعتقادي الشخصي والفلسفي. وأنّ جميع الاختراعات والتقنيات الجديدة في العالم، يراد منها التمهيد لحكومته. وحينما يعود، فإنّ حكومته ستستمر إلى الأبد، أي إلى يوم القيامة، لأنّ الله خلقنا جميعاً ويجب أن يحلّ ذلك اليوم الذي يخضع فيه العالم لحكومة إلهية واحدة، وتتحقّق إرادة الله ومشيئته». وأشاد في نهاية المطاف بالرؤية الإسلامية في هذا المضمار ووصفها بأنّها رؤية واقعية.

والتقيت في باريس أيضاً بنخب من الفلاسفة والمتكلّمين وأساتذة الإلهيات، لاسيّما الأستاذ روجيه غارودي الذي اعتنق الإسلام. وأشار في حديثه إلى بعض النقاط المهمّة في هذا الموضوع. وممّا قاله: «مسؤوليتنا جميعاً كأناس يعتقدون بسيادة العدل وحكومته النهائية - سواء كنّا مسلمين أو نصارى أو بوذيين أو سائر أتباع الأديان الأخرى - هي أن نضع حدّاً لهذا الانقسام والاختلاف في العالم، ونخلق وحدة عالميّة، أي أن نمهّد الأرض للملكوت

الإلهي، وعلينا أن نتذكر بأن القرآن يذكرنا ويحذّرنا دائماً كخلفاء لله». ويتحدّث هذا المفكر المسلم الفرنسي عن الأمل والانتظار بتفاؤل ويقول: «أعتقد أن هذا الموضوع يعتمد على شتى الرؤى والتفاسير المتّصلة بقيام حكومة العدل في القرآن والإنجيل وعلى يد المنجي الموعود». خلال جولتنا العلميّة في مراكز الفكر المسيحي ومدارسه العليا، كان لنا لقاء في مدينة أمستردام برئيس الجامعة الحرّة في هذه المدينة البروفسور براون، وتحدّثنا معه حول المصلح العالمي. كما كان لنا لقاء في هذه الجامعة أيضاً مع البروفسور ويسيلز أستاذ الدراسات المقارّنة، استمرّ نحو ساعتين. وانبريت في هذا اللقاء لاستعراض بعض المقدّمات العقلية والفلسفية وبعض النصوص الإنجيلية وشروحها مع بيان جملة من النصوص الإسلامية، فعبر ويسيلز عن ارتياحه وقال: «لقد طالعت بدقة كثيراً من الدراسات حول مستقبل البشرية من وجهة نظر الإنجيل وسائر الأديان لاسيّما نصوص الإنجيل والكتب الإسلامية». فقلت له: «إنجيلكم بالذات يشير إلى ظهور مصلح عالمي ويبشّر بظهور الإمام المهدي عليه السلام معبراً عنه بـ (بارا كليتوس)»^(١).

ثم تحدّثتُ عن زيارتي لكثير من المكتبات في بروكسل وعتوري على عدّة أناجيل قديمة يعود بعضها إلى القرن العاشر الميلادي، والبعض الآخر إلى القرن الخامس عشر، بل وإلى القرون الأخيرة، وقد وقفت على صورة لنسخة قديمة جدّاً موجودة في إحدى مكتبات أمستردام، يعود تاريخها إلى القرن الرابع الميلادي، ويوجد أصلها في الفاتيكان. وتبشّر جميع هذه النسخ بظهور

(١) مفردة «بارا كليتوس» لديها مصداقان: الأوّل، الرسول الأكرم محمد ﷺ، والثاني، الإمام المهدي عليه السلام. وورد هذا العنوان في الإنجيل مشفوعاً بذكر غيبته مرّة، ومن دون ذكرها مرّة أخرى. وستحدّث عن هذه المفردة بالتفصيل لاحقاً.

«بارا كليتوس».

وسألني بعد ذلك الاستمرار في دراستي حول المنقذ والمصلح العالمي، ووعده أن أستمّر في هذا الطريق حتّى نهايته بعون الله ومشيتته. من مجموع زياراتي ولقائاتي في أوروبا بكبار رجال الدين والفكر والفلسفة، أدركت أنّ ظهور المصلح العالمي، يُعدّ من وجهة نظر الفلاسفة والمتكلّمين الغربيين ضرورة تاريخية. كما تؤيّد الأصول الفلسفية أنّ الظلم لا بدّ وأن يتقوّض في نهاية المطاف، ولا بدّ لجميع الناس استشعار العدل الإلهي في جميع أرجاء الأرض.

ويؤكّد الكثير من المفكرين على إثارة هذا الموضوع في سائر أرجاء العالم ويعتبرونه مفيداً للمجتمع المعاصر، لاسيّما جيل الشباب، ويصرّون على ضرورة متابعة هذا اللون من الدراسة، ويرون أنّ هذا الأسلوب الفكري دواء لهذا الجيل وعلاج لكثير من أمراضه.

وخلال زيارتي العلميّة للندن، رأيت صورة لتلك النسخة الإنجيلية - التي تعود إلى القرن الرابع الهجري في إحدى مكباتها، فاستطعت الحصول على صورة لها، وكنت قد رأيت صورة أخرى لتلك النسخة خلال زيارتي لأشهر مكتبة بالأناجيل وشروحها في مدينة بروكسل. ثم اطلعت خلال زيارتي اللاحقة لأوروبا على وجود النسخة الأصلية في مكتبة الفاتيكان.

الفئة الثالثة:

تتمثّل في الفلاسفة الذين ليست لديهم معرفة ذات بال بالإسلام، لكنّهم ينظرون إلى تحقّق العدالة وسيادتها في جميع أرجاء العالم، كنظرية فلسفية راقية وقابلة للتحقّق. وأدرك هؤلاء الفلاسفة خلال مباحثاتي معهم امتداد جذور هذه النظرية في أعماق التاريخ، واعترفوا برقيها، وإمكانية تحقّقها فلسفياً وعلمياً.

غفلة المجتمع المسيحي المعاصر عن فكرة المصلح العالمي

بالرغم من وثائقية فكرة المصلح العالمي ورسالتها وتأيدتها دينياً وفلسفياً، غير أنها - وللأسف - أسدل عليها ستار الغفلة والنسيان. وحينما طرحنا هذا الموضوع على المحققين المسيحيين أدركت أن بعضهم لا يوليه الأهمية المطلوبة، بينما تعيش الأغلبية المسيحية الساحقة في غفلة تامة عنه. لكنني اعتقد بضرورة استثمار هذه الثروة الفكرية والثقافية العظيمة على الصعيد الديني والفلسفي العالمي، ووجوب استمرار هذا النمط من المباحثات والمناقشات كي تنهيا الأرضية المناسبة بشكل تدريجي فتحرر القلوب والأفكار اليائسة من حالة الاضطراب والقلق، وتتوصل الأمم وأتباع الأديان جميعاً إلى وجهات نظر مشتركة.

في عالمنا المعاصر، هناك أرضية مناسبة وبناءة يمكن من خلالها الدعوة أو التبليغ لفكرة المصلح العالمي وتوسيع هذه الفكرة، وفسح المجال لجميع الأمم للانتفاع بآثارها المفيدة والخلاقية.

البعض يقول: إن إثارة هذه الفكرة في ظل الأوضاع الراهنة التي يعيشها العالم لا سيما الغرب، لا قيمة لها، بل لا يرى كثير من الناس أي نفع وفائدة فيها.

أتذكر أنه دار الحديث حول أهمية المسائل العقائدية خلال لقاء لي مع مجموعة من أساتذة بعض الجامعات في روما، مثل البروفسور ديدار رئيس جامعة سالزين، والبروفسور ورنكين تين رئيس الجامعة الكاثوليكية في بلجيكا والتابعة للفاثيكان، والأسقف اليسوعي أسانا أستاذ اللاهوت في جامعة لا ترانسه، والبروفسور مونسينو ركين تين أستاذ علم اللغة في جامعة سالزين. وتحدث أحدهم فقال أن نحو ٣٠٪ من سكان العالم لا يعتبرون المواضيع الثقافية والأخلاقية من ضروريات المجتمع البشري، كما أن ٣٠٪ منهم يعارضون تماماً القضايا والأمور المعنوية، بينما يقف الباقيون - أي ٤٠٪ - على حالة الحياد. وكان جميعنا متفقاً على أن هذه المسائل لو طُرحت بأسلوب علمي وأصولي، لخرج الكثيرون من حالة الحياد واللاأبالية، بل ولتقلص عدد المعارضين للمعنويات أيضاً، لأن البشرية تعاني من وضعها الراهن، بينما تنسجم فكرة المدينة الفاضلة والحركة نحو حياة هادئة مطمئنة مع الفطرة الإنسانية السليمة. لذلك فإن نشر المعرفة اللازمة حول هذه المسائل وفي أوسع مستوى ممكن، يُعدّ الأسلوب الأمثل الذي يمكن أن يوجه الأمم نحو مسار واحد، ويحرك الجميع في اتجاه واحد من أجل بلوغ أفق النجاة الساطع، ففتتجه عيون أتباع جميع الأديان نحو رؤية ذلك اليوم الذي يسود فيه الحق والعدالة، ويدوي هتاف الأمل والانتظار في سائر أرجاء الكون، وينطلق الجميع نحو هدف واحد. أتمنى أن يعقد في أسرع وقت المؤتمر الذي اقترحه الفلاسفة والمتكلمون الغربيون وتتم فيه دراسة القضايا المختلف بشأنها وكذلك وجهات النظر المشتركة بين الأديان. وقد رأى بعض الأساتذة أن باريس مكان مناسب لعقد هذا المؤتمر.

التقيتُ في مدينة فلورنسا الإيطالية بالبروفسور غيومه (غيومه)، وهو من

أساتذة اللاهوت في جامعتها، فقال لي: «بدأتُ قبل سنوات بتأليف كتاب في موضوع (آخر الزمان). ثم دعيت خلال ذلك إلى أسبانيا لحضور مؤتمر فيها، فكان موضوع حديثي في ذلك المؤتمر هو (مستقبل البشرية وإمكانية تقويمه). وحينما بدأت بالحديث، اعترض عليّ كثير من الطلبة وقالوا: إن الحديث عن المستقبل لا يحل المشاكل التي يعاني منها الشباب في العصر الراهن، ولا بد من التفكير بمشاكل الشباب وقضاياهم المعاصرة. ويبدو أن الله قد نسي جيل الشباب! ثم أخذتُ اعتراضاتهم تزداد حدّة مما دفعني لقطع حديثي، وشعرت بتوتر أعصابي إلى درجة كبيرة حتى انصرفت عن إتمام ذلك الكتاب».

فأجبت: عليكم أن تفكروا في جذور هذه الكارثة وأساسها، والبحث عن حل لها، لأنّ الشاب الذي يشاهد بأم عينه انهيار القيم الإنسانية ويرى حياته لا تخرج عن إطار المادة والماديات، فلن تستطيع الجامعات أن تزيح أي عبء عن كاهله، وإنما تعمل على زيادة حيرته، وتضع أغلالاً ثقيلة في يديه ورجليه وتزيده -متضافرةً مع العوامل الاجتماعية والمحيطية - بعداً عن الله تعالى ومعرفته، وتخفي عنه الحقائق الدينية والمبادئ الفلسفية.

نعم، يجب عليكم الاهتمام بمصدر المصائب والويلات، ولا بد لكم من السعي لاستئصال جذور هذه الفجائع من خلال السعي الدائب، لأنّ ترك الشباب منغمسين في اللذات والشهوات، وإحجام الجامعات عن معالجة أخطر الأمراض التي تهدد معنوياتهم وإنسانيتهم، من بين العوامل التي تخفي الحقيقة عن أعينهم، وتقصي أوضاع المسائل المعنوية والإنسانية عن أذهانهم. وفي ظل مثل هذه الظروف ليس عجباً حينما لا يميز هؤلاء الشباب بين الصالح والطالح، والمنزه وغير المنزه.

في المجتمع الذي تسيطر فيه مثل هذه الظواهر الهابطة والأعراض القاتلة

على جيل الشباب، بحيث ينتهي بهم الأمر إلى اعتبار جميع هذه المفاصد عُرفاً مقبولاً، بل ولا يرون في أية مفسدة قبحاً، فلا بد أن تكون النتيجة النهائية شبيهة بطريقة التفكير التي نقلتها عن لسان طلبة جامعة فلورنسا. فمن الصعب على الطالب الجامعي الشاب أن يقبل بأن ما ينطق به وما يعتقدونه ناجم عن غفلته، وعدم اكتراث الجامعة والمجتمع بالقيم المعنوية. ومن الضروري الاهتمام بالمشاكل المعنوية التي يعاني منها الشباب في مختلف الأصعدة وبشتى الأساليب.

أعتقد بأن الشباب الذين يتهمون الله - عن جهل - بأنه غافل عنهم وناسيهم، إنما يتهمون - في حقيقة الأمر - أساتذتهم ومعلميهم بعدم إرشادهم إلى الحقائق، وعدم العمل على وقايتهم وصيانتهم من الأمراض الفكرية والاضطرابات العقلية.

الله تعالى، ليس بغافل عن أي مخلوق من مخلوقاته - مهما كان هذا المخلوق - فكيف ولماذا يغفل عن الإنسان ويتجاهله وهو أشرف مخلوقاته في الأرض؟ وهل يمكن أن يقال بأنه قد أسدل ستار النسيان على الإنسان الذي منحه تعالى الأذن والعين والعقل، وسخر له كل شيء، ومهد له السبل كي تستقيم له الأمور ويحافظ على كرامته، ومنحه الحرية التي تليق بإنسانيته؟

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ

غَافِلِينَ﴾ (١).

قد يدع الله تعالى بعض عباده لحالهم، ولا يمنعهم عن الجهل، غير أن ذلك ليس عن تجاهله لهم وغفلته عنهم، وإنما ناشئ عن انحرافهم وضلالهم، فيُعد ذلك نوعاً من العقاب والتأديب لهم عليهم يرجعون عن غيهم، ويعودون إلى

الطريق المستقيم، وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(١).

هناك مثل شائع بين الرومان يقول: «الله لا يساعد سوى السعاة». وهناك مثل مماثل بين الانجليز يقول «ساعد نفسك حتى يساعدك الله». وقال المفكر والسياسي الأمريكي الشهير بنيامين فرانكلين قبل قرن ونصف: «الله يساعد أولئك الذين يساعدون أنفسهم». وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٢).

إنني تحدثت بهذه الكلمات انطلاقاً من مسؤوليتي الشرعية، وتصورت أنها ستكون قاسية على أستاذ اللاهوت في جامعة فلورنسا، لكنه وانطلاقاً من معرفته بجذور وعوامل هذه المشكلة، لم يرَ عدم الاعتراض عليّ كافياً فحسب، وإنما أيد وجهة نظري برحابة صدر، وقال بصراحة: إن من الضروري بذل مزيد من الاهتمام بجيل الشباب وطلبة الجامعات، وجعلهم أكثر معرفة بالقيم المعنوية والأخلاقية.

واستشعرت هذا اللون من المشاركة الفكرية والقلبية لدى لقائي بنخبة من علماء وأساتذة جامعة جنيف في سويسرا، مثل البروفسور ميتري، والبروفسور آكو، والبروفسور كلوديناسه، والاستاذ نورلي. ويمكن القول بأنني أدركت ثلاثة أمور أساسية من خلال لقائي بالعلماء المسيحيين في ظل أجواء مشحونة بالإخلاص والود:

الأول: وجود مؤشرات نفسية واجتماعية تعبّر عن اضطراب الإنسان وقلقه من الإفرازات السلبية لثقافة الغرب وحضارته.

(١) سورة التوبة: ٦٧/٩.

(٢) سورة الرعد: ١١/١٣.

الثاني: وجود آراء فلسفية وعلمية تنفي استمرار الظلم والفساد، وتبشر بيوم لا بد أن تتحقق فيه العدالة بأعمق معانيها في سائر أرجاء الأرض، وترى أن الأرضية لتتحقق هذه البشارة الكبرى متهيئة أيضاً.

الثالث: تحذير جيل الشباب من سراق المعنوية الذين بإمكانهم استغلال تلك الأرضية، وسوء استخدام القدرات والإمكانات المتوفرة، وحرف الأفكار عن مسارها الفطري.

دار الحديث في إحدى الليالي عن كارل ماركس خلال ندوة حضرها نحو مائة من أساتذة الجامعات في الفاتيكان. فقيل أنه كان يعلم بأن اليهود والنصارى ينتظرون ظهور رجل يحقق الأمن والعدل وينهي الظلم والفساد في الأرض، فاستغل هذه الفكرة ليقول بأن نظريته (أي الماركسية)، تحقق للمجتمع هذا الهدف السامي وتنقذ الناس من الظلم والتمييز. غير أن المجتمع البشري أدرك تدريجياً أن الماركسية ليست لا تحقق السعادة للإنسانية فحسب، وإنما تضيف إليها أعباءً ثقيلة أخرى، لأن فكرة الإلحاد تعني الحياة في مواجهة الأسماء الحسنى، أي أنها ضد الرحمة، والرأفة، والحكمة، والنور، والعدل، وعبودية الله، وسائر القيم الانسانية. فاتضح خواء الماركسية في نهاية المطاف، وتقوّضت قواعدها وأركانها. فانفتحت في أعقاب ذلك الأجواء لمزيد من مطالعة وتحليل النظريات الفلسفية التي تبشر بظهور مصلح عالمي من أجل توفير الأرضية اللازمة لإقبال أهل الكتاب على هذه الحقيقة مثلما وردت في بشارات العهدين القديم والجديد.

من الجدير بالذكر أنه في مقابل تقوض أركان الفكر الماركسي الشرقي، نلاحظ اتجاه الرأسمالية الغربية لمزيد من الانزواء والانحسار والسقوط، وهو ما جاء في تفاصيل مباحثات كلا الفكرين.

المهدي الموعود في الإسلام من منظار أهل السنة

يتميز موضوع ظهور المهدي الموعود بالأصالة والعمق بحيث أننا لن نبالغ لو اعتبرناه أحد أصول العقائد الإسلامية، إذ تتفق عليه جميع المذاهب الإسلامية (الجعفرية، والحنفية، والمالكية، والحنبلية، والشافعية)، بل ونجد له أساساً في جميع الأديان السماوية.

وبالرغم من جميع ذلك، فقد أخذت تتلاعب - وللأسف - في هذا الموضوع الأصيل والمحوري وجهات نظر أولئك الذين ليس لديهم أي تخصص في فن الحديث وعلومه، كابن خلدون وبعض المتأخرين المتأثرين به مثل أحمد أمين، وفريد وجدي، وبعض المعاصرين الذين استخدموا أقلامهم في فقه العقيدة المهدوية وأثاروا بعض الشكوك والشبهات التي لا تخفى على أي مطلع وواع، والتي رددنا عليها في الفصل الخاص بالشبهات^(١).

لا بد أن نشير إلى الأمر التالي وهو: إنني كانت تدور في خلدي من القدم فكرة التباحث في موضوع المهدوية مع كبار علماء أهل السنة، وشمرت عن

(١) سترد جميع الشبهات في الجزء الأخير من هذه الموسوعة مع الرد عليها بشكل تفصيلي.

ساعد الجد منذ عام ١٩٩٦م، فيممتُ وجهي بشوق إلى شتى بقاع العالم الإسلامي، والتقيتُ في جدة، ومكة المكرمة، ودمشق، وبيروت، وأبو ظبي، وصنعاء، والقاهرة -مقر الجامع الأزهر- بلفيف من علماء الإسلام والمشايخ الكرام، وأبرز رجال الفكر، كالإمام الطنطاوي، والدكتور أحمد عمر شيخ الجامع الأزهر آنذاك ومفتي الديار المصرية، والدكتور محمد عمارة، والمستشار الدمرداش، والأستاذ سليم العواء، والدكتور حسن الشافعي أستاذ الكلام والفلسفة في جامعة القاهرة، والدكتور محمد الشرقاوي أستاذ كلية دار العلوم بالقاهرة، والدكتور عبد الله البسام عضو هيئة الامناء ورئيس محاكم الاستفتاء في العربية السعودية، والدكتور عبد الله بن صالح العبيد مدير رابطة العالم الإسلامي، والدكتور محمد عبد يماني وزير الإعلام السعودي السابق ومؤلف كتاب (علموا أولادكم محبة أهل البيت) وكتاب (فاطمة الزهراء)، والشيخ محمد حبيب مدير مجمع الفقه الإسلامي ومفتي تونس السابق وأحد أبرز شخصيات منظمة المؤتمر الإسلامي، وغيرهم.

أشرت خلال لقائي بالشيخ عبد الله البسام إلى الشبهات التي يثيرها البعض حول عقيدة المهدوية، فأجاب: «ليس لدى هؤلاء أي تخصص في علم الحديث، وليس من اللائق أن يتحدث المرء في موضوع ليس من اختصاصه. فجميع الخبراء في علم الحديث يعتبرون المهدوية أصلاً من أصول العقائد الإسلامية. أضف إلى ذلك أن عدداً كبيراً من أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله نقلوا أحاديث عديدة في إثبات هذا الأصل».

ما يبعث على الأسف أن يكون مؤرخ وعالم اجتماعي كبير مثل ابن خلدون، رائداً لفئة تحاول من خلال أحابيلهم الإساءة إلى هذه العقيدة المباركة

التي غرس شجرتها العملاقة رسول الإسلام ﷺ في أرض الوحي، وسقاها أهل بيته الطاهرون وثلة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وتعهدها بالرعاية على مدى مئات السنين عدد لا يحصى من علماء الإسلام، والمحدثين، والمفسرين.

رغم أن جميع هذه الأدلة الواضحة كافية لرفض فكرة ابن خلدون، غير أن البعض مال إلى هذه الفكرة التي لا تقوم على أساس، وحاول التشبث بأدلته الواهية، وأضاف إليها أدلة أوهى، وهي الأدلة التي تمسك بها بعد بعض المستشرقين مثل فان فلوتن، وغولد زيهر، بينما أصبحت آراؤهم الرافضة للمصلح العالمي موضوع استهزاء وسخرية كبار فلاسفة الغرب ومتكلميه.

لا بد لعلماء الإسلام من عقد مؤتمر لتوحيد وجهات النظر السنية والشيعية في هوية الإمام المهدي. ولا ريب في أن تحقق هذا الأمر سيُعدّ نجاحاً باهراً للعالم الإسلامي، وتنعكس عنه آثار إيجابية ونافعة على هذا العالم في شتى المجالات والحقول السياسية، والثقافية، والاقتصادية.

جمع الأحاديث من طرق أهل السنة وتقييمها:

نشكر الله تعالى أن وفقنا لجمع جميع الأحاديث الموجودة في كتب أهل السنة الخاصة بموضوع المهدي والى الإمام المهدي (عج)، سواء كانت متواترة، أو صحيحة، أو حسنة، أو ضعيفة (بنوعها المقبول والمرفوض).

وبالرغم من أن إيمان خبراء الحديث من أهل السنة وعلمائهم المحققين بصحة كثير من هذه الأحاديث، وتصريحهم بتواترها، وتأليفهم الكتب الكثيرة في هذا الموضوع، حتى إن بعضهم اعتبر قيام الإمام المهدي ﷺ من أصول العقائد الإسلامية التي ليست بحاجة إلى بحث واستدلال، غير أن أولئك الذين يجهلون

دلالة بعض الآيات القرآنية على الإمام المهدي - كما هو وارد في كتب الشيعة والسنة عن طريق الأثر الصحيح - وليست لديهم خبرة في علم الحديث، ولا نصيب لهم من علوم ومعارف أهل البيت عليهم السلام، نراهم يبدون وجهات نظر ساذجة في أحاديث الإمام المهدي ويخدعون البعض بها مثل ابن خلدون والسائرين في طريقه كأحمد أمين، ورشيد رضا صاحب تفسير المنار. لذلك وجدنا أنفسنا ملزمين بالبحث عن أسانيد تلك الأحاديث وتقويمها وذلك من أجل إثبات الحقيقة. فاستطعنا بفضل الله تعالى العثور على عدد كبير من الأحاديث الصحيحة التي تتحدث عن هوية الإمام المهدي عليه السلام بإسمه، ونسبه الشريف.

تلك الأحاديث عظيمة جداً من حيث الكمية والنوعية، حتى أنني حينما تحدثت عنها مع علماء الإسلام - سنةً وشيعةً - في الحجاز، وسوريا، ولبنان، ومصر، واليمن، وإيران، انشرح صدرهم لذلك وأعربوا عن رغبتهم في الإسراع في تأليف هذا الكتاب ونشره.

الإفرازات الإيجابية أو السلبية للانتظار:

رغم تأكيد معظم علماء أهل السنة على الانتظار وإيجابياته، يرى بعضهم أن انتظار الإمام المهدي الموعود يفرز آثاراً سلبية على الفكر الإسلامي، فيما يؤكد معظم علماء الفريقين على الإفرازات والآثار الإيجابية والمفيدة لهذا الانتظار على الإسلام وكذلك على المسلمين.

كانت لديّ حوارات ببناء مع ثلة من كبار علماء وكتاب أهل السنة في شتى البلدان الإسلامية، وفي ظل أجواء بعيدة عن التعصب، ومشحونة بطلب الخير للإسلام والمسلمين. وصرّح جميع هؤلاء الإخوة الكرام بأصالة موضوع المهذوية، وأكدوا عليه، مستشهدين بالعديد من الأحاديث الصحيحة المعتبرة.

غير أن نقرأ يسيراً كان لا يحبذ طرح هذا الموضوع وإثارته في أوساط العالم الإسلامي، معتقداً أن هناك ثلاثة إفرازات سلبية لمثل هذا الطرح:

الأول: إن تأليف مثل هذه الآثار سينتهي إلى ضرر المسلمين، لأن تناول موضوع الانتظار، سيقود المجتمع إلى الكسل والخمول، ويضعف الشعور بالمسؤولية، ويزعزع الالتزام بالتكاليف، ويترك آثاراً سلبية على مسار الحركات والتيارات التي تجاهد من أجل ترسيخ دعائم الحق والعدل.

الثاني: سيؤدي طرح مثل هذا الموضوع إلى ظهور من يدعون أنهم الإمام المهدي الموعود، كما حدث ذلك في مصر والحجاز خلال السنوات الأخيرة، بل وشهد التاريخ الإسلامي ظهور الكثيرين من أدعياء المهديّة. لذلك قد تؤدي إعادة طرح هذا الموضوع إلى ظهور ادعاءات ومزاعم مهديّة جديدة من قبل الانتهازيين وأصحاب المطامع والأهواء مما يعقد ساحة الثقافة الإسلامية، ويقحم المسلمين في معمة هم في غنى عنها ولا تعود عليهم إلا بالضرر والخسران. ولهذا من الأولى والأرجح تجنب إثارة مثل هذا الموضوع.

وكان ردي على الفضلاء الذين طرحوا هذه الإشكالية كالتالي: إننا لو نظرنا إلى موضوع المهدي عليه السلام من خلال هذه الزاوية فقط، وتركنا الزوايا الأخرى، فحينذاك سيكون قلقكم مبرراً وموضوعياً، لأن هذا اللون من الرؤية، يطبع الموضوع بطابع سلبي تماماً، ويحجب الإيجابيات والفوائد الكثيرة التي يجنيها المسلمون من (الانتظار). فقد يتصور البعض أن الانتظار معناه التقاعس والكسل والالتكال على الأحلام والأمانى، بينما المراد به النشاط والعمل والحركة، وتوفير المقدمات اللازمة، والاستعداد لاستقبال الإمام الموعود. ومن الواضح أنني حينما أنتظر شخصاً عزيزاً عليّ، فلا بد من الاستعداد لاستقباله في أحسن

هيئة وأفضل وجه، فكيف لو كان هذا الذي أنتظره شخصاً بشر به جميع الأنبياء والأولياء.

إنّ مسؤوليتنا في انتظار ظهور أسمى وأعظم موعود إلهي ادخره الله للتغيير وإحقاق الحق وإبطال الباطل، مسؤولية كبرى وثقيلة. ويكفي في شأنه أن يصلي خلفه النبي عيسى عليه السلام كما هو وارد في صحيح البخاري ومسلم. وعلى أساس هذا الاعتقاد، من هم أولى من المسلمين بالاستعداد والتأهب لنصرة هذا الامام والمساهمة معه في عملية التغيير؟

إذن ألا يصب نشر المعرفة الإسلامية الصحيحة وبشكل واسع، في عملية الإعداد والتمهيد لإقامة الدولة الإلهية الكبرى بزعامة الإمام المهدي أرواحنا فداه ووزارة روح الله عيسى بن مريم عليها السلام، في سائر أرجاء المعمورة؟ نحن نعلم أنّ إنشاء مستوصف صغير لمعالجة المرضى، بحاجة إلى داعمين، ومُعِينين وإعلام محلي واسع، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بقيام دولة محمدية كبرى بإمامة الإمام المهدي وبشعار أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، على الأرض كافة!

لو اطّلع جميع الناس - لاسيما المسلمين - على هذه المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتق العلماء والمفكرين في العالم الإسلامي، فلن يبقى أي مجال للانتظار السلبي في العالم الإسلامي، ولن يسمح أي أحد لنفسه بالتقاعس عن أداء الواجبات والتكاليف، ولا اتخذت جميع الحركات والنهضات الإسلامية أسلوباً جديداً في كفاحتها ومشاريعها، وسيكون لمنتظري الإمام نفس الحال التي لمنتظري لقاء الحبيب والعزیز.

واعترف الأخوة علماء ومفكرو أهل السنة بعد هذه الإيضاحات،

بالإفرازات والآثار الإيجابية القيمة للانتظار، وأقروا بأن أية دراسة في هذا المضمار، ستعود بالنفع والفائدة على المسلمين.

الثالث: كان هناك قلق من أن ينتهي هذا البحث أو الدراسة - عن قصد أو غير قصد - إلى بحث الإمامة والخلافة، مما سيثير الاختلافات التي شهدتها صدر الإسلام، ويزعزع وحدة كلمة المسلمين التي بات الجميع يعترف بضرورتها ويستشعر أهميتها.

وأخبرت هؤلاء السادة بأن أسلوبني في تأليف هذا الكتاب وتناول هذا الموضوع، سيتجنب هتك أية حرمة أو توجيه أية إهانة، ويبتعد عن النزاع والصراع، لأنني مؤمن تماماً وملتزم بوحدة الكلمة والتقريب بين المذاهب الإسلامية وتوحيد رؤاها وتوجهاتها. ولذلك فإنني أضع نصب عيني أموراً ثلاثة:

١- التحدث قدر الإمكان عن المهدوية، مستقلةً ومنفصلةً عن الخلافة في صدر الإسلام، والإشارة إلى الماضي بلغة التحقيق.

٢- حينما أجد نفسي مندفعاً للحديث عن خلافة رسول الله ﷺ، أكتفي بالجانب النظري والعلمي بهذا الخصوص بعيداً عن التنازع وإثارة الحساسيات.

٣- تشجيع علماء الإسلام على السعي والعمل للتقريب بشكل أكبر بين المذاهب الإسلامية.

وبهذه الايضاحات، ارتفع قلق هذه الفئة من العلماء أيضاً. فالعالم الإسلامي بحاجة في العصر الراهن إلى البحث والتحاور بشأن المهدوية والانتظار، أكثر من أي وقت آخر، إذ إن التبيين الصحيح لقيام الإمام المهدي الموعود أرواحنا فداء، يلعب دوراً أساسياً في حياة الإنسان. كما أن تسليط الضوء على مفهوم الانتظار سيرفع الإشكال الناشئ بسبب ادعاء المهدوية، ويبطل مزاعمهم الباطلة،

والأهم من ذلك أنه يوحد أمة الإسلام حول محور واحد فاعل وحيّ وأصيل. أي أنه يجعل جميع أبناء الأمة الإسلامية تدور حول حقيقة اجتماعية واحدة، لأنّ الإمام المهدي يتميز بعلائم وأمارات شخصية واجتماعية دقيقة يتفق عليها المسلمون. أضف إلى ذلك أنّ مقدمات وعلامات طبيعية وما وراء طبيعية، تسبق ظهور الإمام وتتزامن معه وقد أشارت إليها الأحاديث الصحيحة المعتبرة.

لا يخفى أنّ هذه الإشكالات مثارة من قبل نزر يسير من الكتاب في الحقل الاجتماعي وبعض العلماء المحترفين للسياسة، بينما يذهب معظم أبرز العلماء والمختصين في علوم الحديث بمكة، ومصر، ولبنان، إلى الاعتقاد منذ البداية بفائدة البحث في هذا الموضوع وضرورة تناوله، لما يتمتع به من أهمية وقيمة. فضلاً عن ذلك كله فإنّ أي حوار بين علماء الإسلام - سنة وشيعة - حول هوية الإمام المهدي، لا بد وأن يعمل على إيجاد وحدة الكلمة بين المسلمين ويقرب بعضهم إلى البعض الآخر.

عوامل الوحدة:

لا زلت أتذكر أنني قلت لمجموعة من كبار الأساتذة والكتاب المصريين أنّ الحديث عن المهديوية، حديث مبارك للأسباب التالية:

أولاً: وجود جذور وقواعد المهديوية في القرآن الكريم. فهناك العديد من الآيات القرآنية التي تشير إلى هذا الموضوع، مما يجعل موضوع المنجي والمصلح وتحقيق الأمن والعدالة في العالم، ذا أساس قرآني.

ثانياً: هناك أحاديث كثيرة مروية من طرق أهل السنة، بينها أحاديث متواترة من وجهة نظرهم ومعتبرة من حيث الأسانيد، نقلها كبار محدثيهم، تنص على أنّ الإمام المهدي أرواحنا فداءه، من نسل فاطمة عليها السلام.

ثالثاً: يتفق بعض علماء أهل السنة في الحقيقة التالية، وهي أن الإمام المهدي عليه السلام، ابن الحسن العسكري عليه السلام. وقد أوردنا في فصل خاص أسماء وأقوال هؤلاء العلماء وكذلك عناوين الكتب المؤلفة في هذا الموضوع سواء كانت مخطوطة أو مطبوعة. ولا شك في أن ذلك يدل على أن الشيعة لا ينفردون في تحديد هوية ونسب الإمام المهدي عليه السلام، وإنما يشاركونهم أيضاً مجموعة من علماء ومحدثي أهل السنة.

رابعاً: إن الاعتقاد بغيبة الإمام المهدي عليه السلام أمر لا يقتصر على الشيعة فقط، فهناك مجموعة من علماء أهل السنة تعتقد بغيبته أيضاً استناداً إلى أحاديث مروية من طرق الشيعة.

خامساً: يعتقد علماء ومؤلفو أهل السنة بانفصال موضوع الخلافة والحكومة عن المقام العلمي والفقهي، ويؤيدون المرجعية العلمية لأهل البيت عليهم السلام، ويرون أن أهل البيت أعرف الناس بحقائق الإسلام، وقد طهرهم الله تعالى من جميع الأرجاس والأخطاء والانزلاقات حينما قال في آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(١). أضف إلى ذلك أن حديث الثقلين الشريف قد جعلهم عدل القرآن الكريم.

كما يؤمنون بحديث (السفينة) القائل «مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق»^(٢)، وكذلك بحديث «أنا مدينة العلم وعلي بابها»^(٣)، وأوردوا

(١) سورة الأحزاب: ٣٣/٣٣.

(٢) سيأتي - إن شاء الله تعالى - بيان تواتر حديث السفينة في الجزء الخاص بحديث الثقلين في هذه الموسوعة.

(٣) استوعب غير واحد من علماء الفريقين طرق هذا الحديث بدراسة موسوعة كالسيد

هذين الحديثين في مؤلفاتهم واعتبروهما من الأحاديث الصحيحة. ولا شك في أن اعتقاداتهم هذه تجعلهم ملزمين بقبول تصريحات أئمة الهدى صلوات الله عليهم القائلة: الامام المهدي هو ابن الامام الحسن العسكري عليه السلام.

على ضوء هذه العوامل الخمسة، بوسع الأمة الإسلامية جمعاء التوصل - مع احتفاظها بمذاهبها - إلى رأي واحد في موضوع هوية الإمام المهدي عليه السلام. وهل هناك ما هو أفضل وأنفع وأكثر حيوية وجاذبية من موضوع المنجي والمصلح المهدي الموعود أرواحنا فداه؟!!

أقول عن إيمان راسخ: لو اتخذ العالم الإسلامي هذه الفكرة محوراً ومركزاً لثقافة الإسلام وحضارته، لأغلق الطريق بوجه أعداء الإسلام وحال دون نفوذهم إلى ساحته. وإذا لم يكن واضحاً لدى البعض بالأمس، فقد أصبح واضحاً للجميع في هذا اليوم أن الاستكبار الصهيوني يسعى لتمزيق صفوف المسلمين والنيل من وحدة كلمتهم لتحقيق مآربه.

من خلال إيماني القاطع بضرورة الوحدة الإسلامية والإيمانية، فقد انتهجت في مباحثاتي وحواراتي مع علماء المسلمين ومفكريهم أسلوباً ودياً غير متعصب من أجل التقريب بين أفكار المسلمين وأهدافهم، وهذا ما تؤكد عليه جميع صفحات هذا الكتاب. وأنا على ثقة: لو حلّ ذلك اليوم الذي يتحرك فيه جميع العلماء والمفكرين والكتاب والخطباء في هذا الاتجاه، لأصبح ذلك اليوم يوم موت وهلاك الاستكبار والإلحاد في هذا العالم سياسياً واقتصادياً. ويؤكد القرآن الكريم قبلنا وأكثر منا على ضرورة تحقيق الوحدة بين المسلمين،

→ النقوي في العبقات، والشيخ الأميني في الغدير، والعلامة المغربي أبو الفيض الغماري في فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي، وغيرهم.

ويحذّرهم من الفرقة والاختلاف، ويدعوهم إلى طاعة الله ورسوله ﷺ، ويحثهم على الصبر ومداراة الآخرين، ويضيء قلوبهم وعقولهم وأفكارهم ببناء: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١).

ويريد الله بالصبر، أن يداري المسلمون بعضهم بعضاً، ولا شك في أن التحاور في أجواء تسودها المحبة والثقة المتبادلة، يُعدّ من أفضل خصال المؤمنين وطبايعهم. كما يُعدّ الاستناد إلى الأحاديث الشريفة المروية بالطرق الصحيحة عن أهل البيت ﷺ - نظراً لما يتميزون به من مرجعية علمية - طاعة لله ورسوله. ولا شك أيضاً في أن استتباب الوحدة الإسلامية يستلزم تجنب سوء ظن البعض بالبعض الآخر، وفتح باب النقاش والحوار حول موضوع الإمام المهدي ﷺ مع احترام كل جانب للجانب الآخر، كي يكون بوسع أي مسلم إدراك الحقائق المهمة في هذه المرحلة الحساسة من تاريخ الإسلام. ولربما يساعد هذا الأمر على تسريع الفرج الإلهي، فنصبح جميعاً - كأمة إسلامية - شركاء ومتوحدين في هذه العقيدة المهمة.

وأشار خلال ذلك اللقاء أحد الكتاب إلى الاتصال الذي كان قائماً بين آية الله العظمى البروجردي وشيخ الأزهر عبد المجيد سليم شلتوت، وتحدث عن دراية ووعي هاتين الشخصيتين الإسلاميتين. فقلت له: إن سيرة هذين الرجلين حجة على بعض علماء المذاهب الشيعي والسني. فعليهم أن يتعلموا سيرتهما ويتخذوهما قدوة في أقوالهم وأفعالهم ولقاءاتهم. ولا شك في أن هذه الوحدة،

(١) سورة الأنفال: ٤٦/٨.

جزء من واجباتنا في هذا اليوم الذي يستهدف فيه أعداء الإسلام العالم الإسلامي. ولا ريب في أنّ مهديّ علي وفاطمة أرواحنا فداء، محور وحدة قطب عالم الإمكان.

والأدهى من كل هذا، أنّ تتعرض الحقائق العلمية والعقائدية للتغيير والتزييف في غمار التاريخ وزوبعة القضايا السياسية، ومن بينها المرجعية العلمية لأهل البيت عليهم السلام. وبلغ التطرف حداً بحيث ابتدع ابن تيمية آراءً من عنده ثم نسبها إلى السلف الصالح، وحذا حذوه محمد بن عبد الوهاب أيضاً واستمر في طريقه الخاطيء. ومع أنّ السلف الصالح كان يتمثل بالرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيت العصمة صلوات الله عليهم، ورغم أنّ طريقهم كان واضحاً وبيّناً، ومع أنّ الإمام علياً عليه السلام كان يرى نفسه الشريفة أنّه المنصوص عليه بالخلافة، وطالما طرح هذه الحقيقة واستدل عليها، إلاّ أنه كان يشاور الشيخين في القضايا الإسلامية المهمة، وكان شغله الشاغل الحفاظ على الإسلام وحمايته. أما في هذا اليوم فإنّ جميع المسائل المبتدعة ضد الشيعة، تنطبع بطابع عقائد السلف الصالح أو ما يُعرف بالسلفية، كي يبرر أصحابها من خلالها أفكارهم التي لا تقوم على أساس.

لماذا وكيف تُهاجم ولاية إمام العصر أرواحنا فداه؟

ليس بالأمر الجديد مهاجمة ذروة الولاية الرفيعة ورايتها الخفاقة، فإن لهذه المهاجمة خلفية بعيدة وجذور قديمة، ففي عصر المعتمد العباسي حوصرت دار الإمام الحسن العسكري عليه السلام وقام جلاوزته بتفتيشها بحثاً عن ابنه الإمام المهدي عليه السلام. واستمرت الضغوط السياسية الموجهة نحو الشيعة في عصر الغيبة الصغرى. وخفت حدة تلك الضغوط بعد بدء عصر الغيبة الكبرى، لكنها لم تنته، حتى إن التاريخ يشير إلى هرب الشيخ الطوسي (ت/ ٤٦٠ هـ) من مدينة بغداد إلى النجف الأشرف بسبب تلك الضغوط السياسية.

أخذ الهجوم على مقام الولاية المقدسة أشكالاً شتى باختلاف المراحل التاريخية، وكان يزداد حدة وعنفاً في بعض الأحيان. ونلاحظ في عصرنا الراهن هجمة سياسية منظمة ومنتزادة على هذا المقام القدسي تقودها قوى الاستكبار والاستعمار والصهيونية العالمية الجائرة، وتهدف إلى إجهاض صحوة العالم الإسلامي بل وكافة مستضعفي العالم، تلك الصحوة التي بدأت في إيران على يد الإمام الخميني رحمته الله، واستطاعت أن تستأصل جذورهم وتقوض قواعدهم في هذا البلد.

لقد أدرك الأعداء أنّ مقام الولاية، قاعدة راسخة وقوية تستند إليها الحركة الإسلامية المباركة وتستمد منها قوتها. والأعداء قلقون جداً من سعة نفوذ وامتداد ولاية الفقيه، لأنّ ولاية الفقيه، جزء من حقيقة الولاية، وتفسر انتظار

الفرج بشكل عملي، وترفض الظلم، وترى أنّ من واجبها حماية المظلوم، فتنفخ الشعور بالعزة وروح المقاومة في قلوب المسلمين، وتجسّد المبادئ والمعارف الإسلامية في ميدان الحياة. بتعبير آخر: إنّ شجرة الولاية الطيبة شجرة عملاقة خضراء وارفة الظلال، مزدانة بأغصان الجمال والجلال، فتحمل أغصان جمالها أزهار الأخاء والتعاطف والتوادر ما بين المسلمين وحماية المظلومين والمستضعفين، فيما تحمل أغصان جلالها أشواك مجابهة الظلم والاستكبار وأعداء الإسلام. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(١). فقوّتا الجذب والدفع، من آثار الولاية المحمدية وباطن النبوة. فالإسلام دين الثقافة والحضارة، تلك الثقافة المتألّقة الغنية التي تقدم في شتى الصعد الفردية والاجتماعية القوانين والقواعد البناءة المنسجمة مع التطورات العلمية والتغيرات الاجتماعية، والتي تتميز بالقوة الرائدة في جميع ميادين الحضارة الإنسانية.

القوى العالمية الكبرى تدرك جيداً أنّ الإسلام قدّم إلى الأمم والشعوب حضارة كبرى، وحطم تيجان وعروش القياصرة والأكاسرة، ولديه القابلية العجيبة حينما يصطدم بالحضارات الأخرى، أن يعيد صياغة أفكار الأمم وآرائها بسرعة ودقة لا نظير لهما.

لقد أدرك فلاسفة ومنظروا المذاهب الفكرية العالمية في العصر الراهن وبدرجات متباينة الحقيقة التالية، وهي أنّ الديانة المسيحية لا تتميز سوى بصبغة معنوية وروحانية، أما الإسلام فإنه دين صناعة الإنسان، والمبدأ الذي يقوده نحو أفضل أسلوب حياتي. وقد سمعتُ هذه الحقيقة مراراً من لسان كبار

فلاسفة ومتكلمي الغرب خلال لقاءاتي بهم ومحاوراتي معهم .
 في المقابل ، أدرك زعماء الاستكبار العالمي أيضاً أن التفاهم والتقارب فيما
 بين المسلمين ، معناه انهيار أهدافهم الاستكبارية وتقويض صرح أطماعهم
 ومخططاتهم في العالم الإسلامي . لذلك نراهم يستخدمون جميع الأحيال
 والحيل من أجل الحيلولة دون أية عملية تقود إلى التقارب فيما بين أبناء العالم
 الإسلامي . وأدرك أئمة الظلم والقوة أيضاً أن هناك تلاحماً قوياً وعميقاً بين
 المسلمين وعلماء الدين ، ولذلك يعتبرون هذا التلاحم العقبة الكأداء التي
 تعترض طريق تحقيق أطماعهم ومخططاتهم الرهيبة على ساحة الواقع .

هناك قصة شيقة وذات عبرة: نقل الشيخ الفلسفي - الخطيب المعروف -
 رحمة الله عليه ، أن رضا خان^(١) كان على صلة ودية بـ (شريعة سنغليجي)^(٢) وقد
 سأله يوماً: ما هو موضوع إمام الزمان الذي أشار إليه الميرزا الشيرازي في فتواه
 التي حرّم فيها التدخين واعتبره بمثابة حرب له - أي لإمام الزمان - فاستطاع من
 خلال هذه الفتوى أن يوجه ضربة قاصمة للنفوذ البريطاني في إيران؟ وما هي
 حقيقة هذا الإمام الذي يضع له الناس سهماً في أموالهم التي يخمسونها ،

(١) رضا خان البهلوي، كان امبراطوراً إيرانياً ظالماً وعدواً للحق وأصحاب الحق، وقد حكم
 إيران حكماً استبدادياً ودكتاتورياً مرعياً منذ عام ١٩٢٥ وحتى عام ١٩٤١. وكان يكن الحقده
 للإسلام، ومنع المراسم الدينية ومجالس تأبين أئمة أهل البيت (ع) ووجه ضغوطاً شديدة
 للحوزات العلمية وكان ينوي إغلاقها تماماً. كما منع ارتداء زي رجال الدين، وخلع
 الحجاب الإسلامي عن النساء، وروج للفساد الأخلاقي والتحلل بشكل واسع، وقام بالأمر
 بالمنكر والنهي عن المعروف مقتدياً في كل ما قام به بالأساليب التي اتبعها أتاتورك في
 تركيا.

(٢) شريعت سنغليجي، كان أحد المتظاهرين بزّي رجال الدين، ومرتبطاً بالبلاط الملكي، وقد
 استخدم زي رجال الدين لخداع الشعب والتستر على نواياه الخبيثة. وكان ذا أفكار وعقائد
 شديدة الانحراف، ولذلك كان مقرباً من الملك الإيراني رضا خان.

ويدفعون هذا السهم لعلماء الدين لإدارة الحوزات العلمية والدينية وما شابه؟ ثم يجب عليكم أن تفكروا في هذا الموضوع بجد وتعملوا على زعزعة أساس هذا الاعتقاد!، فأجابه شريعت قائلاً: إن موضوع إمام الزمان واعتقاد الناس به، ليس بالمسألة السهلة التي يمكن التصدي لها وزعزعتها في قلوب الناس. ثم اتفق الاثنان على جس نبض الناس والشارع الإيراني، قبل القيام بأية خطوة في هذا الاتجاه. وقرر شريعت أن يبدأ من موضوع معراج النبي الأكرم ﷺ. فأكثر المسلمين يعتقدون أن معراجه ﷺ إلى السماء كان جسمانياً، بينما هناك فئة من أهل السنة تعتقد أنه روحياً، لذلك حاول شريعت أن يتبنى وجهة نظر هذه الفئة القليلة ليرى مدى ردة فعل الشارع على هذا الموضوع الذي هو أقل خطورة وأهمية بكثير من موضوع المهدي الموعود ﷺ. لكن ردة الفعل كانت عنيفة وقوية جداً، حتى إن البعض لجأ إلى الاستهزاء به والسخرية منه وإهانته، فأصبح في موضع حرج جداً. ولذلك قال لرضا خان: لقد رأيت أنه ليس من السهل التعرض لعقائد الناس! ويدرك القارئ الكريم من هذا الحدث البسيط كيف أن اسم الإمام المهدي ﷺ يدخل الذعر إلى قلوب زعماء الكفر والاستبداد من جانب، ويلعب دوراً كبيراً وأساسياً في بلورة شخصية الأمة الإسلامية وتهذيب روحها من جانب آخر. ولذلك تستطيع هذه الأمة بزعامة النائب العام للإمام، التصدي بحزم لمؤامرات ودسائس الاستكبار العالمي، وتستعيد في ظل هذه الزعامة حقوق المسلمين والكرامة الإنسانية.

لا ريب في أن انتظار إمام العصر ﷺ والالتحام معه، يضمن إنسانية الإنسان ويحافظ عليها، ويرسم لهذا الإنسان المسار الصحيح الواضح الذي عليه أن يسير فيه. كما تلعب مناجاة الإمام والدعاء له بالحفظ والفرج دوراً كبيراً في بناء الإنسان المسلم ونفخ الإيمان في روح جيل الشباب، وجعله مقاوماً للغزو

الثقافي الذي يشنه الأعداء الحاقدون. ومن الواضح أنّ هذا الأمر يستلزم توافر معرفة كافية بفلسفة الانتظار.

المجتمع الذي يربّي على ضرورة الانتظار، لا بدّ وأن تهيمن عليه روح الإيمان بالله والتوكل عليه والسعي قولاً وعملاً لاستحصال رضاه، الأمر الذي يدفعه في نهاية المطاف إلى عدم الاستسلام للقوى الاستعمارية. وعليه يُعدّ انتظار الفرج عاملاً أساسياً في حركة ونهضة ونشاط المجتمع الإسلامي، وهو العامل الذي يُعدّ ذلك المجتمع لاحتضان الحكومة الإلهية.

لو تيقظ هذا الشعور وهذا الفكر وهذه الروح لدى مليار مسلم، ولو تحققت الهدفية لدى هذا المجتمع الغفير من المسلمين، لتحولوا حين ذاك إلى قوة تقصم ظهر القوى الاستكبارية. وما تحقق في إيران لم يكن سوى نموذج صغير، لكنه يكشف عن هذه الحقيقة بشكل واضح، ولذلك أثار هذا النموذج غضب الاستكبار العالمي وسخطه على إيران والشعب الإيراني وبهذا الشكل الذي ليس له مثيل.

انطلاقاً من هذا كله، هبّ أعداء الإسلام في عصرنا الراهن لمواجهة الجمهورية الإسلامية الإيرانية ومهاجمتها بعنف. وحينما لم تحقق لهم لغة القوة أهدافهم، أخذوا يهاجمون النظام الإسلامي بشتى الحيل والأحاييل، مطلقين على ذلك كله اسم الدفاع عن حقوق الإنسان ومحاربة الإرهاب. كما باتوا يبرقعون جرائمهم وجرائمهم في فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان ببرقع الديمقراطية والأمن. وفضلاً عن ذلك جنّدوا الأقلام المأجورة وزجّوا بها في معركة الباطل ضد الحق لتسميع فكرة انتظار الإمام المهدي عليه السلام، فأخذوا يهاجمون هذا الصرح الشامخ بشتى ألوان الكذب، والافتراء، والاتهام، كل ذلك من أجل زعزعة الاعتقاد بالمنقذ من آل الرسول صلى الله عليه وآله، وإضفاء طابع الأسطورة

عليه .

وضمن هذا السياق ، أخذوا يعيدون إثارة بعض الشبهات القديمة التي سبق أن ردّ عليها علماء الإمامية وأثبتوا بطلانها بالأدلة القاطعة. وقد أدرجنا هذه الشبهات في هذا الكتاب وقدّمنا الأدلة الواضحة القاطعة على هشاشتها وبطلانها ، ونقول كما قال القرآن الكريم: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾^(١). فالقرآن ينهانا عن مناقشة مثل هؤلاء ، وليست هناك فائدة ترجى من الإجابة العلمية والمنطقية على أناس لا يفهمون المنطق ولا يقيمون أي وزن للعلم .

في تاريخنا المعاصر ، كان غوبلز وزير أعلام حكومة هتلر يقول: «كذبوا، وكذبوا أكاذيب كبيرة، ولو كررت هذه الأكاذيب وأقحمتموها في الآذان والقلوب ، سيصدقها الجميع في نهاية الأمر». ولا شك في أن الذين ينكرون حقيقة الإمام المهدي عليه السلام ويقولون أنّها من صنع الشيعة ، إنّما يسировن على خطى هذا الوزير الهتلري .

الدوافع التي تدفع هذا النمط من الأفراد لتكذيب حقيقة الإمام المهدي وإطلاق الشبهات والأباطيل حولها ، لا بدّ أن تكون منبعثة من عقد نفسية وإخفاقات وحالات فشل في الحياة. ولذلك ينطلقون لمجابهة كلّ حقّ وحقيقة ، ويكذبون على كبار العلماء والمحدثين بشكل صريح أو يحرفون أقوالهم وكلماتهم ، ولو قدّر لهم العثور على شيء يتماشى مع أهوائهم فإنّهم يعملون على تكبيره وتضخيمه ، بينما تعمي أعينهم عن رؤية كل ما لا يتماشى مع أهوائهم وما ينتهي إلى ضررهم. ويستخدمون الأحابيل العجيبة والحيل الغريبة في إثارة الشبهات والشكوك والتي أبطلناها جميعاً بالأدلة القاطعة الواضحة .

(١) سورة الحجر: ٣/١٥.

يرتكز هذا النمط من المحاضرين والكتاب على مقولة «الغاية تبرر الوسيلة». ولذلك حاولوا استخدام كل ما يمكن أن يعمل على زعزعة الاعتقاد بالإمام المهدي، إن من خلال إلقاء الشبهات أو من خلال الافتراءات والتهم. وهي شبهات وافتراءات وتهم لا تستحق الرد في مجملها، وثبت بطلانها على مدى الحقبة الماضية من خلال الردود القاطعة والصريحة لكبار علماء الإسلام. أي أنها مزاعم لا تستند إلى أي دليل علمي ونقلي وتقتصر على الصاق التهم بالمحدثين والمؤرخين والمفسرين وعلماء الرجال والدراية، ولا يخفى بطلانها على أي أحد يرجع إلى كتب التاريخ ومجاميع الحديث. ويمكن حتى لأبسط طلبة العلوم الدينية فهم زيف تلك المزاعم من خلال الرجوع إلى المصادر التي تم الاستناد إليها لأنها - وبحسب التتبع - استخدمت:

١- نقل خلاف ما هو موجود في كتب الرجال والدراية .

٢- تجاهل الأحاديث الصحيحة الواردة حول هوية الإمام المهدي عليه السلام وغيبته والاكتفاء بذكر الأحاديث الضعيفة فقط .

٣- نقل أحاديث ضعيفة وغير معتبرة من بعض الكتب التاريخية والاستناد إليها كروايات معتبرة، ثم التوصل إلى استنتاج مغرض على أساسها .
لو تم استعراض الحالات التي كتم فيها هؤلاء المغرضون الحقائق أو حرّفوها، لأدرك القارئ الكريم الحقائق العلمية من جهة، وكذلك البواعث السياسية التي تكمن خلف هذه الكتابات والكتب، ولعلم كيف يسعى الاستكبار العالمي لتلويث الأجواء الثقافية والدينية للمجتمع الإسلامي، ولتبين له أيضاً أنّ جميع هذه الكتابات تفتقد إلى الصدق والموضوعية، وأنّ كتابها قد كتبها بدافع الأهواء والحقد، من أجل تشويش الأذهان وطمس الحقائق، ولا يستندون في كل ما كتبوه إلى المعايير والضوابط العلمية والتحقيقية .

نشير - كمثل علي ذلك - إلى أحد تلك المزاعم المغرضة وغير المنطقية الذي يزعم ضعف وعدم اعتبار جميع الأحاديث التي تصرح بإمامة الأئمة الاثني عشر عموماً وإمامة ومهدوية وغيبة الإمام الثاني عشر خصوصاً. ويصف جميع رواة تلك الأحاديث بأنهم مجهولون أو ضعفاء أو وضاعون من دون تقديم أي دليل يدل على هذه التهمة، ويكتفي بذكر العبارة التالية: «ضعف هذه الأحاديث مبرهن وموثق»! ومن الواضح أن هذا الكلام مجرد ادعاء لا يقوم على أساس، حيث لم يقدّم أحد أي دليل وبرهان على ضعفها.

أضف إلى ذلك، أن هؤلاء المغرضين، يتهمون جميع كبار محدثي الشيعة كثقة الإسلام الكليني، والشيخ الصدوق، والشيخ المفيد، والسيد المرتضى، والشيخ الطوسي وغيرهم ممن نقل عنهم محدثو أهل السنة أيضاً، بوضع تلك الأحاديث، هذا في حين أن المعيار الذي يقوم عليه إبداء الرأي في العلوم الإنسانية - بما فيها علم الحديث والفلسفة - هو مراعاة الضوابط العلمية والقواعد الفنية الخاصة بأي علم، بالضبط كما هو الحال في مراعاة الضوابط الخاصة بالعلوم التجريبية والطبيعية. وحينما لا يتحقق الالتزام بتلك الضوابط والمعايير، فبالإمكان إنكار أية حقيقة أو دين أو مذهب بسهولة. ولا شك في أن بطلان هذا الأسلوب في التعامل مع العلوم والمعارف، أوضح من أن يحتاج إلى بحث وتقاش.

هذه المجموعة المباركة (بشارة الأمان بموعد الأديان) المزدانة باسم إمام العصر عليه السلام، منتظمة في خمسة عشر محوراً، وهي:

الأول: المباحث العقلية والفلسفية، وفي هذا المحور تحليل وتفسير واستدلال فلسفي يمهد لما في المحور الثاني، وقد تمّ ذلك في مجلد واحد استعرضنا فيه الأدلة الفلسفية وشبه الفلسفية والعرفانية والمنطقية كالآتي:

- ١- وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة.
 - ٢- ولي العصر نقطة اعتدال أسماء الجمال والجلال في الأرض.
 - ٣- المهدي الموعود عليه السلام في دليل الاستقراء.
 - ٤- برهان النظام الأحسن (العناية) وضرورة وجود الإمام المعصوم عليه السلام.
 - ٥- مستقبل البشرية من منظار فلسفة التاريخ.
 - ٦- قاعدة اللطف وضرورة تعيين إمام لهداية البشرية.
- يعترف الفلاسفة والعلماء بصحة هذه الأدلة العقلية، عدا قاعدة اللطف التي يُشكّل البعض عليها. وقد انبرينا لإيضاح هذه القاعدة والرد على الإشكالات المثارة حولها، و جدير بالذكر أنّ هذه الاستدلالات العقلية أفضت إلى ضرورة وجود إمام معصوم في كلّ زمان.
- والأحاديث المعتبرة والمتواترة تقود الأذهان نحو شخصيته عليه السلام ولأجل تعامل بين العقل والشرع أوردنا في نهاية المباحث العقلية أربعة عشر حديثاً من بين المئات في هوية الإمام المهدي الموعود عليه السلام.
- الثاني: الحوارات العلمية حول موعود الأديان، وتضمّن هذا المحور محاوراتنا العلمية التي أجريتها في عواصم الدول الأوروبية والعربية والإسلامية ومراكزها العلمية مع الفلاسفة والعلماء من المسيحيين والمسلمين وغيرهم بخصوص المنجي العالمي، وقد تمّ هذا في مجلد واحد.
- الثالث: المنقذ العالمي: حتمية وجوده ومعرفة الأديان به، عرضنا فيه ما ورد في حتمية وجود الإمام المهدي عليه السلام، وما نطقت به الكتب والأديان السماوية قبل الإسلام، وما شهدت به الروايات الإسلامية من وجود تلك البشارات في تلك الكتب والأديان السماوية السابقة، وقد تمّ هذا المحور في مجلد واحد.

٤٢.....بشارة الأمان ..المباحث الفلسفية والكلامية/ج ١

الرابع: بيان موقف المسلمين تجاه القضية المهدوية. وقد فرغنا من بيان هذا الموقف في أربعة مجلدات.

خصّصنا الأول منها لبيان موقف الصحابة من أحاديث الإمام المهدي وعلامات آخر الزمان.

وجاء المجلد الثاني في بيان موقف التابعين من ذلك أيضاً.

وجاء المجلد الثالث ليعبّر عن موقف علماء أهل السنّة الصريح في تصحيح أحاديث الإمام المهدي، مع تصريح الكثير منهم بتواترها.

وجاء المجلد الرابع ليكشف عن أسماء علماء أهل السنّة القائلين بولادة الإمام المهدي عليه السلام وهويته.

الخامس: تحقيق حديث الخلفاء اثنا عشر كلهم من قريش، وما جرى بهذا المعنى، وكذلك تحقيق حديث الثقلين بلفظ: (كتاب الله، وسنتي)، ثم بلفظه الآخر: (كتاب الله، وعترتي)، وقد تمّ هذا في ثلاثة مجلدات.

أمّا المحاور الأخرى - من هذا الكتاب: (بشارة الأمان بموعد الأديان)، فقد فرغنا من متابعة جميع أحاديثها ومصادرها وتحقيقها وتقييمها وترجمة روايتها، وهي في مرحلة التنظيم والإخراج النهائي، كالآتي:

السادس: هوية الإمام المهدي عليه السلام، (ثلاثة مجلدات).

السابع: أسماء الإمام المهدي عليه السلام وصفاته وألقابه ومنزلته (مجلد واحد).

الثامن: حياة الإمام المهدي عليه السلام، وغيبته، مع مرحلة الانتظار (مجلدان).

التاسع: علامات ظهور الإمام المهدي عليه السلام (مجلد واحد).

العاشر: الممهّدون لدولته عليه السلام ووزرائه وأنصاره (مجلد واحد).

الحادي عشر: حركة الإمام المهدي عليه السلام وفتوحاته (مجلد واحد).

الثاني عشر: نزول عيسى بن مريم عليه السلام وزيراً وناصرًا للإمام المهدي عليه السلام في

دولته (مجلد واحد).

الثالث عشر: حكم الإمام المهدي عليه السلام، وسيرته، ومدّة عمره (مجلد واحد).
الرابع عشر: الشبهات الواردة حول القضية المهدوية وجوابها (مجلد واحد).
الخامس عشر: معجم رواة أحاديث موسوعة (بشارة الأمان بموعد الأديان). وفي هذا المعجم دراسة مستوعبة لأحوال رواة جميع الأحاديث الواردة في هذه الموسوعة، وبيان مواردهم الحديثية، ودرجة اعتبارها تفصيلاً، بما يزيد مجموعه على عشرين مجلداً.

والتقدير بالمجلدات من المحور السادس إلى الأخير ليس تقديراً نهائياً؛ إذ قد يكون أكثر ممّا ذكر، أو أقلّ منه بقليل، وذلك بحسب التحرير النهائي لكلّ محور من محاور البحث في (بشارة الأمان بموعد الأديان).

جدير بالذكر أنّ اسم هذا الكتاب مقتبس ومستوحى من التوقيع المبارك لمولانا صاحب الزمان عليه السلام الوارد في كتاب (إكمال الدين وإتمام النعمة)^(١)، والذي جاء فيه: «.. وأما وجه الانتفاع بي في غيبتي فكالانتفاع بالشمس إذا غيّبتها عن الأبصار السحاب، وإني لأمان لأهل الأرض...»، وكذلك من حديث الإمام علي عليه السلام في «عقد الدرر»^(٢) للمقدسي الشافعي: «... فيسير المهدي بمن معه، لا تحدث في بلد حادثة إلاّ ومعه الأمن والأمان...».

ويا حبذا لو أسعفنا القراء والباحثون الكرام بآرائهم ومقترحاتهم، علّها تعمل على إغناء هذه الدراسة وتطويرها في الطبقات القادمة، وسأكون شاكرًا لهم على كلّ ما يرد منهم في هذا المضمّار، والله الموفق.

(١) إكمال الدين / الشيخ الصدوق ٢: ٤٨٥ / ٤ باب (٤٥).

(٢) عقد الدرر / المقدسي الشافعي: ١٣٦، باب (٤) فيما يظهر من الفتن الدالة على ولايته، فصل (٢).

﴿ شكر و تقدير ﴾

لا يسعني في ختام هذه المقدمة إلا أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير لكل من أزرني في إنجاز هذا المشروع المهدوي الكبير من منتسبي مؤسسة تحقيقات ولي العصر عليه السلام التي أنشئت في مدينة قم المشرفة لهذا الغرض، سواءً من غادرها مبكراً، أو ودّعها في منتصف الطريق، أو واكب المشروع قاطعاً الشوط الأخير، وأخص بالذكر السيد مدير المؤسسة الدكتور ثامر العميدي الحسيني الحلبي الذي تحمّل مشكوراً أعباء هذا المشروع منذ بداياته ولم يزل في متابعته، كما أشكر سائر اللجان العلمية والفنية التي أسهمت - بإشرافه - في تذليل العقبات وتسهيل أمور البحث من جوانبه المتعددة.

ولا يفوتني أن أشكر جميع أسر المكتبات الرسمية والشخصية التي فتحت أبوابها لخدمة هذا المشروع، كمكتبة الإمام الرضا عليه السلام في مشهد المقدسة، ومكتبة مجلس الشورى الإسلامي في طهران، ومكتبة السيد المرعشي النجفي، ومكتبة مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ومكتبة المحقق السيد علي نجل آية الله السيد إبراهيم الخراساني الكاظمي في مدينة قم المشرفة، وغيرها.

سائلاً المولى عزّوجلّ أن يوفق الجميع.

محمد إمامي كاشاني

ربيع الأول / ١٤٣٤ هـ

قم المشرفة

الفصل الأول

وجود المصلح العالمي من منظور الفطرة

المبحث الأول الفطرة وأهمية المعلومات الفطرية

معنى الفطرة:

معنى الفطرة في اللغة: الابتداء والاختراع، ومنه قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾^(١).

والفطرة: ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به، بمعنى الاستعداد التكويني لمعرفة الحق سبحانه وتعالى. وإليه تشير الآية الكريمة: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ...﴾^(٢).

وقيل: هي الخلقة التي يخلق عليها المولود في بطن أمه، وقد فسّر قوله تعالى: ﴿الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي..﴾^(٤)، بـ (الذي خلقني).

وفي الحديث الشريف: «كل مولود يولد على الفطرة»^(٥).

(١) سورة فاطر: ١/٣٥.

(٢) سورة الروم: ٣٠/٣٠.

(٣) سورة يس: ٢٢/٣٦.

(٤) سورة يس: ٢٢/٣٦.

(٥) رواه فضيل بن عثمان، عن الإمام الصادق عليه السلام. علل الشرائع / الصدوق ١: ٣٧٦، وذكره

يعني: الخلقة التي فطر عليها في رحم أمّه من سعادة أو شقاوة، فإذا ولده يهوديان هوّده في حكم الدنيا، أو نصرانيين نصره في الحكم، أو مجوسيان مجسّاه في الحكم أيضاً^(١).

من علائم الفطرة:

للفطرة السليمة علامات كثيرة دالة عليها، ويمكن للإنسان السوي إدراك وجود الفطرة في ذاته من خلال تلك العلامات التي يستشعرها في بعض مشاهداته وممارساته، كالآتي:

١- لو انطلقت منذ اللحظات الأولى لشروق الشمس نحو البحر وشاهدت انعكاس ضوء الشمس في البحر، وسمعت أصوات أمواج المياه وهبوب ريح الصبا، فستستغرق في نفسك للحظات، وتنقشع الحجب عن عينيك، وتدرك أنّ عالم الوجود مخلوق من قبل خالق حكيم قادر! هذا اللون من الإدراك، إنما هو إدراك فطري. أي أن الفطرة توحى إليك أنّ جميع هذه الجمالات والخيور متصلة بالخير المطلق والجمال المطلق.

→ القاضي النعمان في شرح الأخبار ١: ١٩٠ ذيل حديث ١٤٧/، والشيخ المفيد في تصحيح الاعتقاد: ٦١ والسيد المرتضى في أماليه ٤: ٤، واحتجّ به الشيخ الطوسي في الخلاف: ٥٩١ مسألة (١٩).

وأخرجه البزار، عن سمرة بن جندب وعبد الله بن عباس كما في مجمع الزوائد ٧: ٢١٨، ورواه العامة أيضاً من طرق عديدة، عن أبي هريرة كما في صحيح مسلم ٨: ٥٣ وصحيح البخاري ٢: ٥٧٥-٥٧٦/ ١٢٦٦ و ١٢٦٧ باب (٨٦٤) كتاب الجنائز.

(١) انظر مادة (فطر) في الصحاح / الجوهري ٢: ٤٩٩، ومعجم مقاييس اللغة / ابن فارس. ٨١٠ ولسان العرب / ابن منظور ٥: ٥٦، والقاموس المحيط / الفيروز آبادي ٢: ١١٠، وتاج العروس / الزبيدي ١٣: ٣٢٩، ومن المراجع المتأخرة: أقرب الموارد / سعيد الشرتوني ٩٣٣/٢.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة..... ٤٩

٢- هل حدث لك أن أمضيت إحدى الليالي القمرء في قرية من القرى؟
وهل تمتعت آنذاك برؤية نور القمر، وجمال النجوم والكواكب؟
وهل داعبت أجفانك نسمات الهواء العليلة، وارتطم بسمعك حفيف الشجر؟
وهل غابت عن بالك جميع ألوان الالتصاق بالدنيا، وأدركت قدرة الله،
واستشعرت رحمته؟ ذلك الإدراك والاستشعار، هو الفطرة.

٣- لربما شاهدت رجلاً طاعناً في السن حاملاً حقيبة، ويحاول بصعوبة
العبور إلى الجانب الآخر من الشارع. فتقدمت منه وتناولت حقيبته، وأمسكت
بيده، وساعدته على اجتياز الشارع. إذا كنت قد فعلت ذلك فلا بد أن تشعر آنذاك
بلذة عجيبة. فهذا الشعور باللذة، هو الفطرة.

٤- لربما تحدت إليك صديقك أنه دهس بسيارته شخصاً كان يحاول عبور
الطريق، ثم تركه وشأنه دون أن يعرف شيئاً عما حلّ به. وأخبرك كيف أنه يعيش
حالة مستمرة من الندم، وتأنيب الضمير والقلق. فهذه الحالة منبثقة من أعماق
الفطرة.

أهمية المعلومات الفطرية:

معلومات الإنسان عن العالم تتحقق عبر ثلاثة طرق:

١- الحس.

٢- الفطرة.

٣- العقل.

ولاشك أيضاً في وجود معلومات واسعة وعميقة أخرى ترد من ناحية الغيب
وما وراء الطبيعة ويُعبّر عنها بالوحي. وهي معلومات تفيض على الأنبياء والرسل
الذين يهبّون لتعليم الناس وهدايتهم، وتوجيههم على أساس تلك

المعلومات .

وينقل هؤلاء الأنبياء والرسل بعض أسرار الوحي إلى أوصيائهم. كقول الرسول محمد ﷺ «أنا مدينة العلم وعلي بابها». وهو حديث صحيح ورد عن رسول الله ﷺ بطرق معتبرة لاسيما برواية أهل البيت .

والفطرة نوعان: وفي هذا يقول الإمام الخميني : إن الله تعالى وهب للإنسان فطرتين الأولى أصليّة والثانية فرعيّة.

الأصليّة عبارة عن حب الكمال المطلق، والخير المطلق، والسعادة المطلقة. وهي فطرة موجودة في جميع الناس بشتى أصنافهم وأشكالهم، فنراها في السعيد والشقي، والعالم والجاهل، والعالي والداني.

والفرعيّة عبارة عن فطرة الإشمئزاز من النقص وكرهية الشر والشقاء^(١). معنى هذا أنّ الفطرة مثل الحس، والعقل، والوحي إحدى الأدوات التي تؤلّف مصادر الإدراك والمعرفة لدى الإنسان.

إذن يمكن تقسيم إدراكات الإنسان ومعلوماته إلى: معلومات حسية، وفطرية، وعقلية. والمعلومات الحسية عبارة عن المعلومات التي تُدرك بواسطة الحواس الخمس.

كما أنّ هناك معلومات وحقائق تُدرك بواسطة فطرة الإنسان، مثل: معرفة صفات وأسماء البارئ تعالى، والنزعة نحو الله، والبحث عن الحقيقة، والميل نحو الجمال، وطلب الكمال، والتطلع نحو السعادة، وكرهية البؤس والشقاء.

والمعلومات العقلية يتم الحصول عليها عن طريق الفكر والنظر، كإدراك العقل لقانون العلة والمعلول، وسائر القوانين الأخرى المتحكمة في العالم. ويعتقد جميع الفلاسفة أن العقل ذو إدراك محدود، وليس بوسعه الإحاطة بجميع

(١) شرح حديث جنود العقل والجهل /الإمام الخميني: ٧٨.

فا: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة..... ٥١

أسرار الكون والوجود. ولكنّ الحكماء المتألهين يقولون: إنّ العقل حينما يضاء بمصباح الغيب، فإنّه يفتح على فناء الوحي، فيبلغ ما وراء الطبيعة.

فضلاً عن الحس، والعقل، والفطرة، هناك قوة غيبية تدعى الوحي. فالمعارف التي يقدمها الوحي للإنسان، أشبه بالشمس التي تضيء طريقه خلال مساره التكاملي في الحياة. ولذلك تُعدّ المعلومات الفطرية الرصيد الأهم الذي تعتمد عليه المعلومات والحقائق الغيبية والوحيانية؛ إذ إنّها من خلال الاستناد إلى الفطرة والنزعات والمعلومات الفطرية، تؤدي دورها في توجيه الإنسان، وبنائه. ولذلك يُعد دور المعلومات الفطرية دوراً ريادياً وأساسياً بين معلومات الإنسان.

يقول الشاعر الإيراني صائب التبريزي:

إفتح العين واغلق الشفة في الصنع الإلهي
فرؤية خط الأستاذ أفضل من قراءته

لربما يريد صائب التبريزي بالقراءة، معرفة عالم المحسوسات، بينما لا يمكن معرفة باطن العالم وكنهه إلا عن طريق الفطرة التي تمثل أرضية الوحي. فالتعاليم الوحيانية - كالعقيدة والأخلاق والسلوكيات - قائمة على الفطرة. وإنّ مبدأ حب الخير والكمال، وكراهية الشر والنقص والعيوب، مترسخ في وجود الإنسان، ولو استوى المرء على ظهر الفطرة وطوى طريق الكمال والخير، ستتقوى فطرته وتزدهر وتزداد نضجاً، أما إذا امتطى شهوة الشهوة والغضب، وانقاد للنزوات، ستضعف فطرته وتختفي تدريجياً. ولذلك نشاهد القرآن الكريم يؤكد على دور الفطرة وضرورة الانصياع لصوتها:

﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ.. * مُبِينٍ إِلَيْهِ
وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١).

(١) سورة الروم: ٣٠/٣١ و ٣١.

المبحث الثاني ملامح الأفكار والنزعات الفطرية

ذكرنا في المبحث السابق أنّ الأفكار والمعلومات الفطرية تختلف عن المعلومات العقلية والحسية، وتمتاز ببعض الملامح والخصائص التي تميزها عن الإدراكات والمعلومات الأخرى، ومنها:

أ- شمولية هذه الأفكار والمعلومات.

ب- اصطباغها بلون الشهود.

ج- لا تؤثر عليها الأوهام والحسابات الخاطئة.

شمولية المعلومات الفطرية:

بما أنّ المعلومات الفطرية منبثقة من الجوهر الإنساني المشترك - أي الفطرة - لذلك تُعدّ معلومات عامة، أي يشترك فيها جميع الناس. فالناس جميعاً يرغبون في العدالة ويميلون إلى الحبّ. ولا يمنع الاختلاف والتعدد في مصاديق الجمال بفعل التفاوت في الثقافات، دون شمولية حبّ الجمال. ويشير

الحكيم أبو نصر الفارابي (ت/٣٣٩هـ)^(١) إلى هذه الحقيقة حينما يقول:
«الناس الذين فطرتهم سليمة لهم فطرة مشتركة أُعِدّوا بها لقبول معقولات
مشتركة لجميعهم، يسعون بها نحو أمور وأفعال مشتركة لهم»^(٢).
وتعدّ النزعة نحو الفضائل والقيم الأخلاقية، من النزعات الفطرية التي تحظى
بالاهتمام دائماً. ويعبّر رينه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠م)^(٣) عن النزعة نحو
الفضائل الأخلاقية بالحس الأخلاقي، ويقول بأنّ الحس الأخلاقي، معرفة
ليست بحاجة إلى دليل وبرهان أولاً، وتحلّ في ذهن الإنسان بوضوح وبشكل
بديهي، ومن دون غموض ثانياً.

(١) الفارابي (ت / ٣٣٩ هـ - ٩٥٢ م)، هو أبو نصر محمد بن طرخان الفارابي المشهور بالمعلم الثاني، ولد بقريّة وسيج من أعمال فاراب شمال فارس وتعلّم ببغداد، برع في الفلسفة، وعلم الطبيعة، والرياضيات، والفلك، والموسيقى، وقضى فترة فترة ببلاط سيف الدولة الحمداني في حلب، اشتهر بالزهد والقناعة والتعفّف، له كتب كثيرة نشر منها نحو ثلاثين كتاباً، منها: التعليم الثاني، والمدينة الفاضلة، ومبادئ آراء أهل المدينة المناضلة، والجمع بين رأي الحكيمين أفلاطون وأرسطو، وتحصيل السعادة، واحصاء العلوم، وغيرها، قتله بعض قطاع الطرق في عسقلان الشام، ونقل جثمانه إلى دمشق ودفن هناك.

(٢) السياسة المدنية / أبو نصر الفارابي: ٧٥.

(٣) رينه ديكارت: (Descartes Rene (1559-1650 AD)

فيلسوف فرنسي مشهور، كان عالماً بالرياضيات والحقوق، وعرف بمنهج الشك، يعدّ مؤسس الفلسفة الحديثة، من كتبه:

«مقال في المنهج: Discours de la Methode».

و«قواعد لهداية العقل: Regular ad Directionem Ingenii».

و«تأملات في الفلسفة الأولى: Meditations de Prima Philosophia».

و«مبادئ الفلسفة: Principia Philosophia».

و«انفعالات النفس: Les Passions de L'Ame».

ف ١ : وجود المصلح العالمي من منظور الفطرة..... ٥٥

لذلك لم يتجاهل أحد النزعة نحو الفضائل الأخلاقية حتى في ذروة
المعارضة للكنيسة خلال عصر النهضة الأوروبية، فكان المناهضون للكنيسة
يصرّون على أهمية الأخلاق ونشر المعلومات، الأمر الذي يشير إلى أنّ النزعات
الفطرية لم تكن متعلّقة بجماعة خاصة، وإنما تحظى باهتمام الجميع؛ ولذلك
توصف بأنها ما وراء الزمان والمكان.

اصطبغ الإدراكات الفطرية بلون الشهود لا بلون الاستدلال:

هذا اللون من الإدراك، أسمى وأعظم من الإدراكات الحسية والعقلية؛ لأنّه
ينبثق من الإدراكات الفطرية. ولا ريب في أنّ الشهود أشد تأثيراً وأقوى من
الاستدلال العقلي.

بتعبير آخر: الفطرة ترى، ولكنّ العقل يصل إلى النتيجة من خلال المقدمات،
ولذلك قد يخطأ في بعض الأحيان.

الإدراكات الفطرية لا تتأثر بالأوهام ولا تتعرض للخطأ:

يتحدث ابن سينا عن هذه الخاصية التي تتميز بها الفطرة قائلاً:

«والنفوس السليمة التي هي على الفطرة.... إذا سمعت ذكراً روحانياً يشير إلى
أحوال المفارقات غشيها غاش شائق لا يعرف سببه، وأصابها وجد مبرح، مع
لذة مفرّحة، يفضي ذلك بها إلى حيرة ودهش، وذلك للمناسبة. وقد جُرّب هذا
تجريباً شديداً»^(١).

من ذلك ندرك أنّ ابن سينا يعتبر تلك الخصوصيات الفطرية، أمراً تجريبياً

(١) الإشارات والتنبيهات / ابن سينا ٣: ٣٥٤.

٥٦.....بشارة الأمان ..المباحث الفلسفية والكلامية/ج ١

واضحاً، وليست استدلالات عقلية، أو برهاناً منطقياً، وأنها أسمى بكثير من العلم المنبثق من البرهان المنطقي.

المبحث الثالث الفطرة من منظار القرآن الكريم والأحاديث

الفطرة في القرآن الكريم:

تتحدث جميع الأديان والمذاهب الفكرية والفلسفية عن الإيمان الفطري، والنزعة الباطنية لدى الإنسان نحو العدل، واعراضه عن الظلم واللامساواة. والمجتمع الإنساني يميل بوحى من الفطرة نحو الأصول الإنسانية والقيم المعنوية المتعالية، إذ لا تنسجم روح الحياة المدنية وحالة التعاون القائمة بين أفراد المجتمع البشري، مع الظلم والجور واللامساواة. ويتحدث القرآن الكريم عن هذا الأساس الفطري، والمبدأ الإنساني المشترك قائلاً:

﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

فالأصول الإنسانية التي هي طبيعية وفطرية في جميع أفراد المجتمع بشري، لو قدر لها أن تحتفظ بحيويتها وقوتها، لأدى ذلك إلى وحدة مجتمعات البشرية كلها، فهي المعيار الذي وجه القرآن الأنظار نحوه وأكد

عليه .

فالإنسانية سنّة إلهية عامة مشتركة يدور حولها جميع الأفراد في كل زمان ومكان، مهما كانت ثقافتهم ومستواهم الحضاري. وأمّا الفواصل القائمة بين الحضارات والثقافات كاللغة، والجغرافيا، وغيرها، ليست سوى شروط ثانوية للحياة، ولا تُعدّ جزءاً من الأمور الفطرية والأساسية .

ونشير فيما يلي إلى بعض ما توحى به الآية السابقة في هذا المضمار:
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...﴾^(١).

فإقامة الوجه تعني الإقبال الكامل على الدين، وجعل الشخصية الإنسانية ملتحمة معه .

فكما نرى صورتنا في المرأة، يجب أن نرى صورتنا في الدين أيضاً. فلو عيّر المرء كيانه وهويته بمعيار الدين وشاهد أفكاره وأخلاقه وإنسانيته في هذه المرأة، لوجد حقيقته أيضاً. وسيكون حينذاك إنساناً معتدلاً بعيداً عن الإفراط والتفريط. وكلما اتجه نحو الاعتدال، أقبل على جهة الإنسان الكامل الذي يمثل مركز الاعتدال والقيم .

﴿... لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ...﴾^(٢).

ينبع تدين الإنسان وطلبه لله وللحق، من منبع واحد، هو الفطرة التي أودعها الله تعالى في جميع الناس .

على هذا الأساس، يوجد شعور باطني ثابت للإنسان إزاء المستقبل والحق والعدل، لا تغيره يد التغيير، ولا ينال منه تطاول الأيام. وهو الذي يدفع بالإنسان للانطلاق في مسير التكامل .

(١) سورة الروم: ٣٠/٣٠.

(٢) سورة الروم: ٣٠/٣٠.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة..... ٥٩

﴿... ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيَمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

هذا الدين الفطري، شفاف وصقيل كالمرآة، حيث يستطيع الإنسان أن يكشف من خلاله عن استعداداته وقابلياته. وينطلق بها نحو المزيد من التكامل حتى يتحول إلى مظهر للأسماء الإلهية. ورغم ذلك هناك الكثيرون الذين يجهلون أنفسهم، ويجهلون المرآة.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ...﴾^(٢).

يتوقف التوصل إلى مثل هذه الفضيلة والمكانة، على العمل بالتعاليم والقوانين الإلهية. وهذه الحقيقة الكامنة في باطن الإنسان وفطرته، يستشعرها كل إنسان على أساس طبعه وطينته. وهذه هي الحقيقة التي تمثل الرصيد والأساس لجميع القيم الإنسانية.

﴿... وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ...﴾^(٣).

يتحدث القرآن الكريم عن انحراف الفطرة، ويعتبر الشرك أساس ذلك الانحراف، حيث تنطلق منه جميع الرذائل الأخلاقية؛ لأنّ الشرك وعدم التوحيد، أمر يدفع المرء نحو السقوط.

ومن الآيات الأخرى التي تشير إلى موضوع الفطرة، قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٤).

قال الأريب والمفسر الكبير الشيخ الطبرسي في تفسيره: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾، سواها: عدل خلقها وسوى أعضائها، وقيل: سواها بالعقل..

١- سورة الروم: ٣٠/٣٠.

٢- سورة الروم: ٣١/٣٠.

٣- سورة الروم: ٣١/٣٠.

٤- سورة الشمس: ٧/٩١ و٨.

٦٠.....بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية/ ج ١

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ، أي: عرّفها طريق الفجور والتقوى ، وزهّدها في الفجور ، ورغّبها في التقوى.. وقيل: علّمها الطاعة والمعصية ، لتفعل الطاعة وتذر المعصية ، وتجتني الخير وتجتنب الشر^(١).

ويفسّر أبو حامد محمّد الغزالي ، هاتين الآيتين بهذا المعنى أيضاً ، وأعطى للفطرة نفس هذا المفهوم أيضاً^(٢).

وقال الراغب الإصفهاني في مفردات القرآن: «الإلهام: إلقاء الشيء في الروح ، ويختص ذلك بما كان من جهة الله تعالى ، وجهة الملائمة الأعلى ، كما قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾»^(٣).

إذن المراد بالإلهام في الآية المباركة: هو النزعات الفطرية التي تميل إلى الخير وتمقت الشر.

ويرى الأستاذ المعظم المفسر الكبير والفيلسوف العارف العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي أنّ الإلهام ، من نعوت الخلقة إلى جانب الفطرة الإنسانية. والله الذي خلق الإنسان ذا علم ، وحكمة ، وقدرة ، وقوى متعادلة ، زوّده بالقابلية على التمييز بين الفجور والتقوى^(٤).

وقال ابن منظور في لسان العرب: الإلهام: هو أن يلقي الله سبحانه وتعالى أمراً في النفس الإنسانية يبعثه على الفعل أو الترك. وهذا نوع من الوحي الذي يهبه الله تعالى لمن يشاء من عباده^(٥).

(١) تفسير مجمع البيان/ الشيخ الطبرسي ١٠: ٤٩٨.

(٢) إحياء علوم الدين / الغزالي ٣: ١٤-١٥، كتاب شرح عجائب القلب.

(٣) المفردات / الراغب الإصفهاني: ٤٥٥.

(٤) الميزان في تفسير القرآن / السيد الطباطبائي ٢٠: ٢٩٨.

(٥) لسان العرب / ابن منظور ١٢: ٥٥٥.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة..... ٦١

فالفطرة تنزع نحو الجمال والمعرفة، وتنجذب إليهما دائماً، وهي تنطلق باتجاه الجمال ذاتياً. ولو قُدِّر لها أن تنطلق خلافاً لذلك، فستغطى بالغبار تدريجياً، فيطوي الإنسان - في أعقاب ذلك، وبمقتضى الطبيعة الثانوية - مسار السقوط والانحطاط، رغم عدم انعدام أصل ذلك الانجذاب.

وبعد أن تحدث القرآن الكريم في سورة الشمس عن الفطرة الإنسانية، وكيفية تعرُّض باطن الإنسان إلى الفجور والتقوى عن طريق الإلهام، تطرق إلى موضوع الطغيان واستتار الفطرة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(١). فالإنسان فضلاً عن معرفته للجماليات، لديه نزعة نحوها أيضاً، أي إنه يتجه نحو هذه الجمالات في بادئ الأمر، ولذلك قدّم القرآن الكريم وصف حال المزكّين وأهل التقوى، على أهل الدّس والفجور. وأرجع إنكار الفطرة ورفضها إلى الطغيان، كما فعل قوم ثمود: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾^(٢). فهؤلاء قد حلّ عليهم الغضب الإلهي؛ لأنهم طغوا وتمردوا على الله ونبيه. فالطغيان كالعاصفة الرملية التي لا يمكن أن يُميّز أي شيء فيها. فحينما ينطلق المرء في عاصفة الطغيان، قد لا يبصر أقرب الحقائق إليه، ولا يسمع صوت قلبه وضميره. وحينذاك قد ينطلق لتكذيب رسوله الباطني: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا...﴾^(٣).

فهؤلاء يصنعون لأنفسهم حالة ثانوية، وهي الحالة التي لن تكون لها نتيجة أخرى غير العذاب الإلهي: ﴿... فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾^(٤).

(١) سورة الشمس: ٩/٩١.

(٢) سورة الشمس: ١٠/٩١.

(٣) سورة الشمس: ١٣/٩١ و ١٤.

(٤) سورة الشمس: ١٤/٩١ و ١٥.

إذن تتميز الفطرة بشمولية زمانية ومكانية، ما لم يتم المرء بتغيير فطرته .
ويمكن أن نستنتج مما سبق أنّ الإنسان على معرفة بربه، وينزع إليه فطرياً.
لأنّ الله عزّ وجلّ مستجمعٌ لجميع الكمالات بالنحو الأتم المطلق، مع خلو ذاته
المقدسة من كل نقص. ومعنى الفطرة - كما تقدم - هو الانجذاب نحو الكمال
والنزوع إليه، والنفور من النقص، وهذا يعني كون الإنسان مجبولاً بفطرته على
التوجه إلى الله عزّ وجلّ. لكنّ هذه الفطرة قد تتراكم عليها الأتربة بفعل الغفلة،
وارتكاب المعاصي فتضعف قوتها، لكنها تبقى مع ذلك، وتظل تنزع نحو التوحيد
والخير المطلق.

ويُعدّ النزوع نحو العدل والنقاء، وسائر الصفات الإنسانية البارزة، من فروع
أصل التوحيد والجمال المطلق. لذلك تُعتبر النزعة نحو الولاية المطلقة لخاتم
الأوصياء - أي الوجود المقدس لإمام العصر والزمان أرواحنا فداه - فرعاً من
فروع شجرة التوحيد، والخير المحض، والكمال المطلق.

إذن الإنطلاق والانجذاب نحو الدين الكامل والعدل العالمي وولي الله الحافظ
لأساس الدين، جزء لا يتجزأ من أصل التوحيد.

الفطرة في الروايات:

هناك العديد من الأحاديث والروايات الشريفة للنبي الأكرم محمد ﷺ وأئمة
أهل البيت عليهم السلام، تتحدّث عن الفطرة كمصدر للمعرفة والإدراك، كالحديث
القائل:

«كلّ مولود يولد على الفطرة»^(١).

وتطرق دعاء الإمام علي بن الحسين عليه السلام في يوم عرفة، إلى الفطرة، فاعتبر
معرفة الله تعالى منبعثة من الفطرة. وانبرى الإمام في هذا الدعاء إلى حمد الله

(١) سبق تخريجه ص: ٤٧ في مقدمة البحث من طرق الفريقين.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة..... ٦٣
تعالى والثناء عليه وذكر أسمائه الحسنی، والإشارة إلى الإمام وضرورة
وجوده في كل عصر لاسيما في آخر الزمان، إستناداً إلى النزعات الفطرية ومما
جاء فيه:

«اللّهُمَّ هذا يوم عرفة، يوم شرفته وكرّمته وعظّمته. نشرت فيه رحمتك ومننت
فيه بعفوك وأجزلت فيه عطيتك وتفضّلت به على عبادك»^(١).

ثمّ يشير الإمام زين العابدين عليه السلام إلى فطرية معرفة الله فيقول:

«اللّهُمَّ وأنا عبدك الذي أنعمت عليه قبل خلقك له، وبعد خلقك إياه، فجعلته
ممن هديته لدينك، ووفقته لحقك، وعصمته بحبك، وأدخلته في حزبك،
وأرشدته لموالاته أوليائك ومعاداة أعدائك».

ويؤكد الإمام عليه السلام في هذا الدعاء على أنّ وجود إمام العصر عليه السلام نجاة للإنسان
من مزالق وأزمات الحياة، إذ به يعمّ الأمن الأرض، ويستنير به
أهلها:

«اللّهُمَّ وصلّ على أوليائهم المعترفين بمقامهم، المتبعين منهجهم، المقتفين
آثارهم، المستمسكين بعروتهم، المتمسكين بولايتهم، المؤتمنين بإمامتهم،
المسلّمين لأمرهم، المجتهدين في طاعتهم، المنتظرين أيامهم، المادّين إليهم
أعينهم، الصلوات المباركات الزاكيات...»^(٢).

جميع هذه النصوص، تعتبر هذه المعارف والإدراكات فطرية.

ومعنى هذا الكلام هو أنّ جميع الموالين لإمام العصر والزمان، والمتمسكين
بولايتهم، والمنتظرين لظهوره، قد امتزجت حقيقة التدين والولاية والانتظار
بأرواحهم ودمائهم إلى درجة بحيث يصبح السير في هذا الطريق بهيجاً ولذيذاً

(١) الصحيفة السجادية: الدعاء ٤٧.

(٢) المصدر نفسه.

٦٤.....بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية/ج ١

وحلواً. وليس باستطاعة الإنسانية سوى السير نحو محقق العدالة العالمية، من أجل بلوغ الاطمئنان الحقيقي. وهل هناك عبادة أو سلوك أحلى وألذ من الوصول إلى ناشر العدالة ومطبقتها في الأرض؟ فالسعادة الحقيقية لا تتحقق للمجتمع البشري إلا في ظل العدل العالمي، والمصلح الإلهي النهائي.

المبحث الرابع

النزعات الفطرية من منظار الفلاسفة والعرفاء المسلمين

جميع المفكرين والفلاسفة الذين تناولوا موضوع الإنسان وبحثوه، ركزوا في دراساتهم على طبع الإنسان وفطرته، وسعى كل منهم إلى إلقاء نظرة عميقة عليه، ودراسته وتحليله على هذا الضوء. ومن بين هؤلاء:

١- الفارابي (ت / ٣٣٩ هـ):

يعتقد الفارابي أن الهدف من خلقة الإنسان هو بلوغ الإنسان للسعادة والكمال. ويتحقق بلوغ هذا الهدف في ظل المعارف التي تستند إلى المعلومات الأولية:

«والناس الذين فطرتهم سليمة لهم فطرة مشتركة أُعدّوا بها لقبول معقولات، هي مشتركة لجميعهم، يسعون بها نحو أمور وأفعال مشتركة لهم. ثمّ من بعد ذلك يتفاوتون ويختلفون، فتصير لهم فِطْرٌ تخص كل واحد وكل طائفة»^(١).

من وجهة نظر الفارابي، الناس لا يشتركون في الفطرة والطبع فحسب، وإنما ينطلقون على أساس الفطرة للقيام بشتى الأعمال والممارسات، وتحقيق مختلف الأهداف والتطلعات التي تكون مشتركة أيضاً. أي: أن لجميع أصحاب

(١) السياسة المدنية / أبو نصر الفارابي: ٧٥.

الفطر السليمة، أهدافاً ومقاصد مشتركة. ومع تعدد المجتمعات البشرية وتنوعها في كل عصر إلا أنها ذات هدف مشترك، ومقصد عام في الحركة والسير من منظار الطبع الإنساني والمنطق الفطري^(١).

٢- ابن سينا (ت / ٤٢٨هـ)^(٢):

يتحدث ابن سينا عن البهجة والسعادة ولذة العرفاء في كتاب (الإشارات والتنبيهات)، فيرى أن النفوس السليمة الباقية على فطرتها وأساسها، وليست لها مباشرة ولا معاشرة مع المادة والماديات، تعشق أي ذكر روحاني يشير إلى أحوال المفارقات وعالم المعنى، فتحصل لها حالة الوجد والبهجة والدهشة، وذلك للعلاقة القائمة بين الإنسان السليم بالطبع وفطرته من جهة، وعالم الغيب والنقاء من جهة أخرى. وهذه حقيقة ثابتة بالتجربة القاطعة غير القابلة للإنكار^(٣).

ويمكن إيجاز ما ذهب إليه ابن سينا على هذا الصعيد بما يلي:

١- النزعة نحو الكمال والحق، أمر كامن في فطرة الإنسان وطبعه، ولذلك

(١) راجع: السياسة المدنية: ٧٥.

(٢) ابن سينا (ت / ٤٢٨هـ)، هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا، أعظم شراح فلسفة أرسطو، وأفضل من تحدّث من فلاسفة المسلمين في الأفلاطونية المحدثة، بل هو واضع الصيغة العربية لتلك الفلسفة، ولم يكن يباريه أحد - حتى الفارابي - في عرضه لنظريات أرسطو، وعندما بدأ الأوربيون ينقلون الفلسفة اليونانية عن العرب كانت مؤلفات ابن سينا هي أول ما اتجهوا إليه من المؤلفات الإسلامية، وأطلقوا عليه اسم Avicenna، وأخذ عنه ألبرتس الكبير، وتوما الأكويني، وسكوت، وهيسبانوس وغيرهم كثير، له مؤلفات كثير تزيد على المائة، أشهرها: الشفاء، والإشارات والتنبيهات، وعيون الحكمة. قيل: إن تأثير فلسفته كان قوياً على المشتغلين بالدين من الأديان السماوية الثلاثة جميعها!

(٣) الإشارات والتنبيهات / ابن سينا ٣: ٣٥٤.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة.....٦٧
يستشعر اللذة عند إدراك حقائق العالم.

٢- يمكن إستشعار هذه العلاقة عن طريق التجربة.

٣- يمكن الحفاظ على الفطرة وفاعليتها من خلال تجنب الأهواء النفسانية.
ومن خلال هذه الملاحظات يمكن الإذعان بوجود حقيقة في ضمير كل
إنسان تدفعه نحو أعمال الخير وآفاق الأمل وليست هي إلا الفطرة، ولو وقع
حجاب بين الإنسان وفطرته، فبمقدوره إزاحة هذا الحجاب عن طريق التنبيه
والتذكّر.

٣- محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨هـ):

ينظر العرفاء والحكماء المسلمون إلى الفطرة من زوايا مختلفة.

فالعارف ابن عربي ينظر إليها من زاوية عبادة الله، ويشير إلى أمرين:
أحدهما: إن الفطرة جزء من طبع الإنسان.

والآخر: إنها تعمل بالدرجة الأولى في ميدان التوحيد، ثم في ميدان الابتعاد
عن الذنوب والمعاصي، اعتقاداً منه أن الشرك يمثل أساس الذنوب ومصادرها،
مستشهداً في ذلك بالآية الكريمة: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾^(١) إذ
بعد أن يأمر القرآن في هذه الآية بعبادة الله تعالى، يشير إلى سلسلة من وظائف
الإنسان كإيذاء الوالدين وحقوق الوالدين وحقوق المساكين، منبهاً على اجتناب الذنوب
كإيذاء الوالدين، والتبذير، والرياء، وقتل الأبناء، وأكل مال اليتيم، وغيرها، ثم
يعاود التأكيد على التوحيد وعبودية الله، ويحذّر الإنسان من مغبة الوقوع في أيّ
لون من ألوان الشرك: ﴿... وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾^(٢).

(١) سورة الإسراء: ١٧ / ٢٣.

(٢) سورة الإسراء: ١٧ / ٣٩.

وصفوة رأي ابن عربي: إن شجرة التوحيد العظيمة وفروعها وأغصانها مغروسة فطرياً في طبع الإنسان. كما أن لهذه الفطرة نزعتين: الأولى نحو توحيد الله وعبادته. والثانية الإبتعاد عن الشرور والقبائح والانحرافات^(١).

أي: أن فطرة الإنسان قائمة على التوحيد، وإنها لا تنعدم. والمشرك إنما هو شخص قد ضلّ الطريق الذي يوصله إلى الله، وذلك بعد تصوّره أن الأصنام تقربه إلى الله وتشفع له، فعبدها جهلاً، وازداد انحرافاً من خلال عبوديته لها.

والشاهد على أن المشركين لم يضلوا معبودهم الحقيقي - وإنما ضلوا الطريق إليه فقط - هو إن القرآن الكريم طالب المشركين بتسمية الشركاء الذين جعلوهم لله: ﴿... وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمُّوهُمْ...﴾^(٢)، وحينذاك سيسمونهم بأسماء من قبيل الرزاق، والمحبي، والخالق، لكنهم لو عادوا إلى أنفسهم لرأوا أن الذي يعبدونه غير الذي يسمونه. الأمر الذي يؤدي إلى خلق تناقض حادّ في باطنهم.

٤ - صدر المتألّهين الشيرازي (ت / ١٠٥٠هـ)^(٣):

يعتبر صدر المتألّهين الشيرازي الفطرة رصيد سعادة الإنسان في الحياة، ولولاها لكانت حياة الإنسان عبثاً وبدون معنى، إذ لولا الفطرة لما كان بالإمكان بلوغ الغاية. وفي هذا يقول:

«لما كان كل مسافر للتجارة لا بدّ له من رأس مال، وقد ثبت أن الإنسان

(١) الفتوحات المكية / ابن عربي ٥ : ٤٥ وما بعدها.

(٢) سورة الرعد: ١٣ / ٣٣.

(٣) الملاً صدرا (ت / ١٠٥٠هـ) هو محمد بن إبراهيم القيومي المعروف بصدر الدين

الشيرازي، وصدر المتألّهين، والمعلم الأوّل في مدرسة الفلسفة الإسلامية الإلهية. ولد في شيراز، له عدّة كتب منها: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، وهو أشهر كتبه، و(شرح أصول الكافي) وغيرها، يعدّ آخر الفلاسفة العظماء من فلاسفة المسلمين.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة..... ٦٩

مسافر للتجارة، فلا بدّ له من رأس مال، ورأس ماله هو الفطرة الأصلية التي قد فطره الله عليها، وهي القوة الإستعدادية لأجل الوصول إلى الدرجات العاليات، والفوز بالمنازل والسعادات، ومن لم يكن رأس مال تجارته الفطرة السليمة سيكون الندم والخسارة حليفه، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾^(١) إشارة رائعة إلى استبدالهم فطرتهم السليمة التي جبلوا عليها بفطرة ثانوية نتيجة لما كانوا عليه من انحراف وعدم استقامة، إذ الهدى عبارة عن كون السالك على الطريق الذي يؤدّي إلى مطلوبه، ويقابله الضلال وهو كونه جائراً منحرفاً عن ذلك الطريق»^(٢).

وأما عن السؤال الذي قد يتبادر إلى الأذهان، وهو: «كيف اشتروا الضلالة بالهدى وهم ما كانوا على هدى قط»؟

فقد أجاب عليه صدر المتألهين قائلاً:

«لأنّ كل واحد من الناس من أول نشأته وحادثة وجوده، على رأس الطريق منه إلى الله، فهو على هدى بحسب الفطرة، وإنّما يقع الجور بحسب ما يكتسبه من الأفعال والاعتقادات كما في الحديث «كلّ مولود يولد على الفطرة»^(٣).

هـ - الحكماء الرواقيون:

يعتبر الحكماء الرواقيون الفطرة وسيلة لمعرفة الحسن والقبح، ويقولون: إنّ الإنسان لا قيمة له قط من دون هذه المعرفة.

(١) سورة البقرة: ١٦٢.

(٢) تفسير القرآن / صدر المتألهين الشيرازي ١: ٤٤٥.

(٣) سبق تخريجه ص: ٤٧.

٧٠.....بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية/ ج ١

ويتحدّث نصير الدين الطوسي (ت/ ٦٧٢ هـ)^(١) في كتاب أخلاق ناصري عن المذهب الرواقي^(٢)، ويقول بأن الرواقيين يعتقدون أنّ جميع الناس قد خلّقوا على فطرة خيرة، ولكن ممارسة الأعمال القبيحة والإصرار عليها، يخلق لديهم فطرة ثانوية تقودهم نحو الممارسات المشينة^(٣).

٦- سعيد الدين الفرغاني (ت / ٧٠٠ هـ):

يتحدّث سعيد الدين - وقيل سعد الدين - محمد بن أحمد الفرغاني الصوفي في شرحه على قصيدة ابن الفارض (ت/ ٦٣٢ هـ) التائية المعروفة بمشارك الدراري^(٤)، عن الفطرة ويصفها بأنّها علم الذات ومرافقة للوجود، بل عين الوجود لبعض الاعتبارات ويقول: بأنّ ما يشاهد لدى الموجودات من استحصال المنافع لنفسها ودفع المضار عنها، إنّما هو بالذات وبإيحاء من الفطرة، ولكن قد

(١) «نصير الدين الطوسي (٥٩٧ - ٦٧٢ هـ)، أبو جعفر محمد بن محمد بن الحسن، ولد ونشأ بطوس، عدّه سارتون (من أعظم علماء الإسلام ومن أكبر رياضيينهم»، وقال بروكلمان إنّهُ (من أشهر علماء القرن السابع الميلادي، وأشهر مؤلفيه إطلاقاً)، وكان فقيهاً وفيلسوفاً وفلكياً، يتفجر علماً ويتوقد ذكاء حتى قيل بحقّه أنّه لم ير مثله في حدّة ذكائه وشدّة فطنته، استدرك على إقليدس عدداً من البراهين في المتوازيات، وأنشأ مرصداً فلكياً عظيماً وأسس بمراغة مكتبة عظيمة بلغ عدد كتبها أربعمئة ألف مجلد، له كتب كثيرة، أهمها: تجريد الاعتقاد، وشرح إشارات ابن سينا، وإثبات العقل الفعال، والحواشي على كليات القانون لابن سينا، والتجريد في علم المنطق، وغيرها.

(٢) ظهر هذا المذهب في أثينا stoicism بعد أرسطو (سنة/ ٣٠٨ ق.م) وكان من تعاليمه إلغاء الفروق بين اليونان والبربر، واعتناق فكرة الإخوة بين بني الإنسان على أساس المنطق العالمي Universal Reason ونادى معتنقوه بفكرة القانون العالمي Universal Law.

(٣) أخلاق ناصري / نصير الدين الطوسي: ١٠٣.

(٤) وأولها:

سقتني حمياً الحبّ راحةً مقتلي وكأسي محيا من عن الحُسنِ جلتِ

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة..... ٧١
تحجب هذه الفطرة بحجاب كامل من العادات وغيرها، وهذا ما يمكن معرفته من
قوله ﷺ: «كُلُّ مولود يولد على الفطرة، لكن أبواه يهودانه وينصرانه
ويمجسانه»^(١)، أي يحجبانه عن الفطرة بأحكام عاداتهما^(٢).

٧- السيد حيدر الأملي (كان حياً قبل ٧٨٧ هـ):

يعتقد السيد حيدر الأملي أنّ الفطرة عامل مقرب إلى الله، ويرى أنّ
الإنسان إذا تخلّى عن فطرته، أصبح بعيداً عن الله تعالى، وعن جميع القيم
الإنسانية.

(١) أخرجه الشيخ الصدوق في الفقيه ٢: ٤٩ / ١٦٦٨، وعلل الشرائع ١: ٣٧٦ عن الفضيل بن
عثمان، عن الإمام الصادق عليه السلام.

وانظر: شرح الأخبار / القاضي النعمان ١: ١٩٠ ذيل حديث / ١٤٧، وتصحيح الاعتقاد /
الشيخ المفيد: ٦١، والأمال / السيد المرتضى ٤: ٤، واحتجّ به الشيخ الطوسي في الخلاف:
٥٩١ مسألة (١٩) في أنّ الأم إذا أسلمت وهي حبلية من مشرك أو كان لها منه ولد غير بالغ
فإنه يحكم للولد والحمل بالإسلام ويتبعانها.

والحديث المذكور رواه أربعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ، وهم:
سمرة بن جندب، وعبد الله بن عباس، أخرجه عنهما البزار كما في مجمع الزوائد ٧: ٢١٨،
والأسود ابن سريع كما في السنن الكبرى للبيهقي ٦: ٢٠٣ وهو من أحاديث أبي هريرة
المشهورة في الصحاح والسنن إذ رواه عنه مرفوعاً كل من:
أبي صالح: مسند أحمد ٢: ٣٤٦، وصحيح مسلم ٨: ٥٣، وسنن الترمذي ٣: ٣٠٣ / ٢٢٢٣
و٢٢٢٤.

وأبي سلمة: صحيح البخاري ٢: ٩٨ و ١٠٤، و ٦: ١٢٠، وصحيح مسلم ٨: ٥٣.

وسعيد بن المسيب. صحيح مسلم ٨: ٥٢.

والأعرج: سنن أبي داود ٢: ٤١٦ / ٢٧١٤.

وعبد الحميد بن عبد الرحمن: السنن الكبرى / البيهقي ٦: ٢٠٣.

وهمام: صحيح البخاري ٧: ٢١١، وصحيح مسلم ٨: ٥٤.

(٢) مشارق الدراري / سعيد الدين الفرغاني: ٣٠٣.

٧٢.....بشارة الأمان ..المباحث الفلسفية والكلامية/ج ١

ولم تغب الفطرة التوحيدية عن عين هذا العارف والسالك، لأنه - وعلى غرار سائر العرفاء الإلهيين - يعتبر الإنسان مخلوقاً ومجبولاً على الفطرة الإلهية. ولا يوجد أي هدف للإنسان، بل ولكل موجود، سوى التقرب إلى الله تعالى. فهو يقول بوضوح: «ومعلوم أن الفطرة هي إقرار كل شيء بالألوهية والربوبية، وأن له خالقاً وأنه لم يخلق نفسه، وأن جميع الموجودات مجبولة عليه (أي على التوحيد) مخلوقة لأجله»^(١).

ويقوم استدلال السيد حيدر الأملي على الفطرة بالآية الكريمة: ﴿تَسْبِحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٢)، لأن التسبيح مؤخر عن معرفة الحق تعالى، والمعرفة مؤخرة عن الوجود، «وعلى هذا التقدير لا يوجد شيء إلا يكون فيه هذه الثلاث، أي العلم بوجود موجد، والعلم بأنه واحد، والتسبيح له. وإذا كان كذلك فتكون المعرفة الحقيقية الجبلية موجودة في كل شيء. والمعرفة الجبلية ليست إلا على حسب التوحيد»^(٣).

٨- عبد الله الأنصاري وعبد الرزاق الكاشاني:

ينظر هذان العارفان إلى الفطرة من زاوية محاسبة النفس والتوبة. ويطوي سائر العرفاء المسلمين في موضوع الفطرة نفس الطريق الذي تناولناه سابقاً. فالجميع يعتقد بنقاء الفطرة، وإنها فطرة إلهية توحيدية، لكن الغفلة التي تطرأ على الإنسان تُسدل عليها الستار، وتحجبها وتعيق فاعليتها. ويعتبر كمال الدين

(١) جامع الأسرار ومنبع الأنوار / السيد حيدر الأملي: ٥٧.

(٢) سورة الإسراء: ١٧ / ٤٤.

(٣) جامع الأسرار ومنبع الأنوار / السيد حيدر الأملي: ٥٧.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة..... ٧٣

عبد الرزاق الكاشاني في شرحه على (منازل السائرین)، التوبة والإنابة أمراً مهماً في نفض الغبار عن الفطرة، لاسيما فطرة أولئك الذين لم تختف تماماً خلف حجب الدنيا، فيقول:

«التوبة تقتضي المحاسبة التي هي إشتغال برفع الموانع، والإنابة لا تكون إلا بصفاء الفطرة الموجب للتذكر، والتذكر لا يكون إلا لذي اللب الخالص عن قشر غواشي النشأة. قال الله تعالى: ﴿... وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١). (٢) ويقول أيضاً:

«لا يقدر على إثارة رضا الله على رضا الكل إلا بهذه الأشياء الثلاثة: أولها: طيب العود، أي: طهارة الأصل ونقاؤه، ونزاهة الفطرة وصفائها، لينجذب بسنخه إلى عالم النور، ويرجح جانب الحق بصفائه ونوريته على الغير...» (٣).

وانطلاقاً من ذلك يؤكد على أن: «عين اليقين هو شهود الأشياء - كما هي - بالكشف، أي بالعودة إلى الفطرة الأولى وإدراك الحقائق في عالم القدس» (٤). وصفوة الكلام: إن الحكماء الإلهيين والعرفاء المسلمين يتفقون في أن وجود الإنسان لديه اقتضاء باطني، وجاذبية ذاتية نحو الحق والحقيقة ومبدأ الخلق. ويعتقدون بوجود فطرة ينطلق المرء بمقتضاها لطلب الحقيقة المطلقة، والتقرب إليها. وبالرغم من الكمائن الباطنية والخارجية طوال السير نحو تلك الحقيقة، والتي تسعى لإخراجه عن ذلك المسار، لكن الأمر الذي لا شك فيه هو أن ظهور

(١) سورة البقرة: ٢٦٩/٢.

(٢) منازل السائرین / أبو عبد الله الأنصاري: ٥٧.

(٣) المصدر نفسه ٢٣٣.

(٤) منازل السائرین: ٢٨٤.

الاستعدادات والكمالات الإنسانية في كل عصر وزمان يتحقق في ظل اتباع الإنسان الكامل، أي: معرفة الله المتعال.

ولا ريب في أن معرفة الله ستقود إلى معرفة صفات الله. وفطرة الإنسان تشاهد قدرة الله وعدله ورحمته ورازقته في سائر أرجاء الكون، وتشاهد كذلك صفات الجمال والجلال الإلهية، وتعشق هذه الصفات، وتتمنى أن تتجلى على الأرض في حياة الإنسان. ولا شك أيضاً في أنه كلما ازدادت صفة العدل والرحمة، كلما ازدادت فطرة الإنسان فرحاً وسروراً. وعلى هذا الضوء سيكون لدى الإنسان الكامل حبّ عظيم لأنه مرآة الصفات الإلهية. وقدوة للناس، وحافظ للصفات الإلهية والإنسانية البارزة. لذلك يُقال: إنّ الوجود المبارك لولي العصر أرواحنا فداه، معشوق ومحبوب من قبل فطرة جميع الناس، ولا يمكن أن نرى هذه الفطرة منفصلة عن هكذا إنسان، مثلما لا يمكن اقتطاع معرفة الله عن فطرة الإنسان، ولا يمكن أن نجد فطرة خالية من التوحيد والصفات الإلهية.

المبحث الخامس

النزعات الفطرية من منظار بعض المفكرين الغربيين

يمكن تقسيم المفكرين الغربيين من حيث المعرفة إلى مجموعتين:

الأولى: هم العقليون الذين يقولون بأصالة العقل.

والثانية: هم الحسيّون الذين يعطون الأصالة للحسّ. فالعقليون يعتقدون أنّ

الإدراكات الذهنية فئتان:

الأولى: ترد إلى الذهن بشكل مباشر عن طريق إحدى الحواس.

والثانية: هي تلك التي ابتدعها العقل مسبقاً، أي أنّها إدراكات فطرية.

ويرى العقليون أنّ هذا اللون الأخير من الإدراكات والتصورات ليس له أي

مصدر آخر غير العقل وأنه حاصل له قبل أيّ حسّ وإحساس.

الفطرية الديكارتية:

ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠م)^(١) الذي يتصدر قائمة العقليين، يؤمن بأنّ بعض

المفاهيم والتصورات كالوجود والوحدة، مفاهيم فطرية وذاتية للعقل. ويقول:

«يجب أن نوجّه بدون أية صعوبة جميع التصورات المسبقة للحواس نحو

(١) تقدّمت ترجمته في المبحث الثاني من هذا الفصل ص: ٥٤.

جهة واحدة، ولذلك ينبغي الوثوق بالقوة المدركة، وأن نتأمل بدقة التصورات المفطورة فيها بالطبع»^(١).

ويفهم فردريك كابلستون في كتابه المعروف (تاريخ الفلسفة) كلمات ديكارت هذه، بنزوع ديكارت إلى صوابية الفطرة في كل شيء، قال: «طبقاً لرأي ديكارت أنه يمكن من خلال الاستنتاج المنطقي الصرف، وبعض التصورات الفطرية التي أودعت في أنفسنا بواسطة الطبيعة، أو بواسطة الله - كما قال فيما بعد - تأسيس علم ما بعد الطبيعة، وعلم الطبيعة. فجميع التصورات الواضحة والتممايزة، فطرية وجميع المعرفة العلمية، إما معرفة فطرية، أو معرفة تتم بواسطتها»^(٢).

إذن يعتبر ديكارت أساس فهم الإنسان، وإدراكه لنفسه، ولما حوله، والله فطرياً. فالفطرة أمر مشترك بين الجميع، وتُعدّ معياراً للأفكار والنظريات. فما تستحسنه فطرة الإنسان يمثل عين الحقيقة، وما لا تستحسنه، وما يُفرض عليها يُعدّ غير حقيقي.

إن ما تعنيه الفطرة في عقيدة ديكارت هو عين ما يوافق عليه الفكر الحقيقي. وبعبارة أخرى: إنه بوسع المرء أن ينظر إلى حقائق العالم من منظار الفطرة، لأنّ هذا اللون من النظر في فلسفة ديكارت، نظر حقيقي صائب.

نقد الفطرية الديكارتية:

لا يوافق الحكماء والفلاسفة المسلمون على التفسير الذي يقدمه ديكارت

(١) أصول الفلسفة / رينه ديكارت، ترجمة منو جهر صانعي.

(٢) تاريخ الفلسفة / فردريك كابلستون، ترجمة غلامرضا أعواني ٤: ١٠٧.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظور الفطرة.....٧٧
للعلم الفطرية، فهم يعتقدون أنّ ذهن الإنسان خال في بادئ الأمر من أية
تصورات ومفاهيم، وأنّ جميع المعلومات الإنسانية تحصل تدريجياً،
وبمساعدة قوى الحسّ والعقل.

وتعدّ هذه الفكرة من أعقد الأفكار المثارة في حقل المعرفة، ولا يمكن
إيضاحها في عدّة أسطر. فالحكماء المسلمون يعتقدون بالإيمان الإلهي الفطري
الذي هو من نمط النزعات والإنجذابات الفطرية، وليس من نوع المعلومة
الفطرية. فالإنسان ينزع في وجوده وخلقه إلى مبدأ الخلق، فيجد الاطمئنان
والهدوء في ظل الإيمان به، وليس أنّ الله قد وضع معرفته منذ بداية الخلق في
ذهن الإنسان بشكل واضح.

فطرية سبينوزا:

يذهب الفيلسوف باروخ سبينوزا^(١) (١٦٣٢ - ١٦٧٧م) في كتابه (الأخلاق)
إلى أنّ المعرفة الفطرية والباطنية لله هي الطريق الوحيد لبلوغ السعادة العليا.
ويعتبر المعرفة اليهودية بالله طريقة وحيدة لتحقيق الاطمئنان

(١) سبينوزا بنيدكت أوباروخ: (1632 - 1677 AD) Benedictus or Baruch Spinoza
فيلسوف يهودي هولندي من أصل أسباني، من أشهر القائلين بوحدة الوجود،
من كتبه:

«المباني الفلسفية لديكارت: Renati Descartes Principiorum Philosophiae».

و«رسالة في إصلاح العقل: Tractatus de Intellectus Emendation».

و«الرسالة اللاهوتية السياسية: Tractatus theologico-Politicus».

و«الأخلاق: Ethica».

ويعد الكتاب الأول سبباً في ذيوع صيت سبينوزا وشهرته، و(باروخ) اسمه بالعبرية لكنّه
أبدله إلى اللاتينية بـ (بنيدكت) وهو بمعنى (باروخ).

النفسي .

يقول سبينوزا بهذا الشأن:

«ما هو مفيد لنا كثيراً في حياتنا، أن نكمل قدر الإمكان الذهن أو العقل. والسعادة العليا للإنسان هي هذا الأمر بالذات، لأنها ليس سوى حالة الهدوء والاطمئنان التي تحصل من المعرفة الشهودية لله، وإكمال الذهن ليس سوى إدراك الله تعالى وصفاته وأفعاله، الناشئ من الضرورة الطبيعية»^(١).

والمدهش في الأمر أن عبارة سبينوزا هذه، توحى بمعنى الآية القرآنية الكريمة القائلة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٢). فذكر الله تعالى هو الذي يضحّ الاطمئنان في القلوب، لأنه ينسجم مع الفطرة، ويتناغم مع الطبع الذي جُبل عليه الإنسان.

يرى سبينوزا أن النزعة نحو الله، والبحث عن الله، هو الهدف النهائي للإنسان، ولذلك ينبغي بواسطته التغلب على كافة النزعات الأخرى.

النزعات الفطرية:

الفطرة قوة طلب الحق والكمال والسعادة، وهي قوة عجينة مع وجود الإنسان، ومتأصلة في طبعه وضميره. فللإنسان خصوصية منبثقة من فطرته وطبعه، وليست هذه الخصوصية أمراً مكتسباً من العوامل والظروف الخارجية، وإنما هي كامنة في ذات الإنسان. فتعدّ الفطرة على هذا الأساس نوعاً من النزعة والانجذاب، والدافع والمحرك، وليست نوعاً من المفاهيم والتصورات الذهنية.

(١) الأخلاق / باروخ سبينوزا، ترجمة دكتور محسن جهانگیری: ٣٦٧.

(٢) سورة الرعد: ٢٨/١٣.

ف ١ : وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة..... ٧٩

كما أنّها موجودة مع الإنسان منذ بداية وجوده .

خلال رحلتي العلمية إلى أوروبا التي ناقشت فيها كثيراً من فلاسفة الغرب

وعلمائه ، التقيت بالفيلسوف الفرنسي المعاصر بول ريكور . ومن بين القضايا التي

أثارها هي : ما هو الشيء الذي يُلزم الإنسان بالفعل بالقانون؟ وسألته: ما هو

الشيء الذي تعتقدون - كفلاسفة غربيين - أنّه يضمن العمل بالقانون؟ فقال: نعتقد

أنّ الأخلاق هي التي تدفع المرء نحو عدم مخالفة القانون. فسألته: ما هو ذلك

الشيء الذي تنبثق منه الأخلاق ، ويجعل منها ضابطاً يستخدمه الإنسان في

حياته الفردية والاجتماعية ، وعلاقاته الإنسانية؟ فهذه الأخلاق الحميدة التي

تدفع الإنسان نحو العمل بالقانون ، والمعايير الاجتماعية ، وإحترام العلاقات

الإنسانية ، لا بد أن يكون لها رصيد وأساس ، فما هو هذا الرصيد والأساس؟

ثمّ أخبرته أننا نعبر في ديننا عن هذا الرصيد بالفطرة ، ونعتبرها منطلقاً لتقوى

الإنسان . فنالت هذه الفكرة استحسانه ، وأثارت دهشته .

ما نريد أن نقوله هو: إنّ الاعتراف بوجود فطرة مشتركة بين الناس تطلب

الحق والكمال ، يبرهن على قاعدة أساسية ، يمكن على ضوءها تفسير وتبيين

العديد من النظريات ، والأصول العلمية والعقائدية ، والتي منها الإيمان بالله تعالى

وإطاعته ، وكذلك الإيمان بالإنسان الكامل ، وصاحب الولاية كمظهر للحق ،

وظهور للحقيقة الاعتقادية النابعة من حبّ الإنسان للإنسانية الحقيقية . فمن

باطن الإنسان ينطلق نداء عظيم لكنه ليس مفهوماً ، أو تصوراً ذهنياً ، وإنّما هو

نزعة ذاتية تدفع الإنسان نحو مبدأ الخلق والعدل العالمي .

«إذن الهدف النهائي للإنسان الذي يخضع لتوجيه العقل ، أي: أسمى

٨٠.....بشارة الأمان ..المباحث الفلسفية والكلامية/ج ١

الأهداف التي يسعى الإنسان بواسطتها للتغلب على مراميه الأخرى، هو ذلك الهدف الذي يقوده لتصور نفسه بشكل تام، وجميع تلك الأشياء التي من الممكن أن تقع ضمن دائرة إدراكه وفهمه»^(١)، لكن «أسمى شيء يمكن أن تفهمه النفس وأعظم خير لها، هو معرفة الله»^(٢).

(١) الأخلاق / باروخ سبينوزا، ترجمة دكتور محسن جهانگیری: ٣٦٧.

(٢) المصدر نفسه.

المبحث السادس خفاء وظهور الفطرة

الفطرة نور الله تعالى الذي يتلطف به على الإنسان منذ البداية أثناء وجوده في رحم أمه. وهذه اللطيفة الإلهية تمثل منطلق الوحي والمعارف الإلهية، وظرف النبوة والولاية، ومهد فيوضات الله. وكلما واكبت الفطرة الوحي والولاية، كان نورها أكبر، وظرفها أكثر امتلاءً بحقائق العالم ومعارفه. أما إذا ابتعدت عن النبوة والولاية، تضاعل ضوءها حتى تشحب تماماً، وحينذاك لا تدفعه نحو الفضائل، ولا تنهاه عن القبائح.

للقرآن الكريم تعبير رائع في مضمارة العقيدة والعمل. فهو يقول: ﴿..إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...﴾^(١). فالكلم الطيب هو التوحيد والمعرفة. ويتحرك الخير المطلق نحو الله، أي: أن طريق التوحيد الذي هو الفطرة، يتصل بالخالق المتعال. وكلما ازداد العمل الصالح، ازدادت سرعة التوحيد، والإخلاص، والمعرفة.

هذه الآية تتحدث عن الإيمان، وكأنه على أهبة الانطلاق نحو السماء، لكنه

(١) سورة فاطر: ١٠/٣٥.

ينتظر الوساطة التي يخلق بها والمتمثلة بالعمل الصالح .
ويمكن التعبير عن الحقيقة السابقة بأن الإيمان بالله تعالى ينطلق نحو الله بشكل تدريجي ، غير أن العمل الصالح يعجل في عملية الانطلاق تلك ، بحيث لو تخلى الإنسان عن العمل الصالح لعاد الكلم الطيب إلى الأرض ، وفقد القابلية على التحليق .

ولازلت أتذكر كلمة أستاذي المرحوم العلامة السيد الطباطبائي رحمته الله ، والتي سمعتها في إحدى محاضراته الرائعة في تفسير القرآن الكريم ، قال رحمته الله : يبدو أن كلمة التوحيد قد تحركت من الأرض وتعلقت بين الأرض والسماء . والقوة التي تجذبها نحو السماء هي العمل الصالح . بتعبير آخر ، إن كلمة لا إله إلا الله التي تخرج من فم المؤمن ، تتعلق في الفضاء كالنور ، أما أعمال الإنسان الصالحة ، فهي الوساطة التي تحمل ذلك النور وتنطلق به نحو الملكوت الأعلى . ولذلك يقول القرآن الكريم : ﴿... وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ﴾ (١) .

غرضنا من الاستشهاد بهذه الآية المباركة هو : مثلما يتقوى الإيمان بواسطة العمل الصالح ، كذلك تتقوى الفطرة وتزداد تألقاً وإشراقاً في ظرف النبوة والولاية .

ويمكن التعبير عن قوة وضعف الفطرة بخفاء الفطرة وظهورها . فكلما استغرقت الفطرة في الوحي والولاية والعمل الصالح ، كلما انعكست أشعتها بشكل أكبر على أعضاء الإنسان وجوارحه وما يحيط به . كذلك كلما ركست في الإلحاد والشرك ، ازداد خفاؤها وكثرت حجبها ، ولن نلاحظ لها نوراً في القلب

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة..... ٨٣

والأعضاء والجوارح. إنَّها كالشمس، إذ كلما اقتربت من وسط السماء كان نورها أشدَّ وأشعتها أكثر استقامة على الأرض. وكلما انحدرت نحو المغيب خفتت حرارتها وقلَّت أشعتها، كذلك كلما كانت روح الإنسان أكثر استعداداً لاستقبال شروق الفطرة، كان فجرها ونهارها أكثر إشراقاً، وحياة الإنسان أعظم طيبة وأروع جمالاً.

حينما يصاب الإنسان بالمعاصي والإلحاد، تغرب الفطرة في باطنه لكنها لا تتعدم، لذلك حينما يقول القرآن الكريم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً..﴾^(١)، فإنَّه يؤكد على انبثاق جميع المعارف الإلهية للوحي من الفطرة، فالمسار الوحيد للإنسان في حركته نحو الله هو مسار الفطرة. غير أنَّ انحراف البعض عن طريق الفطرة لا يعني زوال الفطرة وانعدامها، وإنَّما احتجابها خلف حجب الأهواء والشهوات.

تنامي الفطرة:

تؤلف المعلومات الذاتية الخفية، والنزعات، والانجذابات الباطنية، أهم أبعاد فطرة الإنسان، والتي تؤثر عليها مجموعتان من العوامل:
الأولى: عوامل تؤدي إلى تنامي الفطرة ونضجها.

والثانية: عوامل تحول دون تنامي وتطور النزعات الفطرية. ويُعدُّ الاهتمام بتربية حسِّ حبِّ الخير، والمراقبة المستمرة للذات، والحفاظ على النفس من الوقوع في فخ الخطايا، من العوامل المؤثرة إيجابياً على تنامي الفطرة وتعزيزها.

الاهتمام بتربية حسِّ حبِّ الخير:

يقول صدر المتألهين الشيرازي^(٢): إنَّ الله سبحانه وتعالى قد وضع لكل

(١) سورة الروم: ٣٠/٣٠.

(٢) الأسفار الأربعة / ملا صدرا ٦: ٣٦٩.

موجود من الموجودات غاية وهدفاً يتحرك باتجاهه وينال كماله وخيره. وقد قال القرآن الكريم: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾^(١)، حيث يمثل حب الكمال أهم الأسباب والوسائل، فالإنسان ومن خلال قطع طريق الكمال يستطيع الوصول إلى أعلى النقاط وغاية الغايات وخير الخيرات، فالشرط الأساس والمحوري لحركة الإنسان نحو الكمال هو حبه لهذا الطريق. وعلى المرء السعي لتأجيل هذا الحب. فتريبة هذا الحب لمصدر الكمالات - أي: الله تعالى - وتجلي كمالاته في الإنسان، أمر يبعث على تنمية الفطرة وتقويتها. لذلك يُعدّ حبّ الكمال الإنساني والتطلع إليه معياراً لمدى القيم التي يحملها كل إنسان. يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾^(٢).

فالحبّ يمثل طريق التكامل، أمّا حينما لا يوجد هذا الحب، سيتراجع الإنسان عن هذا الطريق، ويرتدّ عن الهدف. فذكر الله وحبّه والإقبال على الفضائل والخيرات، يجعل من الإنسان إنساناً كبيراً، ويخلق منه عضواً نافعاً في المجتمع، ويبعده عن الميل إلى المعاصي، والقبائح، والموبقات.

مراقبة النفس وحفظها من المعاصي:

حينما يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٣)، يؤكد على ضرورة شكر القوى الباطنية والظاهرية. وشكرها تعبير آخر عن استخدامها في مسار الخلقة الصحيح، بمعنى: أنه لو انطلق الإنسان بسمعه وبصره وفؤاده على طريق

(١) سورة طه: ٥٠/٢٠.

(٢) سورة المائدة: ٥٤/٥.

(٣) سورة النحل: ٧٨/١٦.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة..... ٨٥

لخير والعدل والتوحيد، لكان شاكراً، وهذا هو عين البقاء في مسار الفطرة.
فالفؤاد مركز الإدراكات الباطنية، وهو: «وسط القلب»^(١). ويعتقد الراغب
الإصفهاني أن: «الفؤاد كالقلب، ولكن يقال له: فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفقد أو
التوقد»^(٢). بينما يصفه العارف الورع السيد حيدر الأملي بأنه معدن المعرفة^(٣).
أي أنه الموضوع الذي تنبعث منه الرقة الإنسانية. ويتحدث الراغب الإصفهاني
عن مشتقات هذه الكلمة أيضاً فيقول: حينما يقال: «لحم فئيد» يراد به اللحم
المشوي، فكما تشوي النار اللحم، كذلك تعمل المعرفة العميقة على إنضاج
القلب، والوصول به إلى مرحلة الفؤاد.

ويقول الفخر الرازي في ذيل الآيتين الكريمتين: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي
تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾^(٤)، إنَّ الفؤاد هو أطف نقطة في القلب. وقد سمى الرسول
الأكرم محمد ﷺ آخر نقطة في القلب فؤاداً^(٥).

وقد تحدث القرآن الكريم عن حالتين للفؤاد، تحكيان عن الخصوصيات
لعارضة عليه:

تكشف الأولى: عن ذروة المعرفة.

وتشير الثانية: إلى الإدبار والانحطاط العارض على القلب.

فحينما يقول: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(٦)، يعني أن فؤاد الرسول ﷺ
يتمتع بالعصمة عن الوقوع في الخطأ، وهو ما يمثل ذروة الفؤاد.

(١) لسان العرب / ابن منظور ٣: ٣٢٩.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (المفردات في غريب القرآن) / الراغب الإصفهاني: ٣٨٦ (فأد).

(٣) جامع الأسرار / السيد حيدر الأملي: ٥٨٢.

(٤) التفسير الكبير / الفخر الرازي ٣٢: ٩٤.

(٥) التفسير الكبير / الفخر الرازي ٣٢: ٩٤.

(٦) سورة النجم: ١١/٥٣.

وحيثما يقول: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾^(١)، قال بعض المفسرين في تفسيرها: إنَّ النار التي يوقدها الله، تخرج من الفؤاد، بينما يقول آخرون: إنَّ هذه النار تستقر في الفؤاد. ولو أنعمنا النظر جيداً لرأينا أنَّ كلا الرأيين صحيح. فتلك النار تخرج من الفؤاد ثمَّ تعود إليه، أي: أنَّ نار جهنم تشتعل في باطن القلب وأعماقه، وتعود إلى نفس تلك النقطة أيضاً، لأنَّ هذه النقطة هي نقطة اختيار الإنسان وإرادته وقراره. فالنار تستقر في تلك النقطة المسؤولة عن ضياع الإنسان.

ثمة رواية عن عائشة تقول فيها: أنَّها بحثت في سحر إحدى الليالي عن الرسول محمد ﷺ فوجدته ساجداً في المسجد، وهو يقول متضرعاً متهجداً: «إلهي سجد لك سوادي وخيالي، وآمن بك فؤادي، هذه يداي وما جنيته علي نفسي، يا عظيم يرجى لكل عظيم، اغفر لي العظيم، فإنه لا يغفر الذنب العظيم إلا العظيم»^(٢).

ما يريد الرسول الأكرم ﷺ أن يبينه، وما يمكن أن تتم عنه الآيات السابقة، هو ضرورة أن يرسخ الإيمان في نهاية وجود الإنسان، وفي أعماق قلبه. ويقال لمثل هذا الإيمان: الإيمان الحقيقي، والتقوى الحقيقية. وهذه التقوى هي التي تحفظ الفطرة في جميع الأزمنة والأمكنة والأحوال.

لو استيقظت الفطرة، لكان لذلك الاستيقاظ انعكاس في الخارج، فالفطرة المتيقظة تضيء الطراوة والحلاوة والزكاء على ميدان الحياة، ولا بد أن تناجي ربها هاتفة «أين المنتظر لإقامة الأمت والعوج؟ أين طامس آثار الزيغ والأهواء؟

(١) سورة الهمزة: ١٠٤ / ٦-٧.

(٢) فروع الكافي ٣: ١٢ / ٣٢٤ باب السجود والتسبيح والدعاء فيه في الفرائض والنوافل وما يقال بين السجدين من كتاب الصلاة.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة..... ٨٧

أين قاطع حبال الكذب والافتراء؟... أين السبب المتصل بين الأرض
والسما؟^(١).

عوامل ظهور وتنامي الفطرة:

تنامي الفطرة ونضج النزعات الفطرية، بحاجة إلى توافر وإعداد بعض
نشراط والمستلزمات الباطنية والخارجية. فتزكية النفس، ومحاسبتها،
ومراقبتها، وكذلك التربية الصحيحة، والتعليم الصائب، والمحيط الاجتماعي
السليم، تُعدّ جزءاً من تلك العوامل والمستلزمات الباطنية والخارجية الضرورية
لحفاظ على الفطرة وتنميتها.

الناشئة والشباب الذين يتمتعون بأرضية فطرية قوية، والذين لم تتفوّ في
أنفسهم العوامل التي تعيق تبلور النزعات الفطرية أكثر نجاحاً من غيرهم في إبقاء
فطرتهم سليمة وقوية وفاعلة. ويكشف تاريخ الحضارة المعنوية للإنسان أنّ
هؤلاء أشدّ استجابة من غيرهم للدعوات الإصلاحية، لاسيما الدينية. وهذه
الاستجابة تمثل في حقيقة الأمر تجلياً للخير والفضائل.

العلاقات الاجتماعية الصحيحة العادلة تُعدّ من النزعات الفطرية أيضاً، لأنّ
تعدالة الاجتماعية جزء من الكمال. ولا ريب في أنّ النزعة نحو الكمال، نزعة
فطرية، والمجتمع العادل العالمي الذي هو مطلوب فطري يُعدّ من العوامل
الخارجية المساعدة على التنمية والنضج.

وبالرغم من ابتعاد الناس في العصر الراهن عن التعاليم الفطرية، لكننا نرى
تمسكهم بالعناصر الفطرية من أجل الحصول على منصب، أو منفعة شخصية، أو
اجتماعية، فيرفعون لواء حقوق الإنسان، وينادون بتحقيق العدالة الاجتماعية،

(١) المزار / محمد بن المشهدي: ٥٧٩، دعاء الندبة، وإقبال الأعمال / السيد ابن طاوس ١:
٥٠٩، دعاء الندبة.

لأنَّ الفطرة الإنسانية تعدّ رعاية حقوق الإنسان وتحقيق العدالة الاجتماعية كمالاً مطلوباً، فحبُّ الكمال والسعادة، والميل نحو جميع الصفات الإنسانية الخيرة من فروع هذا الأصل. والمراد بالأمور الفطرية هي هذه الجمالات والخير والفضائل التي عبّر عنها الإمام جعفر الصادق عليه السلام في الحديث المعروف، بجنود العقل والجهل^(١).

في هذا الحديث الشريف، يضع الإمام جنود العقل في خدمة هذا الأصل الإنساني، كالإيمان، والرجاء، والعدل، والرضا، والشكر، والتوكل، والرافة، والرحمة، والتواضع، والحلم، والتسليم، والصبر، والصدق، والأمانة، وسائر جنود الخير والعقل.

وكلما اهتم الإنسان بهذه الصفات والجمالات المعنوية، ساعد على انطلاق الفطرة نحو الأهداف الإنسانية العليا، كالطفل الذي كلما ازداد الاهتمام به وحظي بالمزيد من العناية والإشراف والمراقبة والتعليم، تعرّف بشكل أسرع وأفضل على المعارف والثقافة العالية.

تجاهل الأمور الفطرية:

عدم اهتمام الكثير من الناس بمستقبل العالم واستتباب العدل والسلام، أمر يتعارض مع الفطرة، فكثير من الأمور الفطرية قد لفّها النسيان بفعل السلوكيات المتطرفة، وكثير من الحقائق الضرورية للبشرية لم تجد أيّ نفع بالرغم من جميع الجهود والأعمال التي بذلتها المراكز والأوساط الدينية العلمية لإيقاظ الضمير الإنساني، بل ازداد الإنسان تكالفاً على الماديات، وبهارج الحياة وقشورها، مبتعداً عن المعنويات والأصالة.

(١) أصول الكافي / الكليني ١: ٢١-٢٣ / ١٤، كتاب العقل والجهل.

فا ١: وجود المصلح العالمي من منظور الفطرة..... ٨٩

وقد اختفت خلف حجب الغفلة والجهل أوضح الحقائق والمفاهيم مثل حاجة الإنسان إلى عبادة الله تعالى، وتعزيز روح العبودية لله، إلا أنّها لن تعدم نهائياً، وما أكثر أولئك الذين أقبلوا على فطرتهم من جديد، وأصغوا لندائها بعد فترة من الإدبار عنها والانغماس في التفاهات.

أمّا السؤال الجوهرى هو: لماذا يقع المرء في مثل هذه الأخطاء والانحرافات في حياته رغم الفطرة الطالبة للحق التي لديه؟

يعتقد الفلاسفة والعلماء أنّ الفطرة تدعو الإنسان نحو الأعمال الخيرة الصحيحة، كما أنّها تسهّل عليه في الوقت نفسه القيام بهذه الأعمال وممارستها. ولا بدّ له في مثل هذه الحال أن ينطلق نحو الأهداف والممارسات التي لديه قابلية فطرية لأدائها، سيما إذا لم تبرز في طريقه عوامل خارجية تقسره على تغيير مساره، وتدفعه نحو أعمال تتعارض مع مقتضى فطرته وذاته. أما إذا استمرت لممارسات غير الفطرية في حياة الإنسان، فإنّها ستتحوّل لديه إلى عادة أو إلى طبع ثانوي. ويعتقد الحكماء أنّ ظهور العادة أو الطبع الثانوي، أمر صعب للغاية كصعوبة الإرتداد عن الفطرة والخروج عليها.

يعتقد الفارابي أنّ فطرة الإنسان تقوده إلى أعمال الخير، لأنّها الطريق الذي يرى فيه سعادة الإنسانية وكمالها. وإذا ما أراد الإنسان تجاهل نداءاته الفطرية فإنّه سيزج نفسه في الأخطار ويعرضها للأضرار. فالفطرة اليقظة تحذر الإنسان - ستمرار وتندق ناقوس الخطر^(١).

السؤال السابق الذي يتساءل عن السبب في قيام الإنسان ببعض الأعمال التي تعارض مع فطرته، يُثار حتّى من قبل بعض الفلاسفة الغربيين. فالفيلسوف

١- سياسة المدنية / أبو نصر الفارابي: ٧٥ فما بعد.

الإنجليزي جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤م)^(١) رغم اعتقاده بوجود الله، لكنه لا يعتبر هذا الاعتقاد فطرياً، بل ولا يعترف بوجود أي أمر فطري، ولذلك يقول:
إذا كانت هناك أمور فطرية، فلماذا يقوم المرء بما هو متعارض معها؟
والإجابة على هذا التساؤل هي: إن النزعة نحو الخير والفضيلة، أمر بديهي، بل هي أمر مشهود قائم على التجربة وليس بالأمر الذي يشك فيه أحد، كما سبق أن نقلنا ذلك عن ابن سينا. كذلك نلاحظ نزعة الناس نحو أمور من قبيل العدل، والإنصاف، والزهد، والنقاء، وجميع القيم الإنسانية التي تجتمع في ولي الله، والنزعة بالتالي نحوه باعتباره صاحب جميع هذه الفضائل والقيم. لذلك حينما يلاحظ في البعض ما هو متعارض مع ذلك، فلا بد من دراسة الأسباب التي أدت إلى ذلك، لا أن نرفض مبدأ الفطرة وننكره.

ينزع الإنسان نحو الله منذ بداية حياته، ولو سُئل بعيداً عن التأثيرات الخارجية، هل أنه هو الذي خلق نفسه؟ وهل هو علة لها؟ لكان جوابه بالنفي، ولقال عن ثقة بأنه متصل بمبدأ آخر. فأولئك الذين يتخذون طريقاً آخر، لا بد وأن تكمن خلف ذلك الانحراف عوامل ما تؤثر على نزعاتهم الفطرية، وتلقي بظلال من الغفلة والتجاهل على اللون التوحيدي للفطرة، فتختفي كاختفاء الشمس خلف السحب الداكنة، لكنها لا تنعدم ولا تزول قط، أو كالقمر الذي

(١) جون لوك: (John Locke (1632 - 1704 AD)، فيلسوف انجليزي، يعدّ زعيم المذهب الحسي، وأحد كبار ممثلي النزعة التجريبية في انجلترا، عارض نظرية الحق الإلهي، وذهب إلى أن الاختيار أساس المعرفة. من كتبه:

«محاولة في الفهم الإنساني: Essy Concerning Human Understanding».

و«مقالان في الحكومة: Two Treatises of Government».

و«بعض أفكار التربية: Some Thoughts Concerning Education».

و«معقولة المسيحية: Reaonableness of Christianty».

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة..... ٩١

لا يُشاهد في السماء في أيام المحاق، لكنه موجود خلف الأرض.
حتى أولئك الذين يصابون بالغفلة والنسيان، يعودون إلى الفطرة في ظل ظروف خاصة، وتتدفق الحياة في فطرتهم من جديد، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام ما يؤكد على أن الإنسان قد يعيش بعض الأحوال التي لا يجد فيها أي بصيص من الأمل في نجاته، لكنه يشعر في باطنه بوجود قوة باستطاعتها أن تنقذه، فيتضرع إلى هذه القوة التي هي الله تعالى، حيث سأله رجل قائلاً: «يا ابن رسول الله دلني على الله ما هو: فقد أكثر علي المجادلون وحيروني، فقال له: يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟ قال: نعم، قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم. قال: فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟ فقال: نعم، قال الصادق صلى الله عليه وآله: فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجى، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث»^(١).

وفي القرآن الكريم العديد من الآيات التي تشير إلى هذا المعنى، كقوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ»^(٢).

ورد في تفسير (روح المعاني) نقلاً عن السيد الرضي أن «أرأيتكم» بمعنى «أخبروني»، وأنها تستخدم حينما يراد الإخبار عن الباطن والضمير^(٣).

^(١) التوحيد / الشيخ الصدوق: ٣١/٢٣٠، باب معنى بسم الله، ومعاني الأخبار: ٤ - ٥ / ٢ باب

معنى الله عز وجل، والتفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٣ في تفسير سورة الحمد.

^(٢) سورة الأنعام: ٤٠/٦ - ٤١.

^(٣) تفسير روح المعاني / الألووسي ٤: ١٤١.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

إذن الإعراض عن الأمور الفطرية لا يُعدّ حقيقياً، ولا يتحقق طوال الحياة البشرية. ولا ينبغي عدّ الأخطاء دليلاً على عدم فطرية الكثير من الحقائق. كالميل نحو العدل، والأمن في العالم. ولو بحثنا عن سبب الاضطرابات النفسية، واللاتوازنات المعنوية، والأزمات الاجتماعية، لوجدناه يتمثل في هرب الإنسان من الفطرة وابتعاده عنها. فكلما ابتعد الإنسان عن فطرته، وانشعب طريقه عن طريقها، كان لذلك انعكاسات وإفرازات سلبية على نفسه، ولن يستطيع أي شيء مهما كان أن يعيد إلى نفسه الاطمئنان والهدوء، لأن فطرته تخبره دائماً أنّ الطريق الذي قطعه طريق خاسر وضال ومنحرف، وتدعوه للعودة إلى طريقها طريق النقاء والخير كما أراد الله سبحانه.

وفي المقابل نجد الإنسان كلما تطبّع على الفضائل والخير والقيم السامية، قلّ لديه الاضطراب الباطني، وهيمن عليه شعور بعيد عن الطبع الحيواني، وشعر بوجود نوع من التوازن في باطنه بين قوتي النفس والعقل.

الفطرتان الأولية والثانوية:

يؤكد صدر المتألهين على أنّ الله تعالى قد جعل لكل موجود من الموجودات غاية وهدفاً يسعى إليه، ويحقق - من خلاله - الخير والكمال. وقد قال القرآن الكريم: ﴿.. رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(٢)، حيث جعل الانطلاق نحو الكمال أسمى الوسائل والأسباب. فيحقق الإنسان من خلال

(١) سورة لقمان: ٢٥/٣١.

(٢) سورة طه: ٥٠/٢٠.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظور الفطرة..... ٩٣

تسلك درجات التكامل، غاية الغايات وخير السعادات.
والشرط الأساس لحركة الإنسان نحو الكمال والقيم الإنسانية، هو حبّ هذا الطريق والميل إليه، وعلى المرء أن يعمل بجدّ ومثابرة من أجل ألاّ يخبو بريق هذا الحبّ، وإلاّ فإنه سيضل الطريق ولن يصل إلى الهدف.
حينما ينطلق الإنسان نحو الحق، لا بد وأن تواجهه الكثير من العقبات والعراقيل والحجب. ولو نجحت هذه الحجب في صدّه عن حركته وعرقلت مساره، وأعادته إلى الوراء، فستتوقف الفطرة عن العمل، وتُحبس في مكانها، ويُبنى حولها جدار ضخّم من الظلام والانحراف، وحينئذ لن يكون بوسعها نجدته وقد أضعفها بمحض إرادته، ولا بوسعها سماع صوتها وقد نأى بعيداً عنها باختياره، وعندئذ سيتجسد الانحراف في سلوكه، ويحل الظلام في ذاته؛ فيكسبه فطرة من نوع آخر.. فطرة ثانوية تزيّن له ما هو عليه، ولا تهديه سبيلاً.

دور الانحرافات في حبس الفطرة:

يمكن أن نستنتج مما سبق وجود قوتين متعارضتين في باطن الإنسان وضميره، وهما في حالة صراع مستمر، ولو هُزمت فطرة الإنسان أمام الباطل، فستتوقف نشاطها وتُسجن، وسيكون مسرح الحياة مفتوحاً بوجه قوة الباطل لكي تسرح وتمرح بحريّة. وحينذاك يكون الإنسان قد تخلى عن فطرته الأولى وخضع لفطرة ثانية.

صفوة القول هي إنّ الفطرة تختفي ويتوقف نشاطها، لكنها لا تنعدم قط. فتخرج الاستعدادات والقوى عن دائرة هيمنة العقل، وتقع في قبضة الشهوة والغضب. وهاهنا ينبغي أن يقال: إنّ الفطرة حاكم سجين، ومملك غير مطاع، ومصباح وُضع أمام ضوءه حجاب.

يكتب صدر المتألهين الشيرازي قائلاً:

«إنّ الأشياء كلّها طالبة لذاتها للحق ، مشتاقة إلى لقائه بالذات ، وأنّ العداوة والكرهية طارئة بالعرض . فمن أحبّ لقاء الله بالذات أحبّ الله لقاءه بالذات ، ومن كره لقاء الله بالعرض لأجل مرض طارئ على نفسه ، كره الله لقاءه بالعرض . فيعذبه مدّة حتّى يبرأ من مرضه ويعود إلى فطرته الأولى ، أو يعتاد بهذه الكيفية المرضية زال ألمه وعذابه لحصول اليأس . وتحصل له فطرة أخرى ثانية وهي فطرة الكفار الآيسين من رحمة الله الخاصة بعباده»^(١).

عوامل غروب واختفاء الفطرة:

من الضروري الإشارة إلى أربعة عوامل تعمل على هزيمة الفطرة ، وغروبها من سماء الإنسان ، وإيقافها عن العمل وانزوائها ، وهي:

١- الجهل والشقاء:

تقدّم الآيات القرآنية وأحاديث أهل البيت النبوي ، العون في فهم هذا البحث الفلسفي والكلامي المهم .

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾^(٢).

وقد سأل أبو بصير الإمام الصادق عليه السلام عن معنى قوله تعالى: ﴿.. غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا...﴾ ، فأجابته: «بأعمالهم شقوا»^(٣).

(١) الأسفار الأربعة / ملاً صدرا ٩: ٣٤٧.

(٢) سورة المؤمنون: ٢٣/١٠٦-١١٠.

(٣) التوحيد / الشيخ الصدوق: ٢/٣٥٦، باب السعادة والشقاوة.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة..... ٩٥

ويشير تفسير الإمام الصادق عليه السلام هذا إلى أنّ الإنسان يختار الشقاء بنفسه، حينما ينحاز إلى جانب الباطل في الحرب المحتدمة بين الحق والباطل، وينطلق للإستهزاء بالمؤمنين، فينسى ذكر الله تعالى الذي هو نداء الفطرة وهتافها.

هذا المعنى يمكن تلمُّسه بوضوح في قوله تعالى: ﴿... حَتَّىٰ أَنسَوَكُم ذِكْرِي...﴾، حيث يعني هذا القول أن الظلم الذي يقترفه أولئك الضالون وسخريتهم من المؤمنين، هو السبب الذي يقف خلف نسيانهم لذكر الله تعالى. وتُعبّر عبارة «نسيان ذكر الله» عن حقيقة انغراس ذكر الله في جميع القلوب، لكن الذنوب والموبقات، والممارسات الجائرة هي التي أسدلت ستار النسيان عليه، وعملت على ظهور فطرة أخرى غير الفطرة الإلهية التي فطر الناس عليها.

إنّ الله تعالى لا يسمح للإنسان أن يرى الحق باطلاً والباطل حقاً. فرؤية الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، هي الشقاوة، وهي كذلك الفطرة الثانوية التي تتعارض مع الإرادة التكوينية والفطرة الإلهية الأولى.

ورد في تفسير العياشي عن يونس بن عمار، عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «لا يستيقن القلب أنّ الحق باطل أبداً، ولا يستيقن أنّ الباطل حقّ أبداً»^(١).

فالقلب لا يمكن أن يعتبر الباطل حقاً أو يعتبر الحق باطلاً قط، وإنّما هو الإنسان الذي يعمل من خلال تمرّده وطغيانه على إخفاء الفطرة وحبسها وإبطال مفعولها، فينطلق بعد ذلك وفقاً لنداء الشهوة والهوى.

يصاب بعض الناس بالجهل والغفلة إلى درجة بحيث لو نزلت عليهم آية من الله تعالى، وظهر لهم منه برهان واستدلال، أصروا على سلوكياتهم وأعمالهم الباطلة، ولما أبدوا أقلّ استعداد لسماع كلمة الحق. فهؤلاء يقعون في حالة من

(١) تفسير الميزان / الطباطبائي ٩: ٦٠.

الجهل المركب، لأنهم يجهلون الحق ويجهلون أنهم يجهلون. ويقول القرآن في هذا اللون من الناس: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١). كما يقول: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٢).

فالذين ينكرون آيات الله بجهلهم، سيحرمهم الله تعالى من رؤية وإدراك تلك الآيات، ويطوقهم بالحواجز والسدود ولن يصبح بمقدورهم رؤية أي شيء.

فجهل هؤلاء الثانوي بالنظام الأحسن، وعدم قدرتهم على تفسير الوجود، أمر يقف خلف انحرافهم عن الفطرة التوحيدية. لذلك راح بعض هؤلاء يعترف بوجود مبدأين للخير والشر. فقد أرادوا تنزيه الله عن الشر، فأدى ذلك بهم إلى أن ينسبوا إليه العجز والشرك، فقد اعتبروا الشر منبعثاً من قوة أخرى غير الله، فجعلوا بهذه الطريقة قوةً أخرى في مقابله، مما يعني أنهم أوجدوا له شريكاً. بينما الشرور أمور عدمية ونسبية، وليست أشياء حقيقية وأصيلة كي تكون بحاجة إلى مبدأ وخالق.

ولاشك في أن التمرد على الحق يؤدي إلى انطفاء مصباح العقل، وإحلال الظلام في فناء الفطرة، فيعيش في تلك الأجواء المعتمة المضطربة أفراد من قبيل «هيوم»، فيطلقون كلمات لا تقوم على أساس متين، ولا تنطلق من قاعدة رصينة، فيصفهم الله تعالى بأنهم ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ

(١) سورة الروم: ٥٩/٣٠.

(٢) سورة يس: ٦/٣٦-٩.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة..... ٩٧

مَرِيحٌ ﴿١﴾. إذ حينما ينطفئ مصباح الفطرة، تتغير جميع الكلمات والرؤى والأفكار، ويظهر العالم المتوحد المنتظم، ممزقاً ومرتبكاً، ويكون الجميل - حينئذ - قبيحاً، والقبيح جميلاً!!!

ينقل جلال الدين الرومي في لغة الشعر قصة بهذا المعنى، تقول: إنَّ أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: محمد كم أنت قبيح؟ فحينما أراك، يتحول فرحي إلى حزن، فقال له الرسول: صدقت. ثم دخل على الرسول ﷺ أحد أصحابه فقال له: ما جملك يا رسول الله؟ فحينما أنظر إليك تنزاح الأحزان والآلام من قلبي. فقال له الرسول: صدقت. فاندعش أحدهم وسأل الرسول ﷺ: كيف يمكن أن يكون لإثنان صادقين؟ فأجابه: «لقد تحدّث أبو جهل عن قلبه، وتحدّث هذا المؤمن عن قلبه أيضاً»^(٢).

٢- الشرك:

صوت الفطرة صوت حقيقي، ولا تجتمع الحقيقة إلا مع الحقيقة لذلك لو طرأ الانحراف على الفكر والعقيدة، فسيكون متعارضاً مع صوت الفطرة. ولو رجّح الإنسان طريق الانحراف على طريق الحقيقة، فسيخفت صوت الفطرة.

نقل صدر المتألهين عن محيي الدين ابن عربي قوله: إنَّ الإنسان قد خُلِقَ على فطرة التوحيد وعبادة الله، وإنَّه ثابت على هذا الأصل والأساس دائماً. بل إنَّ هذه فطرة معه حتّى في الإلحاد والشرك، وما يقع من خطأ إنما يقع في التطبيق وتعيين المصداق^(٣).

ويضيف صدر المتألهين إلى كلام ابن عربي قوله: إنَّ الإنسان يسير في طريق

^١ سورة ق: ٥٠/٥٠.

^٢ مثنوي معنوي / جلال الدين محمد بلخي: ١٠٧، ب ٢٣٧٨ - ٢٤٠٥، دفتر أوّل.

^٣ الأسفار الأربعة / صدر المتألهين ٩: ٣٤٧.

الله بحسب الفطرة، لكنه يستطيع بحسب الاختيار أو الحرية التي لديه أن يسلك طريق الله أو طريق الهوى. وحينما يختار طريق الهوى واللذات المادية، يبتعد عن فطرته التي فطره الله عليها، وعن المعنويات، فيسقط من سماء الرحمة ويحفّ به العذاب. والابتعاد عن الفطرة، والانحراف عن الطريق الإلهي، أمر يقود الإنسان نحو النار^(١).

إذن أيّ إلحاد أو انحراف عن صراط التوحيد المستقيم، وخط الولاية الواضح، يدفع بالإنسان إلى الإعراض عن الفطرة والتمرد عليها. ولو تجذّر هذا الانحراف في فكر الإنسان، لظهرت لديه فطرة أخرى غير الفطرة الأولى. يقول الإمام علي عليه السلام في مناجاة له مع الله:

«اللهم داحي المدحّوات، وداعم المسموكات، وجابل القلوب على فطرتها شقيّها وسعيدها»^(٢).

يعدُّ الإمام علي عليه السلام في هذه الكلمات قلوب الناس كافة - السعيد منهم والشقي - خيرة من حيث الفطرة. فالإنسان السعيد من حيث الأصالة، ذو فطرة نقية، أما الشقاء فيظهر في المرحلة الثانية خلال المسار الحياتي. وعليه فأولئك الذين يقطعون طريق الإلحاد والانحراف، إنّما يفعلون ذلك بعد تلوّث فطرتهم خلال مرحلة العمل والممارسة، من دون أن تزول الفطرة الإلهية الأصيلة أو تنعدم.

٣- الطغيان والتمرد:

تشير آيات أخرى من قبيل: ﴿فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا... كَذَّبَتْ ثَمُودُ

(١) الأسفار الأربعة / صدر المتألهين ٩: ٣٤٧.

(٢) نهج البلاغة / تحقيق صبحي الصالح: ٧٢/١٠٠.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة..... ٩٩

بَطَّغُواهَا^(١) إلى عامل آخر، هو الطغيان والتمرد على التعاليم الإلهية.

فهذه الآيات من سورة الشمس تتحدث عن طغيان «ثمود» وتخليهم عن فطرتهم، ومبادرتهم إلى تكذيب الله ورسوله.

ومن الواضح أن الشرك بالله تعالى يؤدي إلى انحراف فكر الإنسان وإسداد الحجب عليه. كما أن الطغيان والتمرد على الأوامر الإلهية يؤدي إلى إقصاء الفطرة وحبسها وإبطال مفعولها.

نعم، الشرك يحول الإنسان إلى باغ ومرتد. وحينما يتحول الإنسان إلى باغ، فإنه سيلجأ إلى القيام بأي عمل وإلقاء مزيد من الحجب على الفطرة. بالمقابل كلما انطلق الإنسان نحو الله ازداد إيمانه، وانصقلت فطرته، وتسارعت حركته في طريق الفطرة. ويمكن في هذه الحال تشبيه الفطرة بما أورده الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في باب العقل والجهل. يقول الإمام الصادق عليه السلام بهذا الشأن:

«ثم جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً. فلما رأى الجهل ما أكرم الله به العقل وما أعطاه، أضمر له العداوة، فقال الجهل: يارب هذا خلق مثلي خلقتهم وكرمتهم وقويتهم وأنا ضده ولا قوة لي به، فأعطني من الجند مثل ما أعطيته...»^(٢).

فالإمام في هذا الحديث، يعتبر الصفات القبيحة جنوداً للجهل. وهي أشبه بالعدد «صفر» الذي يقوي الأعداد الأخرى، لكنه ليس شيئاً بحد ذاته.

قال الإمام الصادق عليه السلام «أعرفوا العقل وجنده، والجهل وجنده، تهتدوا»^(٣). ويريد بقوله هذا أن يؤكد على وجود قوتين: قوة تقود الإنسان نحو الخير، وقوة

(١) سورة الشمس: ٨/٩١-١١.

(٢) أصول الكافي / الشيخ الكليني ١: ٢٠-٢٣، كتاب العقل والجهل.

(٣) أصول الكافي ١: ٢٠-٢٣ / ١٤، كتاب العقل والجهل، والمحاسن / البرقي ١: ١٩٦-١٩٨ /

٢٢، باب العقل.

١٠٠ بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية/ج ١

تدفعه نحو الجهل والغفلة. ولو سلك طريق الخير، وتناغمت الفطرة مع الرحمة، والرافة والعدالة فإنها ستتعزيز وتتقوى. ولو سلك طريق الإنحراف واقترف الظلم والخيانة والفساد، فستضعف فطرته وتختفي، وتحلّ الرذائل محلّ الفضائل.

٤- التقليد الأعمى:

يمكن مشاهدة هذا العامل في قصة إبراهيم عليه السلام. فقد حطّم هذا النبيّ العظيم جميع الأصنام إلاّ كبيرها، ووضع الفأس على كتف ذلك الصنم الذي أبقاه. وحينما شاهد قومه ما حلّ بأصنامهم، وجّهوا أصابع الاتهام إلى إبراهيم؛ لأنهم كانوا يعلمون بمعارضته لعبادة الأصنام، فاستجوبوه أمام الناس وسألوه هل هو الذي حطّم أصنامهم؟ فأجابهم إبراهيم عليه السلام: ﴿... بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾^(١). وعبر القرآن الكريم عن ردّة فعلهم إزاء إجابة إبراهيم هذه، قائلاً: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ...﴾^(٢)، والتفتوا إلى إبراهيم قائلين: ﴿... لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾^(٣)!

كان عمل نبي الله إبراهيم هذا بمثابة تذكير وإيقاظ لجميع الكافرين والوثنيين والمشركين، وكان ناقوس خطر يحذر بواسطته الجميع من مغبة الطريق الضال الذي يسرون فيه.

لذلك حينما شاهد ما حلّ بعبدة الأصنام من حيرة ودهشة واضطراب، إنتهز تلك الفرصة وانطلق لطرح السؤال الذي قام بتلك العملية من أجله، فقال:

(١) سورة الأنبياء: ٦٣/٢١.

(٢) سورة الأنبياء: ٦٥/٢١.

(٣) سورة الأنبياء: ٦٥/٢١.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة ١٠١

﴿... أَفْتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾^(١)؟!!

ثم أضاف قائلاً: ﴿أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٢)!

نجح إبراهيم عليه السلام في إيقاظ الفطرة، وأحدث هزة في ضمائر المشركين كادت تعصف بعقيدة الوثنية، وتزيل الركام والحجب عن الفطرة الأولى، لولا أن هتف بعضهم قائلاً: ﴿... حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾^(٣).

ورد في بعض الروايات أن الذين أطلقوا نداء التحريض ضد إبراهيم عليه السلام، كانوا من جلاوزة نمرود^(٤). وبتسخير منه، حيث أدرك نمرود أن إبراهيم يكاد يحقق هدفه ويقضي على عبادة الأصنام، ويوجه الناس نحو عبادة الله، الأمر الذي يعني القضاء عليه وعلى مصالحه، لذلك سخر وسائل إعلامه التي جندها لخدمته، كي تحرض الناس ضد إبراهيم من خلال استغلال عواطفهم، ولتخلق أجواءً يضيع فيها صوت الفطرة. فقد كان إبراهيم يتحدث بصوت الفطرة وبلغته المنطق والدليل، ويؤكد بنفس هذه اللغة على بطلان الأصنام وفسادها. لكن لأبواق الدعائية المضادة كانت تصر على إفشال خطة إبراهيم، وإسكات صوت الحق، وحجب الفطرة وآثارها.

الأعمال التي تنجزها الفطرة:

تنجز الفطرة ثلاثة أعمال، هي:

(١) سورة الأنبياء: ٦٦/٢١.

(٢) سورة الأنبياء: ٦٧/٢١.

(٣) سورة الأنبياء: ٦٨/٢١.

(٤) وفي تاريخ الطبري ١: ١٦٩ وتفسيره (جامع البيان) ١٧: ٥٧ أن اسم الذي قال (حرقوه وانصروا آلِهَتكم) هو (هيزن) وفي كتاب المحبر لمحمد بن حبيب: ٣٩١، وقصص الأنبياء لابن كثير ١: ١٨٢ أن اسمه (هيزن) وفي تفسير القمي ٢: ٧٢ أن نمرود استشار قومه في إبراهيم، فقالوا هذه المقالة.

١- الحب، ٢- الإدراك، ٣- الإيعاز.

فلدى الفطرة نزعة نحو حبّ الحقيقة والعدالة، فهي تبحث عن الحق والحقيقة وتحبّ الجمال. كما لديها القابلية على إدراك الأمور ومعرفتها. وتقوم كذلك بإصدار الإيعازات والأوامر الأخلاقية والقيمية، فتطالب المرء أن يكون عادلاً، صادقاً، وألا يكون ظالماً وكاذباً... الخ.

غير أنّ هذه الآثار الثلاثة التي تفرزها الفطرة، لم تسمح لها الأجواء التي عكّرها الطغاة، بالظهور حينما انطلق إبراهيم عليه السلام لمخاطبة فطرة الناس وضميرهم. لذلك بدلاً من أن يؤمر بإحراق الأصنام، أمر أن يحرق إبراهيم.

ويمكن أن نستشف من آيات القرآن الكريم أنّ العامل الرئيس الذي وقف خلف تلك الأجواء العكرة هو التقليد الأعمى للآباء ولو كانوا على خطأ عظيم، ولهذا: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾^(١)، فكان جواب إبراهيم عليه السلام لهم: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٢)، لذلك عكّر الجهلاء والمقلدون الأجواء الصافية التي أوجدها إبراهيم، وأثاروا زوبعة من الاضطراب والتوتر بحيث لم تسمح لصوت شيخ الأنبياء القويّ النافذ، بالنفوذ إلى العقول والقلوب.

إذن حينما نلاحظ عدداً كبيراً من الناس في هذا اليوم لا يعتقد بالمصلح العالمي، أو يجهل الإنسان الكامل، فهو من جراء التقليد الأعمى، زيادة على أنّ القوة الكبرى لا تريد أن تسود العدالة والمساواة في العالم، وذلك من أجل فرض سيطرتها على القرية العالمية وتحقيق أهدافها التوسعية. فهذه القوى لا تعارض صاحب الأمر عليه السلام فحسب، وإنما تحارب فكرة ظهور المسيح في آخر الزمان، كمدافع عن العدالة وناشر لها. ولذلك عملت على تغيير فكرة ظهور المسيح في

(١) سورة الأنبياء: ٥٤/٢١.

(٢) سورة الأنبياء: ٥٤/٢١.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة ١٠٣
آخر الزمان إلى فكرة ظهوره في يوم القيامة، وإقامته لدولة العدل في عالم
الآخرة، وليس في عالم الدنيا.

لقد بشرت كتب الأنبياء الإلهيين بمستقبل زاهر للبشرية، لاسيما الإسلام
الذي بشر منذ البداية بظهور الإمام المهدي أرواحنا فداه، ووجه أنظار المسلمين
وقلوبهم نحو هذا الإنسان الذي تنتظره البشرية. ويتضح من قصة إبراهيم عليه السلام في
محاولته لفت أنظار المشركين والوثنيين إلى فطرتهم التوحيدية وما لقيه على
أيديهم بذريعة نصره الآلهة، أنّ هناك تلازماً بين الفطرة التوحيدية والفطرة
الولائية، فليس باستطاعة أحد أن يدّعي التوحيد وينكر الولاية والنبوة، اللتين
تتأديان بالتوحيد. فقطع أغصان التوحيد يساوي قطع الجذع الأصلي للتوحيد.
فلا يتحقق التوحيد الحقيقي من دون الأغصان والثمار، لذلك يُعدّ قذف إبراهيم
في النار، قذفاً للتوحيد الحقيقي في النار. وقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام ما هو
صريح بهذا.

ففي حديث سلسلة الذهب المروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ورد:
«لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن عذابي». قال فلما مرّت الراحلة نادانا:
«بشروطها، وأنا من شروطها»^(١)، أي حينما يكون مثل هذا الأثر للولاية - وهو أنّ
توحيد لا يمكن أن يتحقق من دون الولاية - فمعنى هذا أنّ النزعة التوحيدية لا
تفصل عن النزعة الولائية.

إذن توجد في وجود الإنسان نزعة فطرية نحو ولاية وليّ الله والمنجي في
آخر الزمان. وقد أيّد القرآن الكريم وجود هذه الفطرة.

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام / الشيخ الصدوق ١: ١٤٤ - ١٤٥ / ٤ باب (٣٧) والتوحيد /
الشيخ الصدوق: ٢٣/٢٥ باب (١)، والصراط المستقيم / البياضي ٢: ١٧٥، وينابيع المودة /
القندوزي ٣: ١٢٢ - ١٢٣.

الفطرة تختفي خلال الانحرافات لكنها لا تنعدم:

تحدّثنا عن وجود صراع مستمر بين قوتين متضادتين في باطن الإنسان وفي ميدان الحياة، ولو قُدِّر للفطرة أن تنهزم في ميدان الحرب مع الباطل، فإنّها ستُحبس وتُحجب ويتوقف عملها، وتدع المجال مفتوحاً لقوة الباطل. وفي مثل هذه الحال يقال: إنّ الإنسان قد عدل عن فطرته الأولى، وهيمنت عليه فطرة ثانوية.

ما نريد قوله هو إنّ الفطرة تختفي وتُحجب، لكنها لا تنعدم ولا تزول كلياً قط؛ بتعبير آخر: يخرج زمام الاستعدادات والقوى الإنسانية من يد العقل، ويصبح في يد الشهوة والغضب. وفي مثل هذه الحالة ينبغي أن يقال: إنّ الفطرة الإنسانية حاكم سجين وقائد غير مطاع، ومصباح قد أُسدل الستار على ضوءه.

المبحث السابع

كيفية دلالة الفطرة على وجود الإمام والمصلح العالمي

تكمن في هذا المبحث ملاحظتان مهمتان:

الأولى: نزعة الفطرة نحو التوحيد وفروع التوحيد التي تمثل الولاية محورها.
الثانية: الاعتقاد بمصلح وزعيم للتوحيد والعدل، وسائر الصفات الإنسانية التي يتم تحديدها من قبل الفطرة.

يدرك المرء بعقله وجود حاجة إلى زعيم للعدل والأمن وضرورة انتظار ظهور مثل هذا الزعيم. غير أن هذا الإدراك لا يتم من خلال العقل النظري، أو الاستدلال العقلي، وإنما يتم تشخيصه في باطن الإنسان وضميره.

النزعة نحو العدالة والأمن العالمي نزعة فطرية:

نزعة الإنسان الذاتية نحو استتباب العدالة والأمن في العالم، منبثقة من طبيعته. وعليه فالإيمان بوجود زعيم مرشد كمصلح إلهي كامل، أمر فطري. ومن أجل تحديد مصداق هوية هذا المصلح وملامحه، لابد من الرجوع إلى تقارير تاريخية وتاريخية متقنة. ولا ريب في أن الإدراكات التي يتمتع بها الإنسان على أساس تركيبته النفسية والفكرية، ومن دون الحاجة إلى الاستدلال عليها، تركت فطرية. فطلب مرضاة الله تعالى، والتضرع إليه، والتعبير عن الحاجة إليه. وحبّ جمال الله وجلاله، وحبّ العدل والإنصاف والحقيقة والصواب

والسلام والأمن، وغيرها من الفضائل، أمور فطرية بحتة .
ومن أجل الحصول على هذه المجموعة من الإدراكات، يكفي وجود
الانجذاب الروحي والإحساس الباطني والشعور القلبي. فكما أن مصباح الفطرة
هو الذي يضيء درب الإنسان من أجل الإيمان بالله تعالى وعبوديته وطاعته،
كذلك تُعدّ مجموعة الإدراكات هذه من أسمى أنواع الإدراكات وأكثرها جاذبية.
يقول الفيلسوف الفرنسي الشهير باسكال بليز (١٦٢٣ - ١٦٦٢م)^(١): «ليتنا
نعرف كل شيء بواسطة الغريزة والشعور». ويريد بالشعور، إدراك القلب
والضمير، لأنّه يقول بعد ذلك: «إنّ أولئك الذين جعلهم الله يعرفون الدين عن
طريق الشعور القلبي، فرحون ومطمئنون جداً»^(٢).

ويقول في موضع آخر: «تُعدّ هذه العلوم المباشرة، مبادئ لجميع العلوم
والأوليات، ولا بد للعقل أن يخضع لهذه المعارف القلبية والغريزية».
فطرة القلب هي تلك الجاذبية النفسية، والباطنية التي يسير على أساسها
العرفاء، وأهل السير والسلوك في كثير من المعارف الدينية والعرفانية. كذلك
يستعين الفلاسفة بفطرة العقل في معلوماتهم الفلسفية والعقلية.

فطرة العقل وحاجة البشرية إلى المصلح العالمي:

(١) باسكال بليز: Blaise Pascal (1623 - 1662 AD) ولد في كليرمون فران في فرنسا، من
عائلة برجوازية عريقة، ونبغ في الهندسة منذ صباه واشتهر كأعمق الفلاسفة الفرنسيين،
ويعد رائد الوجودية الفرنسية، من كتبه:
«خواطر: Pensees».

و«محاولة في المخروطيات: Essai Pour Les Coniques».

و«العقل الهندسي: L'Esprit geometrique».

و«المحليات: Les Provinciales».

و«تجارب جديدة بشأن الفراغ: Experiences nouvelles touchant Le vide».

(٢) راجع: تحقيق في حقيقة العلم / الدكتور عبد الحسين مشكاة الديني: ٥٢.

١٠٧ وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة

قلنا إن فطرة القلب تميل إلى العدل العالمي والحياة الإنسانية. فالعقل ومن خلال إدراكه أن الهدف الأعلى الذي تتطلع إليه البشرية، لا يمكن أن يتحقق دون زعيم جدير ومؤهل، يلتفت إلى أصل ضرورة المصلح والإمام. فالعقل وعلى ضوء فطرته وتركيبته الطبيعية يدرك أن مثل هذا الهدف الكبير بحاجة إلى زعيم يتميز بجميع الكمالات الإنسانية والفضائل الخلقية، من أجل أن يروي فطرة البشرية الظامنة.

إذن ضرورة وجود المصلح، أمر يتبلور الاهتمام به في باطن الإنسان. وبحقدور الإنسان أن يستعين بقوته الباطنية - التي هي فطرة العقل - لأجل تحقيق هذا المعنى. والقضايا الفطرية - وكما سبق وأن ذكرنا - تقود إلى اليقين لو حصل اهتمام بها وتأمّل كاف فيها، أمّا إذا أغفلها الإنسان، أو وقع تحت تأثير عوامل أخرى، فإنه سينحرف عنها ولا يسير وفق طريق الاستقامة.

قلنا أيضاً إن القضايا الفطرية نوعان:

١- نزعات فطرية.

٢- أفكار فطرية.

فيُطلق على النوع الأول إسم فطرة القلب، وعلى النوع الثاني إسم فطرة العقل. إذن من البديهي النزوع نحو الخير المحض الذي هو التوحيد. كما أن النزوع نحو الصفات العالية كالعدالة، والإنصاف، وطلب الحق، وما إلى ذلك، نزوع نحو فروع التوحيد التي هي تجلُّ لصفات الله تعالى.

ومن النزعات الفطرية، النزوع نحو وليّ الله الذي هو مرآة الصفات الإلهية، ومظهره المُعبّر عنه بمظهر الولاية المطلقة. فبه تُشبع الفطرة في الوصول إلى الخير المحض الذي هو مظهره التام. فحاجة البشرية إلى وليّ الله مصلح ومنقذ ومنج، حاجة فطرية عقلية.

إنكار وجود المصلح لا ينافي كون الإيمان به فطرياً:

يثار ضمن هذا الإطار سؤال مهم لا يمكن أن يكتمل موضوع «دلالة الفطرة على وجود الإمام العادل» من دون الإجابة عليه .

السؤال هو: إذا كان الإيمان بضرورة المصلح العالمي أمراً فطرياً، فلماذا يشك في ذلك عدد كبير من الناس، ويرفضه آخرون، ويعبّر غيرهم عن عدائهم له، في حين انّ نداء الفطرة والقلب واحد عند الجميع؟

وعين هذا السؤال أو الإشكال، أثاره الفيلسوف الانجليزي جون لوك على نظرية التوحيد، وقال بأنّ الإيمان بالله أو التوحيد، ليس فطرياً، لأنه لو كان فطرياً لآمن الجميع بالله .

وردّ حكماء الإسلام وغيرهم على هذه الشبهة، وقالوا: إنّ وجود الفطرة لدى الإنسان أمر مشهود ومحسوس، وتبرهن عليه التجربة. ولا بد أن تكون هناك عوامل مختلفة تقف وراء سريان الشك أو الإنكار إلى نفوس البعض .

التوحيد، والنبوة، والإمامة، عقائد لها جذور فطرية، غير أنّ البعض قد ينحرف عن نزعتة الفطرية ويسير باتجاه آخر. ويعود هذا كله إلى اختفاء الفطرة واستتارها .

وقد جمع القرآن الكريم بين كون الدين فطرياً على الخلقة، وبين عدم العلم به، فقال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

والشك أو الإنكار بما أدّت إليه الفطرة السليمة تعبير آخر عن عدم العلم به وبسبب الحجب الكثيفة التي قد تراكمت على فطر أولئك المشككين والمنكرين

١٠٩ وجود المصلح العالمي من منظور الفطرة

وعكرت صفائها بحيث لم تعد - بسببهم وتقصيرهم - وسيلة عندهم لإدراك هذه الحقيقة.

من الطبيعي أن يواجه الإنسان في حركته نحو الحق الكثير من العراقيل والعقبات. ولو قُدِّر لها أن تتغلب عليه أو تحول دون استمراره في تلك الحركة، سنظطره إلى التراجع في المرحلة التالية، مما يؤدي في نهاية المطاف إلى توقفه عن غلبة فطرته، وانحباسها بين جدران من الظلام والعمتة، وحينذاك لن تستطيع أن تسعف صاحبها بشيء، مما يبعث على ظهور الانحراف في سلوكه، واستيلاء ظلام على روحه. فتظهر لديه فطرة أخرى ثانوية تُحسِّن له أعماله القبيحة وسلوكياته المنحرفة.

ظهور واختفاء الفطرة من منظور برغسون:

الحديث عن القدوة والمثل في تربية الإنسان وتعالیه، حديث يتفق عليه كثير من المفكرين الإلهيين. ويرى العلماء المسلمون وغير المسلمين أن من المتعذر الانطلاق نحو الكمال من دون إمام حق وعدل.

يقول الفيلسوف الغربي الشهير هنري برغسون (١٨٥٩ - ١٩٤١م)^(١) - الذي يعد من مؤسسي المذهب الروحي - في كتابه (منبع الأخلاق والدين): إن في طبع الإنسان قوة خفية بمثابة منبع للأخلاق ومهد للدين الإلهي. ويقول: إن لشجرة المحرمة تمثل أقدم الخواطر العالقة في ذهن البشري. وإنما نشاهد هذا

(١) هنري برغسون (1859 - 1941 AC) Henri Bergson، يهودي فرنسي كان أستاذاً للفلسفة

في جامعة كوليج دي فرانس، ونال جائزة نوبل للآداب (سنة ١٩٢٧م)، أهم كتبه:

«فكرة المكان عند أرسطو: L'Éternel Lieu Chez Aristote».

و«ينبوع الأخلاق والدين: Les Deux Sources de La Moral et de la Religion».

و«الفكر المتحرك: La Pensée et Le Mouvant».

التحريم أو المنع منذ الأيام الأولى للحياة، حيث يمنعنا الوالدان ثم المعلم عن بعض الأعمال تحت عنوان الواجب أو التكليف. ولا شك في أن هذه الأنظمة والانضباط والقوانين الأخلاقية والاجتماعية، تمثل مظاهر لقانون غير مرئي مسجل منذ الأزل في الألواح التي يبحث عنها العلم اليوم في طور سيناء أخرى^(١). الأخلاق عند برغسون نوعان: أخلاق اجتماعية، وأخلاق ذاتية. «فجميع الأوامر والنواهي عبارة عن أخلاق اجتماعية في عالم الناسوت. أما الأخلاق الذاتية فإنها في عالم اللاهوت وغير قابلة للتغيير.

حياة الإنسان العادية واليومية الحافلة بالأهواء والآلام والحسرات، نوع من الحياة، وهناك نوع آخر من الحياة في باطن الإنسان وسر سويدائه، تتسم بالاعتدال والمطلوبية والثبات، بالضبط مثل النباتات المائية التي تطفو أوراقها على سطح الماء وتتحرك باستمرار بفعل حركة الماء، هذه الأوراق تعمل على حفظ النبات من الأعلى، غير أن الجذور الملتصقة بالأرض، هي الحافظ الحقيقي لهذا النبات»^(٢).

جوهر التكليف والواجب، شيء آخر غير إلزام العقل وإيجابه. فجميعنا نعلم أننا مكلفون وملزمون، غير أن هذا الإلزام غير المرئي لا يرفضه العقل، بل يأخذ به ويبادر إلى الاستدلال عليه وإثباته. وطريق العقل في الاستدلال هو عين اللزوم الذي يستشعره المرء في باطنه. إذن فالأخلاق منبثقة من التكليف، وتصبح أروع وأكثر جاذبية كلما اتجهت نحو الإنسانية والتوحيد. فحب البشرية يفتح الطريق بوجه الأخلاق، فتنتقل نحو اللاتناهي.

بتعبير آخر: لدينا نمطان من الأخلاق: أخلاق محدودة وضيقة، وأخلاق غير

(١) منبعا الأخلاق والدين / هنري برغسون، ترجمة د. حسن حبيبي: ٧.

(٢) المصدر السابق: ١٠.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظور الفطرة ١١١

محدودة وحررة تتحرك نحو الحقيقة والقيم الحقيقية، لذلك يولي الإنسان بوحى منها أهمية لجميع الناس وتتغلب عنده «أنا الاجتماعية» على «أنا الفردية». أي: أن الأخلاق المتحركة الحرة هي التي تملي على المرء الالتزام والمسؤولية إزاء البشرية، على العكس من الأخلاق الثابتة التي لا تسمح له بالتفكير إلا بنفسه، ولا يلتفت إلى ما سواه.

برغسون يعتقد كذلك بالدين الثابت، والدين المتحرك أو الحيوي. والدين الثابت من وجهة نظره هو الدين الذي يوجد في المجتمع وعبارة عن خليط من الالتزامات الدينية والأهواء والرغبات الفردية التي تنطلق بتوجيه أوبدون توجيه. والدين المتحرك الحيوي هو الدين المنقح من الشوائب والمحدوديات، ويجتاز ما هو متعلق بالفرد نفسه، ويخلق بروح الإنسان في أجواء غير محدودة ومتناهية.

يرى برغسون أن العقل عاجز في الحقيقة عن حل قضايا الحياة، لذلك يتحمل الدين مسؤولية فتح الطريق وحلّ العقد.

الإنسان وعلى مدى التاريخ، لديه قفزات خارج الطبيعة، فينطلق في ظل الدين المتحرك القوي، بالأخلاق إلى الإمام، ويحرر النفس، ثم يسمو ليرسم الطرق. ولن يتميز هذا الإنسان بالسرور والانشراح في سيره وسلوكه إلا حينما يبلغ ذروة العرفان، أي نهاية العلم والخلق والحب.

هتاف البطل:

يتحدث برغسون في ذلك الكتاب عن دور القيادة والأسوة في الحركة باتجاه الكمال قائلاً:

«يبرز في جميع العصور أناس استثنائيون، فيجسدون هذه الأخلاق في سلوكهم وطريقتهم. فالبشرية شاهدت قبل القديسين النصارى، عظماء اليونان،

وأنبيا بني إسرائيل ، والمرتاضين البوذيين وغيرهم ، وكانت ترجع إلى هؤلاء الأفراد في التخلق بالأخلاق الكاملة أو المطلقة .

لربما هناك رجل لم نلتق به في يوم ما ، وإنما سمعنا قصة حياته فقط ، حينذاك نصنع ميداناً من الخيال نضع سلوكنا فيه بين يدي هذا الرجل ليقول كلمته فيه ، مع شعورنا بالخوف من تقريره ، والفخر بإطرائه . بل من الممكن أن تنطلق في ظل ضميرنا ومن أعماق نفسنا ، الشخصية التي وُلدت فينا ، فنشعر أن بوسع هذه الشخصية استيعاب وجودنا بتمامه وكماله ، لذلك سرعان ما نعبر عن ميلنا إليها وتأسينا بها ، كتأسي الطالب بالأستاذ . والحقيقة أن هذه الشخصية تتبلور فينا منذ اليوم الذي نتقبل فيه نموذجاً ما . فالميل نحو التشابه من الناحية المثالية ، يخلق صورة لا بد من انتخابها . وهذا الميل هو التشابه نفسه إلى حد ما . والكلام الذي يأخذ به المرء ، لا بد أن يكون قد سمع بعض إيقاعه بأذن نفسه .

نعم ، فالبشرية تتألم وتئن تحت وطأة الرقي والتطور . إنها لا تعلم إلى الآن على وجه الدقة هل أن مستقبلها رهين بقرارها؟ عليها أن تفهم هل أنها تريد الاستمرار في الحياة أم لا؟ وعليها أن تتساءل بعد ذلك هل أنها تريد الاستمرار في الحياة فقط أم أن تسعى أيضاً كما ينبغي من أجل تحقيق النجاح . المهمة الأساسية الملقاة على عاتق البشرية في هذا الكوكب المتمرد هي أن تستحوذ على العالم ، وتبلغ مرتبة الخلافة الإلهية .

يبدأ برغسون من الشجرة المحرّمة وما ألقى على عاتق آدم وحواء من واجب ومسؤولية ، ثم يرسم الحياة الحرة الجميلة في أداء الواجب الأخلاقي ، والالتزام بالدين ، والسير والسلوك في مسار خلافة الله .

يعتقد برغسون أن المواجهة بين الباطن والخارج ، ترسم خط التكليف والأخلاق . ومن جانب آخر ينطلق الدين الإلهي المتحرك بقافلة الإنسانية نحو

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة ١١٣
نكمال.

يرى برغسون كذلك أنّ هناك عوامل أخرى مؤثرة أيضاً، مثل الشخصيات تكبرى والبارزة في التاريخ التي تقف على مفترق طرق البشرية، فترشد الإنسان إلى الطريق الصحيح المستقيم كلما ضلّ عنه. لذلك لا بد من الاقتداء بها، واتخاذها أسوة حسنة، والسير على خطاها، والاهتداء بهديها.

صفوة ما يذهب إليه برغسون بهذا الشأن هو: إذا تطابق باطن طالب الكمال مع خارجه، واهتدى بهدي الهداة، وسمع هتاف بطل عالم الإنسانية، فلا بد أن يبلغ نكمال. أما إذا كان الخارج مظلماً ولم يسمع هتاف الإنسان الكامل، سيكون باطن مظلماً أيضاً.

فكرة برغسون، ليست بالأمر الجديد، وإنما أثارها قبل ذلك الفلاسفة لإلهيون من المسلمين وغير المسلمين، بل وسبق للأنبياء أن علّموها للإنسان. فصدر المتألهين يقول بأنّ الله تعالى وضع لكل موجود هدفاً لا بد أن يتحرك فيه كي يبلغ الكمال والخير.

ويشير القرآن الكريم في الآية الكريمة: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(١) إلى الحركة والانطلاق من خلال سلّم التكامل إلى أسمى غاية وأفضل سعادة.

والشرط الأساس والجوهري لحركة الإنسان نحو الكمال والقيم الإنسانية هو نحب والرغبة الكبيرة في سلوك هذا الطريق. ولا بد للإنسان أن يسعى بجميع ما لديه من قوة وأن يصمد كي لا يخبو وهج هذا الحب، وإلا فإنه سيضل الطريق، ولن يبلغ الهدف.

القيادة الإلهية وظهور العقل الفطري:

(١) سورة طه: ٥٠/٢٠.

يتحدث الإمام علي عليه السلام عن السنّة الإلهية في إرسال الرسل والأوصياء ويرى أن هذا الأسلوب الإلهي قائم على أساس فطرة الإنسان، إذ أنه تعالى وضع في فطرته الإيمان بالله، والنبوة، والإمامة، والأخلاق، والنضج العقلي، ويقظة القلوب والأفكار. فهو يقول في الخطبة الأولى من نهج البلاغة:

«فبعث فيهم رسله... ليذكروهم منسي نعمته ويثيروا لهم دفائن عقولهم ويروهم الآيات المقدرة... ولم يُخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة، أو محجة قائمة... رسل لا تقصّر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم، من سابق سُمي له من بعده أو غابر عرفه من قبله».

يوحي كلام الامام علي عليه السلام بفكرتين مهمتين جداً: إحداهما صريحة، والأخرى ضمنية.

الفكرة الصريحة، هي إرسال الله تعالى الأنبياء وتعيين الأوصياء في كل عصر وزمان على أساس حاجة الإنسان الفطرية.

والفكرة الضمنية تتعلق بتعريف الناس بأنفسهم، وأنهم ليسوا سجناء الطبيعة، وهذا ما يشير إليه قوله عليه السلام: «ليذكروهم منسي نعمته ويثيروا لهم دفائن عقولهم»، لأنّ غفلة الناس عن نعم الله تعالى وعطاءاته، وإخفاء العقل والفطرة، بمثابة الأسوار العظيمة لهذا السجن، على عكس المنظرين الماديين الذين يعتقدون أنّ الإنسان حبيس في البطن أو الفرج.

تاريخ البشرية حافل بطلبات خارج الطبيعة ومنطلقة من باطن العباد، وهي طلبات غير محدودة كالعلم، والعدل، والعفة، والحب، والإنسانية، وسائر الصفات والسجايا الإنسانية العليا التي لا يتوقف الإنسان عند حد معين منها، بل يتطلع إلى التسامي فيها باستمرار، ولذلك لا تتوقف حركته التكاملية أبداً، لأنّ الله تعالى هدفه

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظار الفطرة ١١٥

النهائي، ولن يقر له قرار حتى يلتحم بربه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (١). هذا اللون من السير والسلوك الذي ملأ ميدان التاريخ البشري، لا يمكن للإنسان أن يقوم به من دون أستاذ ومدرسة، لذلك بعث الله الأنبياء كي يتحرك الإنسان وفق تعاليمهم، وينطلق على ضوء توجيهاتهم، ليتحقق لديه التكامل، وتنمو فيه الطاقات والاستعدادات، وتتيقظ الفطرة، ويعلو هتافها.

في مقابل حركة الإنسان نحو الأعلى، هناك حركة معاكسة لها تماماً تسعى لدفعه باتجاه الأسفل، أي: نحو الدنيا والطبيعة والشهوات. ولا شك في أن اندفاعه نحو الاتجاهين غير محدود، فقد يسير إلى ما لانهاية خلف الجمال، أو خلف القبح. ويقول القرآن الكريم في الذي يختار الطريق الثاني: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ (٢).

إذن فالإنسان حين عروجه اللامتناهي نحو الجمال والكمال، بحاجة إلى مرشد وإمام وموجه، وأن هذه الحاجة قائمة في كل زمان وعصر، وليس بوسع الإنسان الاستغناء عن هذا الولي المرشد. وهذا ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام في قوله الشريف المتقدم.

لقد علق ابن أبي الحديد على كلام الإمام علي عليه السلام قائلاً:

«ومنها: أن يقال إلى ماذا يشير بقوله: أو حجة لازمة؟ هل هو إشارة إلى ما يقوله الإمامية من أنه لا بد في كل زمان من وجود إمام معصوم؟ الجواب: إنهم يفسرون هذه اللفظة بذلك، ويمكن أن يكون المراد بها حجة العقل» (٣).

هذا الاحتمال الذي يحتمله ابن أبي الحديد غير مقبول، لأن الإمام علياً عليه السلام

(١) سورة الرعد: ٢٨/١٣.

(٢) سورة طه: ١٢٤/٢٠.

(٣) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد ١: ١١٤.

أشار إلى «الحجة اللازمة» كقسيم للرسول ﷺ ، فيما كان العقل موجوداً في زمان النبوة وإلى جانبها.

على أن تلك (الحجة اللازمة) قد بينها أمير المؤمنين عليه السلام في موارد أخرى من نهج البلاغة أحسن التبيين ، كقوله الشريف: «اللهم بل لا تخلوا الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيئاته».

وسياتي في الجزء الخامس بحتمية وجود الإمام المهدي عليه السلام في موسوعتنا هذه (بشارة الأمان) ما يثبت تواتر هذا القول الشريف الذي رواه الجهم الغفير من الفريقين بطرق شتى ، الأمر الذي اضطرَّ معه ابن أبي الحديد على حمل الحجة فيه على الأبدال بعد تصريحه بأن هذا القول يكاد يكون تصريحاً بمذهب الإمامية . وهكذا كان ابن أبي الحديد كلما وجد في النهج ما يؤيد رأي الإمامية أو له على وفق ما يرتضيه مذهبه .

لابد أن نشير إلى بعض الآيات القرآنية التي تأمر بذكر القادة والزعماء الإلهيين ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً﴾ (١) ، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إسماعيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ (٢) ، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ كُنَّا عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (٣) .

والسبب في وجوب ذكر هؤلاء العظماء هو أنهم رسموا طريق الحياة الصحيح ، واستخدموا أفكارهم وجوارحهم في المواضع الصحيحة. ومعنى الأيدي والأبصار في الآية المباركة الأخيرة هو أن أيديهم وأبصارهم كانت

(١) سورة مريم: ٥٤/١٩.

(٢) سورة مريم: ٥٤/١٩.

(٣) سورة ص: ٤٥/٣٨.

ف ١: وجود المصلح العالمي من منظور الفطرة ١١٧

إنسانية واستخدموها في المسار الإنساني .

إذن نفهم من تعاليم القرآن الكريم أنّ ذكر القادة الربانيين والزعماء الإلهيين يلعب دوراً مهماً في هداية البشر. ولا شك في أنّ ذكر قائم آل محمد ﷺ بصفته ابن الإمام الحسن العسكري عليه السلام وحفيد الرسول محمد ﷺ، يمثل استمراراً لخط الآيات القرآنية المباركة في التذكير بالرجال الإلهيين، كتذكيرها بالأب والابن والحفيد^(١).

الاحتفاء بالنفوس المطهرة، والتأسي بالشخصيات الكبرى، عملية تمهد طريق النجاح وبلوغ الموقع الإنساني الرفيع، وهل هناك درس أسمى من درس انتظار المهدي عليه السلام ويوم العدل والحياة النقية المنبثقة عن الفطرة السليمة الناصعة؟!

الاستنتاج:

المقدمات العلمية والدراسات التي أجريناها حول الفطرة تقودنا إلى خمس نتائج أساسية:

- ١- تقتضي الفطرة الميل إلى شيوع العدل والسلام والأمن في العالم.
- ٢- يكمن هذا الميل في قلب البشرية وضميرها.
- ٣- ينبثق انتظار الفرج من باطن الإنسان وفطرته، ولديه جذور في أعماق روح الإنسان.
- ٤- تتأكد ضرورة وجود الزعيم والمقتدى وحامل الراية الإلهية على أساس العقل الفطري، لأنه يحكم على أساس باطن الإنسان، ومن دون الاكتساب من الخارج بتعذر قطع هذا الطريق بدون زعيم إلهي كفوء ومؤهل.

(١) الآية القرآنية ﴿وَأذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [سورة ص: ٤٥/٣٨] تذكر بالأب إبراهيم، والابن إسحاق، والحفيد يعقوب.

٥- ينبغي معرفة هويّة المصلح العالمي ، والوقوف على صفاته وخصوصياته من خلال الأحاديث المعتبرة والمتواترة .

وليس من وظيفة الفطرة أن تشخص لنا هوية المصلح العالمي ، إنما هي دليل على وجوده الذي قذفه الله في باطن الإنسان ، ليسأل بعد ذلك عن هويته . فالفطرة تنبئنا عن مستقبل البشرية ، وتوقظ الانتظار لدى الإنسان . وتسارع الشريعة إلى مساعدة الفطرة فتشير إلى الشخص المنتظر وتحدد هويته .

بتعبير آخر: يمسك الشرع بيد العقل الفطري ؛ ويقوده خلال المنعطفات والأزقة لإيصاله إلى الهدف بأمان . وهناك قاعدة معروفة بين الفقهاء تقول: «السمعيات أطفاف في العقلية» أو «الأحكام الشرعية أطفاف في الأحكام العقلية»^(١) ، وتعدّ أحكام العقل الفطري من أبرز الأحكام العقلية . ومعنى اللطف هو أن يُعطي الشرع لعين الفطرة ضوءاً أكبر ويعرفها المصداق ، أي: أن هناك معاملة بين الفطرة والشريعة ، وتسود هذه المعاملة في كثير من المباحث والأدلة العقلية الدينية . وتوجد في كتب الحديث مئات الأحاديث المعتبرة في الإمام صاحب الزمان عليه السلام . وقد تبركنا في نهاية الأدلة العقلية باثني عشر حديثاً منها ، كي يقود هذا التعاضد بين العقل والشرع طالب الحقيقة ، نحو الإيمان بغيبة إمام العصر والزمان أرواحنا فداء .

(١) قال المحقق الكركي في جامع المقاصد ١ : ٢٠٢ في معنى القاعدة: «إن الواجب السمعي مقرّب من الواجب العقلي ، أي إمثاله باعث على إمثاله ، فإنّ من أمثال الواجبات السمعية ، كان أقرب إلى أمثال الواجبات العقلية من غيره ، ولا معنى لللطف إلا ما يكون المكلف معه أقرب إلى أمثال الواجبات العقلية من غيره» .

الفصل الثاني

ولي العصر (أرواحنا فداه)

نقطة اعتدال أسماء الجمال والجلال في الأرض

من أدلة إثبات وجود الإمام المعصوم في جميع العصور والأزمنة
هو أنّ الإمام المعصوم يمثل نقطة التعادل بين أسماء الجمال والجلال
الإلهية ولا شك في ضرورة وجود مثل هذا الإنسان.

المبحث الأول

معرفة أسماء الجمال والجلال

«الأسماء الحسنى»

كلمة «الولي»، اسم مبارك من أسماء الباري تعالى، ولذلك لا بد من تناول لأسماء الإلهية أولاً:

«الذات»، و«الصفة»، و«الاسم»^(١):

الذات المقدسة للباري تعالى تظهر في صفاته وأسمائه: العلم صفة الله، والعليم اسمه، والحكمة صفته، والحكيم اسمه. وكذلك الأمر بالنسبة للرحمة والرحيم، والخلق والخالق، والقدرة والقدير... إلخ.

(١) من وجهة نظر الحكماء والعرفاء، ليس هناك أي تباين ماهوي وحقوقي بين الاسم والصفة، والاختلاف بينهما اعتباري فحسب. فمثلاً الحياة والعلم صفتان، والحي والعالم إسمان. ويرى عزيز الدين النسفي أن الاسم علامة، والصفة صلاحية، والفعل خاصية. فالاسم علامة المسمى وآيته. فـ«زيد» علامة لشخص خاص وحقوقي موجود في الخارج، بينما الصفة صلاحية وكيفية للموصوف. كذلك «القيام» صفة لزيد وأمر عارض على ذاته. أما الفعل فهو الأثر أو الخاصية التي تصدر من الفاعل وتظهر. وتجري هذه العناوين الثلاثة - أي: الاسم والصفة والفعل - على الله تعالى بالمعنى الذي هو شأنه.

ما هو مظهرُ الأسماء؟

عالم الإمكان، مظهر الباري تعالى، أي: أنه يمثل نقطة ظهور أسمائه.

مثال من الطبيعة:

١- العيون واقعة في قلب الجبل والأرض، وماء العيون يمثل مظهر تلك العيون.

٢- التيار الكهربائي كامن في السلك، وضوء المصباح مظهر ذلك التيار.

٣- حينما تنفذ أشعة الشمس إلى داخل الغرفة عبر النافذة، وتضيء كل ما فيها، ونشعر بالدفء واللذة، فالفضل في ذلك لا يعود إلى تلك الأشعة التي امتلأت بها الغرفة، وإنما إلى الشمس التي هي مصدر الضوء والنور والحرارة، أما ضوء الغرفة فليس سوى مظهر لنور الشمس.

مثال مما وراء الطبيعة:

الوحي إما اتصال مباشر لله تعالى بالقلب المبارك للرسول محمد ﷺ، أو غير مباشر عن طريق جبرئيل عليه السلام. وهذه مرحلة خفية ليس لأحد علم بها.

وتجلى الوحي في القرآن الكريم وأُميط فيه عن الغيب اللثام. ومع ذلك فإنه واقع في موضع بعيد وعال لا تبلغه الأيدي. ويمثل الرسول الأكرم محمد ﷺ مظهر القرآن الكريم، حيث ورد في الأحاديث الشريفة: «خُلِقَ القرآن».

إذن نؤمن بثلاث حقائق:

١- الوحي ٢- القرآن ٣- الرسول.

الوحي باطن وغيب، والقرآن الكريم ظاهره، والرسول الأكرم محمد ﷺ مظهر الوحي والقرآن.

ف ٢: ولي العصر نقطة اعتدال أسماء الجمال والجلال في الأرض..... ١٢٣

لنعد إلى معنى الأسماء الحسنى: تظهر ذات الحق تعالى في أسمائه وصفاته،
وعالم الخلقة يمثل مظهر أسماء جمال وجلال الله تعالى.

مثلث - (علم الوجود، وعلم الكون، وعلم الإنسان):

لاشك في أن جميع الحقائق السماوية والأرضية، والغيبية والشهودية،
والخارجية والداخلية، عبارة عن مظاهر للأسماء الحسنى، ولاشك أيضاً في أن
كل ما في هذه الحقائق وكل ما هو جزء منها، يرجع إلى هذه الأسماء.

على هذا الأساس، يقدم المرء كل حاجة من حاجاته إلى الله تعالى باستخدام
إسم من هذه الأسماء يتناسب مع تلك الحاجة. فإذا كان بحاجة إلى رحمة الله -
ولاشك في أنه بحاجة إليها - يقول «يا إلهي الرحيم ارحمني»، وإذا كان بحاجة
إلى الحكمة يقول: يا إلهي الحكيم ألهمني الحكمة»، وإذا كان في نزاع مع أحد
يقول: يا أحكم الحاكمين احكم بيني وبين فلان. وهكذا.

يقول الميرداماد في كتاب الجذوات: إن أكابر أهل التحقيق وأركان أرباب
العرفان يقولون: كل موجود من الموجودات واقع تحت تربية اسم من الأسماء
الإلهية المقدسة.

بوسعنا الاطلاع على الصنع الإلهي بمشاهدة أي كائن من كائنات الكون،
ولكن من المتعذر عرض الشؤون الإلهية، فبوسع الزهرة أن تتبىء عن الحديقة،
لكنها لا تستطيع أن تعرضها وتضعها أمام مرأى المشاهد.

من بين جميع الموجودات والكائنات، الإنسان هو الكائن الوحيد الذي
يستطيع أن يشير إلى ما وراء الطبيعة.

طالما تحدث فلاسفة وعلماء الإسلام وغير الإسلام وعلى مدى التاريخ في
الإلهيات، وسطروا مختلف الأفكار والرؤى في هذا المضمار، لكن أكثر كتاباتهم
هي في خالق الوجود وصفاته، كما أن أساس جميع تلك الكتابات هو دليل

الفطرة .

الإنسان ينظر إلى باطنه من جانب، وإلى نظام الخلقة من جانب آخر، فيرى نفسه مرتبطاً بالقوة المطلقة، ويشعر أنه محتاج وفقير في كل شيء وإلى كل شيء، فيعترف عن إيمان كامل أن الله تعالى مالكة، شريطة ألا تختفي فطرته وتفقد تأثيرها بفعل إichاءات وكلمات الجاهلين وأصحاب الأهواء .

إذن فعالم الخلقة يمثل مظاهر أسماء الجمال والجلال الإلهية. بمعنى أن علم الكون، وعلم الوجود، وعلم الإنسان، تفسير لأسماء جمال الله وجلاله .

أما وصفنا لأسماء الله المباركة بـ«الحسنى»، فلأن أسماء الحق تعالى جميعها جميلة وساحرة، ومبعث هدوء واطمئنان القلب، وراحة الضمير والخاطر. فالله الرزاق الرؤوف الرحمن الرحيم ذو لطف بعباده الأخيار، وذو قهر وانتقام وغضب في تعامله مع الجائرين والمفسدين .

جميع عالم الإمكان والمجرات، تجلُّ للأسماء الإلهية. ولكن حذار من فهم التجلي على أنه حلول أو اتحاد! كما أن التجلي لا يعني الاتصال بمظاهر الوجود، فجميع هذا ليس سوى كفر وانحراف عن المسار المستقيم. فالله تعالى خالق الوجود، والوجود مخلوق الله، ولا يمكن لأي منهما أن يحل في الآخر. إذن فالتجلي عبارة عن تألق وسطوع الأسماء الإلهية .

عالم الوجود، مرآة متعددة تعكس كل منها النور الإلهي بمقدار ما تنسم به من نقاء وعتمة، وكبر وصغر، كما أن أولياء الله يعكسون النور الإلهي بالطريقة التي يعجز عنها غيرهم .

بعض مظاهر أسماء الجمال والجلال (اللطيف والقهر):

ظاهر الإنسان وباطنه، بمثابة معرض للأسماء الحسنى وأسماء الجلال والجمال. فظاهر عقل الإنسان مظهر لأسماء جمال الله ولطفه، لأن العقل يهدي

ف ٢: ولي العصر نقطة اعتدال أسماء الجمال والجلال في الأرض..... ١٢٥

قوى الإنسان نحو طريق الخير والصلاح. وبالطبع فإنّ دائرة هداية العقل محدودة، والأهم من ذلك أنها يجب أن تُضاء بمصباح الشرع، وهذا كلام آخر. تقف النفس الأمّارة في مقابل العقل، وهي تمثل مظهر أسماء الجلال والقهر الإلهية، لأنّ النفس تزيّن للإنسان الأعمال والممارسات الحيوانية وتحرضه على ارتكاب المعاصي. ولذلك يُعدّ الشيطان مظهراً تاماً لأسماء المضل والمنتقم. ومن هذا المنطلق تتبعث جميع أعمال الإنسان وسلوكياته إما من العقل أو من النفس. إذا كانت جوارح الإنسان مطيعة للعقل ومهتدية بهداه، فإنها تشقّ طريقها في ظل أسماء الجمال واللطف، وعلى العكس من ذلك تُعدّ الانحرافات والانتهاكات المنبعثة عن شهوة أو غضب، مظهراً لأسماء الجلال والقهر الإلهية. ويوجد في الإنسان شيء واحد يجمع أسماء الجلال والجمال معاً، وهو القلب.

قلب الإنسان، في حالة تطور وتغيير وتبدل، ويتقلب من حال إلى حال، ومن فكر إلى فكر خلال عملية السير والسلوك. قد يميل إلى الحق والخير والصلاح في بعض الأحيان بتأثير أسماء الجمال واللطف، وقد ينزع نحو الباطل والشر والفساد، بتأثير أسماء الجلال والقهر.

صفوة القول: إنّ جميع الأفكار والممارسات الخيّرة للإنسان، ترجع إلى تجلي أسماء جمال الله، وبالمقابل فإنّ جميع أفكاره الشيطانية ومعاصيه، ترجع إلى تجلي أسماء جلال الله وغضبه. ولا بد من التأكيد على الأمر التالي وهو أنّ الله تعالى منزّه عن كل شرّ وفساد، وترجع الانحرافات والموبقات إلى المرء نفسه، فهو يقحم نفسه بإرادته واختياره في ميدان سلطة أسماء الجلال والغضب. وهذا واضح في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^(١)، أي: أنّ إضلال الله يتحقق بعد خروج الإنسان عن طريق الحق، بمعنى أنّ غيّه يؤدي به

(١) سورة البقرة: ٢٦٢.

إلى الخسران.

إذن ظهور الأسماء الحسنی، یعنی تجلي هذه الأسماء في موجودات العالم، حيث يُعدّ كل منها مظهرًا لاسم من الأسماء الحسنی بما ينسجم مع حجم كل موجود، فالجبال والسهول وسائر الجمادات، تحكي عن اسمي الخالق والرحيم. وورد في الأدعية المأثورة: «وبرحمتك التي وسعت كل شيء...»^(١).

(١) ورد هذا المقطع ضمن أدعية كثيرة جداً عن أهل البيت عليهم السلام نذكر منها:

دعاء الإسراء المروي عن الإمام الباقر، عن آبائه عليهم السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله كما في مستدرك الوسائل / المحدث النوري ٦: ٢٤٣- ٢٤٤ / ٦٧٩٩ (٨) باب (١) من أبواب صلاة الاستخارة. ورواه السيد فضل الله الراوندي في أول كتابه: أدعية السر.

ودعاء الصائم عند إفطاره المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله كما في درر اللآلئ / الاحسائي ١: ١٦. ودعاء الليلة الحادي عشرة من شهر رمضان المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله كما في إقبال الأعمال ١: ٢٧٩.

ودعاء النصف من شعبان وليالي الجمع المروي عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام وهو الدعاء المعروف بدعاء كميل بن زياد، ومفتتحه: «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء...» رواه الشيخ الطوسي في مصباح المتعجد: ٨٤٤ / ٩١٠ (٢٥)، والسيد ابن طاوس في إقبال الأعمال ٣: ٣٣١.

ودعاء الحرز الكامل الذي كان يدعو به الإمام السجاد عليه السلام في كل صباح ومساء كما في الصحيفة السجادية: ٦٥.

ودعاء كشف النوائب في الصحيفة السجادية أيضاً: ٣٩٦- ٣٩٧ / ١٧٧.

ودعاء أول يوم من أيام شهر رمضان رواه علي بن رثاب، عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في فروع الكافي / ثقة الإسلام الكليني ٤: ٧٢ / ٣ باب ما يقال في مستقبل شهر رمضان من كتاب الصيام، والفقير / الشيخ الصدوق ٢: ١٠٢ / ١٨٤٨ باب ما يقال في أول يوم من شهر رمضان، والمقنعة / الشيخ المفيد: ٣٢٠- ٣٢١، وتهذيب الأحكام / الشيخ الطوسي ٣: ١٠٦ / ٢٦٦ (٣٨) باب الدعاء بين الركعات، ومصباح المتعجد / الشيخ الطوسي: ٦٠٤ / ٦٩٤ (٧٠)، وإقبال الأعمال / السيد ابن طاوس ١: ١١٥.

ودعاء العافية المروي عن مولانا الإمام الرضا عليه السلام كما في تهذيب الأحكام ٣: ٢٥٧ / ٩٥ (٢٩).

ف ٢: ولي العصر نقطة اعتدال أسماء الجمال والجلال في الأرض..... ١٢٧

عالم النبات، يحكي عن اسمضي المحيي، والمميت، فضلاً عن الخالق والرحيم. ولا ريب في أن تمتع النباتات بالرحمة الإلهية يفوق كثيراً نصيب لجمادات منها. كما أن نصيب الحيوانات من أسماء الخالق، والرحيم، والمحيي، والمميت، أكبر بكثير من نصيب النباتات، فضلاً عن نصيبها الآخر من أسماء جلال وجمال أخرى، كالرزاق، والحنان، والمنان. وتتمتع الحيوانات الأليفة بأسماء النافع، والواسع، والناصر، على العكس من الحيوانات الوحشية التي تقع في ميدان أسماء من قبيل الضار، وشديد المحال.

بين موجودات العالم، الإنسان هو الكائن الوحيد الذي بوسعه أن يكون مظهراً لجميع أسماء الجلال والجمال الإلهية.

الآيات القرآنية المباركة تشير - بالإجمال أحياناً، وبالتفصيل في أحيان أخرى - إلى مثلث «علم الوجود، وعلم الإنسان، وعلم معرفة الله تعالى».

قد ورد تفصيل الأسماء الحسنى، في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وقدّم هذا الكتاب الإلهي أسماء وصفات عديدة للباري تعالى. ووردت هذه الأسماء بشكل مجمل في الآيات التالية:

١- ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ...﴾ (١).

٢- ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (٢).

→ ودعاء ما بين العصر والمغرب المروي عن الإمام الهادي عليه السلام كما في مفتاح الفلاح / الشيخ البهائي: ١٦٨-١٦٩.

ودعاء سجدة الشكر كما في مصباح المتعجد: ٢٤٠ / ٣٥٢ (٩٠)، وغيرها من الأدعية الكثيرة الأخرى.

(١) سورة الأعراف: ٧ / ١٨٠.

(٢) سورة طه: ٨ / ٢٠.

٣- ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (١).

٤- ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِيءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢).

أسماء الجمال إلى جانب أسماء الجلال:

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٣).

بما أن الأسماء الحسنى، وسائط بين الله والخلق، فقد أورد القرآن الكريم في كل مقطع من مقاطع الخلقة، إسماً من الأسماء الحسنى، معبراً عنه كواسطة في الفيض. ووضع في ذكر أسماء الجمال نقاط الخلقة الجميلة في منظر الفطرة والعقل. كما تحدث خلال تبيانه لأسماء الجلال عن الكبرياء والعظمة والقهر. فعلى سبيل المثال أشارت الآية السابقة إلى الله تعالى بثلاثة أسماء هي: الرزاق، وذو القوة، والمتين.

هذا الكلام الإلهي، ورد بشأن الأمم والأقوام الطاغية والجاثرة مثل قوم فرعون، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم نوح، وأشارت إلى العذاب الذي نزل على كل منهم. فاستخدم القرآن الكريم اسم الجمال مع أولياء الله، فيما استخدم اسم الجلال والقهر والقوة مع أعداء الأنبياء، مع تذكير الرسول ﷺ بسرّ الخلقة الذي

(١) سورة الإسراء: ١٧ / ١١٠.

(٢) سورة الحشر: ٢٢/٥٩ - ٢٤.

(٣) سورة الذاريات: ٥١/٥٨.

ف ٢: ولي العصر نقطة اعتدال أسماء الجمال والجلال في الأرض..... ١٢٩

يتمثل في عبادة الله .

العبادة لصالح الإنسان وفي نفعه ، ولا تعود هذه العبادة على الله بالنفع ، بل على الإنسان الذي يعمّه اللطف الإلهي بفضل تلك العبادة. فالله تعالى رزاق ، لكنه يتعامل في الوقت نفسه مع المتمردين والعصاة بقوة ، ومتانة .

اسم «الرزاق» ، من أسماء الجمال ، واسم «ذو القوة» ، من أسماء الجلال. وجميع النعم ، والمأكولات ، والمشروبات ، ووسائل الحياة ، تظهر في ظل رزاقية الله. إذن فهذه الآية تشير إلى أمرين: الأول رزاقية الله وحاجة العباد إليه ، والثاني تصدي الله تعالى لمزاعمهم الباطلة واستكبارهم .

اسم «المتين» ، يشير إلى النظام الأحسن للفعل الإلهي في جانبه: الجلال والجمال ، أو الاستحكام والروعة. فالله تعالى يحقق الرزق وفق برنامج منظم ومدهش ، لكنه يفضح في الوقت نفسه أذعياء الرزق ، ويزيل ما يشكّلونه من خطر على مصير المجتمع البشري. ولا ريب في أنّ استخدام هذين الإسمين المباركين (ذو القوة، والمتين) في مقابل الصالحين والأشرار ، دقيق جداً وفي محله ، لأنه يستقطب الفئة الأولى ، ويدفع الفئة الثانية. فاسم «ذو القوة» يُعدّ اسماً جمالياً مع الصالحين ، واسماً جلالياً مع الأشرار والمفسدين. كذلك اسم «المتين» ، لديه طرفان أو وجهان أيضاً .

القرآن الكريم يحدد في موضع آخر «رزاقية» الحق تعالى ، ويضع لها شروطاً في ظل اسمين من أسماء الله. ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾^(١). فالله تعالى خبير بأفكار العباد وطباعهم وسلوكياتهم ، وبصير بجميع العلل والعوامل والأسباب .

(١) سورة الشورى: ٢٧/٤٢.

يقول الأستاذ الكبير آية الله العظمى الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه:
تصبح الذات - بتعيين من التعينات الاسمية - منشأً لظهور عالم متناسب مع ذلك
التعيين، كتعين الذات باسم الرحمن لبسط وظهور الوجود، وباسم الرحيم لبسط
الكمال والجمال، وباسم القدير لظهور عوالم الملكوت...»^(١). أي، إن اسم
الرحمن مصدر لظهور العالم، واسم الرحيم مصدر لظهور جمال وكمال العالم،
واسم القدير مصدر للملكوت.

وردت أسماء «الله» في القرآن الكريم من خلال تعبيرين:

١- الأسماء الحسنى:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٢)، وغيرها من الآيات.

٢- إسماء الجلال والإكرام:

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(٣).

أي، إن اسم ربك كله خير وبركة، وإن جميع نعم الله، ببركة اسم الجلال واسم
الجمال، وإن أسماء الله منقوشة على جبين نظام الوجود.
سورة الرحمن المباركة، تهتف بجميع آياتها، بنعم الله التي تقع جميعاً تحت
ظل أسماء الجلال والجمال.

(١) الإمام الخميني / مصباح الهداية إلى الولاية: ٩٠.

(٢) سورة طه: ٨/٢٠.

(٣) سورة الرحمن: ٧٨/٥٥.

المبحث الثاني

اسم «الولي» خاص بالله تعالى

يجعل القرآن الكريم «الولاية» أمراً خاصاً بالله تعالى، ويشير إلى ذلك في
عديد من الآيات:

- ١- ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).
- ٢- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ
الْحَمِيدُ﴾^(٢).

هاتان الآيتان المباركتان تؤكدان على حقيقة أن الله تعالى هو المدبّر والمالك
لكون، وأن جميع الشؤون بيده، وأنه الخالق لأسباب الكون وقوانينه، هذه
لأسباب والقوانين التي لا تعمل إلا في ظل قوته وإرادته وتأثيره. وعليه فهو
وحيد الذي يستحق العبادة والطاعة، ولا بد للعباد من الاستعانة به، ويكمن هنا

^١ سورة الشورى: ٩/٤٢.

^٢ سورة الشورى: ٢٨/٤٢.

سر ورود لفظة «الحميد» بعد لفظة «الولي» في الآية المباركة. فالمحامد والثناءات والمحبات وغيرها، لا بد أن تكون لذاته المقدسة، لأن اسم «الولي» المبارك، جامع لصفات الجلال والجمال معاً. وتكمن فلسفة تحقق أسماء البصير، والخبير، والعليم، والحكيم، والعزیز، وذو الانتقام، وسائر أسماء الجمال والجلال، في هذه الولاية الإلهية. أي، إن بيت قصيد الأسماء الحسنی، يتمثل في ولاية الله، واسم «الولي».

٣- ﴿حَم * عَسَق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ
الْعَظِيمُ * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *
وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
بِوَكِيلٍ ﴿١﴾.

الله يُرسل الوحي لأنه تعالى لديه صفات كمالية، ولذلك لا يمكن أن يكون نظام الوجود خالياً من الوحي. وبما أنه تعالى يتصف بصفات العزيز، والحكيم، وله ما في الأرض (المالك)، والعلي، والحكيم، والغفور، والرحيم، فلا بد أن تكون لديه الولاية على الكون، وأن يكون غيره بحاجة إليه.

ولكن إذا كانت الولاية لله على الكون، فلماذا الوحي والنبوة؟ والإجابة هي

ف ٢: ولي العصر نقطة اعتدال أسماء الجمال والجلال في الأرض..... ١٣٣
أن الله سبحانه يتصف بالصفات الكمالية، وأن عالم الوجود ظهوره، ومن المحال
أن يكون من دون هدف وغاية. وعليه فالغاية من الوحي هي تحقيق الهدف من
الخلقة.

لماذا الولاية لله؟

لأنه له الأسماء الحسنى، والأسماء الحسنى تعني الولاية على الوجود.
إذن فإسم «الولي»، جامع للصفات الكمالية. وبالطبع فجميع
الأسماء الحسنى، شؤون لاسم «الله» تعالى، لكن الولاية تمثل مركز الصفات
الإلهية.

٤- ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي
بِالصَّالِحِينَ﴾ (١).

يلتفت يوسف عليه السلام إلى اسم «الولي» فيستقطب هذا الاسم نظره، فيرى أن
جميع عنايات الله تعالى تتحقق في ظل حقيقة اسم «الولي». فنجاته من غيابات
الجب، وتحرره من السجن، ونيله منصباً حكومياً في مصر، ومعرفته بباطن
العالم ورموز الخلقة، جميعها من مظاهر الولاية الإلهية.

ولاية الله تعني أن الوجود بيده، وأنه لديه صفات، حيث تُعدّ الخلقة وليدة
حقيقة صفة واسم الله. ويمتد يوسف عليه السلام بدائرة الولاية الإلهية إلى يوم القيامة،

١٣٤ بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية / ج ١

ويطالب الولاية الإلهية أن تجعل وفاته في سبيل الله والتسليم للأوامر الإلهية .
والالتحاق بالصالحين .

هذا كلام موجز في ولاية الله ، أما ولاية الإنسان فستأتي .

المبحث الثالث

ولاية الإنسان

معرفة الإنسان لا تتحقق في حقل العلوم، ولا في حقل العقل والفلسفة،
تأهيك عن تحقق معرفة ذروة الإنسانية الرفيعة المتمثلة في الولاية. ما يفهمه
تعلم والتجربة هو:

الإنسان من حيث الظاهر جزء من الطبيعة، ويخضع تركيب جسمه وظواهره
تحياتية وتاريخ تطوره للدراسة على أساس أساليب العلوم الطبيعية، تحت
عنوان علم الإنسان. وتلبي هذه العلوم جميع حاجاته الطبيعية والحياتية.
بمثل هذا التعريف والوصف، يقف الإنسان بين الحيوانات. ورغم أنه لديه في
هذا التبويب مكانة أعلى وأسمى من سائر الحيوانات، غير أن مثل هذه المعرفة
- مهما كانت دقيقة وعملية - فهي ليست معرفة للإنسان بجميع أبعاده، وإنما
تستوعب جزءاً من ظاهر الإنسان.

قطعت الحضارات والثقافات البشرية منذ البداية وإلى يومنا هذا خطوات في
معرفة سير وتكامل الإنسان وتطوره في فضاء المادة والطبيعة، وهبّ علماء
نفس لتعريف الإنسان عن طريق النفس، لكن كل هذه المحاولات المستمرة
ضلت غافلة عن إدراك شخصيته، ولم تخرج تلك الدراسات العلمية عن إطار
تغرائز والإدراكات والمشاعر، ولم تتناول الشخصية الحقيقية للإنسان.

تقليداً منه للعلوم التجريبية والأساليب المختبرية في تقديم الأرقام، تحوّل علم النفس إلى علم يسعى لمعرفة بعض جوانب الإنسان التي يمكن اختبارها في المختبرات، وانبرى لدراسة الآليات والانفعالات والغرائز وما إلى ذلك، متجاهلاً دراسة نفس الإنسان وروحه.

فيما تُعدّ معرفة الإنسان أهم مسائل الحياة، ولا تُتاح هذه المعرفة إلا عن طريق الدخول إلى ميدان الروح غير المحدود، تبقى هذه المعرفة غير متصلة بالعلوم الطبيعية والتجريبية وإنما بالعقل، ولكن ليس العقل المجرد بل العقل الممتزج بالوحي والإلهام.

الحقيقة هي أن العلوم الطبيعية تشير إلى بداية طريق الإنسان، وهو ما أشارت إليه الجملة الأولى من الآية الكريمة:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾^(١).

غير أن العلوم التجريبية لم تسمع الجملة الثانية من هذه الآية: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(٢)، في حين يسمع العقل هذا الهتاف ويتلذذ بسماعه. والحقيقة هي أن جميع استعدادات الإنسان وقابلياته كامنة في هذه الجملة الثانية وليس في الجملة الأولى.

يجب على الإنسان أن يطوي الطريق بأسره كي يبلغ كماله، لا أن يبقى واقفاً وسط الطريق. ويشبّهه جلال الدين الرومي هذين اللونين من الناس بشخصين: أحدهما: يمسك بالحبل نازلاً بواسطة إلى باطن البئر.

والآخر: يمسك به أيضاً لكنه يستخدمه للتسلق إلى الأعلى.

الإنسان بحاجة إلى دراسة الإنسان والعالم، وهو ما يسعى إليه جميع

(١) سورة ص: ٧١/٣٨.

(٢) سورة الحجر: ٢٩/١٥، وسورة ص: ٧٢/٣٨.

٢: ولي العصر نقطة اعتدال أسماء الجمال والجلال في الأرض..... ١٣٧
مفكري وعلماء العلوم الإلهية. ويكتب الفيلسوف الفرنسي الشهير «فرانسوا بول
فولكيه» (Poul Foulquie):

«أفكار ما وراء الطبيعة، جزء من متطلبات الروح الإنسانية التي لا نقاش فيها.
وعلماء يستطيعون، بل وملزمون في دراساتهم الخاصة، الخروج مؤقتاً عن
ثورة القضايا المهمة التي ليس حلها من صلاحية التجربة الحسية، لكنهم ليس
وسعهم بعد الآن التخلي عن هذه القضايا، أو النظر إليها على أنها لا حل لها
مطلقاً، أو حتى الانصراف نهائياً عن حلها.

إثارة هذه القضايا - وكما قلنا من قبل ونكرر القول هنا - للعالم، من حيث هو
عالم لا يستطيع أن يستشعر الهدوء ما لم يحصل على الإجابة على آخر «لماذا»
وعلى آخر «كيف»، أمر قهري. فالأخصائي في علم الفلك الذي يضع كتلة من
الأجرام السحابية في بداية العالم، ويؤمن بأن الكون يفقد حرارته باستمرار،
لا يستطيع أن يمنع نفسه من طرح السؤال التالي: من أين أتى هذا السحاب؟ وما
هو مصير العالم حينما يفقد حرارته تماماً؟

إثارة هذه القضايا من قبل العالم أمر قهري أيضاً من حيث هو إنسان، لأن
إنسان ليس لديه الحق إلى حد ما في عدم الاكتراث بالقضايا المهمة التي ترتبط
بِحياته بأسرها، مثل: من أين جئنا؟ وماذا نريد؟ وأين سنذهب؟ ولا شك في
هذا اللون من عدم الاكتراث، جزء من مذهب الشك الذي يتعارض مع
عقيدة الأخلاقية.

من هنا لا يستطيع العقل منع التعاطي مع ما وراء الطبيعة، والحيلولة دون إثارة
هذه القضايا، وقد قال كمنط عمانوئيل (كانت) (١٧٢٤ - ١٨٠٤م)^(١): «أن

كمنط عمانوئيل: (Immanuel Kant (1724 - 1804 AD)، فيلسوف ألماني ولد في مدينة

يستطيع عقل الإنسان تجاهل بحوث ما وراء الطبيعة تماماً، أمر ليس بالإمكان توقعه قط، مثلما لا يمكن لأحد أن يتوقع منا قطع التنفس تماماً من أجل ألا نتنفس الهواء الفاسداً».

في القرآن الكريم قصص كثيرة تتحدث عن قدرة ولاية أولياء الله لا يفقهها العلم والفلسفة قط، لكنهما لا يستطيعان رفضها أيضاً، لأنها أحداث قد وقعت حقاً ويسلم بها الإنسان بوحى من العقل، ومنها تلك القدرة العجيبة التي تميز بها عيسى بن مريم وآصف بن برخيا عليهما السلام:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ

→ بكونسبرج في ألمانيا الشرقية من أصل اسكتلندي، استمر بتدريس الفلسفة في جامعة بكونسبرج مدة اثنين وأربعين سنة، وسيطرت فلسفته على القرن التاسع عشر في أوروبا، امتازت فلسفته بتأثير النزعة العقلية، ومن ثم النزعة التجريبية، واتصفت فلسفته بالمثالية النقدية. من كتبه:

«نقد العقل الخالص أو النظري: Kritik der reinen Vernunft».

و«مقدمة لكل ميتافيزيقا مستقبلية: Prolegomena zu eiuener jeden kunftigen Metaphysik die als Wissenschaft auftreten können».

و«المبادئ الأساسية لميتافيزيقا الأخلاق: Grundelegung zur Metaphysik der Sitten».

و«ونقد العقل العملي: Kritik der praktischen Vernunft».

و«الدين في حدود العقل الخالص: Die Religion innerhalb der Grenzen der blossen Vernunft».

و«ميتافيزيقا الأخلاق: Die Metaphysik der Sitten».

في جزئين، الأول:

«المبادئ الميتافيزيقية للحق: Metaphysisches Anfangsgründe der Rechtslehre».

والثاني «المبادئ الميتافيزيقية للفضيلة: Metaphysisches Anfangsgründe der Tugendlehre».

ف ٢: ولي العصر نقطة اعتدال أسماء الجمال والجلال في الأرض..... ١٣٩

وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴿١﴾.

هذه المعجزات التي ظهرت على يد نبي الله عيسى عليه السلام، هي الولاية، وظهور لأسماء الحسنی، أي: ظهور الخالق، والمحيي، والشافي على يد عيسى عليه السلام. وهذا التجلي الذي هو عبارة عن قدرة الولاية، ليس حكراً على الأنبياء، وإنما لدى الأوصياء مثل هذه الولاية والقدرة أيضاً، كذلك القدرة التي كانت لدى وصي سليمان (آصف بن برخيا) والتي تحدث عنها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَالشُّكْرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٢).

فذلك الذي كان لديه علم من الكتاب قال لسليمان: إنه سيأتي إليه بعرش بلقيس ملكة سبأ في طرفة عين، وقد أتى به في الحال. هذه الهيمنة على نظام الطبيعة، يقال لها الولاية.

أساس الولاية، القرب من الله:

ذكرنا في بداية البحث أننا إذا أردنا إدراك وفهم معنى الإنسان لاسيما نقطة الإنسانية الرفيعة التي هي الولاية، لا بد لنا من الخروج من الطبيعة وما يحيط بنا، والانتقال إلى أجواء أخرى.

إذن أساس الولاية وجذرها، هو القرب من الله تعالى. وهذا القرب ليس قرب الأجسام والمسافات، وإنما قرب الروح والفكر من الله، أي من الأسماء

(١) سورة المائدة: ١١٠/٥.

(٢) سورة النمل: ٢٧ / ٤٠.

الحسنى ومعرفة الله. وثمة حديث طويل في هذا المضمار، وقد تحدث العلماء والمفكرون بطريقة وأخرى عن هذا القرب.

الراغب الأصفهاني يقول بأن «الولاء» و «التوالي» عبارة عن شيئين أو أكثر يقع بعضها إلى جانب بعض وليس بينها أي فاصل^(١).

ويقول الشيخ العارف عبد الرزاق الكاشاني بأن الولاية تمثل نقطة تعادل تحقق الأسماء الحسنى في نظام الخلقة^(٢).

أي: أن جميع الأسماء الحسنى، تتحقق ضمن محيط دائرة الولاية. بمعنى أن اسم «الولي» يشكل مركز دائرة أسماء الجمال والجلال الإلهية.

ويقول في ولاية رسول الله ﷺ: «الولاية عبارة عن التحقق بحقيقة النقطة الاعتدالية المنسوبة إلى كليات الأسماء والحقائق الإلهية»^(٣).

ويقول أيضاً: «الولي من يلي الحق ويليه برفع الحجب ويسمع كلام الحق ويعيه»^(٤).

أي: تزول الحجب بين الله ووليه، فيتصل الولي بالحق، والحق بالولي، فيسمع الولي كلام الحق ويفقهه. ولذلك تنعكس قدرة الله وتديبره على الولي، فيتمتع بقدرة الولاية التكوينية والتشريعية. وهذا الاتصال أو القرب الإلهي هو الذي يكمن خلف قدرة الأنبياء والأوصياء وقوتهم. إذن تنطلق جميع التعاملات مع الله من هذه النقطة بالذات، وهي مصدر الكرامات والمعاجز.

إلى هذه الحقيقة، يشير حديث الإمام الصادق عليه السلام القائل: «العبودية جوهرة

(١) مفردات ألفاظ القرآن / الراغب الأصفهاني: ٥٤٧- ولي -.

(٢) لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام: ٥٩٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

ف ٢: ولي العصر نقطة اعتدال أسماء الجمال والجلال في الأرض..... ١٤١

كنهها الربوبية»^(١)، أي، إن العبودية تصل الإنسان بالله.

ويقول الحكيم هادي السبزواري^(٢) في شرح هذا الحديث: «منزلة الأسماء منزلة الربوبية»^(٣)، أي: أن العبادة ترتفع بالإنسان إلى مرتبة الأسماء الحسنى، بحيث يقف في ظل أسماء الله، وهذه هي نقطة الرضا والقبول والتسليم.

بكلمة، العبودية مفتاح النجاحات. فالمصلي يقول بين يدي الله: «إياك نعبد وإياك نستعين». ولا شك في أن العبادة لا تتم ولا تستتب إلا بمعونة منه تعالى وتوثيق، كما أن الاستعانة متعذرة من غير العبادة، لأن العبادة واسطة لنزول الفيض الإلهي. وقد روى الفريقان الحديث القدسي المشهور: «من أهان لي ولياً فقد أَرصد لمحاربتي، وما تقرب إليَّ عبد بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وإنه ليتقرب إليَّ بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبت، وإن سألني أعطيته، وما ترددت عن شيء أنا فاعله كترددني عن موت المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته»^(٤).

(١) مصباح الشريعة: ٧، الباب الثاني.

(٢) الملا السبزواري (ت / ١٢١٢ هـ)، هو الملا هادي بن مهدي الفيلسوف السبزواري، تخرَّج على يديه كثير من المتضلَّعين في الفلسفة والمنطق، ومعظم مصنَّفاتهِ في الفلسفة منها: رسالة في اشتراك الوجود معني، ورسالة في الجبر والاختيار، وحاشية على الأسفار الأربعة لصدر المتألَّهين، واللائي المنتظمة (أرجوزة في المنطق)، وغرر الفوائد (أرجوزة في الفلسفة) ويعرف الكتابان الأخيران باسم منظومة السبزواري في المنطق والفلسفة، وقد قام بشرح منظومته في كتابه الشهير بشرح المنظومة.

(٣) تفسير القرآن / صدر المتألَّهين ٣: ٤٨٥، تعليقات الحكيم السبزواري.

(٤) رواه بهذا اللفظ ثقة الإسلام الكليني في أصول الكافي ٢: ٣٥٢ / ٧ باب من أذى المسلمين واحتقرهم من كتاب الإيمان والكفر. بسند صحيح عن حماد بن بشير، قال: «سمعت

→ أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل: من أهان لي ولياً... وذكر الحديث». وأخرجه البرقي في المحاسن ١: ٢٩١ / ٤٤٣ بسند صحيح عن حنان بن سدير الثقة، عن الإمام الصادق عليه السلام. وكذلك الحسين بن سعيد الأهوازي في كتاب المؤمن: ٣٢ / ٦١، وأخرجه الحسين بن سعيد في كتاب المؤمن أيضاً: ٣٢ / ٦٢، عن الإمام الباقر عليه السلام. كما ورد الحديث في مشكاة الأنوار / الطبرسي: ٢٥٦، وعوالي اللآلي / الأحسائي ٤: ١٠٣ / ١٥٢ ومنتقى الجمال في الأحاديث الصحاح والحسان / الشيخ حسن نجل الشهيد الثاني ١: ٣٢١-٣٢٢، والوسائل / الحر العاملي ٤: ٧٢ / ٤٥٤٤ (٦) باب (١٧) تأكد استحباب المداومة على النوافل، والجواهر السنوية / له أيضاً: ١٢٠ و ١٢١ الباب (١١)، ومستدرک الوسائل / المحدث النوري ٣: ٥٨ / ٣٠١٤ و ٣٠١٥ (٨ و ٩) باب (١٦) تأكد استحباب المداومة على النوافل.

وأخرجه البخاري في صحيحه ٧: ١٩٠ باب من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل، عن عطاء (وهو ابن يسار)، عن أبي هريرة مرفوعاً، ومثله في صحيح ابن حبان ٢: ٥٨ في ذكر الأخبار عما يجب على المرء من الثقة بالله في أحواله، والسنن الكبرى / البيهقي ٣: ٣٤٦ باب الخروج من المظالم والتقرب إلى الله تعالى بالصدقة ونوافل الخير رجاء الإجابة، وأعادته في ١٠: ٢١٩ باب ينبغي للمرء أن لا يبلغ منه ولا من غيره من تلاوة قرآن ولا صلاة نافلة ولا نظر في علم ما يشغله عن الصلاة حتى يخرج وقتها.

وأخرجه ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد ٣: ١٢٣ في ترجمة علي بن أحمد، أبي الحسن الكرخي برقم (٦٥٥) عن عبد الواحد بن ميمون مولى عروة، عن عائشة. وعد ابن حجر في فتح الباري ١١: ٢٩٥ في شرح حديث أبي هريرة، رواه الآخرين من الصحابة وهم عائشة، وأبو أمامة، وميمونة، وأنس بن مالك.

والحديث صححه النووي في شرح صحيح مسلم ١٥: ١٥١، والشيخ صالح بن عبد السمیع الأبى الرموي في الثمر الداني في تقريب المعاني (شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني): ٢٧٩، والمباركفوري في تحفة الأحوذى ١٠: ٩٧، والسيد العلامة حسن السقاف الأردني في دفع الشبه والتشبيه لابن الجوزي: ٢٦٥.

وقد أطل علماء الإمامية في شرح هذا الحديث وحملوه على معانٍ عرفانية عالية وكذلك بعض

ف ٢: ولي العصر نقطة اعتدال أسماء الجمال والجلال في الأرض..... ١٤٣
وعلى أية حال، فإن طاعة الله تعالى في أداء الفروض تبعث على التقرب منه
بحيث تصبح حواسه وجوارحه إلهية، فيشع فيه نور الولاية حتى يصل إلى مقام
الولاية، أي، ولاية الله^(١).

فكما يسافر الإنسان من مكان لآخر، كذلك يتحرك هذا الإنسان من عالم
الطبيعة والخلق إلى ما وراء الطبيعة والحق، فيبلغ مقام الولاية والقرب الإلهي.
أي: يخرج فيما يشاهد ويبصر من طوق الطبيعة للتمتع برؤية عالم الخلقة.
ولا ريب في أن هذا القرب من الله ومشاهدة حقائق العالم، عبارة عن مقام
الولاية. وهذا ما يؤلف أساس ومحور كلمات علماء الأخلاق. فالعارف والمحقق
الكبير محمد مهدي النراقي يقول في كتابه القيم (جامع السعادات):

«إن الإنسان ذو جنبه روحانية يناسب بها الأرواح الطيبة والملائكة القادسة،
و ذو جنبه جسمانية يشابه بها السباع والأنعام. فبالجزء الجسماني يقيم في هذا
العالم الحسي مدة قصيرة، وبالجزء الروحاني ينتقل إلى العالم العلوي ويقيم فيه
أبدًا في مصاحبة الأرواح القدسية بشرط أن يتحرك بقواه نحو كمالاتها الخاصة،
حتى يغلب الجزء الروحاني على الجسماني، وينفض عن نفسه

→ علماء العامة كالمقري المزي وغيره، ولقد رأيت بعض من لا نظر عنده في تلك المعاني
العالية قد ضعف الحديث بجهل كالذهبي في ميزان الاعتدال ١ : ٢٦١ في ترجمة خالد بن
مخلد القطواني الكوفي برقم (٢٤٦٣)، والشيخ أبو ريه في كتاب شيخ المضيرة: ٢٤ وقد
حذا حذوهما - مع الأسف - السيد هاشم معروف الحسني في دراسات في الحديث
والمحدثين: ١٧٩ / ١٨.

ونحن إنما نبهنا على ذلك خشية الاغترار بتلك التضعيفات التي غفلت صحة سند الحديث
من غير طريق أبي هريرة، كما غفلت عن دقة لفظه برواية الفريقين، وعلو معناه وعمق
فلسفته.

(١) راجع: تفسير القرآن / صدر المتألهين: ٣٨/٥.

كدورات الطبيعة، وتظهر فيه آثار الروحانيات من العلم بحقائق الأشياء والأنس بالله تعالى، والحب له، والتحلي بفضائل الصفات. وحينئذ يقوم بغلبة روحانيته بين الملاً الأعلى يستمد منهم لطائف الحكمة ويستنير بالنور الإلهي، ويزيد ذلك بحسب دفع العلائق الجسمية، حتى إذا ارتفعت عنه حجب الغواسق الطبيعية بأسرها، وأزيلت عنه أستار العوائق الهيولانية برمتها، تخلى عن جميع الآلام والحسرات، وكان أبداً مسروراً بذاته، مغتبطاً بحاله، مبتهجاً بما يرد عليه من فيوضات النور الأول، ولا يسرّ إلا بتلك الذات، ولا يغتبط إلا بها، ولا يهش إلا بإظهار الحكمة الحقة بين أهلها، ولا يرتاح إلا بمن ناسبه وأحب الاقتباس منه»^(١).

يقول الرسول الاكرم ﷺ في أمير المؤمنين عليّ:

«لا تسبوا علياً فإنه ممسوس في ذات الله»^(٢).

(١) جامع السعادات ١: ٣٤-٣٥.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٩: ١٤٢-١٤٣ عن كعب بن عجرة، عن رسول الله ﷺ، وكذلك أبو نعيم الإصبهاني في حلية الأولياء ١: ٦٨ في ترجمة أمير المؤمنين الإمام عليّ، والجويني الشافعي في فرائد السمطين ١: ١٦٥/١٢٧، والكنجي الشافعي في كفاية الطالب: ١٩٤، ونقله الهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١٣٠ عن الطبراني في الكبير والأوسط، ونقله السيوطي في جامع الأحاديث ١٦: ١٦٠/١٦٤٧٩ والمتقي الهندي في كنز العمال ١١: ٦٢٢/١٧/٣٣٠ كلاهما؛ عن الطبراني وأبي نعيم في الحلية. وأخرجه من الإمامية منتجب الدين بن بابويه في كتابه (الأربعون حديثاً): ٥٤/٢٦ عن كعب بن عجرة، عن رسول الله ﷺ، ونقله ابن شهر آشوب في مناقب آل أبي طالب ٣: ٢١، والمجلسي في بحار الأنوار ٢٩: ٣١٣ ضمن الحديث رقم ٥/ كلاهما، عن أبي نعيم في الحلية.

وللحديث طريق آخر أخرجه المولى نظام الدين أحمد بن المولى محمد معصوم في إجازته للسيد جمال الدين محمد بن عبد الحسين - كما في إجازات بحار الأنوار ١٠٧: ٣١

→ ١٣/ الإجازة رقم (٨٩) - بسنده المتصل عن زيد الشهيد، عن أبيه الإمام السجاد، عن أبيه الإمام الحسين، عن أبيه أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله ولأبي محمد بن الشيخ صنعان أحد علماء القرن العاشر الهجري قصيدة في مدح أمير المؤمنين عليه السلام استهلها بمدح نهج البلاغة، وقد ذكرها العلامة الأميني في كتابه الغدير ١١: ٣٣٠ - ٣٣١ جاء فيها:

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْكَلَامَ رَأَيْتَهُ	نَطَقْتُ بِهِ كَلِمَاتُ عِلْمِ الْبَارِي
وَرَأَيْتَ بَحْرًا بِالْحَقَائِقِ طَامِيًا	مِنْ مَوْجِهِ سُنُنُ الْعُلُومِ جَوَارِي
وَرَأَيْتَ أَنَّ هُنَاكَ بِرَأْ شَامِلًا	وَسِعَ الْأَنْبَاءَ كَدَيْمَةً مِذْرَارِ
وَرَأَيْتَ أَنَّ هُنَاكَ عَفْوٌ سَمَاحَةً	فِي قُدْرَةٍ تَعْلُو عَلَى الْأَقْدَارِ
وَرَأَيْتَ أَنَّ هُنَاكَ قَدْرًا مَاشِيًا	عَنْ كِبْرِيَاءِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ
قَدَرَ الَّذِي بِصِفَاتِهِ وَسِمَاتِهِ	مَمْسُوسِ ذَاتِ اللَّهِ فِي الْأَثَارِ

ومعنى الحديث كما قاله العلامة المجلسي في البحار ٣٩: ٣١٣ ضمن الحديث / ٥ «أي: يمسه الأذى والشدة في رضاء الله تعالى وقربه، أو هو لشدة حبه لله واتباعه لرضاه، كأنه ممسوس، أي: مجنون، كما ورد في صفات المؤمنين (يحبسهم القوم أنهم قد خولطوا)، ويحتمل أن يكون المراد بالممسوس: المخلوط والممزوج مجازاً، أي: خالط حبه تعالى لحمه ودمه».

وللحديث المذكور شاهد صحيح من رواية أبي سعيد الخدري، قال: «شكى علياً الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقام فينا خطيباً، فسمعتة يقول: أيها الناس لا تشكوا علياً فوالله إنه لأخشن في ذات الله وفي سبيل الله».

أخرجه الحاكم في المستدرک ٣: ١٣٤ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وأخرجه أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة ٢: ٦٧٩ / ١١٦١، وكذلك في مسنده ٣: ٨٦، وابن هشام في السيرة النبوية ٤: ١٠٢٢ في موافاة علي عليه السلام في قفوله من اليمن رسول الله صلى الله عليه وآله في الحج، والطبري في تاريخه ٢: ٤٠٢ في حوادث السنة العاشرة للهجرة في حديثه عن وفد عامر بن صعصعة، والبداية والنهاية / ابن كثير ٥: ٢٢٨ في حوادث السنة العاشرة، والسيرة النبوية / له أيضاً ٤: ٤١٥، والمزي في تهذيب الكمال ٣٥: ١٨٧ في ترجمة زينب

لا شك في أنّ أولياء الله لا يشعرون بالحزن والخوف في الدنيا والآخرة، والسرّ في ذلك هو أنهم لا يفكرون في شيء غير الله. فولي الله متأدب بأدب الله عزّ وجلّ في كل صغيرة وكبيرة في حياته كلّها، فهو كما يقول الحكماء يتشبه في صفاته بالمبدأ الأعلى، وها هنا تكمن قوة الولاية. وأشار علماء الأخلاق إلى هذا التشبيه ومنهم العارف النراقي، حيث قال:

«صرّح الحكماء بأن غاية المراتب للسعادة أن يتشبه الإنسان في صفاته بالمبدأ: بأن يصدر عنه الجميل لكونه جميلاً، لا لغرض آخر من جلب منفعة أو دفع مضرة، وإنما يتحقق ذلك إذا صارت حقيقته المعبر عنها بالعقل الإلهي والنفس الناطقة، خيراً محضاً، بأن يتطهّر من جميع الخبائث الجسمانية والأقذار الحيوانية، ولا يحوم حوله شيء من العوارض الطبيعية والخواطر النفسانية، ويمتلئ من الأنوار الإلهية، والمعارف الحقيقية، ويتيقن بالحقائق الحقّة الواقعية، ويصير عقلاً محضاً بحيث تصير جميع معقولاته كالقضايا الأولية، بل يصير ظهورها أشدّ، وانكشافها أتمّ، وحينئذ تكون له أسوة حسنة بالله سبحانه

→ بنت كعب بن عجرة زوجة أبي سعيد الخدري برقم (٧٨٤٨)، والمحّب الطبري في ذخائر العقبى: ٩٩ في ذكر شدته عليه السلام في دين الله عزّ وجلّ، والباعوني الدمشقي في جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ١: ٢٦٧، وقال الصالح الشامي في سبل الهدى والرشاد ١١: ٢٩٢: «أخرجه أحمد، وأبو داود الطيالسي، والضياء، والحاكم، عن أبي سعيد».

فالحديث وشاهده يرميان إلى معنى واحد صحيح في ذاته، وهو وجوب توقير الإمام علي عليه السلام وتبجيله وجعله في الموضع الذي يحبه الله له ورسوله؛ لأنّه ممسوس في ذات الله وصنو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وليت شعري ما عذر من سنّ بدعة سبّه عليه السلام على منابر المسلمين بعد كل صلاة؟!
 ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

ف ٢: ولي العصر نقطة اعتدال أسماء الجمال والجلال في الأرض..... ١٤٧
في صدور الأفعال، وتصير إلهية، أي، شبيهة بأفعال الله في أنه لصرافة حسنه
يقتضي الحسن، ولمحوضة جماله يصدر عنه الجميل»^(١).

الإمام علي عليه السلام نموذج مظهر الجمال والجلال في التاريخ:

يمكن ملاحظة نقطة اعتدال وتوازن أسماء الجمال والجلال أو اللطف والقهر،
في شخصية الإمام علي عليه السلام في الكلام التالي:

«السلام على قسيم الجنة والنار، السلام على نعمة الله على الأبرار ونقمته على

الفجار»^(٢).

والسرّ في كونه عليه السلام قسيماً للجنة والنار هو أنه مظهر تام للأسماء الحسنی
ونقطة توازن واعتدال أسماء الجلال والجمال في عالم الوجود، فيكشف عن
الحليم والحكيم والرحيم والرحمن والرؤوف، في تقسيم الجنة والنعم الإلهية.
كما تظهر في ملامح هذه الشخصية العملاقة أسماء الجلال الإلهية، حينما يدور
الحديث حول النار.

إنّ علياً عليه السلام نعمة ونقمة، جنة ونار. فهو نعمة وجنة للصالحين والأتقياء، ونقمة
ونار على الأشرار والفاستدين. وقد تجمعت في شخصيته الفذة، الصفات
المتناقضة. فالأنبياء والأولياء أناس استثنائيون وأفذاذ لا يمكن قياسهم
بالمقاييس المتداولة، سيما أمير المؤمنين عليه السلام الذي هو ولي الله الأعظم. ففي هذه
الشخصية الربانية نجد صفات اللطف إلى جانب صفات القهر، فتكتب في اليوم
الآخر مصير العباد خيرين وأشراراً. أي، إنها تعبّر عن جمال الله وكذلك عن

(١) جامع السعادات: ٤٠/١ - ٤١.

(٢) المزار / محمد بن المشهدي: ٢١٧ وهي زيارة الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء
للقریب والبعید، وهي زيارة معتبرة رواها محمد بن خالد الطيالسي، عن سيف بن عميرة،
عن صفوان بن مهران الجمال، عن الإمام الصادق عليه السلام، والمقطع المذكور خاص بأمر
المؤمنين عليه السلام في تلك الزيارة الشريفة.

جلاله ، عن لطف الله وكذلك عن غضبه. وعلى هذا الأساس تُعدّ حالة الجذب والدفع التي لديه إلهيةً بشقيها .

جمعتني لقاء في بيروت بالأستاذ جورج جرداق مؤلف كتاب (علي صوت العدالة الإنسانية) ، فقلت له: لا بد من وجود مظهر لأسماء الجمال والجلال ، في الأرض وفي كل عصر وزمان. ويمثل الإمام المهدي عليه السلام هذا المظهر في هذا العصر. وليس بوسعنا الاعتقاد بوجود زمان ومكان يخلوان من الإنسان الكامل. ثم قلت له:

حينما تؤلف كتاباً في الإمام علي عليه السلام وتعتبره صوت العدالة الإنسانية ، فاعتقد أنّ السرّ في ذلك هو أنّ الإمام علياً عليه السلام ، تبيان وتفسير عملي للأسماء الحسنی. وسيبقى تألق هذه الأسماء مستمراً ، ومركز ذلك هو ولي الله الحي الغائب عن الأنظار ، والذي تعتقدون أنّتم المسيحيّون أنه عيسى عليه السلام ، بينما نؤمن نحن المسلمون أنه الإمام المهدي الذي نترقب ظهوره ، والذي سيجسد جميع الصفات والسجايا الكريمة ، ويوقظ بصوته - الذي هو صوت العدالة الإنسانية - المجتمع العالمي قاطبة من نوم الغفلة .

معارفنا الدينية تخاطب الإمام المهدي وصاحب العصر والزمان قائلة:
«السلام على ربيع الأنام، ونصرة الأيام، السلام على صاحب الصمصام..
السلام على بقية الله في بلاده، وحجّته على عباده»^(١).

وقد عبّر الأستاذ جورج جرداق عن قبوله لهذه الفلسفة وضرورة أن يكون هناك ولي في كلّ عصر. ثم قال في نهاية الحديث: «إنّ ما سمعناه من الشخصيات

(١) المزار / الشهيد الأول: ٢٠٨ ، والجامع العباسي / الشيخ البهائي: ١٨٥ وفيهما (وفطرة الأنام) مكان (ونصرة الأيام) وفي البحار ٩٩ : ١٠١ (ونصرة الأيام) وهو الأوفق.

الإلهية في التاريخ، كان حسنة من حسنات علي عليه السلام»^(١).

المبحث الرابع

ولي العصر، نقطة الاعتدال في الأرض

قلنا: إنَّ ذات الباري تعالى تتجلى في أسماء جماله وجلاله، وإنَّ «الخالق» و «الحكيم» و «الرحيم» وسائر الأسماء الإلهية عبارة عن ظهور الله تعالى. وكلما كانت كائنات العالم أقوى وأغنى، كلما كان نصيبها أكبر من الأسماء الحسنى. فالجمادات مثلاً تستفيد من اسم «الخالق»، بينما لا نصيب لها من اسمي «المحيي» و «المميت»، على العكس من النباتات. والإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعيش في ظل حشد كبير من الأسماء الإلهية.

يُعد اسم «الولي»، أهم أسماء الله وصفاته، وليس بوسع أيِّ كائن أن يعبر عن هذا الاسم المقدس عدا وليّ الله الذي يمثل نقطة توازن أسماء الجمال والجلال، ويُعدُّ أكثر الناس اعتدالاً وتوازناً على الأرض، لأنه يتميز بالصفات الثلاث التالية:

- ١- القرب الكامل من الله.
- ٢- قوة التصرف في الطبيعة.
- ٣- حفظ الشريعة والنظام الإسلامي، لكونه إماماً وحجة الله.

(١) سيرد هذا الحوار بشكل كامل في المجلد الثاني.

ولو خلت الأرض من هكذا إنسان، لبقى اسم «الولي» من دون مظهر.

إيضاح موجز للاعتدال:

الاعتدال لغةً: هو العدالة والاستقامة والتوسط في الكمية وفي الكيفية.

واستُخدم الاعتدال في مواضع عديدة، مثل:

اعتدال النهار والليل، أي: تساوي الليل والنهار في عدد الساعات.

اعتدال المزاج: حالة السلامة.

اعتدال الجو في الحرارة والبرودة.

وفي علم الفلك استُخدم اصطلاح «الاعتدال الربيعي والخريفي». والاعتدال

الربيعي عبارة عن نقطة تقاطع دائرة البروج ومعدل النهار، وهي النقطة التي تمرُّ

بها الشمس خلال حركتها الظاهرية من جنوب استواء الأرض نحو شمالها^(١).

الاعتدال في علم الأخلاق:

يتحقق الاعتدال بفعل سيطرة العقل على الشهوة والغضب، وتصبح جميع

حركات الإنسان وتصرفاته تحت توجيه العقل، فيتحقق عمل الإنسان من خلال

الأمر والنهي.

يكتب العالم الرباني الكبير محمد مهدي النراقي:

«العدالة أشرف الفضائل وأفضلها... ولذا قال أفلاطون الإلهي: العدالة إذا

حصلت للإنسان أشرق بها كل واحد من أجزاء نفسه ويستضيء بعضها من

بعض، فتنهض النفس حينئذ لفعالها الخاص على أفضل ما يكون، فيحصل لها

غاية القرب إلى مبدعها سبحانه».

(١) دائرة المعارف فارسي / غلام حسين مصاحب، انتشارات أمير كبير.

إشكال مهم وردّ دقيق:

قد يقال: إن وجود الإنسان كَوَلِيٍّ لله ومظهرٍ تام للأسماء الحسنى في جميع العصور، لا بد أن يعتمد على وجود استعدادات ومتطلبات خاصة ليس من الضروري توافرها بشكل مستمر وفي جميع العصور، وعليه لا تقوم فكرة وجود الإنسان المعصوم في كل عصر على استدلال منطقي. كذلك لا تجري قاعدة «إمكان الأشرف» إلا في الأنواع فقط وليس في الأشخاص، لأن جريانها في الأشخاص منوط باستعداد خاص وعوامل زمانية ومكانية خاصة.

في الرد على هذا الإشكال نقول:

١- إن إثبات الصفات والأسماء الحسنى لله تعالى عقلي، مثلما أن إثبات وجود الله أمر بديهي من منظار العقل والفطرة.

٢- ظهور الأسماء الحسنى، معناه تحقق الخلقة بجميع جمالاتها وحكمها، وهذا أمر مشهود وغير قابل للإنكار.

٣- انعكاس هذا الظهور في نظام الخلقة والتفسير العملي للأسماء الحسنى في الخلقة أمر ملازم لظهور الأسماء الحسنى. وكما أن الانعكاس الناقص مشهود في الموجودات، كذلك لا بد أن يتحقق الانعكاس التام أيضاً، طبعاً بالقدر الذي يستطيع الكائن الممكن أن يعكسه، وهذا هو معنى الولاية وولي الله.

بتعبير آخر: الظهور ليس بحاجة إلى استعدادات ومتطلبات زمانية ومكانية. فهناك اختلاف بين ما عدّه الله تعالى لازماً في الخلقة وبين ما جعله منوطاً بالاستعداد والشرائط. ففي الحالة الأولى تظهر قدرة الله من دون قيد أو شرط، وفي الحالة الثانية تظهر قدرته تعالى على أساس الحدود التي وضعها.

يتحدث القرآن الكريم عن هذه الملازمة حينما يطرح موضوع خلافة الإنسان لله. فالإنسان يدرك من خلال دليل العقل أن لديه المرشد الضروري المتمثل بالشرع والقانون، فيستطيع بواسطة عصا الوحي والدين بلوغ ذروة المعرفة.

يبدأ القرآن الكريم حديث خلقه الإنسان، من الخلافة الإلهية للإنسان في الأرض، للإشارة إلى الحقيقة التالية، وهي أن الخليفة يجب أن يشير إلى من استخلفه ويكشف عنه، وإلا لن يكون خليفة حقيقياً، وهذا ما يمكن أن يفسر قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١).

الفصل الثالث

المهدي الموعود عليه السلام

في دليل الاستقراء

المبحث الأول

أهمية الاستقراء في المعارف البشرية

الغرض والهدف:

غرضنا وهدفنا من هذا البرهان هو حصول القناعة لدى المحقق والباحث - من خلال البحث في كتب العهدين وتاريخ الأنبياء ونصوص وأحاديث لإسلام - أن خاتم الأوصياء ومنقذ العالم، قد تعيّن من قبل رسول الله ﷺ وأئمة نهدى عليهم السلام.

تقديم الدليل:

الاستقراء، مصدر على وزن استفعال. فحينما تقول قروث البلاد قرواً وقريتها قرياً وأقتريتها واستقريتها، إذا تتبععتها، تخرج من أرض إلى أرض^(١). وتطوّر مفهوم هذه المفردة حتى أخذ يعني البحث والاستقصاء لاكتشاف المجهولات، ومعرفة ما هو غير معروف. وظهر المفهوم الاصطلاحي للاستقراء مع ظهور علم المنطق وتبلور أساليب وطرق الاستدلال، حتى أصبح من أهم

^(١) لسان العرب / ابن منظور ١٥: ١٧٥، (قرا).

أسس اكتساب المعرفة والحصول عليها.

استخدام الاستقراء وأهميته:

إنّ دائرة استخدام الاستقراء واسعة جداً، سواء من حيث المعنى اللغوي أو المجازي، أو من حيث المفهوم المنطقي. ويلعب الاستقراء دوراً أساسياً في اكتساب جميع المعارف البشرية عدا ما هو واصل إلى الإنسان عن طريق الوحي الإلهي، وبعض القواعد والقوانين الرياضية والعقلانيات المحضة. وتمتد استخداماته حتى إلى حقلَي الفقه^(١)، والأخلاق.

ولو ألقينا نظرة على تاريخ الثقافة البشرية ولاسيما على تاريخ العلوم والمعارف الإسلامية، لرأينا أنّ الاستقراء بمعناه الواسع، يمثل أساسها جميعاً. فلو قُطع طريق الاستقراء بشكل صحيح، ووُضعت الإمكانيات والمستلزمات الضرورية تحت تصرف الباحثين، لكانت النتائج المستحصلة معتبرة جميعاً، سواء كانت على شكل معرفة مباشرة، أو على شكل مقدمة على الاستدلال. ولو حدث خطأ أو غفلة في مرحلة الاستقراء أو لم يتم الاستناد إلى مصادر معتبرة، لكانت النتيجة عبارة عن خطأ في الاستنتاج.

تعدّ الإنجازات في حقل الحديث، من أبرز نماذج الاستقراء والبحث والتتبع. ففي عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، كان هناك الكثير من المحدثين الذين يجوبون العالم الإسلامي من أقصى حدوده الغربية في الأندلس وإلى أقصى حدوده الشرقية في خراسان وما وراء النهر، فيسمعون الأحاديث من

(١) جواهر الكلام / محمد حسن النجفي ٥: ٩٧-٩٨.

٣: المهدي الموعود ﷺ في دليل الاستقراء ١٥٧

آلاف الرواة والشيوخ فيسجلونها. وما أكثر الرحالة والجغرافيين الذين كانوا يحوبون العالم آنذاك قاطعين المسافات الطويلة من صحراء أفريقيا وإلى منابع نهر الفولغا في روسيا وإلى الهند والصين، وخلفوا الكثير من الآثار والمؤلفات نفيسة. كما كان عدد كبير من علماء اللغة يتنقلون لسنوات عديدة بين البوادي والبراري للوقوف على المفردات العربية وفهمها وضبطها بشكل صحيح انطلاقاً من اهتمامهم باللغة العربية باعتبارها اللغة الدينية للمسلمين، وهكذا هو الأمر بالنسبة لسائر الحقول العلمية.

الاستقراء المركب:

لا نريد بدليل الاستقراء، الاستقراء في اصطلاح علم المنطق، ولا مجرد الاستقراء العرفي الذي يُستخدم في الأمور العادية وشتى حقول العلوم التجريبية، وإنما نريد به الاستقراء المركب. فيمكن الاستدلال بسيرة الأنبياء ﷺ، وبأسلوب العقلاء معاً في مضمار الإدارة والمسؤوليات الاجتماعية الكبرى، مع أن كلا منهما كاف في عملية الاستدلال، لأن سيرة الأنبياء في تعيين وصي من بعدهم في كل عصر وزمان، تؤكد على أن الرسول الأكرم ﷺ ليس قائماً من هذه العمومية، سيما وأنه يتميز بأهمية خاصة، وقد وعدت به الأديان السابقة والإسلام. كما تحكي سيرة العقلاء عن الحقيقة التالية، وهي أن رئيس عقلاء لا يمكن أن يدع مصير المصلح العالمي غامضاً.

ذن فالباحث حينما ينظر إلى سيرة الأنبياء ﷺ، وأسلوب العقلاء، يصل إلى حالة اليقين في أن هوية الإمام المهدي أرواح العالمين له الفداء،

١٥٨ بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية / ج ١

قد تحددت وتعينت من قبل خاتم الأنبياء ﷺ. وهذا اللون من الاستقراء أسميناه
استقراءً مركباً، إذ يعتمد سيرة الأنبياء ﷺ من جانب، وأسلوب العقلاء من جانب
آخر.

المبحث الثاني استقراء سيرة الأنبياء عليهما السلام

نفهم من خلال استقراء سيرة الانبياء ﷺ في تعيين الأوصياء، لاسيما الأنبياء من أولي العزم وأصحاب الشرائع، لم يكن عملاً عقلائياً فحسب، وإنما كان جزءاً من سيرة الأنبياء وأولياء الله الذين يتلقون تعاليمهم من الوحي أيضاً.

يمكن أن نستقرئ هذه الحقيقة من التوراة والإنجيل، وكتب التاريخ لإسلامي، والأحاديث المروية عن أهل بيت الوحي، فنذكر من خلال ذلك موضوع الوصاية، لاسيما وصاية خاتم الأوصياء إمام العصر أرواحنا فداه.

سلسلة الأوصياء في العهدين والأحاديث وكتب التاريخ والسيرة:

موضوع الوصاية، موضوع تاريخي قديم يتصل بظهور البشرية، فتاريخ حضارة المعنوية والوحيانية البشرية يحكي من خلال سلسلته المتصلة عن حلقات إنسانية بارزة ورفيعة، تنهض كل منها بمهمة إلهية تتمثل في تلقي التعاليم الإلهية وإبلاغها إلى البشرية، كما أنها ملزمة بنقل تلك المهمة الخطيرة إلى الإنسان تكامل الذي يليها. ويعبر عن عملية نقل تلك الرسالة الإلهية إلى الإنسان بالوصية، ويمكن ملاحظة هذه الحقيقة بوضوح في متون الكتب المقدسة. والتقارير التاريخية الواردة في كتب التاريخ والسيرة. وفيما يلي نشير إلى بعضها بإيجاز:

وصايا الأنبياء في أسفار العهدين:

١- وردت في الإصحاح الخامس من سفر التكوين أسماء الأوصياء بدءاً من

شيث، وانتهاءً بنوح على التوالي مع ذكر أعمارهم^(١).

٢- ورد في الإصحاح السابع والعشرين من سفر العدد بشأن وصية موسى: «ف فعل موسى كما أمره الربّ. أخذ يشوع وأوقفه قدام العازار الكاهن وقدام كل الجماعة، ووضع يديه عليه، وأوصاه كما تكلم الربّ عن يد موسى»^(٢).

٣- ورد في الإصحاح الأوّل من سفر الملوك بشأن وصية داود عليه السلام لابنه سليمان: «وهو يملك عوضاً عني وإيّاه قد أوصيت أن يكون رئيساً على إسرائيل ويهودا»^(٣).

٤- ورد في الإصحاح العاشر من إنجيل متي في وصية عيسى عليه السلام للحواريين: «الأوّل سمعان الذي يقال له بطرس، واندراوس أخوه يعقوب بن زبدي، ويوحنا أخوه مبلس، وبرثولماوس، توما ومتي العاشر. يعقوب بن حلفي ولتّاوس الملقّب ونداوس سمعان القانوني، ويهوذا الاسخريوطي الذي أسلمه»^(٤).

أوصياء الأنبياء في كتب الحديث:

جمع المحدثون الأحاديث والروايات الخاصّة بالوصية والأوصياء، وأوردوها تحت العديد من الأبواب، مثل: الوصية من لدن آدم^(٥)، اتصال الوصية من لدن آدم^(٦)؛ باب في اتصال الوصية وذكر الأوصياء من لدن آدم إلى آخر الدهر^(٧).

(١) الكتاب المقدّس، العهد القديم: ٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢٦.

(٣) الكتاب المقدّس، العهد القديم: ٥٣.

(٤) الكتاب المقدّس، العهد القديم: ١٧.

(٥) الإمامة والتبصرة / ابن بابويه: ٢١-٢٥، باب الوصية من لدن آدم عليه السلام.

(٦) إكمال الدين / الشيخ الصدوق ١: ٢١١-٢٤١، باب ٢٢: اتصال الوصية من لدن آدم وإن

الأرض لا تخلو من حجة.

(٧) بحار الأنوار / العلامة المجلسي ٢٣: ٥٧، باب ٢: اتصال الوصية وذكر الأوصياء من لدن

آدم إلى آخر الدهر.

ف ٣: المهدي الموعود عليه السلام في دليل الاستقراء ١٦١

ووردت في بعض الأحاديث أسماء الأوصياء، كما في حديث رواه الإمام الصادق عليه السلام عن الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، ذكر فيه الرسول صلى الله عليه وآله أسماء جميع الأوصياء منذ عهد آدم وحتى الإمام القائم عليه السلام^(١)، وروت أم هانئ بنت أبي طالب عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «... إن الله جعل لكلّ نبي وصياً. شيث وصي آدم، وشمعون وصي عيسى، وعلي وصي...»^(٢). وروى سلمان عن الرسول محمد صلى الله عليه وآله أسماء الأوصياء منذ عهد آدم حتى الإمام القائم عليه السلام^(٣).

وتتحدث رواية عن الإمام محمد الباقر عليه السلام عن اتصال الوصية منذ هبة الله وصي آدم وإلى سام بن نوح^(٤). وتؤكد رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً على ضرورة اتصال الوصية: «... أوحى الله تعالى إليه (آدم)... فأني لن أقطع العلم والإيمان والاسم الأعظم وآثار علم النبوة في العقب من ذريتك إلى يوم القيامة»^(٥). وتشير رواية ثالثة عن الإمام الباقر عليه السلام كذلك إلى وصية موسى عليه السلام إلى فتاه يوشع بن نون^(٦).

وورد في الخطبة الأولى من نهج البلاغة بشأن وصايا الأنبياء إلى أوصيائهم: «فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه... ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب منزل أو حجة لازمة أو محجة قائمة»^(٧).

(١) من لا يحضره الفقيه / الشيخ الصدوق ٤: ١٢٩ / ٥٤٠٢، باب الوصية من لدن آدم عليه السلام.

(٢) كفاية الأثر / الخزاز: ١٤٧، باب ما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله.

(٣) كفاية الأثر / الخزاز: ١٤٧، باب ما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله.

(٤) تفسير العياشي ٢: ٢٨ / ١٢٣٨.

(٥) روضة الكافي / الشيخ الكليني ٨: ٩٢ / ١١٣.

(٦) تفسير العياشي ٢: ٨٩ / ٢٦٦٦.

(٧) نهج البلاغة / ترتيب الدكتور صبحي الصالح: ٤٣، خ / ١.

وصايا الأنبياء في كتب التاريخ والسيرة:

فضلاً عن المحدثين، أولى المؤرخون وكتاب السير اهتماماً بموضوع اتصال الوصية. فينقل ابن سعد في (الطبقات الكبرى) رواية عن ابن عباس في اتصال الوصية منذ آدم عليه السلام وإلى نوح عليه السلام: «... فقال لها جبرئيل حين ولدته: هذا هبة الله لك بدل هابيل وهو بالعربية شت وبالسريانية شاث وبالعبرانية شيث، وإليه أوصى آدم صلوات الله عليه... وولد شيث بن آدم أنوش ونفراً كثيراً وإليه أوصى شيث، فولد أنوش قينان ونفراً كثيراً وإليه الوصية، فولد مهلائيل يرذ وهو اليارذ ونفراً معه وإليه الوصية. وفي زمانه عملت الأصنام ورجع من رجع عن الإسلام، فولد يرذخنوخ وهو إدريس النبي عليه السلام ونفراً معه»^(١).

وأورد اليعقوبي في تاريخه أسماء الأوصياء منذ عهد آدم وحتى حواربي عيسى عليه السلام، وتطرق إلى كل منهم بالتفصيل، وهم:

- ١- شيث بن آدم، ٢- أنوش بن شيث، ٣- قينان بن أنوش، ٤- مهلائيل بن قينان، ٥- يرد بن مهلائيل، ٦- أخنوخ بن يرد (إدريس)، ٧- تنوشلخ بن أخنوخ، ٨- لمك بن تنوشلخ، ٩- نوح، ١٠- سام بن نوح، ١١- أرفخشذ بن سام، ١٢- شاع بن أرفخشذ، ١٣- عابر بن شاع، ١٤- فالغ بن عابر، ١٥- أرغو بن فالغ، ١٦- ساروغ بن أرغو، ١٧- ناخور بن ساروغ، ١٨- تارخ ابن ناخور (وهو أبو إبراهيم الخليل عليه السلام)، ١٩- إبراهيم بن تارخ، ٢٠- إسحاق بن إبراهيم، ٢١- يعقوب بن إسحاق، ٢٢- أبناء يعقوب (يوسف بن يعقوب من أوصياء يعقوب)، ٢٣- موسى بن عمران، ٢٤- أنبياء بني إسرائيل وملوكهم بعد موسى (يوشع بن نون وصي موسى بن عمران)، ٢٥- داود، ٢٦- سليمان بن داود، ٢٧- رحبعم بن سليمان، والملوك بعده، ٢٨- المسيح عيسى بن مريم

(١) الطبقات الكبرى / ابن سعد ١: ٣٧.

ف ٣: المهدي الموعود ﷺ في دليل الاستقرار ١٦٣
أحوار يوه) (١).

تحدث الطبري كذلك في تاريخ الأمم والملوك عن تعاقب الأوصياء منذ عهد آدم وحتى عهد نوح (٢). وتقل عن ابن إسحاق: «قال لَمَّا حضرت آدم الوفاة فيما يذكرون والله أعلم، دعا ابنه شيئاً فعهد إليه عهده وعلمه ساعات الليل والنهار، وأعلمه عبادة الخلق في كل ساعة منها... وكتب وصيته، فكان شيث وصي أبيه آدم، وصارت الرئاسة من بعد وفاة آدم لشيث، فأنزل الله عليه فيما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله خمسين صحيفة» (٣).

وأورد المسعودي في كتاب (أخبار الزمان) أسماء الأوصياء منذ شيث وصي آدم وإلى سام وصي نوح (٤)، كما ألفت كتاباً عنوانه (إثبات الوصية) في موضوع اتصال الوصية حتى النبي الأكرم محمد ﷺ، ومنه إلى قائم آل محمد ﷺ. وكتب العارف الكبير السيد حيدر الأملي في كتاب (جامع الأسرار ومنبع الأنوار)، في وصاية الأوصياء، قائلاً:

«(٤٧١) ثم اعلم أن أصحاب الشريعة من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وآله هم ستة، كل واحد منهم جاء بشريعة واحدة، فالشريعة الأولى فاتحة، والآخرة خاتمة، ما بينهما تتسخ الآخرة الأولى، لتعود الخاتمة فاتحة والفاتحة خاتمة. وإلى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وآله باستدارة الزمان، وهو قوله: قد استدار الزمان كهيئته يوم خلق الله فيه السماوات والأرضين.

(٤٧٢) فالأنبياء الستة (أي أصحاب الشرائع) هم: آدم، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد صلوات الله عليهم أجمعين. وإن لكل واحد منهم، من

(١) تاريخ يعقوبي ١: ٧-٨٠.

(٢) تاريخ الأمم والملوك / الطبري ١: ١١١.

(٣) تاريخ الأمم والملوك ١: ١٠٢-١٠٣.

(٤) أخبار الزمان / المسعودي: ٧٥-١٠٢.

الأوصياء المتواصلين به في الأزمنة المتباعدة والمتقاربة، إثني عشر وصياً، يحفظون كلمته وقيمون شريعته، ما دام التكليف باقياً. والوصي (هو الحجّة بعد ذلك النبي) وهو الإمام الناطق بتأويل الكتاب، الصامت بحفظ الشريعة، وقيم الحدود، ويسدّ الثغور، ويقصر يد الظالم عن المظلوم.

(٤٧٣) فالشريعة الفاتحة لآدم عليه السلام، وأوصياؤها إثنا عشر، وهم شيث، قابيل، قينان، مسيم، شبم، قادس، قيذف، إيمبخ، اينوخ، إدريس، وينوخ، ناحور.

(٤٧٤) والشريعة الثانية لنوح عليه السلام، وأوصياؤها إثنا عشر وصياً، وهم: سام يافت، أرفخشد، فرسخ، فاتو، شالخ، هود، صالح، ديمخ، معدل، دريخا، هجان.

(٤٧٥) والشريعة الثالثة لإبراهيم عليه السلام وأوصياؤها إثنا عشر، وهم: إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، أيلون، أيسوب، زنبون، دانيال الأكبر، اينوخ، أناخا، ميدع، لوط.

(٤٧٦) والشريعة الرابعة لموسى عليه السلام، وأوصياؤها إثنا عشر وصياً، وهم: يوشع، عروف، فيدوف، عزيز، أريسا، داود، سليمان، آصف، اتراخ، ومنيقاً، أرون واعرث.

(٤٧٧) والشريعة الخامسة لعيسى عليه السلام وأوصياؤها إثنا عشر وصياً، وهم: شمعون، عروف، قيذق، عبير، زكريا، يحيى، أهدى، مشخا، طالوت، قس، استين، بحيرا الراهب.

(٤٧٨) والشريعة السادسة لمحمد صلّى الله عليه وآله وأوصياؤها إثنا عشر وصياً، وهم: أمير المؤمنين علي، الحسن الزكي، الحسين الشهيد، علي زين العابدين، محمد الباقر، جعفر الصادق، موسى الكاظم، علي الرضا، محمد التقي، علي النقي، الحسن العسكري، المهدي القائم، وبه جمعت الأوصياء

ف ٣: المهدي الموعود عليه السلام في دليل الاستقراء ١٦٥

وعدّتهم إثنان وسبعون وصياً لستة أنبياء مرسلين».

(٤٧٩) «قال النبي صلى الله عليه وآله: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل

الله تعالى ذلك اليوم، ليخرج رجل من ولدي، اسمه إسمي وكنيته كنيّتي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً.

(٤٨٠) هذا آخر النقل المذكور. ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا

نُثِّبُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١). هذا بيان علّة عددهم، أي الأئمّة بالإثني عشر»^(٢).

من الجدير بالذكر أننا نفهم من الآية ١٣ من سورة الشورى ﴿شَرَعَ لَكُمْ

مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّيَ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ

وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾^(٣)، أنّ الأنبياء أصحاب

الشرائع خمسة، وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله عليهم.

أوصياء الأنبياء في الأحاديث الشريفة:

يقول الإمام علي عليه السلام في الخطبة الأولى من نهج البلاغة:

«ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجّة لازمة،

أو محجّة قائمة. رسل لا تقصر بهم قلة عددهم ولا كثرة المكذّبين لهم، من سابق

سمّي له من بعده، أو غابر عرفه من قبله»^(٤).

(١) جامع الأسرار ومنبع الأنوار / السيد حيدر الأملي: ٢٤٠ - ٢٤٢/٤٧١ - ٤٨٠ من الأصل الأول، القاعدة الرابعة.

(٢) جامع الأسرار ومنبع الأنوار / السيد حيدر الأملي: ٢٤٠ - ٢٤٢/٤٧١ - ٤٨٠ من الأصل الأول، القاعدة الرابعة.

(٣) سورة الشورى: ١٣/٤٢.

(٤) نهج البلاغة / ترتيب الدكتور صبحي الصالح: ٤٣، خ/١.

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح هذه الخطبة:

«ومنها أن يقال: إلى ماذا يشير بقوله: «أو حجة لازمة»؟

هل هو إشارة إلى ما يقوله الإمامية من أنه لا بدّ في كل زمان من وجود إمام معصوم؟ الجواب أنّهم يفسرون هذه اللفظة بذلك. ويمكن أن يكون المراد بها حجة العقل...»^(١).

والحقيقة هي أنّ تفسير ابن أبي الحديد هذا، تفسير غير مقبول لأنّ الإمام علياً عليه السلام أورد الحجة اللازمة كقسيم للنبي عليه السلام، بينما كان العقل موجوداً في زمان النبوة، وإلى جانبها.

وأفرد المحدث الكبير الشيخ الصدوق عليه السلام، الباب الثاني والعشرين من كتاب (إكمال الدين وإتمام النعمة) لذكر الأوصياء، وأورد عدة أحاديث في تعيين الأوصياء من قبل الأنبياء، والتي تؤكد على عدم خلوّ أي عصر من الإنسان الإلهي الكامل، ومنها الحديث التالي:

«ثم إنّ نوحاً لما انقضت نبوّته، واستكملت أيامه، أوحى الله عزّ وجلّ إليه يانوح إنّه قد انقضت نبوتك، واستكملت أيامك، فاجعل العلم الذي عندك. والإيمان، والإسم الأكبر، وميراث العلم، وآثار النبوة، في العقب من ذريّتك عند سام، فإنّي لن أقطعها من بيوتات الأنبياء الذين بينك وبين آدم، ولن أدع الأرض إلّا وفيها عالم يُعرف به ديني، وتُعرف به طاعتي، ويكون نجات لمن يولد فيما بعدك».

تنويه مهم:

طالما شهد تاريخ المجتمعات البشرية ظهور شخصيات كبرى، وقيام المصلحين والزعماء من أجل قيادة البشرية نحو أهدافها. ولكن هناك تفاوت

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد ١: ١١٥.

كبير جداً بين هذه الشخصيات الكبرى، وبين وصي خاتم الأنبياء ﷺ. فالقيادة والزعماء الإلهيون أمثال موسى وعيسى والنبي الأكرم محمد ﷺ، ليسوا من نمط الشخصيات القيادية المتعارفة كغاندي وغيره. كذلك يختلف هؤلاء الزعماء الإلهيون علمياً وأخلاقياً عن رجال الفكر والفلسفة كسقراط^(١)، وابن سينا، ونصير الدين الطوسي. فزعماء العالم العاديون انبثقوا من بين الحركات ومن خلال التغييرات الفكرية والاجتماعية للمجتمع، ولذلك فإنهم ينحصرون ضمن إطار ثقافتهم وزمانهم.

أما الأنبياء ﷺ فإنهم يتصلون بالوحي والعلم الإلهيين، ويتميزون بمقام العصمة، ولديهم القدرة الكافية على تزعم الحركات والثورات الإلهية. من الواضح أنّ الثورة الإلهية الأخيرة في هذا العالم، تهدف إلى إقامة حكومة العدل الإلهي ونشر الأمن في الأرض، لأنها ثورة عالمية تستوعب البشرية بأسرها. فالبشرية التي تحمل في فطرتها حب العدل وتترزع نحو الولاية، لا سبيل لها وهي تشاهد الظلم قد خيم على جميع شؤونها الحياتية، سوى الثورة على ذلك الظلم. ومن الطبيعي أن يتزعم تلك الثورة رجل لديه معرفة كاملة بجميع الحاجات الفطرية والخفية للإنسان، ويعرف الأسلوب الذي يستطيع بواسطته تحقيقها وتليتها.

أضف إلى ما سبق أنّ حكومة آخر الزمان العالمية، ستتلور على أساس

(١) «سقراط: (Sokrates; Socrate; Socrates (About 970 - 389 BC)

أعمق فلاسفة اليونان تأثيراً في الفكر اليوناني، وبه ينقسم تاريخ الفلسفة اليونانية إلى ما قبل سقراط وما بعده، شُغل بالأخلاق وترسيخ الفضيلة، وكان مؤمناً عارفاً تقياً، اشتهر بالحكمة والجدل من أجل كشف الحقيقة حتى اتهمه قضاة أثينا بالإلحاد وأنه يسخر من آلهتهم، ولهذا حكموا عليه بالإعدام!

الإسلام الذي هو أكمل الأديان، وتتضوي جميع الأديان الأخرى تحت راية هذا الدين الأكمل، فتنظم آخر أوراق كتاب خلقة الإنسان.

وطبقاً لشهادة الأناجيل وسائر الكتب السماوية أن السيد المسيح ﷺ سيظهر أيضاً إلى جانب الإمام المهدي المنتظر ﷺ. ومن الواضح أن قيادة مثل هذه الحكومة العظيمة - التي لا سابقة لها، والتي ستنهمر فيها بركات السماوات والأرض على الناس؛ لأنها محصلة جميع الأديان، وجهود جميع الأنبياء على مر التاريخ - لا يمكن أن توكل إلى إنسان من عامة الناس. فلا تليق إلا بوصي يتمتع بعلم رباني، وعصمة إلهية، نظير عصمة الأنبياء، ولديه علم كامل بأحكام جميع الأديان، ومعرفة بجميع أسرار ورموز الوحي والقرآن، وعلى بصيرة - لا تشوبها أدنى شائبة - بالإسلام.

ومثل هذا الإنسان ينبغي أن يكون من سلالة الوحي، وذا إرادة وعقل خارقين، ويتميز بالعلم الإلهي ودرجة العصمة. وقد كشفت الأحاديث الصحيحة المتواترة عن الرسول محمد ﷺ، وأئمة أهل البيت ﷺ، عن هوية ذلك المصلح العظيم، بتعيين اسمه ونسبه وحسبه تفصيلاً، وهو الإمام محمد المهدي ابن الإمام الحسن العسكري ﷺ. وقدّمت تلك الأحاديث معلومات دقيقة وصریحة عنه، حيث تتطلع إلى ظهوره جميع الفطر والقلوب النقية، فهو الذي سيتزعم نظام العدل العالمي، وينشر الأمن والأمان في الأرض، ويقطع دابر الظالمين.

ومما ينبغي الإشارة إليه، هو أن قيادة عالم البشرية أمر لا يمكن أن يتحقق أو يتحول إلى ساحة الواقع من دون توافر جماهيرية عامة، وانشداد نفسي وقلبي إلى تلك القيادة. لذلك لا بد أن يتمتع هذا الزعيم العالمي بحب عالمي أيضاً منبثق من الضمائر والأفئدة.

المبحث الثالث

اختلاف الاستقراء المصطلح عن أسلوبنا الاستدلالي

قدماء المنطق يقسمون الاستقراء إلى نوعين: تام وناقص، أو مستوفٍ، وغير مستوف. وكان هذان الاصطلاحان متداولين بين أهل المنطق منذ زمن بعيد. ويُطلق الاستقراء التام على تلك الحالات التي تتحدد فيها المصاديق المطلوبة. فيحصل لدى المستقرئ الحكم القطعي واليقين بعد مشاهدتها جميعاً واشتراكها في موضوع خاص. غير أن هذا الحكم يقتصر على الحالات التي تشملها دراسة ولا يمتد إلى خارج حدودها، والاستقراء بهذا المفهوم لا يُعدّ طريقاً استدلالياً، وإنما هو عبارة عن معرفة واكتشاف حقيقة ما هو موجود. كما يعتقد استخدامه على إمكانات الباحث في إيجاد جميع المصاديق وتحديد الوجوه المشتركة.

ويُطلق الاستقراء التام أيضاً - ومن خلال التوسع في المعنى - على جميع لإحصائيات التي تحدث في العالم. فمعرفة نفوس مدينة أو بلد ما في زمان معين، لا تتحقق إلا عن طريق الاستقراء.

والحصول على معلومات عن الماضي والأسلاف، يتحقق كذلك عن طريق استقراء الوثائق والآثار التاريخية. ويعتمد حجم تلك المعلومات ومدى صحتها على حجم ما هو متوفر من وثائق وآثار. وسنلجأ إلى الاستقراء أيضاً في حديثنا

عن الأنبياء وأوصيائهم، وفي إثبات حقيقة إمامة الأئمة الاثني عشر، ووجود إمام العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه وتحديد هويته بدقة .

ليس بالوسع استخدام الاستقراء التام في كشف الكثير من المجهولات؛ لأنّ مصاديقه غير محدودة، ولذلك يستعين العلماء والباحثون بالاستقراء الناقص المحدود. ورغم أنّ الاستقراء المحدود لا يصل من حيث الدرجة اليقينية إلى مستوى الاستقراء التام، لكنه يتميز بما يلي:

أولاً: ذو استخدام واسع جداً.

ثانياً: يمكن من خلال اختبار نماذج معدودة ومعينة التوصل إلى أحكام كلية يمكن تعميمها على جميع الموارد الأخرى.

والاستقراء الناقص يقوم على نظرية أرسطو^(١) القائلة بأنّ ما هو تصادفي لا يمكن أن يكون دائمي أو أكثرى الوقوع، وعلى هذا الأساس لو وجدنا مصاديق وأحداثاً وظواهر متعددة وذات وجه اشتراك واحد، لكان بمقدورنا اعتبارها غير تصادفية وغير اتفافية، ومن ثم تعميمها على جميع الموارد والحالات التي لم نبحثها ولم نجربها.

(١) (أرسطو: (Aristoteles; Aristote; Aristotle(384-322 BC) ابن نيقوماخوس; Nicomachus

ولد ببلدة سطاغيرا شمال اليونان، ثم التحق بأكاديمية أفلاطون في أثينا، عاش اثنتين وستين سنة، تاركاً ثروة فلسفية ضخمة على شكل مذكرات ومحاضرات كان يملئها على طلبته، وقد تعهد لها أندرونيقوس الردوسي فأخرجها بالصورة التي وصلت إلينا، ولهذا احتاجت إلى أكثر من شرح وتفسير.

وتعرف كتبه الستة عند الفلاسفة الإسلاميين بـ: (فاطغورياس، وباري أرمنياس. وأنالوطيقا الأولى، وأنالوطيقا الثانية، وطوبيقا، وسوفسطيقا) ثم اشتهرت بالترجمات الآتية: (المقولات، والعبارة، والتحليلات الأولى، والتحليلات الثانية، والجدل، والمواضيع، والأغاليط) ولا زال كتابه (المنطق; Logic) يدرس في حواضر العلم والدين في كل مكان!

الاستقراء أو البحث عن أنواع الإدارات:

الاستقراء جار على قدم وساق في مناخٍ شتى، فمدراء جميع المؤسسات والمرافق الثقافية والتعليمية والاقتصادية والاجتماعية، يضعون البرامج، ويرسمون المخططات، من أجل استمرار ونمو وتطور مؤسساتهم، ويبذلون جميع الجهود والإمكانات من أجل الأهداف والتطلعات التي ظهرت تلك المؤسسات إلى الوجود لتحقيقها.

وعقلاء الناس يضعون في حساباتهم مختلف التوقعات والتكهنات من أجل استمرار المؤسسات والتنظيمات والحيلولة دون اللانظام والتقهقر والتراجع، ويفكرون تفكيراً جاداً في اتخاذ السبل الكفيلة لنجاح تلك المؤسسات، والتي على رأسها، تعيين الإدارة المستقبلية، حيث يعتمد بقاؤها ونموها وتكاملها على الإدارة الكفوءة الجديرة. ولم يلاحظ بين العقلاء أن لا يعين المدير نائباً عنه حين غيابه، أو أن يترك الناس هكذا من دون أن يحدّد من هو الذي سيدير شؤونهم من بعده.

إذن استقراء كثير من الحالات في شتى أنواع الإدارات والمديريات يكفي لإيجاد اليقين في أنّ للاستخلاف والوصاية جذوراً في بناء العقلاء. وهذا قانون متداول بين جميع العقلاء، وهو قيامهم بتعيين وصي وخليفة للمستقبل.

استقراء أسلوب العقلاء:

من أجل القاء المزيد من الضوء على الأسلوب الذي اتّخذناه، نشير إلى نموذج بهذا الشأن. وبما أنّ الموضوع العام للبحث يتعلق بموضوع الزعامة الدينية ومقام النبوة، لذلك نقدم قبل ذلك توضيحاً للنبوة والزعامة الدينية.

الزعامة الدينية:

النبوة وزعامة الأمة لاسيما مقام الأنبياء أصحاب الشريعة ، مقام إلهي ومنزلة ربانية. وليس بوسع أحد أن يقارن النبي بالحاكم مهما كان هذا الحاكم كبيراً وقوياً ، أو كفوءاً ولائقاً. فالنبي يُؤمر من قبل الله تعالى لدعوة الناس وهدايتهم وإجراء الأحكام الإلهية في المجتمع ، وتتم تلك العملية بطريقة تخرج عن إطار الضوابط والمعايير البشرية .

والرسالة التي تُبلّغ للنبي عن طريق الوحي ، يكون هذا النبي ملزماً بإبلاغها للناس ، وليس له الحق في التصرف فيما يوحي إليه .

والأنبياء من أصحاب الشريعة أو الكتاب ، محدودون ، ورسالتهم معروفة وواضحة. ومن البديهي أنّ النبي صاحب الشريعة لا ينبغي عليه ، ولا يحقّ له أن يوكل مهمة استمرار رسالته ودعوته إلى رغبات الناس أو إلى الأحداث ، كما لا يحقّ له حتى أن يختار بنفسه من ينهض بهذه المهمة من بعده. وعلى هذا الضوء لا بدّ أن يعرّف للأمة شخصاً مختاراً من قبل الله تعالى وحائزاً لبعض الشرائط والمواصفات الخاصة. فلو رفضنا أن يكون أمر الوصاية إلهياً ، فسينفتح حينذاك الباب بوجه رفض أن تكون النبوة إلهية ، لأنّ النبوة معناها الإتيان بالشريعة ، حيث تمثل الولاية باطنها ، ويستمر بقاء النبوة والشريعة بقاء الولاية التي تتجلى في زي الوصاية والإمامة. ومن هذا المنطلق تظل الولاية قائمة بعد النبوة إلى يوم القيامة. وعلى هذا الأساس أيضاً يعتقد الشيعة أنّ مقامي النبوة والوصاية كليهما إلهي. وأنّ هذين المقامين لديهما تسلسل لا ينقطع منذ بداية خلقه العالم و آدم وحتى يوم القيام والبعث .

وهناك تباين كبير جداً في العلاقة ما بين اتباع النبي ، والنبي ، والعلاقة ما بين أفراد شعب أو أمة وحاكم ذلك الشعب أو سلطانه. فالنبي يعيش حياً ومحبوياً إلى

لأبد في قلوب أتباعه وأمته، ويزداد ذلك الحب مع تقادم الزمن .
وهناك العديد من الآيات القرآنية الكريمة التي تشير إلى هذه الحقيقة، كآية
تي تقول: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ
مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾^(١). فالرسول ﷺ يخاطب القلوب والفطر، وينظر
للإنسان نظرة ماورائية، لذلك حينما كان يُسمع كلام الرسول ﷺ، يتحرك الحب
في القلوب، وتهوى الأفئدة إلى صاحب ذلك الكلام، وتغرورق العيون دمعاً عن
غير إرادة. ولا شك في أنّ انهماك الدموع. تعبير عن حبّ الله ورسوله .

استقراء أحاديث الرسول محمد ﷺ وتعاليمه:

في كتب الصحاح التي يرويها أهل السنة نلاحظ ما يقرب من مائتي حديث
في موضوع الجنائز وأحكام الميت. ففي صحيح البخاري نلاحظ ١٥٧ حديثاً،
بينها ١٢٢ حديثاً غير متكرر، وفي صحيح مسلم نلاحظ ٦٣ حديثاً غير متكرر،
يشارك ٢٥ حديثاً منها مع أحاديث صحيح البخاري. ويمكن القول إنّ هناك أكثر
من ١٦٠ حديثاً بدون تكرار ورد في هذين الصحيحين بشأن أحكام الجنائز،
فضلاً عن وجود ٤٠ حديثاً آخر موزعاً على الأبواب الأخرى، وفي سائر
نكتب، أي: أنّ النبي الأكرم ﷺ قد حدّث المسلمين بنحو ٢٠٠ حديث في
موضوع دفن الموتى وتكفينهم.

السؤال الذي يشير نفسه هنا هو: هل من المعقول أن يكون للرسول محمد ﷺ
نحو مائتي حديث في موضوع الميت، ولا يكون لديه حديث واحد في إمامة
الأحياء؟ وهل يمكن للرسول الأكرم ﷺ الذي كان حريصاً على الأمة^(٢)، وعلى

(١) سورة المائدة: ٨٣/٥.

(٢) قال الله تعالى فيه صلى الله عليه وآله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا
عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾، سورة التوبة: ١٢٨/٩.

مستقبلها وكيانها، أن يصمت في هذا الموضوع الخطير، ولا يتحدث بأي شيء عنه؟ وهل يصدق أحد أن هذا الرسول العظيم الذي كان يسعى لإسعاد أمة الإسلام وابتغى تحقيق الأهداف السماوية المرسومة لهذه الأمة لا ينس بسنت شفة في موضوع زعامة الأمة الإسلامية وقيادتها والربان الذي يقودها من بعده إلى ساحل النجاة؟ وهل بمقدور أحد تصديق ذلك في وقت تحدث فيه جميع الأديان السماوية الكبرى عن مصلح عالمي؟

هذه التساؤلات منطلقة من النظرة إلى جميع أبواب الدين واستقراء المعارف الإسلامية، ولا ريب في أن إجابة الباحث المنصف سواء كان مسلماً، أو غير مسلم هي: من المؤكد أن رسول الإسلام لم يصمت في هذه القضية المهمة أيضاً ولم يدع أمته كالسوائم هملاً وبلا راع^(١)؟

يكتب الفخر الرازي مجيباً على التساؤلات السابقة: «إن الصحابة لما أجمعوا على الاختيار، وجب أن يكونوا عالمين بما دلهم على صحة الاختيار لامتناع انعقاد الإجماع إلا عن الدلالة. وقيل: إن الذي دلهم على جواز الاختيار أمران: أحدهما: قوله صلى الله عليه وآله: إن وليتم أبا بكر وجدتموه قوياً في دين الله ضعيفاً في بدنه، وإن وليتم عمر وجدتموه قوياً في دين الله قوياً في بدنه، وإن وليتم علياً وجدتموه هادياً مهدياً وذلك إشارة إلى صحة الاختيار...».

والذي يبطل الخبر زيادة مع ضعف سنده بالفضيل بن مرزوق الموصوف بنكاره الحديث مع ضعفه، وغيره من المدلسين؛ أمّا أبا بكر لما أراد النص على

(١) يمكن ملاحظة مثل هذه التساؤلات في كتاب مخطوط للفخر الرازي عنوانه (نهاية العقول) موجود في مكتبة ملك، ومما جاء فيه: «وشرح (الرسول) كيفية الاستنجاء والمسح على الخفين، ولا شك في أن أمر الإمامة أعظم من هذه الأشياء، فإذا كان النبي ﷺ لم يخل ببيان هذه الأحكام فكيف يجوز أن يقال أنه لم يعين أمر الإمامة؟».

ف ٣: المهدي الموعود عليه السلام في دليل الاستقراء ١٧٥

عمر عوتب على ذلك وقيل له - كما في جملة من المصادر - ما تقول لربك إذ وليت علينا فظاً غليظاً؟ فلو كان الخبر صحيحاً لاحتجّ به عليهم وقال لهم: وليت عليكم من شهد له النبي صلى الله عليه وآله بأنه قوي في دين الله قوي في بدنه.

والذي يبطله أيضاً هو أن ظاهر الخبر يقتضي تفضيل عمر على أبي بكر وإجماع أهل السنة مع خلافه؛ لأن القوة في الجسم فضل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾^(١).

ومن ثمّ، كيف لم يقطع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بتعيين من يخلفه، وهو أمر مهم وخطير يتعلق بمصير الإسلام والمسلمين؟ وكيف يصدق أن يترك الأمر لإختيار المسلمين وهو يعلم أن ذلك سيعمل على تفريق المسلمين وتشتيتهم، ويخلق بؤرة فتنة ونزاع مستمرة في الكيان الإسلامي؟

نظرية المفكر الشهيد السيد محمد باقر الصدر:

هَبَّ المفكر الشهيد آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر رحمته الله في كتابه القيم (الأسس المنطقية للاستقراء) لتسليط الضوء على ما عبّر عنه بالاستقراء الناقص وعدّه طريقاً لحصول اليقين. وسعى في كتابه المذكور لشرح نظريته وإيضاحها من خلال استخدام شتى الأمثلة.

وكشف كذلك عن أهمية الاستقراء في العلوم التجريبية والإنسانية على أساس حساب الاحتمالات، وهو طريق يفضي إلى نتيجة موضوعية، لكنه يقين موضوعي، وليس يقيناً منطقياً.

السيد الصدر يقسم اليقين إلى ثلاثة أنواع:

١- يقين منطقي.

٢- يقين ذاتي.

(١) سورة البقرة: ٢٤٧/٢.

٣- يقين موضوعي .

ويراد باليقين المنطقي: اليقين في باب القياس ، والذي يرد فيه المعلوم والمتيقن في المقدمات ، كقولنا: زيد إنسان ، وكل إنسان قابل للتعليم ، إذن زيد قابل للتعليم. ففي هذا النوع من اليقين يُعدّ تخلف النتيجة أمراً مستحيلاً وغير ممكن. ولذلك يعبر عنه باليقين الرياضي أيضاً.

واليقين الذاتي: هو اليقين الذي يحصل على أساس قناعة الشخص نفسه من دون الاستناد إلى استدلال أو دليل ، كاليقين الحاصل عن الرؤية في المنام .

أما اليقين الموضوعي: فهو اليقين المستحصل من خلال وضع الجزئيات والموارد المتعددة إلى جانب بعضها البعض ، الأمر الذي يخلق لدى الباحث حالة الظنّ والحدس والتخمين ، ثم يجتاز هذه الحالة تدريجياً وينتقل من حالة الشك والتردد إلى وادي اليقين والاطمئنان ، كما لو حصل لشخص ما علم إجمالي بفقدان كتاب من كتب مكتبته ، وحينما يجد - مثلاً - خلو مكان كتاب (الإشارات) ، يحصل لديه ظنّ بفقدان هذا الكتاب بالذات ، وحينما يدقق في كتبه ولا يجد كتاب الإشارات بينها ، يتيقن أنّ المفقود هو هذا الكتاب بالذات .

ويمكن إجمال مسار خطوات الاستقراء - كما بينها الشهيد الصدر - في عدة

مراحل ، وهي:

١- من خلال استخدام الحس والتجربة ، نواجه ظواهر متعددة ، فحينما تصل إلى أيدينا رسالة نعتقد أنّها من أخينا ، يقوم اعتقادنا في ذلك على بعض الظواهر ، مثل اسم المرسل وانطباقه مع اسم أخينا ، فضلاً عن المشابهة في الخطّ ، والإنشاء ، وطريقة الإملاء .

٢- نصل بعد جمع المعلومات إلى مرحلة التفسير ، أي: العثور على فرضية

بوسعها تفسير جميع هذه الظواهر. فبالنسبة للمثال السابق ، بعد أن نسأل أنفسنا:

هل هذه الرسالة قد أرسلها أخونا إلينا حقاً أم شخص آخر؟ نصل من خلال معلومات السابقة إلى فرضية أن هذه الرسالة وصلتنا من أخينا.

٣- لو افترضنا أن الرسالة ليست لأخينا، فإن نسبة احتمال ظهور جميع هذه الظواهر في شخص آخر غيره، قليلة جداً، أي من المستبعد جداً أن تكون تلك رسالة مرسله من شخص آخر يشبه أخانا من حيث الاسم والإنشاء والخط والإملاء، مع إرسال تلك الرسالة إلينا بشكل تصادفي.

٤- بعد المراحل السابقة، نصل إلى النتيجة التالية، وهي صحة فرضيتنا، وأن دليل على صحتها هو وجود هذه الظواهر التي أحسنا بها في المرحلة الأولى (مرحلة الحس والتجربة). وفي مثال الرسالة، بما أن اجتماع جميع تلك الظواهر في شخص آخر غير أخينا، احتمال ضعيف جداً، ننتهي إلى النتيجة التالية وهي أن تلك الرسالة مرسله إلينا من قبل أخينا حقاً.

الاستنتاج:

الدليل العلمي أو دليل الاستقراء، يعد أحد طرق الاستدلال العقلي على وجود المصلح العالمي. ويتألف هذا الاستدلال مما يلي:

١- سيرة الأنبياء ﷺ في تعيين أوصيائهم في كتاب العهدين، والكتب الإسلامية في الحديث والتاريخ.

٢- مشاهدة الأمور السياسية، والاجتماعية المهمة، وبناء العقلاء.

٣- شمولية الإسلام في إيضاح حاجات المجتمع الإسلامي، فضلاً عن تمرينه العقلية.

هذه العناصر الثلاثة، أوجبت العلم واليقين في أن الرسول محمداً ﷺ لم يتجاهل قط تبيان المواصفات الكاملة لوصيه الإمام المهدي أرواحنا فداء.

ومن المفيد في النهاية الإجابة على بعض الأمور التي من الممكن أن تثار

على هذا اللون من الإستدلال:

١- إن الاستقراء يؤكد ضرورة تعيين آخر أوصياء الرسول الأكرم ﷺ، ولكنه يعجز عن تعيين هويته!

الإجابة: ينطبق هذا الأمر على جميع المباحث الفلسفية، أي: أنها تنطلق لإثبات أصل الموضوع وليس إلى تشخيص أو تحديد المصداق. وتقع مهمة تحديد المصداق على عاتق الروايات والأحاديث المروية عن الرسول الأعظم محمد ﷺ، وأئمة أهل البيت .

٢- من هو الوصي قبل بعثة نبي الإسلام محمد ﷺ وبلوغه مقام النبوة؟ وهل صحيح ما قيل من أن بحيرا الراهب كان يحظى بمقام الوصاية؟

الإجابة: تحدثت أحاديث متعددة عن اتصال الأوصياء، وأوردت اسم «برده» كأخر وصي للمسيح . وهناك روايات معتبرة أخرى تقول: إن المسيح كان لديه ١٢ وصياً، أدرك آخرهم عصر الرسول الأكرم محمد ﷺ، رغم أن اسمه لم يرد فيها، وعلى ضوء ما متوفر لدينا من معلومات عن حياة بحيرا، يظهر أنه لم يكن إنساناً عادياً، وإنما كان من الأولياء وأهل الباطن. بحيرا، هو ذلك الراهب من أهل الكتاب الذي ورد في رواية مشهورة، أنه شاهد النبي محمداً ﷺ في صباه، وتكهن بنبوته.

سُجِّل اسم هذا الرجل في كتب التاريخ والسيرة بأشكال مختلفة مثل: بحيرى، بحيرا^(١)، سرجس^(٢)، بحيرى، بحيرا^(٣). والشكل الأخير، متأخر.

(١) سيرة ابن إسحاق: ٧٣، والسيرة النبوية / ابن هشام ١١٧/١، كفالة أبي طالب لرسول الله ﷺ قصة بحيرى.

(٢) مروج الذهب / المسعودي ١: ٨٣.

(٣) الطبقات الكبرى / ابن سعد ١: ١٥٣-١٥٥، ذكر علامات النبوة في رسول الله ﷺ قبل يوحى إليه.

تماماً، ولربّما أريد به إعطاء وزن عربي متداول لمفردة غير عربية. يعتبره البعض حبراً، أي، من علماء اليهود، ومن مدينة تيماء في ضواحي شام.

ويصفه آخرون بأنه راهب نصراني^(١)، أو نسطوري من أتباع آريوس^(٢)، كان بارعاً في الفلك، وكان من حيث العقيدة ينكر ألوهية المسيح، ويرفض التثليث ويقول بوحدانية الله. ولهذا السبب بالذات طُرد من كنيسة الشام البرية، ثم من طور سيناء، واضطر للإقامة في دير، في بصرى^(٣). وفي هذا المكان بالذات التقى بالرسول الأكرم محمد ﷺ. وورد في رواية أن هاتفاً غيبياً أعلن أن أفضل الناس ثلاثة: بحيرا، ورتاب الشني من عبد القيس، والمنتظر (الرسول محمد ﷺ). واعتبره الجاحظ مصداق النصارى الذين مدحتهم سورة المائدة.

البعض يصف بحيرا بأنه منتظر الرسول الموعود، ويصفه البعض الآخر بأنه المنتظر المعتزل، حيث لم يكن يخرج من صومعته. ولم يتحدث إلى أحد، لكنه حينما شاهد بعض الأمارات والعلام غير الطبيعية، كتسبيح الصخور، وصلاتها على الرسول ﷺ، والسحابة التي كانت تظلّل الرسول أثناء سيره، والشجرة التي

(١) السيرة النبوية / ابن هشام ١: ١١٧، كفالة أبي طالب لرسول الله ﷺ، قصة بحيرى.

(٢) «آريوس: (Arius (Death 335 AD)»

يوناني تعلّم في الإسكندرية ثم في أنطاكية، حارب عقيدة التثليث، وألوهية المسيح ﷺ والقول بالحلول، وأنكر كل ما جاء في الأناجيل حول ذلك متهماً المحتجّين بها بتحريفها، مصرحاً بأن المسيح ﷺ ليس ابن الله كما تدّعيه الأناجيل المحرّفة لأن كل ما يأتي بعد الله فهو مخلوق له، وإن المسيح كان بكلمة الله (كن فكان) وشأنه كشأن آدم خلقه الله بالمشيئة، ولهذا لقبه النصارى بأريوس الهرطيق المبتدع: Arius Heresiarchus صاحب الأريوسية: Arianism أو ما يسمّى في تاريخ المسيحية ببدعة آريوس!!

(٣) السيرة النبوية / ابن هشام ١: ١١٧، كفالة أبي طالب لرسول الله ﷺ، قصة بحيرى.

مالت أغصانها نحوه، بمجرد أن جلس إلى جوارها^(١)، أقبل على القافلة التي كان فيها الرسول وهو صبي، ودعاها إلى الطعام كي يتحدث إلى النبي الموعود لكن أفراد القافلة تركوا محمداً ﷺ عند أمتعتهم، ولم يأتوا به معهم. ولذلك سألهم بحيرا أن يسمحوا له بالتحدث إليه. وقيل أيضاً: إنه يتحدث معه في أوقات الفجر أثناء نوم أفراد القافلة^(٢).

وتيقن بحيرا من نبوة النبي محمد ﷺ، حينما شاهد خاتم النبوة بين كتفيه، وعرف مناماته، وسمع تبرّيه من أوّثان مكة حينما سأله أن يقسم بها امتحاناً له. وقد أفضى بحيرا في نهاية المطاف بخبر نبوة محمد ﷺ في المستقبل إلى عمه أبي طالب الذي كان مع القافلة، وسأله أن يحافظ عليه ويحميه من اليهود والروم. وورد في تلك الرواية أنّ أبا طالب ﷺ انصرف عن إتمام تلك الرحلة وعاد بالنبي محمد ﷺ إلى مكة.

هذه الأخبار تؤكد على أنّ بحيرا كان شخصية إلهية تستحق مقام الوصاية. إن بحث الاستقراء بحث عقلي، وليس خاصاً بالشيعة الامامية، لذلك نشاهد الفخر الرازي - ومن كبار علماء أهل السنة - يدرك وجود قطب عالم الإمكان عن طريق الاستقراء.

(١) السيرة النبوية / ابن هشام ١: ١٩٢.

(٢) الطبقات الكبرى / ابن سعد ١: ١٥٣-١٥٥، ذكر علامات النبوة في رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن يوحى إليه.

التوصل إلى قطب عالم الإمكان في استقراء الفخر الرازي

أثبت المفسر والمتكلم المسلم الكبير فخر الدين الرازي ومن خلال استخدام دليل الاستقراء وبطريقة مختلفة عن الطريقة السابقة، ضرورة وجود إنسان كامل ومعصوم في جميع العصور.

بعد أن يؤيد هذا المفكر في مبحث (لزوم النبوة) الذي أورده في كتاب المطالب العالية من العلم الإلهي^(١)، الطريقة المتداولة لدى المتكلمين في إثبات نبوة عن طريق المعجزات، يتحدث عن قابلية الأنبياء وقدرتهم على إكمال الإنسان الناقص ويرى أننا لو نميز بين طريق الحق وطريق الباطل فلا بد أن نعتبر ذلك الشخص الذي اتضحت لديه فكراً حقائق العلم، وتميز عملياً بملكة لأعمال الصالحة، واتسم بالأخلاق والطباع الإلهية، ودعا الناس إلى الحق والحقيقة، نبياً ومرشداً للشريعة السماوية.

ولكي يوضح ما يرمي إليه، يشير الفخر الرازي إلى شتى درجات فهم الناس وعملهم، ويؤكد على أن درجة الاختلاف بينهم في إدراك الحقيقة والعمل بها، غير محدودة ولا متناهية، ويقول بأن هذه الشدة والضعف أمر واضح بين الأفراد. ويرى كذلك أن هذه الدرجات ذات مستويين أعلى وأسفل. فقد نشاهد أفراداً قريبين في طباعهم وسلوكياتهم من الوحوش والخنازير والحمير، وقد نشاهد

(١) المطالب العالية / فخر الدين الرازي ٨: ١٠٣-١٠٨، القسم الثاني من كتاب النبوات.

من جانب آخر أشخاصاً من أصحاب الأفكار العالية والأخلاق والطباع الإنسانية، والسلوكيات النقية، وكانهم ملائكة.

صفوة القول هي أن ثمة درجات مختلفة للنقص والكمال، وهناك مَنْ يتميز بكمال أقل، والبعض الآخر بكمال أكبر. وكما يمكن مشاهدة إنسان في منتهى النقص، كذلك يمكن مشاهدة إنسان آخر قد بلغ قمة الكمال من جميع الجوانب والأوجه.

ويستعين الفخر الرازي بالأسلوب الاستقرائي لإثبات هذه المقدمة، ويشير إلى أنواع الأجسام، ويقول بأن الحيوان أشرفها، ثم يتحدث عن أنواع الحيوانات، ويقول بأن الإنسان أشرفها. ثم يؤكد على أن الناس ليسوا على درجة واحدة أيضاً، فهناك من هم أشرف من غيرهم^(١)، ثم يقرر الحقيقة التالية. وهي: لا بد وأن يكون بين هؤلاء الشرفاء من هو أشرف من الجميع في الفضل والكمال. بتعبير آخر ما دام هناك أناس، فلا بد أن يوجد بينهم من هو أفضل وأكمل: «فعلى هذا قد ثبت أنه لا بد وأن يحصل في كل دور شخص واحد هو أفضلهم وأكملهم في القوة النظرية والعملية»^(٢).

قطب العالم وصاحب الزمان:

يعتقد الفخر الرازي أن هذا الإنسان الكامل هو عين ذلك الشخص الذي تلقبه الصوفية بلقب (قطب العالم)، ويقول فيه:

«وجماعة (من) الشيعة الامامية يسمونه بالإمام المعصوم. وقد يسمونه بصاحب الزمان. ويقولون بأنه غائب. ولقد صدقوا في الوصفين أيضاً، لأنه

(١) الفخر الرازي يستعرض هنا أفضل الساكنين في ايران شهر (المطالب العالية / فخر الدين

الرازي ٨: ١٠٥).

(٢) المصدر نفسه.

ف ٣: المهدي الموعود ﷺ في دليل الاستقراء ١٨٣

لما كان خالياً من النقائص التي هي حاصلة في غيره كان معصوماً من تلك النقائص. وهو أيضاً صاحب الزمان؛ لأننا بينا: أن ذلك الشخص هو المقصود بالذات في ذلك الزمان وما سواه، فالكل أتباعه، وهو أيضاً غائب عن الخلق...»^(١).

ثم ينتهي بعد ذلك إلى القول:

«فهذا كلام معقول مرتب على الاستقراء الذي يفيد القطع واليقين»^(٢).

هكذا نرى أن الفخر الرازي يستعين بالاستقراء للبرهنة على ضرورة وجود الإنسان الكامل في جميع العصور. وقد جعل موضوع الاستقراء، كمال ونقص الموجودات ووجود الفرد الكامل والأفضل في جميع الأشياء. ويعترف في نهاية المطاف بصراحة بوجود الإنسان الكامل باعتباره أصلح الأناس وأكملهم والقادر على تربيتهم.

أقسام الناس من منظور الفخر الرازي:

يقسم الفخر الرازي المجتمع البشري إلى ثلاثة أقسام:

١- الأنبياء صلوات الله عليهم، وهم حملة الوحي الإلهي للبشرية، فتسطع أنوارهم كسطوع الشمس في الكون، ولا يظهر النبي إلا في كل ألف سنة أو أكثر أو أقل.

٢- أصحاب الأدوار وهم الأناس الكاملون الموجودون في كل عصر، فيستضيئون بالنبي كاستضاءة القمر بالشمس، أو يدورون حوله كدوران

(١) المطالب العالية ٨: ١٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ص: ١٠٧.

الكواكب السيارة حول الشمس. فيكون صاحب الدور أو الإنسان الكامل هو الإمام والقائم مقام النبي والمقرّر للشيعة.

٣- عامة الخلق، وهم الذين تكمل عقولهم بأنوار عقول أصحاب الأدوار، وتتقوى بها:

«ثبت بهذا: إنّ كلّ دور لا بدّ وأن يحصل فيه شخص موصوف بصفات الكمال. ثمّ إنّ لا بدّ وأن يحصل في هذه الأدوار المتلاحقة دور يحصل فيه شخص واحد يكون هو أفضل من كل أولئك الذين كل واحد منهم صاحب دوره وفريد عصره. وذلك الدور المشتمل على مثل ذلك الشخص إنّما لا يوجد في ألف سنة أو أكثر أو أقلّ إلاّ مرّة واحدة، فيكون ذلك الشخص هو الرسول الأعظم والنبيّ المكرّم واضع الشرائع والهادي إلى الحقائق، وتكون نسبته إلى سائر أصحاب الأدوار كنسبة الشمس إلى سائر الكواكب. ثمّ لا بدّ وأن يحصل في أصحاب الأدوار إنسان هو أقربهم إلى صاحب الدور في صفات الفضيلة، فيكون ذلك الشخص بالنسبة إليه كالقمر بالنسبة إلى الشمس وهو الإمام القائم مقامه. المقرّر شريعته وأما الباقيون فنسبة كل واحد منهم إلى صاحب الدور الأعظم كنسبة كوكب من الكواكب السيارة إلى الشمس. وأما عوام الخلق فهم بالنسبة إلى أصحاب الأدوار، مثل حوادث هذا العالم بالنسبة إلى الشمس والقمر وسائر الكواكب. ولا شك في أنّ عقول الناقلين تكمل بأنوار عقول أصحاب الأدوار وتتقوى بقوّتها...»^(١).

من العجيب جداً سماع مثل هذا الكلام الصريح والمهم جداً، من شخصية تحظى باهتمام علماء أهل السنّة، والتي لها بعض المواقف المتعصبة المناهضة

(١) المطالب العالية ٨: ١٠٦ و ١٠٧.

ف ٣: المهدي الموعود ﷺ في دليل الاستقراء ١٨٥

نلشيعه، وهذا يرجع إلى فضل الله تعالى الذي أجرى الحقيقة على لسان شخصية كالإمام فخر الدين الرازي، سيما وأن كتاب (المطالب العالية)، آخر كتاب كلامي ألفه وفرغ منه في نفس العام الذي توفي فيه^(١). لذلك من المنطقي أن يُعد ما ورد في هذا الكتاب، الموقف الفكري النهائي للإمام الفخر الرازي، وهو الموقف الذي يتناغم مع كلمات الإمام علي بن أبي طالب ﷺ الواردة في نهج البلاغة:

«اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيئاته. وكم ذا وأين! أولئك والله الأقلون عدداً والأعظمون عند الله قدراً، يحفظ الله بهم حججه وبيئاته حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم. هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلنا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آه آه شوقاً إلى رؤيتهم!»^(٢).

لا شك في أن ثمة ثلاثة تنويهاً أساسية تتجلى في كلمات الامام

علي ﷺ:

الأول: هو أن الأرض لا تخلو من حجة لله سواء كان ظاهراً أم غائباً.
والثاني: هو أن الهدف من وجود هذا الإنسان الحجة في الأرض، يتمثل في هداية الناس، لأن الأرض حينما تخلو من هكذا إنسان، تبقى راکدة

(١) تم الفراغ من تأليف هذا الكتاب (عام ٦٠٦ هـ)، وهو العام الذي مات فيه الفخر الرازي.

راجع: المطالب العالية ٩ : ٣٩.

(٢) نهج البلاغة / شرح ابن أبي الحديد ١٨ : ٣٤٦ و ٣٤٧. وسيأتي - إن شاء الله تعالى - بكامل

طرقه وجميع مصادره في الجزء الثاني الخاص بحتمية وجود الإمام المهدي ﷺ في هذه الموسوعة.

١٨٦ بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية / ج ١

ومعطلة .

والثالث: هو أنّ إنساناً كهذا، سيكون عالماً بباطن العالم، ومعصوماً من الذنب، وأقرب الناس إلى الله تعالى. والغريب في الأمر أنّ هذه النقاط الثلاث وردت جميعاً في كلمات الفخر الرازي.

الفصل الرابع

برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية)

وضرورة وجود الإمام المعصوم عليه السلام

المبحث الأول في معنى البرهان

منذ أن فتح الإنسان عينيه ، وشاهد نظام الصنع بعين الفطرة ، أدرك الخالق
تعليم القدير الحكيم من خلال عظمة الخلق وجمال عالم الوجود. فالضمير
بشري الواعي يجد هذا العالم في حالة حركة وبحث وانطلاق نحو الكمال ،
ويشاهد الهدفية والجمال في أروع صورة ممكنة. وقد تحدثت الأديان الإلهية
في ذلك انطلاقاً من نور الوحي والإلهام. وعلى هذا الأساس أيضاً تحدثت
حكماء الإلهيون ، والفلاسفة الربانيون كثيراً في نظام الخلق وكونه أتم وأصلح ،
وأفردوا جانباً كبيراً من كتبهم وكتاباتهم للتحدث في هذا الموضوع ، والإشارة
إلى ما في العالم من خير وجمال .

يمتاز الإنسان عن سائر كائنات العالم بضرورة معرفة الجمال والانطلاق - عن
ختيار - نحو الجمال والتجمل ، وبلوغ الكمال. غير أن هذه المعرفة بحاجة إلى
وسائل ومقدمات ، ووفر الله تعالى بلطفه ورحمته جميع هذه الوسائل والمقدمات
لهداية الإنسان نحو الكمال الجمالي ، والتي من أهمها الهداية السماوية التي
ينبغي أن تستمر على أيدي الأئمة المعصومين في جميع العصور .

بحثنا هذا يتناول الأصول التي تؤدي إلى أن الإيمان بضرورة الهداية الإلهية
واستمرارها بواسطة النبي ﷺ ، والأئمة المعصومين عليهم السلام ، يستلزم وجود

الإمام المعصوم في كل زمان، ويطلق الفلاسفة الإلهيون اسم برهان العناية والحكمة على الاستدلال الذي يقود إلى الإيمان بوجوب وجود الإنسان الكامل. وأثبت الحكماء المسلمون - كصدر الدين الشيرازي - ضرورة وجود الإمام المعصوم في جميع العصور باعتباره الإنسان الكامل الذي يمثل محض الهداية الإلهية.

وأثبت الباحثون وعلماء الآثار بالأدلة المحسوسة والعلمية أن الإنسان كان مؤمناً منذ أقدم العصور بوجود قوة متعالية ومدبرة ومديرة للعالم، كذلك كان لديه مثل هذا الشعور نحو الصفات الإلهية والأسماء الحسنى عن طريق شتى الحاجات والمتطلبات. ويعتبر اسم «الحكيم»، أحد الأسماء الحسنى التي تكررت كثيراً في القرآن الكريم، وقيل فيه الكثير أيضاً.

وبما أن الطريق إلى معرفة الله هو العقل والفطرة، فلا بد أن يكون العقل والفطرة طريقاً أيضاً إلى معرفة أسماء الله وصفاته. لذلك يُعدّ الاستدلال عن طريق الأسماء الإلهية، عقلياً.

المعنى اللغوي والاصطلاحي للحكمة:

الحكمة لغة: جاء في لسان العرب: «والحكمة: العدل. ورجل حَكِيمٌ: عدلٌ حَكِيمٌ، وأحْكَمَ الأمر: أتقنه،.... والحكيم: المتقن للأمور»^(١).

وقال الراغب الإصفهاني: «الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات»^(٢).

(١) لسان العرب ١٢: ١٤٣ (حكم).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن / الراغب الإصفهاني: ١٢٧ (حكم).

١٩١ برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية) وضرورة وجود الإمام..... ١٩١

الحكمة اصطلاحاً: «هي العدل والعلم والحكم والنبوة والقرآن والإنجيل، ووضع الشيء في موضعه، وصواب الأمر وسداده. وأفعال الله كذلك، لأنه يتصرف بمقتضى الملك فيفعل ما يشاء، وافق ذلك غرض العباد أم لا.

وفي عرف العلماء: هي استعمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية كتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة قدر طاقتها.

وقال بعضهم: الحكمة هي معرفة الحقائق على ما هي بقدر الاستطاعة...»^(١).

الحكمة عند المتكلمين:

الحكمة عند معظم المتكلمين تعني معرفة أجلّ الأشياء وأفضلها بواسطة أفضل العلوم وأجمل الأشياء، والله تعالى هو أجلّ من كل شيء وأفضل من كل شيء. وثبت بالتحقيق أنه ليس بإمكان أي أحد أن يبلغ معرفة ذاته إلا هو. فالله هو الحكيم المطلق الحق.

وقد يوصف من يحسن دقائق الصناعات ويحكمها ويتقن صنعها بـ «الحكيم»، غير أن كمال الحكمة ليس إلا لله جلّ جلاله. ومن عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله لا يستحق أن يُسمّى حكيماً، لأنه لا يعرف أجلّ الأشياء وأفضلها^(٢).

يستخدم المتكلمون الحكمة بمعنيين في بعض الأحيان:

١- المعرفة المجردة بالنظام ومعانيه الدقيقة.

٢- إفاضة القوة على شخص لا يجاد الترتيب والتنظيم والإتقان في الأشياء.

وعليه فالإنسان الحكيم هو الشخص الذي لا يقوم بعمل إلا من أجل هدف

(١) الكلبيات / أيوب بن موسى أبو البقاء الكفوي: ٣٨٢ (الحكمة).

(٢) علم اليقين في أصول الدين / الفيض الكاشاني ١: ١٣٢.

صحيح^(١).

يبرهن المعتزلة أيضاً على أن الله تعالى حكيم، ويقولون بأن الحكيم هو الذي تقوم أفعاله على الإتيان والإحكام، ولا يقوم بأي فعل جزافاً. لذلك إذا وقع الخير فهو خير، وإذا وقع الشر فهو شر. إذن لا بد أن يكون ثمة هدف^(٢).

يقول الزمخشري في تفسير (الكشاف) خلال تفسيره للآية الكريمة: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(٣): إن الكتاب هو القرآن، والحكمة هي الشريعة وبيان الأحكام^(٤). ويصف الفخر الرازي في التفسير الكبير هذه الآية بأنها من الآيات المتشابهة. ويقول بأن المراد بالحكمة هي تلك الشرائع التي حملها الرسل معهم من وجوه المصالح والمنافع^(٥).

الحكمة عند الفلاسفة:

بحث الفلاسفة القدماء والجدد من شرقيين وغربيين موضوع الحكمة الإلهية من أوجه عديدة. وكان الفلاسفة اليونانيون والرومانيون يعتبرون الحكمة الإلهية في الخلق وهداية الناس نحو الخير والكمال، من مسلمات وقطعيات أصول الفكر الفلسفي الإلهي والإنساني.

من وجهة نظر الفلاسفة المسلمين تُعدّ الحكمة فضيلة من القوة النطقية وهي العلم بالأشياء الكلية وبحقائقها، واستعمال الحقائق التي يجب استعماؤها

(١) موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي / الدكتور سمیع دُغيم ١: ٥٠٠-٥٠١.

(٢) المصدر السابق: ٥٠٢.

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل / محمود بن عمر الزمخشري ١: ٩٤.

(٤) الكشاف عن حقائق التنزيل ١: ٩٤.

(٥) التفسير الكبير / الفخر الرازي ١: ٤١٥.

ف ٤: برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية) وضرورة وجود الإمام..... ١٩٣ لها^(١).

كما تُعرّف الحكمة بأنها معرفة وجود الحق الذي هو واجب الوجود بذاته^(٢). وقيل أيضاً بأنها التشبّه بالله بحسب الطاقة البشرية. ومعنى هذه الحكمة هو أن يكون الإنسان حكيماً في مصنوعاته، ومتحققاً في معلوماته، وخبيراً في أفعاله^(٣).

ويعرفها الحكيم السبزواري بأنها معرفة الحقائق من قبيل معرفة الله، ومعرفة الذات، ومعرفة أمر الله^(٤).

هكذا نرى مدى اهتمام الفلسفة الإسلامية، لاسيما في عصر الفارابي ومن بعده، بنظام الخلقة القائم على الحكمة والمنطق والإنسجام. قدّم الفارابي دراسات في هذا المضمار في مختلف الجوانب اعتماداً على المعارف التي تلقاها عن قدماء الفلاسفة، وعلى المعارف الإسلامية القيّمة.

فوصف صاحب الحكمة بقوله: «هو أن يعقل أفضل الأشياء بأفضل علم»^(٥). ثم أخذت هذه المسألة - بعد الفارابي - طابعاً أروع عند ابن سينا بحيث استخدم فيها تعريف الحكمة والعناية الإلهية، وتحولت إلى أحد مبادئ الحكمة المشائية في كتبه.

الحكمة في القرآن:

الحكمة في القرآن الكريم تعبّر عن الاستحكام والدقّة في ظهور أجمل

(١) راجع: رسائل الكندي الفلسفية: ١٧٧.

(٢) رسائل الفارابي، التعليقات: ٩.

(٣) رسائل إخوان الصفا ٣: ١٤٣. والسياسة المدنية / أبو نصر الفارابي: ٤٥.

(٤) مجموعة رسائل الحكيم السبزواري.

(٥) السياسة المدنية: ٤٥.

وأفضل الأفعال. وبما أن الهدف من إرسال الرسل والأنبياء هو إبلاغ الأحكام الإلهية من أجل تعالي حياة الناس وسعادتهم وكمالهم، تُعدّ النبوة والرسالة في القرآن الكريم، من الحكمة الإلهية، ولذلك يعبر فيه عن الله تعالى بالحكيم:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١).

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣).

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾^(٤).

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(٥).

هذه الآيات وغيرها تسند إرسال الرسل ونزول الوحي عليهم، ونزول القرآن على الرسول الأكرم محمد ﷺ، إلى حكمة الله تعالى وعنايته. وتقوم عنايته بالخلق - لا سيما بالإنسان - على هذا الأساس أيضاً.

وإذا دققنا في مفهوم الحكمة الإلهية، اتضح سرّ النبوة والولاية كحقيقة منبثقة من اسم الحكيم، الذي هو أحد الأسماء الحسنی.

فكل هذا الجمال والعظمة والإتقان في نظام التكوين والتشريع، ينطق بظهور الحكمة الإلهية وتجليها في العالم. لذلك يستخدم القرآن الكريم اسم (الحكيم)

(١) سورة الجمعة: ٢/٦٢.

(٢) سورة البقرة: ١٢٩/٢.

(٣) سورة الشورى: ٣/٤٢.

(٤) سورة الشورى: ٥١/٤٢.

(٥) سورة الجاثية: ٢/٤٥.

ف ٤: برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية) وضرورة وجود الإمام..... ١٩٥
حين الإشارة إلى الوحي والنبوة التي تمثل أساس فلسفة الخلق، إذ من المتعذر
أن يتكامل الإنسان من دون القوانين الإلهية. ونجد في انسجام وتناسب هذا
الاسم الكريم (الحكيم) - كلما ورد في القرآن الكريم مقترناً مع خلق الإنسان
ومصير العالم - دليلاً واضحاً على ما نقول.

العناية لغةً واصطلاحاً:

العناية لغةً: الاهتمام بسدّ الحاجة^(١) وفي تاج العروس: «عناه الأمر يُعنيه
عنايةً وعُنِيًّا: أهّمّه. وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾^(٢)،
وَعُرِيَءٌ يُعْنِيهِ. فمن قرأ يعنيه - بالعين المهملة - فمعناه له شأن لا يهّمّه معه
غيره»^(٣).

العناية اصطلاحاً:

العناية في اصطلاح الفلاسفة:

أولى الفلاسفة منذ القدم اهتماماً نحو موضوع العناية الإلهية.
ويعتبر أفلاطون^(٤) (نحو / ٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) العناية أحد شؤون، وأوصاف

(١) لسان العرب / ابن منظور ١٥ : ١٠٤.

(٢) سورة عبس: ٣٧/٨.

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس / محمد مرتضى الزبيدي ١٠ : ٢٥٧ (عنا).

(٤) أفلاطون: (Platon (427 - 327 BC) أحكم أهل زمانه، وأشهر من أن يذكر، يوناني عاش في
أثينا نحو ثمانين سنة ولم يتزوج، له عدّة مؤلفات مقسمة على ثلاث مراحل: مرحلة
الشباب، والمرحلة المتوسطة ومرحلة الشيخوخة، وتخصّصت في المنطق والمنهج
والمعاني والوجود. وأشهر ما يمكن تناوله من أفلاطون نظريته في المثل Theory of forms
الذي بدأ بطرحها في إيجاز في (المأدبة أو النادي: Symposium)، وناقشها في إسهاب
في (فيدروس: Phaedrus) وطبقها في (الجمهورية) ودافع عنها في (تيمائوس:
Timaeus).

الله تعالى. أي أنه يراقب أحوال وأعمال العباد في مهمات الأمور وتفصيلها. وتلعب هذه المراقبة دوراً أساسياً في حياتهم والصورة المستقبلية التي يتحركون باتجاهها، إذ بدونها لا تتحقق العلاقة بين الله تعالى والعالم.

ويعترف الرواقيون - الذين تعود جذور أفكارهم الفلسفية إلى نحو أربعة آلاف عام قبل ميلاد المسيح - بعناية الله والنظام الأحسن، ويعبرون عن هذا بالـ (برونويا) أي تقدير جميع أمور العالم على أفضل وجه^(١).

في القرن الميلادي الثاني، قدم أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠م)^(٢) تفسيراً جديداً وأكثر وضوحاً للعناية الإلهية، واعتبر جميع الأشياء والأمور في العالم تابعة لتعريف ونظام كلي ومطلق، وأنها تنجّه نحو الخير والسعادة، ويعبّر عنها بعناية الله في فعل قوانين الوجود العامة.

نجد في الفلسفة الإسلامية كذلك، تعاريف شتى للعناية.

يقول ابن سينا في الفصل السادس من المقالة التاسعة من إلهيات الشفاء:

«فيجب أن يعلم أن العناية هي كون الأول عالماً لذاته بما عليه الوجود في نظام الخير، وعلّة لذاته للخير والكمال بحسب الإمكان، وراضياً به على النحو المذكور، فيعقل نظام الخير على الوجه الأبلغ في الإمكان، فيفيض عنه ما يعقله نظاماً وخيراً على الوجه الأبلغ الذي يعقله، فيضاناً على أتم تأدية إلى النظام

(١) فلسفة رواقية / ژان برن، ترجمة دكتور أبو القاسم پور حسيني: ٩٣.

(٢) (أفلوطين: (Plotinos, Plotin, Plotinys (205 - 270 AD)، يعد مؤسس الأفلاطونية المحدثة، مصري، ولد ببلدة ليقوبوليس بمصر العليا وانصرف إلى دراسة الفلسفة وبعد وفاته انصرف تلميذه (فورفور يوس: (Porphyrios; Porphyer; Porphyry (232-305 AD) إلى تجميع رسائله وتصنيفها في ستة أجزاء أطلق على كل منها اسم (تساعية) لأنها تضم تسع رسائل، وتعد تلك الرسائل من وجهة نظر أفلوطين محاولة للتوفيق بين أفلاطون وأرسطو والفيثاغوريين والأفلاطونيين والأرسطيين اللاحقين.

هـ : برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية) وضرورة وجود الإمام..... ١٩٧

حسب الإمكان ، فهذا هو معنى العناية»^(١).

ويقول الحكيم الإلهي ملاً علي النوري في تعليقاته على تفسير صدر
شاهين الشيرازي: العناية هي النظام الأحسن والأتم والأكمل الذي هو في
عناية الحسن والجمال بحيث لم يلوثة أي شيء مخالف لهذا النظام. ولا شك في
أن مثل هذا الخلق ، هو نظام العدل الذي تقوم عليه السماوات والأرض^(٢).

العناية في العهدين:

تمّ التأكيد على العناية الإلهية في العهدين القديم والجديد.
وتتم التوراة عن أن الله تعالى رسم مستقبل العالم ومصيره منذ البداية كما
ينبغي أن يكون ، وأولى منتهى العناية والإهتمام لحفظ ملكه ، ويهدي الأفراد
كيف يشاء على أساس قدرته. واتسعت العناية بظهور المسيح ، والتي كانت تُفهم
في العهد القديم على أنها خاصة ببني إسرائيل لتشمل البشرية بأسرها ، لأنّ
لمخلوقات وأفعالها من الله تعالى ، وأنه يحبّ أصغرها وأحقرها.
مفكرو العالم المسيحي يعتبرون العناية - بهذا المعنى - أحد الأوجه المميزة
نهجهم الجديد ، مؤكدين على شمول رحمة الله وحراسته وعنايته لجميع
لمخلوقات والعباد^(٣).

العلاقة بين مفهوم الحكمة ومفهوم العناية:

الفعل الحكيم هو الفعل الذي يكون لديه غرض معقول. وتعتمد الحكمة التي
يتّسم بها الفعل على الغاية التي يتميز بها ، وهي الغاية التي يستحسنها العقل
ويعتبرها الأصلح والأرجح.

(١) إلهيات الشفاء / ابن سينا: ٤١٥.

(٢) تعليقات ملاً علي النوري ١: ٥٠٩.

(٣) روح فلسفة القرون الوسطى / اتين ژيلسون، ترجمة ع. داودي: الفصل الثامن.

إذن الفعل القائم على الحكمة يتميز بثلاث خصوصيات هي:

١- ذو غرض وغاية .

٢- يختار الأصلح والأرجح من بين الأهداف والأغراض .

٣- يختار أفضل الطرق وأقربها للوصول إلى الهدف .

ولهذا، يوصف الفعل الإلهي بالحكمة لاتصافه بهذه الخصوصيات الثلاث في عالم الوجود، ولأن الله تعالى خلق نظام الخلق على أحسن وجه .

النظام الأحسن يتميز بميزتين أساسيتين:

الأولى: إن كل شيء فيه قد خلق وفق حساب دقيق منتظم، ولم يُخلق أي

شيء بدون دليل أو أساس:

﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾^(١).

الثانية: إن كل شيء فيه يسعى للوصول إلى الكمال، وإن مخلوقات العالم لم تخلق عبثاً قط، وهذا ما يمكن فهمه بوضوح من عبارة ﴿ ثُمَّ هَدَى ﴾ في الآية السابقة. فالعناية الإلهية تشير إلى هذا النظام الأحسن وهداية الموجودات نحو غايتها النهائية .

فالنتيجة إذن: الحكمة الإلهية والعناية الإلهية، تشيران إلى معنى واحد، وكلاهما يقصد النظام الأحسن، ولا يمكن أن نجد بينهما اختلافاً أساسياً. ولذلك أوردنا في كتابنا هذا، الحكمة الإلهية، والعناية الإلهية في فصل واحد.

برهان العناية في آثار الفلاسفة:

تحدث فلاسفة الشرق والغرب، القدماء والجدد، في موضوع الحكمة والعناية الإلهيتين، وبحثوا مختلف جوانبهما:

ف ٤: برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية) وضرورة وجود الإمام..... ١٩٩

أولاً - برهان العناية في آثار الفلاسفة اليونانيين:

أفلاطون (نحو / ٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م):

يعد كتاب (النواميس)، أحد الكتب المهمة التي ألفها أفلاطون في أواخر حياته. وأقام في هذا الكتاب الإلهيات والمعرفة العقلية والفلسفية على ثلاثة أصول أساسية هي:

١- وجود الآلهة.

٢- مراقبة الآلهة لأعمال العباد.

٣- إستعانة الناس بالآلهة لا تؤدي إلى زوالها (لا نهائية القدرة الإلهية والعطاء

نرباني)^(١).

ولاشك في أن الأصل الثاني يتعلق بعناية الله. فهو يعتقد بأن الاعتراف بالله يستلزم الالتزام بالشؤون الإلهية، إذ لا ينبغي أن تنسب إليه أو نسلب منه ما يتنافى مع الألوهية.

فالله تعالى - من وجهة نظر أفلاطون - يتجلى في هذه الشؤون والتي من بينها أنه يراقب أحوال وأعمال العباد في الكليات والجزئيات.

وتلعب هذه المراقبة دوراً أساسياً في حياة الإنسان، لذلك يُعد إلغاؤها إلغاءً للعلاقة بين الله والعالم. وعليه فمعنى المراقبة هو هداية العباد نحو الكمال وتوفير مستلزمات التكامل.

أرسطو (نحو / ٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م):

ثمة وجهات نظر مختلفة بشأن أرسطو وموقفه إزاء موضوع العناية. وسعى بعض مفسريه^(٢) إلى تفسيره بالطريقة التي تؤيد وجود معرفة العالم، وتنفيذ

(١) روح فلسفة القرون الوسطى / اتين زيلسون، ترجمة ع. داودي: الفصل الثامن.

(٢) مثل القديس توما الأكويني وبرنتانو.

المشيئة أو العناية الإلهية في نظرياته. بينما يقول آخرون مثل ديفيد راس: «لا توجد لدى أرسطو أية نظرية في الخلق الإلهي، أو في مشيئة الله وعنايته»^(١).
ويبدو أن هناك تبايناً في كلمات أرسطو، فقد يتحدث عن الله كقائد للجيش يعمل على إقرار النظام فيه، أو يقول بأنه يوفر دوام تلك الموجودات التي هي - على العكس من الأجرام السماوية - غير قابلة للتبات الدائم^(٢).

ثانياً - برهان العناية في آثار الحكماء الرواقيين^(٣):

الرواقيون يؤمنون بأن أفعال وانفعالات العالم، والتطورات التي تظهر فيه، تابعة لبرنامج واحد مهيمن على جميع العالم، وهو برنامج موضوع ومنقذ من قبل الله، ويتميز بكونه الأحسن والأكمل^(٤).

ففي القرن الثاني الميلادي، قدّم افلوطين تفسيراً حديثاً واضحاً عن العناية الإلهية التامة بالأشياء والأمور الكونية، وكيف أنّها خاضعة لنظام كلي مطلق يقودها نحو الخيرات والسعادة^(٥).

(١) تاريخ فلسفة / فردريك كاپلستون، ترجمة جلال الدين مجتبوي ١: ٤٣.

(٢) تاريخ فلسفة / فردريك كاپلستون، ترجمة جلال الدين مجتبوي ١: ٣٦٢.

(٣) «الرواقية: Stōicism; Stoicism; Stoicizm; Stōicismo» نسبة إلى (رواق: Stoa) بوليغنوتس

المزدان بمختلف اللوحات والمسمى لذلك بـ (الرواق المصوّر: Stoao Poikile) بأثني

اتخذه (زينون: Zeno) مقراً له يجتمع فيه، فدعي أصحابه بالرواقيين. والرواقية فلسفة

أخلاقية، هي محبة الحكمة وممارستها، والحكمة فيها: العلم بالأشياء الإلهية والإنسانية.

وتنقسم إلى العلم الطبيعي والمنطق والأخلاق، والعلم الطبيعي هو العلم بقوانين الكون.

والمنطق هو صورة الطبيعة في العقل، والأخلاق مطابقة السلوك للطبيعة.

وازدهرت الرواقية في القرن الثالث قبل الميلاد، ثم أفلت في القرنين الأول والثاني

الميلاديين، وكان آخر فلاسفتها الامبراطور ماركوس أوريليوس.

(٤) فلسفة رواقية / ژان برن، ترجمة الدكتور أبو القاسم پور حسيني: ٩٢-٩٨.

(٥) تاريخ فلسفة درجهان إسلامي / حنا الفاخوري، خليل الجبر، ترجمة عبدالمحمد آيتي: ٦١

د : برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية) وضرورة وجود الإمام..... ٢٠١

ثالثاً - برهان العناية في الآثار الفلسفية الإسلامية:

العناية في آثار الفارابي:

اهتمَّ الفارابي في آرائه ونظرياته بموضوع الحكمة والعناية اهتماماً منطقيّاً ومنسجماً، ومن بينها نظريته في علم الله وحكمته، وإشارته إلى العناية والهدف من الخلقة.

فهو يؤمن بالنظام الأحسن على أساس العناية الإلهية، وانطلق للتأمل بعمق في هذا المجال. وبما أنه يؤمن بالتلاحم العميق بين السياسة والإلهيات، لذلك لم يبدأ في مطلع كتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة) بالحديث عن علاقة الفرد - ندولة، كما فعل أفلاطون في كتاب (الجمهورية)، وإنما كان كلامه الأول يدور حول الموجود الأول أو (الواحد) الذي تُمثل الحكمة أبرز صفاته.

العناية في آثار ابن سينا:

الحكمة الحقيقية عند ابن سينا تتمثل في حكمة الله، الذي يُعدّ فعله أقوى لأفعال وفي نهاية الإتقان والإحكام. وتحظى هذه الحكمة بالأهمية من جانبين:
١- أعطى الله تعالى الموجودات جميع ما تحتاجه من أجل أن توجد.
٢- وفّر لكل موجود كل ما هو بحاجة إليه، للاستمرار في الوجود والتكامل حتى بلوغ الهدف.

ويعرّف ابن سينا الحكمة بالآتي:

«الحكمة معرفة الوجود الواجب وهو الأول، ولا يعرفه عقل كما يعرف هو ذاته. فالحكيم بالحقيقة هو الأول... فهو بهذا المعنى حكيم وحكمته علمه بذاته، فهو حكيم في علمه، محكم في فعله، فهو الحكيم المطلق. وواجب الوجود أيضاً هو علّة كل موجود، قد أعطى كل موجود كمال وجوده، وهو ما يحتاج إليه في وجوده وبقائه، وزاده أيضاً ما لا يحتاج إليه في هذين. وقد دلّ القرآن الكريم

على هذا المعنى حيث يقول: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(١). فالهداية هي الكمال الذي لا يحتاج إليه في وجوده وبقائه. والخلق هو الكمال الذي يحتاج إليه في وجوده وبقائه. وأيضاً حيث يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾^(٢). فالحكماء يسمّون ما يحتاج إليه الشيء في وجوده وبقائه الكمال الأول، وما لا يحتاج إليه في بقائه هو الكمال الثاني^(٣).

العناية في آثار ملاً صدرا:

العناية عند الفلاسفة المسلمين عبارة عن علم الحق تعالى بذاته، وعلمه بالنظام الأحسن والخير المطلق، وبالحالات الوجودية للأشياء ونظام الخلقة العام، ومبدئيته وخالقيته لصدور فيضان مثل هذا النظام في حدّ قابلية الكائنات.

يقول صدر المتألهين في عبارة موجزة لكنها وافية يلخص فيها انضج الآراء الفلسفية: نظام العالم المعقول الذي يعبر عنه أهل الحكمة بالعناية، هو مصدر النظام الموجود الذي هو في نهاية الخير، والفضيلة بمقدار قابلية عالم الإمكان^(٤).

الحكمة، والعناية، والهداية:

ميّز ملاً صدرا بين الحكمة، والعناية، والهداية، من أجل تبيان النظام الآتـي والأصلح كالآتي:

١- الحكمة هي: «أفضل علم بالمعلومات، وأحكم فعل في المصنوعات وواجب الوجود يعلم من ذاته كل شيء من الأشياء بعلمه وأسبابه، ويفعل النظام

(١) سورة طه: ٥٠/٢٠.

(٢) التعليقات / ابن سينا: ٢١-٢٢.

(٣) التعليقات: ٢١-٢٢.

(٤) الأسفار الأربعة / الملاً صدرا ٣: ١١.

ف ٤: برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية) وضرورة وجود الإمام..... ٢٠٣
لأنّ لغاية حقيقية تلزمه، فهو بهذا المعنى حكيم في علمه، محكم في صنعه
وفعله، فهو الحكيم المطلق».

٢- العناية، وبينها قوله: «إنّ هذا العلم بعينه سبب في وجود الأشياء، وإرادة
إيجادها من غير أن يكون المنظور إليه في الإيجاد شيء سافل و غرض غير
حاصل في ذات الفاعل، فهذا معنى العناية».

٣- الهداية وهي: «ما يسوق الشيء إلى كماله الثاني الذي لا يحتاج إليه في
صل وجوده وبقائه. وقد أعطى سبحانه كل شيء كمال وجوده، وهو ما يحتاج
إليه في وجوده وبقائه، وزاده أيضاً كمالاً ثانياً وهو ما لا يحتاج إليه فيهما، وإليه
الإشارة في القرآن بقوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(١).
فالخلق هو إعطاء الكمال الأول، والهداية هي إفادة الكمال الثاني، وبقوله أيضاً:
﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾^(٢)»^(٣).

ويقول في مقدمته على شرح أصول الكافي:

«الحكيم هو المحكم خلق الأشياء، والإحكام هو إتقان التدبير، وحسن
تصوير والتقدير، والحكيم الذي لا يفعل قبيحاً ولا يخلّ بواجب، والذي يضع
الأشياء مواضعها. وعن ابن عباس، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الحكيم
الذي كمل في حكمه، والعليم الذي كمل في علمه»^(٤).

العناية والحكمة عند هادي السبزواري:

أولى الحكيم الإلهي ملا هادي السبزواري موضوع الحكمة والعناية الإلهيتين
اهتماماً كبيراً، وذلك في كتابه (شرح المنظومة)، مؤكداً على أنه يقتضي

(١) سورة الشعراء: ٧٨/٢٦.

(٢) سورة الشعراء: ٧٨/٢٦.

(٣) الأسفار الأربعة ٦: ٣٦٨-٣٦٩.

(٤) شرح أصول الكافي / صدر المتألهين (ملا صدرا) ١: ٧٠.

الهداية الإلهية، وإيصال كل مخلوق وممكن إلى الغاية من الخلقة:
إذ مقتضى الحكمة والعناية إيصال كل ممكن لغاية
يقول السبزواري في شرح هذا البيت:

«فإذا كانت للطبائع - وهي عديمة الشعور - غايات، فكيف لا تكون لمبادئ عالية، والشعور عين ذاتها ماهية أو وجوداً؟... إذ مقتضى الحكمة الإلهية والعناية الربانية العناية. هي العلم الفعلي بالنظام الأحسن، وقد يطلق على الأحكام والإتقان في الفعل، بحيث يترتب عليه مصالح شتى كما يقولون: عنايته تعالى في خلق الشيء الفلاني كذا، وهي بهذا المعنى من شعب القدرة، كما أنّها بالمعنى الأول من أعلى مراتب العلم. ولما كانت الحكمة أيضاً تطلق على المعنى الثاني. فالعناية هنا بالمعنى الأول إيصال كل ممكن لغاية، وذاتك منافيان مقتضى هاتين. والغاية علة فاعل، أي من حيث هو فاعل بماهيته، ولكن معلولة له بإنيتها، وهذا كما يقال أيضاً: العلة الغائية مقدمة على الفعل ذهنياً مؤخره عنه عينا»^(١).

إذن من وجهة نظر الحكيم السبزواري، أن مقتضى العلم الإلهي بالنظام الأحسن وقدرته في إيجاد الأشياء على أحسن وجه، هو هداية كل ممكن وكل موجود إلى غاية خلقه. وبما أن الغاية النهائية للإنسان هي توحيد الله وعبادته في أعلى مستوى ممكن، فهذا لا يمكن أن يتحقق لعامة الناس إلا في مجتمع العدل الإلهي بقيادة مصلح عالمي. وعليه لا بدّ أن يتحقق بمقتضى الهداية الإلهية مجتمع المهدي الموعود رغم جميع الموانع وشتى ألوان القسر.

(١) شرح المنظومة / هادي السبزواري ٢: ٤٢٠-٤٢١.

المبحث الثاني في بيان دليل البرهان

يمكن بيان برهان العناية بطريقتين، الأول: طريق النظام الأحسن، والثاني: طريق غاية الخلقة.

الطريق الأول برهان العناية وضرورة النظام الأحسن

خصوصيات النظام الأحسن:

قبل تسليط الضوء على النظام الأحسن ومعرفة أركانه وخصوصياته، لابد من الإجابة على سؤال أساسي حول النظام الأحسن وهو: ما هو معيار الأحسن؟

لا شك في أن الإجابة على هذا السؤال تقوم على معرفتنا بمعيار الحسن والجمال. فما هو الشيء الذي يوصف بالحسن؟ وما هو الشيء الذي يوصف بالقبح؟ وحينما يُثار هذا السؤال حول كل نظام الخلق والعالم، ونقول: ما هو الشيء المؤثر تأثيراً أساسياً في حسن هذا العالم؟ وما هو الشيء الذي يظهره بحظيره القبيح؟ تبدو الإجابة على هذا السؤال أكثر ضرورة.

حقيقة الحسن:

الإجابة على السؤال عن ماهية الحسن استقطبت أنظار الفلاسفة منذ الأزمان البعيدة، ودفعتهم لتقديم إجابات مختلفة.

يلاحظ وجود العديد من النقاط المشتركة بين التعاريف المقدمة للحسن من قبل الفلاسفة غير المسلمين، وبين تعاريف الفلاسفة والمفكرين المسلمين.

يعتقد فيثاغورس (نحو / ٥٧٠ - ٤٩٧ ق.م)^(١) أن الحسن يقوم على أساس الإنسجام والتنسيق والنظام. بينما يرى ديمقراطيس (نحو / ٤٦٠ - ٣٦١ ق.م)^(٢) أن الحسن عبارة عن الاعتدال في مقابل التطرف. أمّا أفلاطون (نحو / ٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م)^(٣) - الذي يعتبره مؤرخو الفكر الفلسفي مؤسساً لعلم الحسن والجمال

(١) «فيثاغورس: (Pythagore; Pythagoras (About 570 - 497 BC)»، إغريقي أيوني ولد بساموس، لا يعرف عن حياته أكثر مما كتبه عنه أفلاطون وأرسطو، وقيل: إنه أول من وضع لفظ: (فلسفة: Philosophy).

وبرأيه أن الفلسفة أسلوب في الحياة يهيء للروح الخلاص، وأنها تعني السير على درب الله، ويرى الفيثاغوريون أن الأشياء أعداد، والعدد ليس رقماً عندهم بل هو شكل. فالواحد نقطة، والاثنان خط، والثلاثة مثلث، والأربعة مربع، وهكذا، والكون عندهم كنه أعداد وأرقام، والعدد الكامل عند فيثاغورس هو العدد عشرة. وقد تبني أفلاطون نظريات الفيثاغوريين في خلود الروح والأصل الرياضي للكون.

(٢) «ديموقريطس: (Demokritos; Democrite; Democritus (About 460 - 361 BC) ..

يوناني ولد في ابديرا واشتهر بأنه الفيلسوف الضاحك Laughing Philosopher. قيل عنه: إنه كان غزير الانتاج حتى بلغت كتبه نحو من ستين كتاباً تناولت كل العارء والفنون في النحو والفلك والطبيعة والحواس والألوان والفواكه والحيوان والأخلاق وغيرها، ولم يبق من كتبه إلا شذرات، وهو صاحب النظرية الذرية التي تقول: إن الوجود يحفل بوحدات متجانسة غير محسوسة متناهية الدقة هي الذرات!

وكان لنظريته تلك أثر كبير في تكوين نظرية الجزء الذي لا يتجزأ عند المتكلمين.

(٣) تقدّمت ترجمته ص: ١٩٥.

ف ٤ : برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية) وضرورة وجود الإمام.....٢٠٧
والفلسفة الجمالية - فيقول بأن الحسن حقيقة عقلانية ومثالية .

لذلك يزداد كل ما هو موجود في عالم الطبيعة جمالاً، كلما كان أقرب إلى
نظام العالم المثالي والعقلاني^(١).

كان البحث عن الجمال ومعياره على رأس المسائل الفلسفية في عصر
الأفلاطونيين الجدد، لا سيما عند أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠م)^(٢) مؤسس
الأفلاطونية الحديثة. فقد جعل في كتابه (التاسوعات) هذا البحث محورياً لبحوثه
الفلسفية الأخرى، وقال: بما أن كثرة العالم تدور حول محور واحد، فهي جميلة
جميعاً.

ويعرّف لايبنتس (١٦٤٦ - ١٧١٦م)^(٣) الجمال بأنه مبدأ الإنسجام الأجل
والأسمى، وقد خلق الله العالم على هذا الأساس.

أمّا في الفكر الإسلامي، فالحسن في نظام الخلقة، هو ذلك الشيء الذي يتمتع
بالوجود، ويحمل كل شيء معه لوناً من الجمال من خلال الموضوع الذي

(١) تاريخ الفلسفة / فردريك كاپلستون، ترجمة جلال الدين مجتبوي ١: ٢٩٢ و ٢٩٣.

(٢) تقدّمت ترجمته ص: ١٩٦.

(٣) «لايبنتس جوتفريد وليام: (1646 - 1716 AD) Gottfried Wilhelm Leibniz»، ولد بلا

بيتسج بألمانيا، حصل على الدكتوراه في القانون من جامعة التدروف، وتأثر فيما بعد في
الفلسفة وتعمق بدراساتها، فارتحل إلى باريس ولندن وامستوردام وجنيف وإيطاليا،
والتقى هناك بمالبرانش، وانطوان ارنولد، واسبينوزا، وغيرهم. وكانت كتاباته بالفرنسية
واللاتينية، إذ لم تكن اللغة الألمانية في زمانه لغة الفكر. أهم كتبه:

«مقال في الميتافيزيقيا: Discours de metaphysique».

و«محاولات جديدة في الفهم الإنساني: Sur l'etendement humain Nouveaux essais».

و«محاولات في العدالة الإلهية. تتناول خيرية الله، وحرية الإنسان، وأصل الشر:

«Essais de Theodicee sur La bonte de Dieu, La Liberte de l'homme et l'origine du mal».

و«علم الجواهر الروحية (المونادولوجيا): Monadologie».

يشغله طبقاً لمبدأ النظام الكوني القائم على العدل. فكل شيء يظهر في مهد الوجود، يُعدّ جميلاً، ويعبّر عنه بعض الحكماء بالخير أو الكمال الأصيل. وبما أنّ واجب الوجود كمال مطلق وخير بلا مانع، وبما أنّ الموجودات الإمكانية تتميز بنوع من الكمال النسبي، لذلك يكمن ما لديها من جمال وحسن في الاتصال بالحقيقة المطلقة والكمال المطلق، وعليه فالحسن الحقيقي هو فعل الله وصفته. ففعل الله عين الجمال.

تعتقد المعتزلة - على غرار الشيعة الإمامية - بأنّ أفعال الله تعالى تقوم على أساس الحسن في الصنع، وأنّه تعالى منزّه عن ارتكاب أي فعل قبيح، على العكس من الأشاعرة الذين يعتبرون الفعل الإلهي نفسه معياراً للجمال ويقولون: لا إشكال في صدور الفعل القبيح وترك الفعل الضروري واللازم عن الله!!
يمكن أن يكون الحسن أشبه بالدار التي تُسوّت كي تُسكن. فهذه الدار مهما كانت مواصفاتها، سواء كانت كبيرة أم صغيرة، فخمة أم متواضعة، فقد سيّدها مهندس أخذ في بناء جميع أجزائها، حاجات صاحب الدار بنظر الإعتبار، ويمكن أن يكون الحسن أيضاً أشبه بالمصنع الذي وضع المهندسون تصميمه على أساس الإنسجام مع الهدف الذي يراد منه والبضاعة التي سينتجها. فلو لوحظ في تشييد الدار أو المصنع جميع الإعتبارات والضروريات، والمتطلبات، كان ذلك المبنى كاملاً وتاماً.

الحيرة أمام جمال العالم:

على هذا القياس أيضاً، حينما نلقي نظرة على الفعل الإلهي نلاحظ فيه هذه المعمارية المدهشة التي تسلب اللب، والتي يطأطئ الأخصائيون والمعماريون والعلماء جميعاً رؤوسهم أمامها تعظيماً لصانعها، وإندهاشاً أمام ما في هذه الطبيعة من غرائب وعجائب.

ف : برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية) وضرورة وجود الإمام..... ٢٠٩

يقول الشاعر الإيراني صائب التبريزي ما ترجمته إلى العربية:

إفتح العين وأغلق الشفة لمشاهدة الصنع الإلهي

فروية خط الأستاذ أفضل من قراءته .

ويقول الفلكي الفرنسي اندريه جيري:

الفلكيون والفيزيائيون الأخصائيون في علم الفلك، هم علماء متعمقون عموماً، ويقفون دائماً في قبال آفاق السماء المذهلة والمحيرة. لذلك تتسم رواحهم بالسكينة والوقار وسعة النظر دائماً. وعليه لديهم أفكار قوية لا سيما في القضايا القيمة المهمة. ويحظى تصديقهم بوجود الله بأهمية قصوى، وهو تصديق إذا لم نقل إنه يصدر عن الأغلبية العظمى، فإنه يصدر على الأقل عن عدد كبير من الفلكيين^(١).

حينما يعرب عن مثل هذا الرأي فريق من أخصائيي وعلماء العلوم الطبيعية، ويتحدّثون عن تعقيدات أنظمة الخلق، فلا شك في أنّ الحيرة ستزداد والدهشة ستكون أعظم حينما يدور البحث والتحقيق حول وجود الإنسان.

المفكر والكاتب الغربي الكسيس كارل، يعتبر الإنسان موجوداً مجهولاً.

ويقول الفيلسوف الإسلامي ابن سينا رداً على رسالة العارف أبي سعيد

أبي الخير الذي سأله أن يعرف الإنسان: لو استطاع!

صفوة القول: إنّ نظام الخلقة، متقن ومحكم، ويؤلف أجمل وأعظم عالم

ممكن. كما تكشف جميع هذه المسارات والتحركات نحو الجمال والكمال عن

هدفية هذا العالم الذي يقع الإنسان في مركزه حيث يسير هو الآخر نحو الهدف

الغائي للخلقة.

مثل هذا العالم الذي يحمل في أعماقه جميع أسباب ولوازم التطور

(١) نجوم كنوني ومعرفت كردگار / أندره زيره، ترجمة ذبيح الله دبیر: ١٣٠.

والتكامل ، وتنطلق فيه الموجودات جميعاً في إنسجام كامل نحو غايتها وهدفها ، ليس بوسعها أن يكون سوى نظام أحسن وأتم .

وأجمع الفلاسفة والحكماء والإلهيون على هذه الحقيقة ، وأقام المفكرون طيلة تاريخ الفكر البشري شتى البراهين على إثباتها وأهم الأصول التي تقوم عليها هذه البراهين :

١- علم الله تعالى غير محدود .

٢- قدرته عزّ شأنه غير متناهية .

٣- فيض الحق تعالى ورحمته وجُوده يشمل جميع الكائنات .

٤- التّرجيح بلا مرجّح قبيح عند العقل .

٥- نظام العالم بمجموعه له نوع من الوحدة والكلية .

الحكيم المتألّه صدر المتألّهين ملاً صدرا الشيرازي عالج هذه المسألة في مواضع متعددة من كتابه المعروف (الأسفار الأربعة) كقوله: «لا شبهة لأحد من أهل التحقيق - حسبما يجيء شرحه - في أن نظام العالم على هذا الوجه أشرف الأنظمة الممكنة وأكملها وأفضلها بحيث لا يتصور فوقه نظام آخر ، وهذا ثابت محقق عند الكل ، والحكيم والمتكلم متفقان فيه سواء في ذلك القائل بالقضاء الأزلي أو القائل بالاختيار التجديدي والقصد الزائد ، فإنّ لمن يقول بالاختيار أن يقول: لا يمكن أن يوجد العالم أحسن مما هو عليه ، لأنّه لو أمكن ذلك ولم يعلم الصانع المختار أنّه يمكن إيجاد ما هو بأحسن منه فيتناهى علمه المحيط بالكلّيات والجزئيات ، وإن علّم ولم يفعل مع القدرة عليه فهو يناقض جُوده الشامل لجميع الموجودات .

وهذا مما ذكره الغزالي (ت / ٥٠٥ هـ)^(١) في بعض كتبه ونقله عنه الشيخ

(١) الغزالي ، أبو حامد محمد بن أحمد (ت / ٥٠٥ هـ - ١١١١ م) الموصوف بحجة الإسلام .

٢١١ برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية) وضرورة وجود الإمام.....

محيي الدين ابن عربي (ت / ٦٣٨ هـ)^(١) في الفتوحات المكية واستحسنه، وهو كلام برهاني، فإنّ الباري - جلّ شأنه - غير متناهي القوة تام الجود والفيض، وكل ما لا يكون له مادة ولا يحتاج إلى استعداد خاص وليس له مضاد ممانع فهو مجرد، وإمكانه الذاتي فائض منه (تعالى) على وجه الإبداع، ومجموع نظام له مهية واحدة كلية وصورة نوعية وحدانية بلا مادة، وكل ما لا مادة له نوعه منحصر في شخصه، وإنّ ذاته ليست مرهونة باستعداد محدود أو زمان موقوت، فهو مبدع لا محالة، ولا يمكن وجود نظام أفضل من هذا النظام نوعاً

→ والإمام. أشعري النشأة، ولد بقرية طوس في خراسان بفارس، وقبره لا يزال قائماً هناك، درس على إمام الحرمين الجويني في نيسابور، واستدعاه الوزير نظام الملك إلى بغداد وعهد إليه تدريس الفقه، له كتب ورسائل عديدة، أشهر مصنفاته (أحياء علوم الدين) سلك فيه على طريقة التصوف، وانتقل في أواخر حياته من المذهب الأشعري إلى المذهب الإمامي، كما يظهر ذلك بوضوح في رسالته الشهيرة (سر العالمين) وذلك في مقاله الرابعة التي وضعها لتحقيق أمر الخلافة.

(١) محيي الدين بن عربي الشيخ الأكبر (ت / ٦٣٨ هـ - ١٢٤٠ هـ) ولد بمرسية الأندلس ونشأ في أشبيلية، ودرس الفلسفة والتصوف، وارتحل إلى الشرق، واستقر بدمشق وانقطع إلى الزهد فيها إلى أن توفي بها.

وصفه نيكلسون بأنه عبقرى الإسلام في الأندلس بدراساته الجريئة في الإلهيات، وأنه عبّد السبيل أمام اللاهوت المسيحي لكي يقتدى به، وأثر في النهضة الأوربية، وبعث الأدب الأوربي، تتلمذ دانتى على يديه وأخذ عنه المنهج والأسلوب، وقال عنه آسين بلاثيوس إنه الأستاذ الحقيقي للنهضة الصوفية في أوروبا.

وقلّما نجد في تاريخ الفكر العربي والإسلامي من يضاهيه في غزارة الانتاج، صرح الشعراني في اليواقيت والجواهر بأن له أربعمئة كتاب، بينما أوصلها عبد الرحمن الجامي في نفحات الأنس إلى خمسمئة كتاب ورسالة.

أشهر مؤلفاته (الفتوحات المكية) و (فصوص الحكم)، وقد اعترف في الفتوحات بولادة الإمام المهدي (عج) وحدد هويته وقال بعصمته كما سيأتي - إن شاء الله تعالى - مفصلاً في محله من هذه الموسوعة.

ولا شخصاً»^(١).

وينبغي نقل جزء من كلام الغزالي في هذا الشأن، والذي استند إليه صدر المتألهين وأيده الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي.

يقول الغزالي: «لا ريب أن الله عزّ وجلّ لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلاً، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور، وأطلعهم على أسرار الملكوت، وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضرر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزداد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة، ولا أن ينقص منها جناح بعوضة، ولا أن يرفع منها ذرة، ولا أن يخفض منها ذرة، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضرر عن بلي به، ولا أن يزيل صحة أو كمال أو غنى أو نفع عن أنعم الله به عليه، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض - إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر - ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية، فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وبالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل، ولو كان - وادخره مع القدرة - ولم يتفضل بفعله لكان بخلاً يناقض الجود، وظلماً يناقض العدل، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الألوهية، بل كل فقر وضرر في الدنيا، فهو نقصان من الدنيا وزيادة في

(١) الأسفار الأربعة / صدر المتألهين الشيرازي ٧: ٩١.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

هذه الحقيقة، لم تحظ بتصديق وإعتراف كبار علماء الإسلام من محدثين وحكماء وعرفاء فحسب، وإنما يعترف بها علماء الغرب أيضاً. كما ينظر الحكماء والمتكلمون المسيحيون إلى الولي كمبدأ رصين على أساس منطقهم الفكري. وقد وجدتُ استقبالا لهذا البحث لدى معظم الفلاسفة والمتكلمين المسيحيين. خلال طرحه عليهم في محاوراتي العلمية معهم^(٢).

انبرى صدر المتألهين الشيرازي في مواضع عديدة من آثاره إلى التحقيق في الصنع المتقن والنظام الأحسن، فعُدَّ الوحي والنبوة من أركان ذلك النظام، ثم انطلق من خلال ذلك لتناول مبحث الإمامة جاعلاً وجود الإمام من ألمع أوراق كتاب الخلقة والتكوين:

إنَّ وليَّ الله بين عالم الغيب والشهود. أي: أنه بين الملك والملكوت، فيأخذ نور الهداية من عالم الملكوت وعالم الغيب ويضعه بين يدي عالم الملك والبشرية فيوصل إلى المطلوب بإذن الله، ولذا ورد في القرآن الكريم:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا...﴾^(٣).

دور الامامة في هداية الإنسان من منظار القرآن الكريم والروايات:

اعتبر القرآن الكريم النبوة والولاية مفتاحاً لسرِّ الخلقة:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ

(١) سورة الذاريات: ٥٦/٥١.

(٢) سيتضح هذا الأمر للقارئ الكريم - إن شاء الله تعالى - خلال مطالعته لمحاوراتي في فلاسفة الغرب في الجزء الثاني من هذه الموسوعة.

(٣) سورة السجدة: ٢٤/٣٢.

٢٣١ برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية) وضرورة وجود الإمام..... ٢٣١
مُضًا وَجَعَلْنَاَهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾.

بعث الله تعالى الأنبياء إلى الناس الواحد تلو الآخر، للحفاظ على مدرسة المعرفة التي تمثل الحاجة الأساسية للإنسان على مدى العصور التاريخية. وكان لأوصياء يحملون على عاتقهم وظائف الرسل خلال الفترة الكائنة بين بعثة نبي نبي آخر. كما يحمل القرآن والعترة هذه المهمة أيضاً بعد خاتم الأنبياء محمد ﷺ الذي هو قطب النبوة والأنبياء، من أجل ألا تنطفئ شعلة الهداية، ولا تغرق البشرية في ظلام مطلق. ويمكن ملاحظة هذا المعنى في الآية القرآنية الثانية التي تخاطب الرسول محمد ﷺ قائلة:

﴿... إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٢).

يقول أبو إسحاق الثعلبي في تفسير هذه الآية:

«روى عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما برئت هذه الآية، وضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده على صدره فقال: أنا المنذر وأوما بيده إلى منكب علي عليه السلام، فقال: فأنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي» (٣).

(١) سورة المؤمنون: ٤٤/٢٣.

(٢) سورة الرعد: ٧/ ١٣.

(٣) الكشف والبيان / أبو إسحاق الثعلبي ٥: ٢٧٢.

وحدِيث سعيد بن جبير، عن ابن عباس رُوي في مصادر أخرى لدى الفريقين.
انظر: جامع البيان / الطبري العامي المفسر ١٣: ١٤٢، ومعرفة الصحابة / أبو نعيم الإصبهاني ١: ٣٦٩ / ٣٢٧، ومعجم الشيوخ / ابن الأعرابي ٥: ٢٧٥ / ٢٢٦٧، والأحاديث المختارة / الضياء المقدسي ٤: ١٣٥ / ١٥٨، والضياء المقدسي يعد من جملة من التزم بتخريج الأحاديث الصحيحة في كتابه المذكور كما صرح بذلك السيوطي في تدريب الراوي ١:

→ ١١٥، وتفسير ابن أبي حاتم الرازي ٨: ٥٠٠ / ١٣٠٠٢، والتفسير الكبير / الفخر الرازي ٩: ١٤٧، والبحر المحيط / أبو حيان التوحيدي ٧: ٨٦، ومختصر تاريخ دمشق / ابن منظور ٥: ٤٠٨، وشواهد التنزيل ١: ٣٨١ - ٣٨٥ / ٣٩٨ و ٣٩٩ و ٤٠٠ و ٤٠١ و ٤٠٢ و ٤٠٣ من ستة طرق، وتاريخ مدينة دمشق / ابن عساكر ٤٢: ٣٥٩ في ترجمة أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام برقم (٤٩٣٣)، وفرائد السمطين / الجويني الشافعي ١: ١٤٨ / ١٢٣ باب (٢٨)، ونظم درر السمطين / الزرندي الحنفي: ٩٠، وتفسير ابن كثير ٢: ٥٢٠، وفي الدر المنثور للسيوطي ٤: ٤٥، وفتح القدير للشوكاني ٣: ٧٠: «وأخرجه ابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، والديلمي، وابن عساكر، وابن النجار، عن ابن عباس»، وفيهما - بالجزء والصفحة المذكورين - : «وأخرجه ابن مردويه والضياء في المختارة، عن ابن عباس». ووصف ابن حجر في فتح الباري ٨: ٢٨٥ سند حديث ابن عباس برواية سعيد بن جبير بأنه سند حسن.

وقد ورد الحديث أيضاً في شرح الأخبار / القاضي النعمان ٢: ٢٧١ - ٢٧٢ / ٥٨٠، و ٢: ٣٥٠ / ٧٠١، والتبيان / الشيخ الطوسي ٦: ٢٢٣ نقله من تفسير الطبري، ومناقب آل أبي طالب ابن شهر آشوب ٢: ٢٨٠ - ٢٨١ نقله عن أبي نعيم الإصبهاني في الحلية، والديلمي في فردوس الأخبار، والثعلبي في تفسيره كشف البيان، والفضائل / شاذان بن جبريل القمي: ١٢٣، والطرائف / السيد ابن طاوس: ٧٩ / ١٠٧ عن الثعلبي في تفسيره الكشف والبيان. ونهج الإيمان / ابن جبر: ١٨٣ نقله من كتاب نخب المناقب لآل أبي طالب لجده أبي عبد الله الحسين بن جبر، و: ١٨٥ نقله من تفسير الثعلبي الكشف والبيان، وبناء المقالة الفاطمية السيد جمال الدين أبي الفضائل أحمد بن موسى بن طاوس الحسني: ١٤٥، ونهج الحق وكشف الصدق / العلامة الحلبي: ١٨٠ (الآية العاشرة في تعيين إمامة أمير المؤمنين الإمام علي صلوات الله وسلامه عليه) نقله عن الجمهور، و: ٣٩٥ نقله عن تفسير الثعلبي، وكشف اليقين / له أيضاً: ٣٥٧ - ٣٥٩، ومنهاج الكرامة / له أيضاً: ١٢٦، وكشف الغمة / الإربلي ١: ٣١٩ و ٣٢١، وبشارة المصطفى: ٣٧٧ / ١٧، وألقاب الرسول ﷺ وعترته عليهم السلام / بعض محدثي أصحابنا: ٢٩ - ٣٠، وفي بعض مصادر الشيعة الإمامية نسب الحديث إلى ابن عباس رأساً والظاهر أنه من رواية سعيد بن جبير، وخصائص الوحي المبين / ابن بطريق الحلبي ١٣٩ / ٧٩ و ٨٠ نقله عن أبي نعيم من طريقين، وفي: ١٤٠ / ٨١ عن فردوس الأخبار. كما رواه أبو صالح، عن عبد الله بن عباس، عن رسول الله ﷺ كما في تفسير الحبري: ٢٨١ وسنده صحيح، وشواهد التنزيل / الحاكم الحسكاني الحنفي ١: ٣٨٦ / ٤٠٤.

ف؛ : برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية) وضرورة وجود الإمام..... ٢٣٣

ويقول الفخر الرازي في تفسير الآية المذكورة:

«واعلم أنّ أهل الظاهر من المفسرين ذكرواها هنا أقوالاً:

الأول: المنذر والهادي شيء واحد. والتقدير: إنّما أنت منذر ولكل قوم منذر

عنى حدة، ومعجزة كل واحد منهم غير معجزة الآخر.

الثاني: المنذر محمد ﷺ والهادي هو الله تعالى، روي ذلك عن ابن عباس

رضي الله عنهما، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك.

وقد تقدّم آنفاً في الصحيح عن ابن عباس برواية سعيد بن جبير أنّ الهادي هو

عني ﷺ، ولهذا عدّه الرازي نفسه من أصحاب القول الثالث الآتي.

وأما عن مجاهد والضحاك فهما من القائلين بأنّ الهادي عليّ ﷺ.

والثالث: المنذر النبي، والهادي علي. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وضع

رسول الله ﷺ يده على صدره، فقال: أنا المنذر. ثمّ أوماً إلى منكب عليّ ﷺ

وقال: أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي»^(١).

وفي شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني بإسناده عن إبراهيم بن الحكم بن

ظهير، عن أبيه، عن الحكم بن جبير، عن أبي برزة الأسلمي، قال: «دعا

رسول الله صلى الله عليه وآله بالطهور وعنده عليّ أبي طالب، فأخذ رسول الله

صلى الله عليه وآله بيد علي بعد ما تطهر فألصقها بصدره، ثم قال: إنّما أنت منذر،

ويعني نفسه، ثمّ ردّها إلى صدر علي، ثمّ قال: ولكل قوم هاد، ثم قال له: أنت منار

الأنام، وغاية الهدى، وأمير القراء، أشهد على ذلك أنك كذلك»^(٢).

(١) التفسير الكبير / الفخر الرازي ١٩ و ٢٠: ١٤.

(٢) شواهد التنزيل / الحاكم الحسكاني الحنفي ١: ٣٩٢-٣٩٣/ ٤١٤. ورواه أبو داود السبيعي،

وورد في أصول الكافي لثقة الإسلام الكليني: عن أبي بصير، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾؟ فقال: رسول الله صَلَّى الله عليه وآله المنذر وعلي الهادي، يا أبا محمد فهل من هادٍ اليوم؟ قلت: بلى جعلت فداك، ما زال فيكم هادٍ من بعد هادٍ حتى دُفعت إليك. فقال: رحمك الله يا أبا محمد. ولو كانت إذا نزلت آية على رجل ثم مات ذلك الرجل ماتت الآية؛ مات الكتاب، ولكنه حيٌّ جرى فيمن بقي كما جرى فيما مضى»^(١).

(بيان / ١)

قوله عليه السلام: «ولو كانت إذا نزلت آية على رجل ثم مات ذلك الرجل ماتت الآية؛ مات الكتاب، ولكنه حيٌّ..». على هيئة قياس منطقي استثنائي ينتج من رفع تاليه (موت الكتاب) رفع المقدم (موت الآية)، وقوله عليه السلام: (ولكنه حيٌّ) رفع للتالي.

→ عن أبي برزة الأسلمي مرفوعاً، كما في شواهد التنزيل: ٤٨٦ / ٤٠٥، و ٤٨٧ / ٤٠٧؛ و ٤٨٨ / ٤٠٨ من ثلاثة طرق، وكتاب تأويل ما نزل من القرآن في النبي صلى الله عليه وآله / أبو عبد محمد بن العباس بن علي بن مروان المعروف بالحجّام. نقله عنه السيد ابن طاوس في سعد السعود: ٩٩ - ١٠٠، وأخرجه ابن مردويه، عن أبي برزة بتصريح السيوطي في الدر المنثور ٤: ٤٥، والشوكاني في فتح القدير ٣: ٧٠، ومناقب آل أبي طالب ابن شهر آشوب ٢: ٢٨٠ نقله عن الحسكاني في شواهد التنزيل والمرزباني فيما نزل من القرآن في أمير المؤمنين علي عليه السلام، ونهج الإيمان / ابن جبر: ١٨٤، ومجمع البيان / الطبرسي ٦: ١٥.

(١) أصول الكافي ١: ١٩٢ / ٣ باب إن الأئمة عليهم السلام هم الهداة من كتاب الحجّة. ورواه الصفار في بصائر الدرجات: ٥١ / ٩ باب (١٣)، والقمي في تفسيره ١: ٣٥٩ وسه صحيح.

٢٣٥ : برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية) وضرورة وجود الإمام ٢٣٥
وجملة (ولو كانت) شرطية، وشرطها (إذا نزلت)، وجزاء شرطها (ماتت
آية)، وجملة (مات الكتاب) جزاء الشرط في (ولو كانت).

والحاصل إنه لو لم يكن بعد النبي ﷺ من هو عالم بآيات الكتاب المجيد
كسها، وكاشف لمراد الله عز وجل منها، لبطل حكمها ورُفِع التكليف بها؛ لقبح
تكليف الغافل والجاهل مع عدم القدرة على العلم، وبطلان التالي ظاهرٌ بضرورة
تعقل والشرع والإجماع.

وقد روى الفريقان عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام قوله: «سلوني قبل أن
تغدوني، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة لو سألتموني عن آية، في ليل نزلت، أو
في نهار أنزلت، مكيها ومدنيها، سفريها وحضريها، ناسخها ومنسوخها، محكمها
ومتشابها، وتأويلها وتنزيلها؛ لأخبرتكم به»^(١).

وهناك الكثير من الأحاديث الصحيحة الصريحة بعلم أهل البيت عليهم السلام
جميع ما في كتاب الله عز وجل، حتى قال الإمام الصادق عليه السلام في الخبر الصحيح
عنه:

«اعلم ذلك كما أنظر إلي كفي»^(٢).

ويكفي في هذا ما تواتر عن رسول الله ﷺ من طرق الفريقين في أهل
بيته عليهم السلام، كحديث الثقلين الشريف الذي أفصح عن دورهم العظيم في هداية
متمسك بهم، وكشف عن علاقتهم مع الكتاب العزيز، حتى عدّهم والكتاب

(١) الطبقات الكبرى / ابن سعد ٢: ٣٣٨، والجامع لأحكام القرآن / القرطبي المالكي ١: ٣٥،
ورواه من الإمامية الشيخ الصدوق في كتاب التوحيد: ٣٠٥، والشيخ المفيد في
الاختصاص: ٢٣٦.

(٢) أصول الكافي ١: ٦١ / ٨ باب الرد إلى الكتاب والسنة من كتاب فضل العلم.

قرنين لا يفترقان عمر الدنيا حتى يردا على النبي ﷺ الحوض يوم القيامة ، كما أكد على سعة علمهم وآفاقه الشاسعة بقوله ﷺ: «ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم» وقد صرح علماء أهل السنة بدلالة الحديث على عدم خلو الأرض من أهل البيت ﷺ^(١).

وكما كان عليٌّ ﷺ هادياً للناس طوال حياته ، كان ولده ﷺ كذلك من بعده . وعدم خلو الأرض منهم يلزم أن يكون مهديهم ﷺ المصداق الأوحى - في هذا الزمان - لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ .

جدير بالذكر أن حديث النبي الأعظم ﷺ «أنا المنذر ، وعلي الهادي» المفسر للآية الشريفة من قوله تعالى من سورة الرعد المباركة: ١٣ / ٧: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(٢) ، ورد من طرق كثيرة عند محدثي الفريقين وبألفاظ متقاربة ، ولم نذكر إلا اليسير منها ، وفي كثير من طرقنا الصحيحة التصريح بكون الأئمة ﷺ من ولد أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ هم الهداة بعده .

وقد وجدنا الحديث - بحسب الاستقراء والتتبع الحثيث - قد ورد على لسان سبعة من أئمة أهل البيت ﷺ ، وفيهم ثلاثة من الصحابة ، كما رواه عشرة من الصحابة الآخرين ، فيكون مجموع رواته من الصحابة من أهل البيت ﷺ

(١) بحثنا حديث الثقلين - بفضلته تعالى - في مجلدين في هذه الموسوعة (بشارة الأمان بموعد الأديان) ، خصصنا أحدهما لبحث الحديث بلفظ: «كتاب الله ، وسنتي» ، وبيّنت قيمته العلمية بدراسة مستوعبة لجميع طرقه وألفاظه .

والجزء الآخر خصصناه للفظ: «كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي» من طرق الفريقين ، وفيه كلام علماء أهل السنة حول صحته وتواتره ودلالته .

(٢) سورة الرعد: ١٣ / ٧ .

٢٣٧ برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية) وضرورة وجود الإمام ٢٣٧
وغيرهم ثلاثة عشر صحابياً، كما اختاره بعض التابعين وغيرهم ممن يعتدّ بقولهم
في تفسير الكتاب العزيز، وقد فصلنا ذلك بما لا مزيد عليه في الجزء الخاص
باحتماية وجود الإمام المهدي عليه السلام في هذه الموسوعة، ولا بأس هنا بإعطاء صورة
مختصرة لمن ورد الحديث عنه كالآتي:

١- أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: ورد عنه عليه السلام أكثر من حديث واحد بألفاظ
متنافية في هذا المعنى، رويت بطرق عدّة انتهت إلى ثمانية من الرواة عنه عليه السلام،
وهم: ولده الإمام الحسين السبط عليه السلام، وأبو ذر الغفاري، والأصمغ بن نباتة،
وسلمان الفارسي، وسليم بن قيس الهلالي، وزاذان، وعباد بن عبد الله،
وعبد خير.

٢- الإمام الحسن السبط عليه السلام: روى حديثه ولده الحسن المحض، عنه، عن
رسول الله صلى الله عليه وآله.

٣- الإمام الحسين السبط عليه السلام: وحديثه حديث أبيه سلام الله عليهما، وهو
من طريق أهل البيت عليهم السلام، رواه مسعدة بن صدقة، عن الإمام الصادق، عن آبائه،
عن أمير المؤمنين عليه السلام.

٤- الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: وحديثه هو حديث أبيه الإمام
سبط عليه السلام الذي رواه مسعدة بن صدقة كما تقدّمت الإشارة إليه آنفاً.

٥- الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام: له عدّة أحاديث في هذا
المعنى انتهت إلى اثني عشر رجلاً، وهم: ولده الإمام الصادق عليه السلام، وأبو بصير،
وأبو الجارود، وأبو حمزة الثمالي، وبريد العجلي، وجابر الجعفي، وحمران بن
عقن، وسدير الصيرفي، وعبد الله بن عطاء، وعبد الرحيم القصير، والفضل بن

يحيى، ونجم .

٦- الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: له عدّة أحاديث في هذا

المعنى انتهت إلى سبعة نفر، وهم:

أبو بصير، وسليمان الديلمي، وعبد الله بن عطاء، وعبد الله بن سنان.

والفضيل بن يسار، ومحمد بن مسلم، ومسعدة بن صدقة.

٧- الإمام المهدي الحجة ابن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: ورد الحديث

الشريف ضمن دعاء الندبة المروي عن الإمام الحجة عليه السلام.

وأما رواة الحديث من الصحابة - من غير أهل البيت عليهم السلام - عن

رسول الله صلى الله عليه وآله، فهم:

٨- أبو برزة الأسلمي: روى حديثه اثنان، عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهما:

حكيم بن جبير، وأبو داود السبيعي.

٩- أبو ذر الغفاري: روى الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام.

١٠- أبو هريرة: روى حديثه اثنان، عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وهما: أبو مريم.

وسعيد بن المسيب.

١١- جابر بن عبد الله الأنصاري: أخرج حديثه ابن مردويه كما في الصراط

المستقيم.

١٢- سلمان الفارسي: روى الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام، وقد اشترط

معه في روايته أبو ذر الغفاري رضي الله تعالى عنهما.

١٣- عبد الله بن عباس: روى حديثه اثنان، عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهما:

أبو صالح، وسعيد بن جبير.

٢٣٩ برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية) وضرورة وجود الإمام.....

١٤- عبد الله بن عمر: روى حديثه أبو خيثمة، عنه، عن رسول الله ﷺ.

١٥- عبد الله بن مسعود: ورد الحديث المفسر للآية الشريفة في مصحف

بن مسعود.

١٦- قيس بن سعد بن عبادة: روى حديثه سليم بن قيس الهلالي في

كتابه.

١٧- يعلى بن مرة: أخرج حديثه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل.

هذا ما وقفنا عليه من رواة الحديث من أهل البيت ﷺ وصحابة

رسول الله ﷺ في كتب الفريقين، وهو ما اختاره بعض أعلام التابعين والعلماء

مستقدمين، وهم: أبو صالح، والزرقاء الكوفية وهي سودة بنت عمارة بن

أسك الهمدانية اليمانية، والزجاج، والضحاك، وقتادة، ومجاهد، ويحيى

بن رافع، وعلي بن أحمد الواحدي المفسر، والطبري المفسر العامي

مشهور.

هذا.. وللسيد الحميري بيتان أخذهما من تفسير النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(١) يقول فيهما:

هما أخوان: ذا هادٍ إلى ذا وذا فسينا لأمته نذيرٌ

فأحمدُ منذرٌ وأخوه هادٍ دليلٌ لا يضلُّ ولا يجورُ

جدير بالذكر أن مجموع قوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ هو (٢٤٢)،

ومجموع (علي وولده بعده) هو (٢٤٢) أيضاً، ومن البعيد أن يكون هذا من عفوية

الاتفاق المحض .

خصوصيات الإمام وضرورة تعيينه من قبل الله:

يتمتع الإمام بمقام اليقين ، إذ تتاح مشاهدة الملكوت من ذروة الإمامة:
﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ
الْمُوقِنِينَ﴾^(١).

فالإمام مهدي بإرادته تعالى ، لأنه إذا كان بحاجة إلى هداية غيره من أفراد
جنسه ، فليس باستطاعته أن يكون إماماً:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ
الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾^(٢).

والإمام محور الهداية وحامل لوائها ، ولا يستعين في مهمة الهداية إلا بالله
تعالى والوحي الإلهي ، وإلا كان بحاجة إلى إمام أيضاً.

والإمام يتمتع بمقام العصمة ، لأن الإمام غير المعصوم بحاجة إلى إمام آخر
كي يرشده ويهديه ، ويمنعه عن الوقوع في الخطأ.

نستنتج مما سبق أن الإمام ينبغي أن يُعيّن من قبل الله تعالى ، لانتفاء المعجزة
بعد الأنبياء. وإلا ينجم عن إنكار ضرورة نصب الإمام المعصوم من قبل الله تعالى
وحضوره بين الكائنات والمجتمعات البشرية ، توالي العديد من المفسد.
أهمها:

١- جهل الله تعالى بهذه الحاجة المهمة لدى المجتمعات البشرية.

(١) سورة الأنعام: ٧٥/٦.

(٢) سورة الأنبياء: ٧٣/٢١.

٢٤١ : برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية) وضرورة وجود الإمام.....

٢- عدم قدرته على الخلق.

٣- بخله في تعيين إمام للناس، وهداية هؤلاء الناس نحو السعادة.

وقد ثبت بالضرورة العقلية استحالة هذه التوالي الثلاثة.

الاستنتاج النهائي:

الاستنتاج الذي يمكن الخروج به من هذا البحث هو أنّ وجود ولي الله، أمر ضروري في كل العصور^(١)، لأنّ الإمام المعصوم جزء من النظام الأحسن، ولا يمكن أن يصل الخلق والوجود إلى الكمال من دون وجوده. كما لا يتحقق بدونه تناسب مع الفيض الإلهي اللا محدود واللامتناهي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يمكن للحاجة العلمية والتربوية أن تُلبّى، ولا تستطيع الإنسانية أن تتألّق بها النهائي وغايتها وتكاملها من دون وجود الإمام.

إذن تستدعي إفاضة الفيض في قوس النزول وإرتقاء الإنسان في قوس تعود، وجود الإنسان الكامل وحجة الله في كل عصر وزمان.

المحققون والمفكرون المسلمون - شيعة وسنة - يعتقدون أن القرآن والوحي الإلهي بحاجة إلى حافظ وقيّم ومفسّر ومبيّن.

والإمام هو الذي ينهض بمهمة الحفاظ على الوحي الإلهي، ويحول دون جأد التحريف فيه، ويفسّره للبشرية بمقدار ما لديها من قابلية واستعداد. فالإمام

هذه النتيجة العقلية المبتنية على مقدمات فلسفية ثابتة، قد أيدها الشرع الحنيف بكلّ قوّة، وهو ما أفردنا له في (بشارة الأمان) جزءاً خاصاً بعنوان (حتمية وجود الإمام في كل زمان). وسيجد فيه القارئ الكريم ضالته من أحاديث الفريقين الصحيحة والصريحة بتلك النتيجة.

هو لغة الوحي والقرآن، فبدون تفسيره تبقى الكثير من الحقائق القرآنية التي تلي حاجة البشر إلى الوحي مهجورة، ولا تتحقق الاستفادة من القرآن كما ينبغي. ولا بدّ من ذكر الأمر التالي أيضاً، وهو إنّ الدليل العقلي بمقدوره فقط إثبات أصل الإمامة وضرورتها في كل عصر، أمّا تعيين مصداقها فيقع على عاتق الدليل النقلية. وهناك - والحمد لله - مئات الأحاديث الصحيحة للنبي ﷺ وأئمة الهدى عليهم السلام، تتحدث عن هوية المصلح العالمي المهدي الموعود، والتي تغلق الطريق بوجه أي غموض وشك، وتؤكد على أنه هو الإمام محمد المهدي بن الإمام الحسن العسكري عليه السلام.

الفصل الخامس

مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ

من أساسيات ضرورة وجود الإمام المهدي عجل الله فرجه وحركته
شمولية، دراسة هذا الموضوع من زاوية فلسفة التاريخ.

والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة هنا، هو: ما هي الجهة التي ينطلق نحوها
تاريخ والمجتمع البشري؟ وما هي الخصوصيات التي ينبغي أن يتّسم بها
مستقبل البشرية؟

والإجابة على هذا السؤال القديم ليست واحدة. فبالرغم من إدراك معظم
ناس - انطلاقاً من نزعتهم الفطرية - وجود مستقبل مشرق، إلا أن من الصعب
حداً تفسير ذلك من الزاوية الفلسفية. فطالما فكّر في هذا الموضوع الكثير من
مفكرين وأسسوا العديد من المذاهب الفلسفية والاجتماعية المنسجمة مع
مبادئهم وأصولهم الفكرية. ومن أجل التوصل إلى إجابة منطقية، لابد من
تعرض مواقف المذاهب الفكرية، لاسيما الإسلامية منها إزاء مستقبل
تطورات التاريخية والاجتماعية.

المبحث الأول

مفهوم الفلسفة النظرية للتاريخ

مفهوم التاريخ:

اهتم مفكرو العالم بالتاريخ منذ القدم، وقدّم كلٌّ منهم تعريفاً للتاريخ طبقاً لمذاقه الخاص، فأرسطو (نحو 384 - 322 ق.م) يضع المعرفة التاريخية في مرتبة أقلّ من الشعر. ويصف فولتير (1694 - 1778م)^(١) التاريخ بأنه نبش للقبور. فيما يقول فيه البعض بأنه مرآة للاعتبار، وقد أطلق ابن خلدون (ت/ 808هـ)^(٢) على كتاب تاريخه اسم (كتاب العبر)، ويسمّيه غيرهم بالميزان.

(١) «فولتير (فرانسوا ماري أرويه دي) (1699-1778AC) Francois-Marie Arouet de Voltaire» أديب فرنسي مشهور، أغلب كتاباته الأدبية فلسفية المنحى والتداول، وأوقعته في صدام مع الملكية والأقطاع والكنيسة، حتّى سجن على أثرها في الباستيل ثم نفي عن باريس ثمّ عاد إلى باريس عاماً، ثمّ عاد إلى باريس قبيل وفاته بشهور خرجت باريس عن بكرة أبيها لاستقباله، أشهر مؤلفاته الفلسفية: «رسائل فلسفية: Philosophiques Lettres» و«القاموس الفلسفي Dictionnaire Philosophiques» و«فلسفة التاريخ: Philosophy of History».

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ولد بتونس ومات بالقاهرة وتقلّد مناصب شريفة ودوّن أفكاره عن تاريخ العرب والبربر بكتابه الشهير المعروف بـ (كتاب العبر)، واشتهر بمقدمته المعروفة بمقدمة ابن خلدون أكثر من كتاب العبر نفسه، عدّه جملة من الباحثين.

٢٤٧..... مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ

نذك من يعبر عن التاريخ بالنوافذ التي تفتح الحقيقة بوجه الإنسان كي يتعرف على العوامل التي تتحكم في البشرية. ولذلك يقول نيتشه: «ينبغي أن يساعد تعلم - ربح على صناعة التاريخ».

تاريخ المجتمعات البشرية، ملجأ أخلاقي أمين، كما أن التأمل في التاريخ يضع الإنسان أمام الأمواج المتتابة للحياة المستمرة في حركتها منذ الأزل وإلى الأبد. ولا شك في أن القلوب التي لديها القابلية على مشاهدة مرآة العبرة التاريخية سوف لن تشاهد أطلال قصور كسرى وقيصر فقط، وإنما ستدرك نساء عميقة جداً صلة بحركة التاريخ العامة، وتكتشف من خلال ذلك كمال بشرية وغايتها.

مختلف معاني الفلسفة:

الفلسفة مشتقة من (الفيلوصوفيا) وهي كلمة يونانية من مقطعين (فيلو) معنى: (حب)، و(صوفيا) بمعنى: (الحكمة)، وعلى هذا تكون الفلسفة: (حب الحكمة). وعبر أفلاطون في كتبه عن سقراط بالفيلسوف، وظل هذا الإسم يطلق على هذا العلم.

وأخذ المسلمون هذه المفردة من اليونانيين، وعمّموها على مطلق العلم العقلي. أي أخذوا يعبرون عن العلوم العقلية جميعاً بالفلسفة، في مقابل العلوم نقلية كاللغة والنحو والصرف. فصار عنوان الفيلسوف يطلق على الشخص الذي نجتمع فيه جميع العلوم العقلية.

وقد تميّز من بين شتى العلوم العقلية، حقل علمي يبحث في الأحكام العامة

→ هذا الحقل بأنه أسبق في تفكيره في فلسفة التاريخ من ميكافيللي، وفيكو، ومونتسكيو، وهيغل، ودارون، وسبنسر، وماركس، وتوينبي، وترجمت مقدمته إلى اللغات اللاتينية والألمانية والإيطالية والإنجليزية والفرنسية والفارسية والتركية وغيرها كثير.

للوجود. لذلك باتت الفلسفة تطلق في معناها الخاص على هذا الحقل العلمي الذي يعبر عنه أيضاً بالفلسفة الأولى أو الميتافيزيقا.

إذن هناك استعمالان شائعان للفلسفة:

الأول: عبارة عن مطلق العلم المعقول الذي يشمل جميع العلوم غير النقلية.

والثاني: عبارة عن العلم الإلهي أو الفلسفة الأولى التي تُعد إحدى الشعب

الثلاث للفلسفة النظرية.

استمر هذا الاستعمال إلى أن ظهر معنى جديد لها من خلال إطلاقها على

العديد من العلوم. مثل فلسفة الجمال، وفلسفة الرياضيات، وفلسفة العلم، أي:

دراسة الفرضيات والأصول العامة لأي علم من هذه العلوم، بحيث يمكن من

خلالها تحليل وشرح المفاهيم والنظريات العلمية.

ومن الواضح أنه قد تأخذ دراسة الأساليب التي يستخدمها الفيزيائي - مثلاً -

في بحوثه، وتقييم مدى صحتها وصلاحها، جانباً أوسع من أسلوب وطريقة

العلم نفسه.

أمّا فلسفة التاريخ فتعني إزاحة الستار عن الأسباب والعوامل التاريخية

في الماضي، وإدراك الحقائق التاريخية، وتقييم مستقبل التاريخ على هذا

الأساس.

الإنسان والمجتمع، في حالة تطوّر مستمرة. ويطلع الباحث التاريخي

المجتمعات في شتى الجوانب السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والأخلاقية.

ويقف على جذور التحولات والتطورات، فيوصل الحاضر بالماضي والمستقبل

بالحاضر، فيشاهد التاريخ حركة تكاملية واحدة. فبالرغم من تنوع الحوادث

التاريخية وتعددتها، لكنها تتميز بوحدة خاصة واتصال وثيق. أي: أن الباحث

يشاهد الميدان التاريخي على شكل وحدة في الكثرة.

فلسفة التاريخ والفلسفة النظرية للتاريخ:

وُضع اسم فلسفة التاريخ (Philosophy of History) من قبل الفيلسوف فرنسي (فولتير ١٦٩٤ - ١٧٧٨) وذلك في القرن الثامن عشر الميلادي) ولا يريد بهذا الاصطلاح، أكثر من كونه تاريخاً نقدياً أو علمياً، أي: أنه نوع من الفكر تاريخي الذي يلجأ فيه المؤرخ - بدلاً من تكرار القصص التي يجدها في الكتب القديمة - إلى إعادة صياغتها على أساس معاييرها الخاصة.

واستخدم هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١ هـ)^(١) هذا الاصطلاح في نهاية القرن الثامن عشر، لكنه قدّم له معنى آخر، وهو التاريخ العام للعالم. والاسخدام الثالث لهذا الاصطلاح، نجده في كتابات بعض الوضعيين (Positivists) خلال القرن التاسع عشر. فهؤلاء يرون أنّ مهمة فلسفة التاريخ، هي اكتشاف القوانين العلمية التي تتحكم في منحنى الأحداث، التي ينطلق مؤرخ لشرحها ونقلها. والوظائف التي يضعها فولتير وهيجل على عاتق فلسفة التاريخ، قابلة للتحقق بواسطة التاريخ نفسه. ولكن الوضعيين كانوا يسعون عن

(١) «هيجل (جورج وليام فريدريك) (1770-1831 AD): Georg Eilhelm Friedrich Hegel»
فيلسوف ألماني ولد بمدينة شتوتجرت، عيّن أستاذاً للفلسفة في جامعة هايدلبرج، ثم بجامعة برلين، مات بمرض الكوليرا الذي اجتاح ألمانيا سنة ١٨٣١م، له مؤلفات كثيرة أهمها:

«فينومينولوجية العقل: Phänomenologie des Geistes».

و«علم المنطق: Wissenschaft der Logik».

و«موجز موسوعة العلوم الفلسفية: Encyklopädie der Philosophischen Wissenschaften im Grundrisse».

و«مبادئ فلسفة الحق: Grundinien der Philosphi der Rechts».

و«روح المسيحية ومصيرها: Der Geist des Christentums und sien Schicksal».

هذا الطريق لتفسير التاريخ كعلم تجريبي وليس كفلسفة^(١). وذلك باعطاء مفهوم خاص للفلسفة في كل مورد من موارد استخدام فلسفة التاريخ.

الفيلسوف والمؤرخ الإنجليزي كولينجوود (١٨٨٩ - ١٩٤٣م)^(٢) تحدث في كتابه (الفكر التاريخي) الذي نُشر بعد وفاته عام ١٩٤٦م، عن فلسفة التاريخ فاعتبرها فكراً من الدرجة الثانية. غير أن المعنى المحدد الواضح لهذا المصطلح مدين لكتاب (مقدمة على فلسفة التاريخ) الذي ألفه والش (W.H, Walsh) و صدر عام ١٩٥٧م^(٣).

أدخل المؤلف في هذا الكتاب التقابل بين نوعين من فلسفة التاريخ - أي الفلسفة النظرية للتاريخ، والفلسفة النقدية للتاريخ - إلى مباحث فلاسفة التاريخ. ويقوم هذا التقابل على معنيين لمفردة (التاريخ)، ومن ثم لمفردة (الفلسفة)، في تعبير (فلسفة التاريخ)^(٤).

مفردة التاريخ قد تأتي بمعنى الحوادث الماضية، كقولنا: (حدثت في التاريخ حربان عالميتان). ففلسفة التاريخ في هذا المعنى لمفردة التاريخ، هي

(١) Callingwood, R.G. (1946), The Idea of History, Oxford: Oxford University Press, P.I.

(٢) «كولينجوود (روبن جورج) (1889 - 1943 AD): Robin George Callnigwood» كان أستاذاً للفلسفة بجامعة أكسفورد، بدأ مثالياً ثم تمرد عليها في كتابه الدين والفلسفة ودعا إلى العناية بالنواحي التاريخية لكل إبداع إنساني، من كتبه: «الدين والفلسفة: Religion and Philosophy».

و«اللويثان الجديد: The New Leviathan» ودعا في هذا الكتاب إلى تحرير الإنسان من القديم وتمدينه بإخراجه مما هو فيه إلى الحضارة الجديدة، كتبه قبل موته بسنة واحدة:

(٣) Walsh, W.H. (1957), Philosophy of History: An Introduction, New York: Harper Collins.

(٤) Dray, W.H., (1993), Philosophy of History, nd ed., prentice - Hall Inc., pp. 1-2.

٥: مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ..... ٢٥١

فلسفة النظرية للتاريخ، والتي عملها هو أن تكتشف في الحوادث الماضية معنى عاماً، أو مثلاً ونظماً وغاية.

وقد تأتي مفردة التاريخ بمعنى علم التاريخ، أو دراسة التاريخ، كقولنا: يبحث في التاريخ عن السلالة الفلانية). ففلسفة التاريخ في هذا المعنى الثاني هي الفلسفة النقدية أو التحليلية للتاريخ، والتي تبحث في حقيقة الأمر، عن مبادئ التصورية أو التصديقية لعلم التاريخ.

والفلسفة النظرية للتاريخ تقع في عرض علم التاريخ، وتعدّ معرفة من الدرجة الأولى، وتتعلق بدائرة ما وراء الطبيعة. أمّا الفلسفة النقدية للتاريخ فتعدّ معرفة من الدرجة الثانية وتتعلق بنظرية المعرفة، أو بنظرية معرفة التاريخ على وجه الدقة.

وينبغي هنا التمييز أيضاً بين الفلسفة النظرية للتاريخ والهيئات التاريخية^(١)، فعلماء الإلهيات في التاريخ، كالقديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠م) في العصر الوسيط، والأسقف بوسويه (١٦٢٧ - ١٧٠٤م)^(٢) في القرن السابع عشر، يعتبرون الحركة الكلية للتاريخ واقعة تحت تأثير المشيئة الإلهية.

(1) Stanford, M. (1997), A Companion to the Study of History, Blackwell Publishing Ltd., 230-41.

^(٢) بوسويه جاك: (Jacques Bossuet (1627 - 1704 AC)

كنسي فرنسي، ومذهبه الفلسفي أوغسطيني يرى أن سلطان الملك من سلطان الله تعالى بشرط أن يكون الملك مستنيراً وعادلاً، وهو ظل الله، أو خليفته في الأرض، من كتبه: «مقتطفات سياسية مستقاة من الكتاب المقدس: Politique tiree de l'écriture sainte».

كرس هذا الكتاب للدفاع عن نظريته في كون سلطان الملك هو سلطان الله تعالى! و«رسالة في علم الله وعلمه بنفسه: Traitede La connaissance de Dien et de Soi-meme».

و«مقال في تاريخ العالم: Discours sur L'histoire universelle».

أمّا فلسفة التاريخ التي بدأت ببعض الفلاسفة مثل:

كنط (١٧٢٤ - ١٨٠٤م)^(١).

وهيردر (١٧٤٤ - ١٨٠٣م)^(٢).

وشيللنج (١٧٧٥ - ١٨٥٤م)^(٣).

(١) تقدّمت ترجمته ص: ١٣٧.

(٢) «هيردر (يوحنا جوتفريد) (1744 - 1803 AC): (Johann Gottfried Herder)

ألماني، ولد في موهر ونجن من بروسيا الشرقية، من مؤلفاته:

«في الأدب الألماني الحديث: Über die neuere deutsche Literatur».

و«أخلاق نقدية: Kritische Wällder».

و«المعرفة والإحساس بالروح الإنسانية: Vom Erkennen and Empfinden der

menschlichen Seele».

و«أفكار في فلسفة تاريخ البشرية: Ideen zur Philosophie der Geschichte der

Menscheit».

وهذا الكتاب في أربعة مجلدات ويعد من أهم كتبه.

وقد أصدر في أواخر حياته كتابين في نقد فلسفة كنط عمانوئيل (كانت) (ت/١٨٠٤م)

الأول بعنوان «ما بعد النقد: Metakritik» والآخر: «كاليجون: Kalligon».

(٣) «شيللنج (فريدريك وليام يوسف فون): (1775 - 1854 AC): Friedrich Wilhelm Joseph

von Schelling».

مثالي ألماني، عين أستاذاً للفلسفة بجامعة يينا، اتسمت كتاباته بالطابع الرومانسي والبلاغة

وحب الجمال من كتبه:

«خواطر لإقامة فلسفة طبيعية: Ideen zu einer Philosophie der Natur».

و«في النفس العالمية: Von der Weltseele».

و«فكرة العلم الطبيعي النظري: Erster Entwurf eines systems der Naturphilosophie».

و«مذهب التصورية الذاتية: Zeitschrift für spekulative Physik».

و«برونو أو في المبدأ الإلهي والطبيعي للأشياء: Bruno oder über das göttliche und

natürliche Prinzip der Dinge».

وفشته (١٧٦٢ - ١٨١٤م) (١).

وهيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١م) (٢)، فقد كانت خالية من أي اعتماد على الوحي
محيية الإلهية. ويقول هؤلاء الفلاسفة أنهم اكتشفوا خلال دراستهم للتاريخ،
لعديد من الأنماط والنماذج المتكررة، معتبرين هذا الاكتشاف مستقلاً عن الدين
ووحي.

إذن يُطلق اصطلاح فلسفة التاريخ على حقلين مختلفين ولكنها يرتبطان
بحث الفلسفي.

الأول: عبارة عن تحليل فلسفي تاريخي (فلسفة علم التاريخ)، ووصف
عقلي عقلائي ومعرفي لما يقوم به المؤرخون.

والثاني: عبارة عن جهد يهدف إلى اكتشاف مفهوم ما في المسار العام
للأحداث، أو الماهية العامة للعملية التاريخية التي هي أبعد من العقلانية، وهو
هدف يمكن التوصل إليه من خلال البحوث والأعمال التاريخية المتداولة

➔ هذه الكتب ألفها في المرحلة الأولى من حياته الفلسفية وهي تمثل فلسفته السلبية التي
نتقل منها إلى الفلسفة الإيجابية وله فيها كتابان من أهم كتبه، وهما:

«فلسفة الميثولوجيا: Philosophie der Mythologie».

«فلسفة الوحي: Philosophie der Offenbarung».

فشته (يوحنا جوتليب): (1762 - 1814 AC): (Johann Gottlieb Fichte)

فيلسوف ألماني ولد برامينا من أعمال لوساتيا، ومات في برلين، عيّن أستاذاً للفلسفة
بجامعة بينا، ثم صار عميداً لكلية الفلسفة ببرلين، ثم رئيساً لجامعتها، وكانت فلسفته
الحادية، له عدة كتب منها:

«المبادئ الأساسية لنظرية المعرفة: Grundlage der gesamten Wissenschaftslehre».

«نظرية الأخلاق وفقاً لمبادئ علم المعرفة: Das Sysetm der Sittenlehre nach den

Principien der Wissenschaftslehre».

(٢) تقدمت ترجمته ص: ٢٤٩.

(الفلسفة النظرية للتاريخ).

وقد تثار التساؤلات التالية على صعيد فلسفة علم التاريخ: هل التركيب المنطقية للإيضاحات المقبولة في التاريخ تستلزم بالضرورة وضع الحادثة الموضحة تحت القوانين العامة كما هو الحال في الدراسات العلمية؟ وهل الدراسات التاريخية مستقلة عن نوع الدراسات التجريبية، ولا بد لها من انتهاج أسلوب متميز، أم إنها لون من العلوم التجريبية، ولا بد من العمل وفق هذه المعايير؟

وهل التاريخ علم يخضع للمعايير والأصول القيمية؟ هذه التساؤلات، تقع مهمة الإجابة عليها على عاتق الفلسفة النقدية للتاريخ.

يعتقد فلاسفة التاريخ أن التاريخ يتميز بمسار قطعي وضروري، يمكن من خلال اكتشافه، التكهن بمستقبل العالم واكتشافه.

يقول الكاتب الفلسفي النمساوي پوپر^(١): «يقال: إن عالم العلوم الاجتماعية أو الفيلسوف، ينبغي أن ينظر للأمور من مستوى أعلى. فهو يرى المرء أداة أو آلة

(١) «پوپر (كارل رايموند): (Karl Riamund Popper)

يهودي نمساوي ولد بفيينا (سنة ١٩٠٢م) اشتغل أستاذاً للمنطق والمنهج العلمي بجامعة لندن، من كتبه:

«منطق الاستكشاف العلمي: The Logic of Scientific Discovery».

و«المجتمع المفتوح وأعداؤه: The Open Society and its Enemies».

ويعد هذا الكتاب من أشهر كتبه، كتبه (سنة ١٩٤٥م).

و«فقر التفسير التاريخي: The Poverty of Historism».

وقد انتقد پوپر في كتابيه الأخيرين محاولة تفسير التاريخ بواسطة قوانين التطور.

لا قيمة لها في التطور العام للبشرية، ويدرك أن الممثلين الحقيقيين على مسرح التاريخ إما الأمم الكبرى وزعمائها، أو لربما الطبقات الكبرى، أو الأفكار الكبرى. ويسعى كي يفهم معنى المسرحية التي تعرض على مسرح التاريخ. كما يحاول إدراك القوانين المؤثرة على تطور التاريخ. فإذا أفلح في ذلك، سيكون حقدوره التكهن بالتغيرات المستقبلية.. هذا وصف قصير للموقع الذي أدعوه «مسألة التاريخ»^(١).

التاريخ ميدان للأفعال والانفعالات المعقدة المختلفة التي تؤدي إلى ظهور أحداث مختلفة عبر مسار متواصل. ويرجع بعض هذه الأفعال والحوادث إلى حوادث طبيعية خارجة عن اختيار الإنسان وإرادته، بينما يرجع البعض الآخر بها إلى أعمال الإنسان وممارساته. فمثلما تخضع التفاعلات الكيميائية وتميزها بواووية إلى قانون العلية، ولا يتحقق شيء منها بدون علة، كذلك تخضع لحوادث التاريخ لنفس هذا المعيار، ولا بد أن ينجم عن كل عمل، عكس عمل واضح يكون لديه انعكاس في التاريخ.

إذن فالتاريخ، ليس مجموعة من الحوادث المفككة التي لا علاقة بينها، وليست الحادثة التاريخية جزيرة مهجورة في المحيط لا علاقة لها بغيرها، وإنما هناك سنن تاريخية، بحيث يترتب على كل فعل انفعال خاص، فلا يتحقق أي عمل إلا ويؤدي إلى ظهور ردّة فعل متناسبة معه.

ومن خلال اكتشاف هذه السنن الإلهية، يمكن تقييم الحوادث الماضية، ومتابعة المسار المستقبلي للتاريخ وحركته التكاملية.

^(١) المجتمع المفتوح وأعداؤه / كارل بوبر، ترجمة عزة الله فولادوند ١: ٢٩١.

فبحثنا إذن هو الفلسفة النظرية للتاريخ، أي: التكهن في حركة التاريخ العامة وليس في تفاصيله.

لقد أسهبنا في هذا الموضوع؛ لأن أولئك الذين يشاهدون سقوطاً وهبوطاً في التاريخ، إنما كان ذلك لأنهم يركزون النظر على مقاطع قصيرة وعابرة في التاريخ، بينما يتجاهلون انطلاقة المجتمع البشري المستمرة نحو التطور.

وحدة التاريخ:

الوحدة وليدة الهدف التاريخي. فعلينا أن نعترف بوحدة التاريخ كي لا يتحول التاريخ إلى مجموعة من التصادفات والاتفاقات والحوادث الاعتيادية وتكشف دراسة التاريخ عن أن وحدة الناس تمثل أسمى ألوان الإمكان البشري. حيث لا يمكن بلوغها عن طريق التفكير العلمي والتجريبي والعقلي.

التاريخ مسار واحد مستمر على مدى الزمان، وتتجه جميع أجزائه نحو غاية نهائية، فتعدّ الناس لتحقيق تلك الغاية. ووحدة التاريخ هي الرصيد الأوثق لدراسات فلسفة التاريخ النظرية.

وليس بوسعنا التحدث عن تكامل البشرية، وازدهارها طوال التاريخ من دون الاهتمام بالوحدة القائمة بين جميع العصور، والمراحل التاريخية.

إفرازات حركة التاريخ:

التاريخ يتحرك من تلك النقطة التي يشاهد فيها الناس الظلم والفساد والفوضى وإضاعة الحقوق والأمن والخوف، إلى النقطة التي تنعم بالعدل والأمن، والنظام.

فهذه الأصول الحققة ستدبّ إليها الحياة شيئاً فشيئاً، ويندفع المجتمع

٥ : مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ ٢٥٧

إنساني للتفكير في البناء. وتنطلق هذه الأصول من أعماق المجتمع المُعاني،
ويشهره بمجتمع متألق وضاء. وسينبثق يوم العدالة هذا من بين ركام الفساد
وانظلم والفوضى، ويغيّر التاريخ.

فالعالم - على قول الفيلسوف الشاعر ميرفندر سكي - منبثق من بين السلب
والإيجاب. فالتضادات حبلى بالأبناء الذين يلعب آباؤهم، وأمّهاتهم دوراً
أساسياً في تفكيرهم وتربيتهم.

آراء في الهدف التاريخي:

ثمة عدّة آراء في الهدف التاريخي، منها:

١- الهدف التاريخي عبارة عن ظهور المدنية وتحقق السجايا الإنسانية.
وعلى هذا الأساس يكون نظم الحياة قائماً على الحق والقانون، فالوحدة عن
ضريق نظام الحياة تعمل على تبلور الاستعدادات الإنسانية.

٢- الهدف التاريخي عبارة عن الحرية ومعرفة الحرية، وبمقدور الحرية
سياسية أن تكون أرضية لتحقيق جميع ألوان الحرية.

٣- الهدف التاريخي عبارة عن ظهور الإنسان المتعالي والخلقة المعنوية
والبلوغ، ونحن نولي أهمية كبرى لهذه القمم الإنسانية في التاريخ؛ لأنها تتعلق
بالوحدة التي هي مصدر الغاية التاريخية.

٤- الهدف التاريخي عبارة عن تجلي الوجود في الإنسان ومعرفة بوجوده
التجلي الألوهي.

هذه النظريات الأربع في الغاية التاريخية، يمكن أن ترجع لرأي واحد هو:
أن حركة التاريخ نحو الكمال تعبر عن ظهور التمدن والسجايا الأخلاقية، كما

لا يراد بالحرية تلك الحرية بلونها الغربي، أو التي تعادل التحلل الخلقي، وإنما هي حرية الاستعدادات الإنسانية ونضج القوى الإنسانية، حيث تتحقق للإنسان في دائرة نظام الخلقة والقوانين الإلهية ألوان شتى من النضج والتطور.

فالإنسان المتعالي يمثل قمة سموّ السجايا الأخلاقية، وكذلك الحرية التي هي عبارة عن تجلي الوجود في الإنسان، أي تجلي الألوهية، والأسماء الحسنى في الإنسان المتكامل.

ومعنى هذا كله: أن هدف التاريخ هو تحضّر الإنسانية وحضور الإنسان

الكامل^(١).

(١) هذا ما سنشير إليه في المبحث الأخير.

المبحث الثاني

نظريات في الفلسفة النظرية للتاريخ

الحركة المستقيمة المتكاملة للتاريخ:

هناك نظريات متعددة تتحدث عن استقامة الحركة التاريخية وتكاملها، مقدّمة من شتى المذاهب، وقد فسّرها كل مذهب بما ينسجم مع المبادئ التي يؤمن بها، وهي:

١ - نظرية (ثقافية حركة التاريخ المستقيمة):

يعتقد الفيلسوف الألماني شبنجلر (١٨٨٠ - ١٩٣٦م)^(١) إنّ تطور وانحطاط المجتمعات، يعتمدان على ثقافتها. كما يعتبر التطور التاريخي، تطوراً ثقافياً.

(١) «شبنجلر (أوزفالد): (1880 - 1936 AC) Oswald Spengler

مثالي ألماني، ولد في بلانكبرج، وتعلّم في ميونخ وبرلين وهال، له كتب كثيرة، لعل أشهرها:

«أفول الغرب: Der Untergang des Abendlandes».

يقع في مجلدين سجل فيه فلسفته في التاريخ أثر هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى. ومن كتبه الأخرى المهمة: «البروسية والاشتراكية: Preussentum und Sozialismus».

فبما إنَّ هناك ثقافات مختلفة، فالإنسان لديه حركة تكاملية خاصة في كل مجتمع بما يتناسب مع ثقافة ذلك المجتمع. فلا وجود لشيء باسم الإنسانية بحيث يكون أساساً لبلورة تطور أو تكامل واحد لجميع المجتمعات.

لذلك إذا أردنا أن نقيم أي تغيير، أو تطوّر في مجتمع من المجتمعات البشرية، فلا بد من دراسة البعد الحضاري، والتغيرات الطارئة عليه^(١).

الحضارة ذات مسار تكاملي، بحيث يرى هذا الفيلسوف الألماني أن دورة حياة الحضارة وتكاملها تستغرق نحو ألف سنة، ثمّ تعقبها مرحلة الأفول والانحطاط، كما يرى هذا الفيلسوف أن الإسلام هو روح الحضارة العربية، وهو الذي وحدّ أشتات البلاد التي اعتنقته، وألف بينها، وصنع تمدنها^(٢)، وعليه فدراسة التاريخ العام ليست سوى دراسة مقارنة وتطبيقية للثقافات.

٢ - نظرية (الحركة التاريخية قائمة على تحسّن الوضع الاجتماعي):

يعتقد بعض فلاسفة الغرب أنّ الحركة التكاملية للتاريخ تقوم على تحسّن الوضع الاجتماعي وتطوّر أركانه. لذلك ينبغي البحث عن حركة التكامل التاريخي في حقائق الحياة الاجتماعية والمدنية للمجتمع البشري.

٣ - نظرية (حركة التاريخ قائمة على تلبية الرغبات الفردية):

يعتقد بعض الفلاسفة الغربيين أنّ تلبية الرغبات الفردية الخاصّة تمثل

(١) راجع: فلسفة التاريخ /كريم مجتهدي: ١٦٥-١٦٦.

(٢) انظر: موسوعة الفلسفة والفلاسفة /الدكتور عبد المنعم الحفني ٢: ٧٨٦.

٥: مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ..... ٢٦١

محفز الأساس لحركة المجتمعات والتاريخ، فيرى المفكر الإنجليزي في القرن
ثامن عشر (آدم سميث) أنّ تحقيق الأهداف والحاجات الاقتصادية لأفراد كل
مجتمع، يمثل ذروة في الحضارة البشرية. ويؤكد في كتاب (ثروة الشعوب) أنّ
تعاون لا يتحقق في المجتمع إلا إذا اعترف أفرادُه بأنّ مبدأ (المنفعة الفردية)، هو
طريق لتحقيق (المنفعة الجماعية) والتوزيع العادل للعمل بين أفراد المجتمع،
لأمر الذي يؤدي إلى مزيد من التعاون. والمطلوب هو بلوغ المجتمع والتاريخ
في مرحلة من التطور والرقي الذي ينتظره الجميع.

٤ - النظرية العرقية:

بعض الفلاسفة، كالفيلسوف الفرنسي المعروف كونت غوبينو، يعتبر بعض
الأعراق هي المحرك الأساس لعملية التطور التاريخي. أي أنّ بعض الأعراق
والقوميات لديها الاستعداد لخلق الحضارة وإنتاج الثقافة، بينما للبعض الآخر
تقابلية على إنتاج العلم والفلسفة والصناعة والأخلاق. فتقوم قضية التطور
تنوعي في التاريخ على أساس القابلية التي لدى بعض الأعراق.

٥ - النظرية الجغرافية:

يرى البعض مثل مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥م)^(١) أنّ العامل الأساس في

(١) «مونتسكيو (شارل لويس دي سيكوندا): (1689 - 1755 AD)

فرنسي يعد من أكبر دعاة الحرية والتسامح والاعتدال في بلده، واشتهر بالكفر والإلحاد،
ورد أصل الدولة والقوانين إلى الطبيعة ويقصد بالطبيعة المناخ الذي يتسبب برأيه في

دفع حركة التاريخ نحو الأمام ليس عرق أو عنصر معين، وإنما هو المحيط الطبيعي والجغرافي، الذي يقف خلف حركة المجتمعات والحضارات، والمبلور للثقافات والصناعات، لأن الاختلاف العنصري إفراس للاختلاف المحيطي والجغرافي.

٦ - نظرية الأبطال:

يذهب الفيلسوف الفرنسي كارلايل (١٧٩٥ - ١٨٨١م)^(١) في كتاب (الأبطال) إلى أن الأبطال، هم النوابغ الذين يصوغون تاريخ كل أمة.

→ اختلاف العادات والتقاليد والنظم الاقتصادية والأديان، وهو أحد مؤسسي نظرية الحتمية الجغرافية، من كتبه:

«تأملات في أسباب عظمة الرومان وسقوطهم: Considerations sur Les Causes de La grandeur des Romains et de Leur decadence».

تناول فيه التاريخ من زاوية عملية محاولاً تطبيق المنهج الوضعي في تفسير الحوادث التاريخية.

و«روح القوانين: De L'Esprit de Lois».

و«رسائل فارسية: Lettres Persanes».

(١) «كارلايل (توماس): (Thomas Carlyle (1795 - 1881 AD)

اسكتلندي، عاش في ألمانيا، جعلته كتاباته عن الأدب والفلسفة الألمانية من أشهر كتبه عصره، انكب على قراءة التاريخ وتحول إليه، وانحصرت مؤلفاته الرئيسية في هذا الحقل، أهمها:

«عن التاريخ: On History».

و«الثورة الفرنسية: The French Revolution».

و«عن الأبطال وعبادة البطل والبطولي في التاريخ: Heroes, Hero Worshib: and the Heroic in History».

٥ : مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ..... ٢٦٣

فالتطورات التاريخية، في شتى حقول الحياة الإنسانية، مدينة للأبطال والشخصيات البارزة التي تتميز بقابلية عقلية أو عملية أو ذوق أو إرادة خاصة. أمّا باقي الناس فيتلخّص دورهم في تقليد هؤلاء النوابغ واتباعهم. فشخصية رسول الأكرم محمد ﷺ، هي التي صاغت هوية الحركة التكاملية للتاريخ في معالم الإسلام.

٧ - نظرية المادية التاريخية:

طبقاً لهذه النظرية يُعدّ الاقتصاد محرّكاً للتاريخ، أي: أنّ جميع أبعاد الحياة لأية أمة تنبثق من أسلوب الإنتاج، والعلاقات الانتاجية المتحكمة في العلاقات الاقتصادية لتلك الأمة. ويقف إلى جانب هذه النظرية كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣م)^(١) والماركسيون وآخرون. ونظراً لإفرادنا فصلاً خاصاً للحديث عن

(١) «كارل ماركس: (1818 - 1883 AD)»

ولد في ألمانيا من أبوين يهوديين، درس القانون بجامعة بون، والفلسفة بجامعة برلين، حصل على الدكتوراه من جامعة بينا (سنة / ١٨٤١م) في فلسفتي أبيقور وديموقريطس، عرف بالحاده الشديد ورفع شعار (إن نقد الدين أساس كل نقد) ولهذا قال مقولته الفاسدة المشهورة (إن الدين أفيون الشعوب)، وهو رمز الشيوعية وصاحب الدعوة المادية الجدلية والتاريخية، من كتبه:

«فقر الفلسفة: Misere de la Philosophie».

وأهم الكتب العلمانية في العالم كتابه «رأس المال: Das Kommunistischen Partei Kapital».

وهو كتاب اقتصادي اشتمل على مذهب فلسفي يتألف من المادة التاريخية الجدلية والشيوعية الإلحادية المترتبة عليها.

هذه النظرية ، نترك التفصيل لذلك الفصل .

٨ - نظرية (إلهية الحركة التاريخية):

التغيرات التاريخية ، طبقاً لهذه النظرية ، هي المهد لتحقيق الإرادة الإلهية الحكيمة. والتغيرات التاريخية تمثل تجلياً لإرادة الله في الحياة .

يعتقد القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠م) أن التاريخ منظم على أساس برنامج إلهي ، وأن الإرادة الإلهية القاهرة هي التي توجه التاريخ نحو هدفه وغايته ، ولا يمتلك الإنسان القابلية على مواجهتها. ولربما تشبه هذه النظرية فكرة الأشاعرة المسلمين .

يشير أوغسطين في بحثه عن مصير الإنسان ، واستكمال المجتمع البشري . إلى ظهور السيد المسيح ، ويقول بأن ظهور السيد المسيح كمنج ومبشر بنجاة الإنسان أمر قطعي^(١) .

يؤكد كذلك جاك بوسويه (١٦٢٧ - ١٧٠٤م) في كتاب (التاريخ العام) على جانبين من جوانب التاريخ وهما انتشار الدين ، واتساع الامبراطوريات ، ويعتبر تاريخ البشر - منذ الخلق وحتى اليوم الآخر - وحدة واحدة ، مظهراً لتحقيق المشيئة الإلهية ، حتى أنه يضع اختيار الإنسان في خدمة تلك المشيئة أيضاً .

→ وقد اشترك مع صديقه فردريك إنجلز بتأليف مجموعة من الكتب ، منها:

«الأسرة المقدسة: Die heilige Familie».

و«الإيدولوجية الألمانية: Die deutsche Ideologie».

و«البيان الشيوعي: Le Manifeste Communiste; Communist Manifesto; Manifest der

(١) الاعترافات / القديس اوغوسطين، ترجمة ساية ميثمي.

٢٦٥ مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ.

ويعتقد الفيلسوف والمفكر الإيطالي فيكو (١٦٦٨ - ١٧٤٤م)^(١) بأن الدين يصل بتاريخ البشرية إلى مرحلته النهائية من التكامل - ويرى أن الدين لديه حضور في حياة البشرية منذ البداية، ويُعدّ عاملاً مهماً جداً في تعالي الإنسان، وينوغه مرحلة الحضارة والتطور^(٢).

لدى هيردر (١٧٤٤ - ١٨٠٣م) رأي مماثل أيضاً، لأنه يقول بأن الإنسان قد صنع للدين، وأن كليهما على صلة وثيقة.

النظريات السابقة، ينظر كل منها إلى موضوع التطور التاريخي من منظور خاص. وينطلق بعض هذه النظريات من منطلق اجتماعي، والبعض الآخر من منطلق نفسي، وليس باستطاعة النظرية الإلهية - بالتفسير المسيحي - أن تكشف عن سر تطور المجتمعات، لأنها تنسب علة جميع التوقفات والتحرّكات إلى تمشيئة الإلهية. كما أنّ الأخذ بنظرية الأبطال يقوم على الاعتراف بمبدأين تحديقيين هما:

الأول: إن المجتمع يفتقد إلى هوية مستقلة عن أفرادهِ.

والثاني: أنّ هناك فئة خاصة من الأفراد لديها القابلية على الإبداع، وعلى الآخرين اتباع تلك الفئة الخاصة.

(١) «فيكو (جيامباتيستا): (1668 - 1744 AD) Giambattista Vico»

ولد في نابولي بإيطاليا وتعلّم بالكلية اليسوعية ودرّس البلاغة بجامعة نابولي اشتهر بنظريته في الدورة التاريخية في المجتمعات، أهم كتبه التي اشتهر بها: كتاب «العلم الجديد: Scienza Nuova».

(٢) راجع: تاريخ الفلسفة / كابلستون، طهران ١٧٧:٦.

وهذان المبدأان باطلان:

أولاً: إن المجتمع لديه هوية مستقلة، بتأثير تقاليده وقوانينه الخاصة. ولا بد للمجتمع أن يعمل بما ينسجم مع طبيعته المستقلة عن أفرادهِ، ورغم التأثير الذي تتركه أفعال الأفراد وانفعالاتهم على بلورة هوية كل مجتمع، إلا أن للمجتمع هوية مستقلة عن أفرادهِ، ويخضع لقوانين وقواعد عامة منسجمة مع هويته.

ثانياً: بالرغم من الاختلافات القائمة بين الناس من منظار علم الإنسان الواقعي، إلا أن جميع الناس مؤثرون في التطورات الاجتماعية بما ينسجم مع ما لدى كل منهم من قابليات وإبداعات ومواهب، وإن كان لبعضهم تأثير أكبر من تأثير البعض الآخر.

المبحث الثالث

رأي الإسلام في حركة التاريخ

أسلوب القرآن الكريم في تسجيل الحدث التاريخي:

القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وأكملها، ويتضمن مفاهيم عقائدية وأخلاقية وعملية، ويحقق الالتزام بتعاليمه كافة السعادة والصلاح للإنسانية. وعليه لا بد من اعتباره كتاب هداية للبشرية، يهديها إلى كل ما يحقق لها الخير والصلاح والفوز: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١).

وللقرآن أساليبه الخاصة في تربية الفرد، وهداية المجتمع، ويقدم بعض الجوانب المضيئة من حياة الشخصيات التي تتميز بصلاحية الأسوة، للتأكيد من خلال ذلك على عملية التربية، لذلك نراه يقول في الرسول الأكرم ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٢)، ويقول في إبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾^(٣).

(١) سورة الاسراء: ٩/١٧.

(٢) سورة الممتحنة: ٤/٦٠.

(٣) سورة الممتحنة: ٤/٦٠.

كذلك يستخدم القرآن الكريم أسلوب ضرب الأمثال وطرح النماذج الخيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَاتِنِينَ ﴿١﴾.

كما ضرب مثلاً للنماذج الشريفة، كما في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةٌ نُوحٍ وَامْرَأَةٌ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴿٢﴾.

إذن يُعد تقديم الوجوه المتألقة في مقابل الوجوه المظلمة، أسلوباً في التاريخ النقلي. ويُعد نقل سير الماضين أمراً منطقياً على ضوء الهدفية التي يلاحقها القرآن الكريم.

كما يعدّ النقل الكامل لبعض الأحداث، والنقل المنقطع لكثير من بعضها الآخر - الذي شهدته الأمم والأقوام الماضية - أسلوباً اختاره القرآن الكريم على صعيد كتابة التاريخ. ففي قصة هابيل وقابيل ابني آدم، لم يتحدث القرآن الكريم سوى عن تهديد قابيل لهابيل بالقتل ثمّ قتله، وكذلك عن دفنه له بعد تعلّم عمية الدفن من الغراب، من دون أن يشير إلى زمان ومكان القتل، والكلام الذي دار بينهما، وما إلى ذلك.

طبعاً، لا بد من التنويه إلى أن القرآن الكريم ليس كتاباً تاريخياً، وإنما كتاب هداية، وعليه فالنقل المنقطع لبعض الأحداث في القرآن الكريم لا بد وأن يكون

(١) سورة التحريم: ١١/٦٦-١٢.

(٢) سورة التحريم: ١٠/٦٦.

منسجماً مع أهدافه قبل كل شيء آخر.

أهداف القرآن الكريم من النقل التاريخي:

قلنا: إنَّ القرآن الكريم كتاب يهدي البشر نحو الخير والفلاح والحياة
لكريمة، لذلك يصبّ نقل قصص الأمم والشخصيات المندثرة في هذا الهدف.
التاريخ مرآة تعكس - بشكل لا غبار عليه - عوامل رقي المجتمعات
والأمم، وأسباب تدهورها وانحطاطها، وكذلك تكشف عن علل ظهور
حضارات ومن ثم أفولها، وعناصر عظمة الأمم ومن ثم ذلتها؛ من أجل أن يتعظ
نعقلاء ويعتبروا بذلك: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١).
إذن تُعد معرفة التاريخ والاستلهام منه لتربية الأفراد وهداية المجتمعات،
هم الأهداف التي يتوخاها القرآن الكريم من النقل التاريخي، والقرآن يهدي
ناس - من خلال عرضه لمصير المجتمعات - نحو السنن الإلهية التي لا تتغير ولا
تبدل:

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأُولِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ
لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(٢).

القرآن وفلسفة التاريخ:

فضلاً عن نقل القرآن الكريم لبعض الحوادث بشكل شبه كامل، ولبعضها
لآخر بشكل جزئي، نراه يسلط الضوء أيضاً على القوانين والسنن الغالبة العامة
التي تتحكم في المجتمعات والأمم، كما يقدم في بعض الآيات الأخرى آراءه في
طبيعة المجتمعات، وهويتها، وحركتها التكاملية.

(١) سورة يوسف: ١١١/١٢.

(٢) سورة فاطر: ٤٣/٣٥.

فهناك آيات عديدة في القرآن الكريم تشير إلى مسار المجتمع والتغيير الذي يشهده، وحركة المجتمع البشري نحو الكمال، كسنة إلهية، وقانون إلهي لا يتغير في إطار الخط العام للتاريخ، كما هو الحال في الآيات القرآنية التالية:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(١).

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٢).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾^(٣).

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٤).

هذه الآيات المباركة تتحدث عن المسار التكاملي للتاريخ وانطلاقه نحو

(١) سورة الأنبياء: ١٠٥/٢١.

(٢) سورة القصص: ٥/٢٨.

(٣) سورة النور: ٥٥/٢٤.

(٤) سورة الفتح: ٢٨/٤٨ و ٢٩.

ف ٥ : مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ ٢٧١

مجتمع العدل النهائي ، كما تعد المؤمنين بأن العالم سيصل إلى غايته في يوم ما ، وتشبه الآية الأخيرة مجتمع الإيمان بالنبات الذي ينمو ويزدهر يوماً بعد آخر ، بحيث ينتزع إعجاب المزارعين ، وهكذا سيكون الانتصار النهائي الذي سيحققه الحق على الباطل ، والهدى على الضلال ، ومن ثم تبلور مجتمع العدل النهائي .

وتتحدث بعض الآيات عن الجزئيات أيضاً ، كقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمَسُّكُمْ
فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

فمن المؤكد أن الحركة الأخيرة للتاريخ لن تكون في صالح الفاسدين والمنكرين للحقيقة ، لأن سنة الله تعالى تؤكد على فشل وزوال أهل الكذب كما في قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (٣) .

نظرة الإسلام للحركة التكاملية للتاريخ :

تقوم نظرة الإسلام للحركة التكاملية للتاريخ ، على المبادئ الأساسية

التالية :

- ١- فطرة طلب الكمال لدى الإنسان .
- ٢- الصراع بين الحق والباطل في وجود الإنسان والعالم .
- ٣- نضج العقول في خضم حوادث التاريخ .

(١) سورة آل عمران: ١٣٩/٣ و ١٤٠ .

(٢) سورة هود: ٤٩/١١ .

(٣) سورة آل عمران: ١٣٧/٣ .

إن الإسلام ينظر إلى حركة المجتمعات والتاريخ كحركة تكاملية رغم وجود جميع العوائق والعراقيل، فالإنسان من منظور الإسلام موجود مؤلف من أهواء وغرائز حيوانية، ومن نزعات سامية كطلب الحقيقة، وحب الجمال، والتطلع إلى الكمال، والتي تؤلف بمجموعها الهوية الإنسانية للإنسان، فهذه النزعات السامية المتعالية هي التي تهدي الإنسان نحو الكمالات، أي: إلى مزيد من التحرر من الأهواء والرغبات الحيوانية، وإعداد الأرضية اللازمة لتكامله.

إذن الحرب سجال بين العقل والنفس وأمر قائم لدى كل إنسان، وإذا ما تفعّلت نزعاته المتعالية، فستنتصر قواه الباطنية على غرائزه الحيوانية. ومن وجهة نظر علم الاجتماع الإسلامي، يتألف المجتمع من أفراد، لكنه يتميز بهوية مستقلة عنهم.

ومن البديهي أن الصراع الباطني لدى الأفراد -الذي ينعكس في مرآة المجتمع- يتجلى على شكل صراع بين المتعاليين المتكاملين، وبين المنحطين الفاسدين، وبمقدور هذا التضاد أن يلعب دوراً مؤثراً وحاسماً في تطورات التاريخ.

إذن يلعب تفتح الفطرة الإنسانية في قالب الفكر الإلهي والتحرر من أغلال الطبيعة والمحيط والغرائز الحيوانية، دوراً أساسياً في حركة التاريخ التكاملية في ظل نمو ونضج العقول.

وحينما يستعرض القرآن الكريم قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام مع الوثنيين - وتحطيمه لأصنامهم، يقول بأنه عليه السلام قد طلب منهم الرجوع إلى صنمهم الكبير للاستفسار منه عما حل بالهتهم، لكنهم طأطأوا رؤوسهم إدراكاً منهم أن صنمهم غير قادر على الكلام، فوجد إبراهيم عليه السلام الفرصة مؤاتية كي يخاطبهم قائلاً: ﴿أَفُؤ

ف ٥: مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ ٢٧٣

لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾، أي: أَنَّهُ طَالِبُهُم بِالرَّجُوعِ إِلَى الْفِطْرَةِ، لِأَنَّهِمْ لَوْ رَجَعُوا إِلَيْهَا وَأَيَّظَوْهَا مِنْ سَبَاتِهَا، لَانْطَلَقُوا فِي طَرِيقِ التَّكَامُلِ الْعَقْلِيِّ.

المواجهات التي حصلت في مسار التاريخ البشري بين الحق والباطل، ستحدث مثلها في المستقبل أيضاً، وسينتصر الحق باستيقاظ الفطرة في نهاية نمطاف ويبلغ الإنسان نضجه العقلي حينئذ.

وعملية الصراع المستمرة المتشددة بين الحق والباطل، تعمل - ولا شك - على تعميق العناصر الإنسانية والاعتقادية، خلال حركة الحق في المجتمع، بحيث تتوفر الأرضية الكاملة للغلبة النهائية للحق والاندحار النهائي للباطل، فتتلور الحكومة والعلاقات الاجتماعية على أساس القيم الفطرية والمعنوية، فتثمر روح وحقيقة المجتمع والحكومة الموعودة.

تبيان الحركة التكاملية للتاريخ على أساس الإرادة الإلهية:

لا ريب في أن الله تعالى، خالق الإنسان والمبلور للمجتمع والتاريخ. ويقوم لوجود بأسره - سواء كان وجود الطبيعة والإنسان أو المظاهر المتفاوتة للحياة الفردية والاجتماعية للإنسان - على أساس المشيئة الإلهية، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢).

فالمشيئة الإلهية هي التي اقتضت أن يتغلب الناس على أهوائهم وغرائزهم لحيوانية، من خلال الاعتماد على فطرة طلب الكمال التي لديهم، فتنتصر قوى الحق في المجتمع على الباطل من خلال شن الحرب عليه، وتعبئة كافة الجهود

(١) سورة الأنبياء: ٦٧/٢١.

(٢) سورة فاطر: ٢/٣٥.

والإمكانات ضده.

إذن إرادة الناس الخيرين المتكاملين ، تعمل إلى جانب مشيئة الله على بلورة الحلقات التكاملية للتاريخ ، لذلك لا يمكن تجاهل الدور الكبير المؤثر الذي ينهض به الأنبياء والأولياء عليهم السلام في الحركة التكاملية للمجتمعات الإنسانية في صياغة التاريخ.

المجتمع من منظور القرآن الكريم:

يولي القرآن الكريم أهمية كبيرة للمجتمع الإنساني ، إلى جانب الأفراد . ويعتبر المجتمع مصدراً للعديد من الآثار ، أي: أنه مثلما اهتم بالناس كأفراد . وسلط الضوء على حياة الشخصيات الكبرى والحوادث التي تعرضت لها ، اهتم كذلك بمسار المجتمعات والأمم . فالمجتمع عبارة عن مجموعة من البشر يحتاج كل منهم للآخر في حياته ، وتربط بينهم وشائج متشابكة . ولذلك للمجتمع آثار وأحكام مستقلة عن الفرد . ويؤكد القرآن الكريم في العديد من آياته على المجتمع كمركز ومصدر لآثاره وأحكامه الخاصة ، وهناك أمثلة قرآنية كثيرة على هذه الحقيقة .

منها: إنَّ القرآن الكريم يدعو إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم يدعو المسلمين لعبادة الله تعالى مجتمعين: ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الرَّاَكِعِينَ﴾ (١).

إذن الركوع حينما يكون جماعياً لديه قيمة أكبر من الركوع الفردي ، مما يؤكد على أهمية المجتمع ، والممارسات الاجتماعية بما فيها العبادة .

ومنها: إنَّ القرآن الكريم يعتبر المجتمع الإسلامي مجتمعاً معتدلاً ومثالاً

٢٧٥ مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(١). فهذا

مجتمع الوسط أو المعتدل، مجتمع رائد وسباق في شتى حقوله وزواياه، بما فيه جانب الاقتصادي: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾^(٢).

ومنها: إن القرآن الكريم يشير حتى إلى عمر الأمم والمجتمعات، ويعتبرها ذات أعمار وآجال كالأفراد:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٣).

لقد حظيت المجتمعات بعناية الله ومحبته الخاصة والطاقفه أيضاً، وهي لأطاف التي تنزل على الناس حين انصياعهم للأوامر الإلهية في قالب المجتمع: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(٤).

ورغم اعتقادنا بأن المجتمع لديه إلى جانب الأفراد آثار خاصة، وليس بالإمكان الأخذ بفلسفة أصالة الفرد، غير أن هذه الدراسة - أي الحركة التكاملية بتاريخ - لا تدور حول هذا البحث، ولا ينبغي إشغال أنفسنا كثيراً بهذا اللون من تمباحث. فلسفة أصالة الفرد وأصالة المجتمع، فكرة تبلورت في الغرب، ولو قحمننا أنفسنا في مساجلات مع هذه الأفكار الفلسفية الغربية، لأدّى ذلك إلى تباطؤ الحركة التكاملية. فنحن نتحدث عن البشرية والإنطلاق نحو الغاية النهائية خلال مسار تكاملي مستمر، سواء أطلقنا عليها اسم المجتمع، أو مجموعة لأفراد، أو أي اسم آخر.

(١) سورة المائدة: ٦٦/٥.

(٢) سورة المائدة: ٦٦/٥.

(٣) سورة يونس: ٤٩/١٠.

(٤) سورة المائدة: ٥٤/٥.

مفهوم التضاد ودوره في حركة التاريخ:

طبقاً للفكر الإسلامي، يُعدّ تضاد القوى الاجتماعية من العوامل المهمة في الحركة التكاملية للمجتمعات والتاريخ.

فالتضاد بين العدل والظلم، والحقّ والباطل، والخير والشر، مبدأ مقبول في القرآن الكريم، ومؤكّد عليه في جملة من الآيات.

ومن الآيات التي تتحدّث بصراحة عن هذا المبدأ، قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١).

عدد كبير من المفسرين يعتقد أنّ مفاد هذه الآية الكريمة هو أنّ الله تعالى يدفع الفساد الذي يقوم به بعض الناس، بواسطة البعض الآخر، وإلا لغرقت الأرض في الفساد والجرائر. وهذا قانون مستمر ومتداول يعيش فيه الناس على أساس المعادلة المترتبة عليه.

ومما جاء على لسان بعض المفسرين بهذا الشأن، ما ذكره السيوطي في الدر المنثور، قائلاً: «وأخرج مسلم والترمذي وابن ماجة عن ثوبان أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك».

وأخرج البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون.

وأخرج أبو داود والحاكم، وصحّحه عن عمران بن حصين: أنّ رسول الله

(١) سورة البقرة: ٢٥١/٢.

٢٧٧..... مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ

صلى الله عليه وآله قال: لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال.

وأخرج مسلم عن عقبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم، لا يضربهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»^(١).

وقال الزمخشري في ذيل الآية المتقدمة من سورة البقرة: «لولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض، ويكفّ بهم فسادهم؛ لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها، وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض»^(٢).

وقال الألوسي في (روح البيان): «لكنه تعالى يدفع فساد بعضهم ببعض، فلا تفسد الأرض، وتتنظم به مصالح العالم، وتنصلح أحوال الأمم»^(٣).

ويمكن أن نشاهد هذه الفكرة بوضوح أيضاً في الحديث المعروف بحديث نعل والجهل للإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، إذ جاء فيه:

«... ثم جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً، فلما رأى الجهل ما أكرم الله به العقل وما أعطاه، أضر له العداوة، فقال الجهل: يارب، هذا خلق مثلي خلقتهم وكرمتهم وقويتهم، وأنا ضده ولا قوة لي به فأعطني من الجند مثل ما أعطيتهم. فقال: نعم، فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك وجندك من رحمتي، قال: قد رضيت فأعطاه

(١) الدر المنثور / السيوطي ١: ٥٦٩ - ٥٧٠، وللحديث مصادر أخرى كثيرة غير ما ذكرها السيوطي، تجدها مفصلة في المحل المناسب لها في موسوعتنا هذه (بشارة الأمان بموعد الأديان).

(٢) راجع: تفسير البحر المحيط / ابن حيان الأندلسي ٢: ٢٦٩، والكشاف / الزمخشري ١: ٣٨٢.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم / الألوسي ١: ١٦٤.

خمسة وسبعين جنداً...»^(١).

في الحرب المحترمة بين الحق والباطل، لا بد أن ينتصر الحق في نهاية المطاف. وهذا القانون وإن كان حتمي التحقق، إلا أنه يقوم على أساس اختيار الإنسان وإرادته، ولهذا السبب يضع القرآن الكريم للمجتمع المنتصر بعض الخصوصيات والشروط التي منها:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٢). أي هذه الخصوصيات، تمثل رمز انتصار المجتمع الإسلامي.

إذن الفساد في الأرض لا يمكن أن تُكتب له الاستمرارية قط.

ففي كل مرحلة تاريخية يظهر هذا الفساد، لكنه يندحر في مرحلة أخرى على يد العدل والصلاح، إذ لولا ذلك لاختلَّ النظام الحياتي للإنسان وغرق في الفساد واضطربت أوضاع الأنظمة المهيمنة على الطبيعة والإنسان.

من جانب آخر، نحن نعلم - وقد اثبت لنا التاريخ أيضاً - أن الأنظمة العادلة التي قامت على أساس مصالح الإنسان العامة، لم تستمر هي الأخرى أيضاً. وما أكثر الحكومات والحركات العادلة المحققة التي اندحرت على يد الحركات والتيارات الظالمة، فإذا كان الفساد والباطل أمراً زائلاً ومندحراً، فلماذا تزول هذه الحكومات العادلة وتتدحر على يد الحركات الظالمة؟

هذه الحالة تؤكد على الدور الذي يلعبه التضاد في حركة ومسار المجتمعات والتاريخ، ولكن لا بد من فهم وإدراك الخصوصيات التي تميّز الحق عن الباطل. والصلاح عن الفساد. فهل قيمة الحق تقتصر على مجرد وقوفه بوجه الباطل من

(١) أصول الكافي / الكليني ١: ٢١ / ١٤، كتاب العقل والجهل.

(٢) سورة الحج: ٤١/٢٢.

لحق أن تتبلور معادلة الأضداد، ثم يزول الحق، ويحل محله الباطل، ثم يأتي الحق من جديد ليحل محلّ الباطل وهكذا؟ أم إنّ هناك مبدأ آخر لا بد من أخذه بنظر الاعتبار؟

والجواب: صحيح أن الإنحطاطات والمفاسد تظهر خلال معادلة التضاد بين الحق والباطل، غير أنّ الباطل أو الفساد لا أصالة له في هذه المعادلة، وإنّما الأصالة للحق والحقيقة. وهذا ما يمكن أن نلاحظه بوضوح في الآيتين التاليتين:

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^(١).

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا صَفَّوْنَ﴾^(٢).

فكرة تضاد القوى المؤلفة للمجتمع ودورها الحاسم في حركة التاريخ تكاملية، لم تغب عن بال الماديين أيضاً. فقد أشار إليها هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣٠م)، وأصر عليها كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣م). بل إنّ التضاد، موضوع حظي باهتمام المفكرين قبل ميلاد السيد المسيح بقرون. فقد أثار أنباذوقليس (٤٩٠ - ٤٣٠ ق.م)^(٣) فكرة تنازع البقاء، وانتخاب الأصلح، ونظرية التكامل إلى

(١) سورة الإسراء: ٨١/١٧.

(٢) سورة الأنبياء: ١٨/٢١.

(٣) «أنباذوقليس: (Empedokles; Empedocle; Empedocles (490 - 430 BC)»

فيلسوف يوناني، ولد بأغريغنتا من أعمال جزيرة صقلية، كان يعتقد في خلود الروح، ويرى بعضهم أنه عاش في زمن النبي داود عليه السلام وتلقى عنه، ويرى القفطي أنه أخذ الحكمة عن لقمان الحكيم بالشام، ويقول السهروردي: إن الحكمة الإشرافية هي التي قررها جملة الحكماء الأولين ومنهم أنباذوقليس. له قصيدتان تضمنتا فلسفته وهما:

«في طبيعة الأشياء: Peri Physeos».

و«الطهارات: Katharmoi».

حدّ ما ، وفسّر الحياة البشرية وتطوراتها على هذا الأساس. فالعالم من وجهة نظره محل للصراع بين قوتين ، لأنّ الناس كائنات حية تظهر إلى الوجود بفضل النظام والحب ، ثم تموت بأسلوب الحقد والكراهية. وعليه فالموجودات الحية تعيش بين الحب والحقد ، وهو ما يعبر في الواقع عن مبدأ التضاد.

المؤرخ والفيلسوف الإنجليزي أرنولد توينبي (١٨٨٩ - ١٩٧٥م)^(١)، طرح هذه الفكرة في كتابه (دراسة في التاريخ) نقلاً عن أنباذوقليس. ولاشك في أنّ هذا المبدأ ذو خلفية طويلة ويعود إلى العهد اليوناني القديم.

واستعرض توينبي تاريخ هذا المبدأ ، ولخصّ شتى تفاسيره وقراءاته ، وأكد على تجلي هذا المبدأ وظهوره في العديد من المجتمعات في شتى العصور. وقال: بأنّ فكرة الصراع ما بين القوى المتعارضة ، وما ينتج عن ذلك الصراع من حركة متعالية ، كانت بمثابة مفتاح لفهم الخلقة ، وحركة التطور. وأشار أيضاً إلى أنّ هذه القوى المتعارضة كانت تُعرف بـ (الحب والبغض) في اليونان ، وبـ (ين ويانغ) في الصين ، وبـ الطريجة والنقيضة (Thesis) والنقيضة (Anti thesis) في الغرب الجديد.

ففكرة الصراع ما بين القوى المتعارضة إذن فكرة ذات جذور عميقة في شتى الأفكار والمذاهب التي أكدت عليها جميعاً ، رغم الاختلاف الظاهري فيما بينها. فما يقال من أنّ هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١م) ، وماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣م) وأتباعهما قد استنبطوها من خلال دراسة الجدل والخطابة ، لا يمت إلى الحقيقة

(١) «توينبي (أرنولد يوسف): (Arnold Joseph Toynbee (1889 - 1975 AD)»

فيلسوف مثالي إنجليزي، يعد أبرز ممثلي فلسفة التاريخ التأملية، أهم كتبه:

«دراسة في التاريخ: A Study of History».

يقع في اثني عشر مجلداً، اعتمد فيه على المنهج الاستقرائي.

ف ٥: مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ..... ٢٨١

بصلة؛ لأنّ لهذه الفكرة جذراً أساسياً يعود إلى التساؤل عن مصدر الوجود، وكيفية تحقّق مراحل الوجود، وطريقة استمرار الوجود. والانحراف الذي ظهر في هذا الأصل الفلسفي بلغ ذروته في أفكار ماركس، وهو ما نشير إليه بالمقدار الذي ينسجم مع دراستنا هذه:

المعروف عن الحركة الاجتماعية من وجهة نظر الماركسيين، هو أنّ التاريخ تابع للجبر، أو الحتمية، وي طرح هؤلاء موضوع الجبر في جميع الحركات الاجتماعية، ويعتبرون التضاد بين الفقر والغنى مهذاً للجبر التاريخي، ويقولون بحتمية غلبة الفقير على الغني في المستقبل. أي سيحلّ ذلك اليوم الذي تقوم فيه الحضارة الإنسانية على المساواة الكاملة.

ولكن الأمر الذي لا بد من التوقف عنده، هو أنّ الحتمية التاريخية لم تكن وليدة الفكر الماركسي، وإنّما كان ماركس قد أكد على الخطوط العامة للجبر في التاريخ، وقال إن التاريخ ينطلق في حركته عن إرادة جبارة كامنة في قلب الطبيعة. وعلى هذا الأساس كان يقول: (بالرغم من حتمية الحركة الاجتماعية لتاريخ من حيث الأصول والكليات، إلّا أنّ فروعها وجزئياتها اختيارية وتقوم على أساس إرادة الإنسان).

ويذهب بعض المفكرين كالمفكر الفرنسي (غودرويغ) الذي يأخذ بالفكر ماركسي، في كتاب له يحمل عنوان (الحتميات الاجتماعية والحرية) إلى اعتبار حركة المجتمع مجموعة من الحتميات العامة والحرية الجزئية.

على أية حال، ليس بوسعنا القول بأنّ الحركة التكاملية للتاريخ جبرية، لأنّ عامل الرئيس في حركة المجتمعات والتاريخ هو الإنسان، وكلنا يعلم أنّ الإنسان كائن مختار ومنتخب. لذلك قد تكون حركة التاريخ شديدة وقوية وقد تكون ضعيفة، كما قد تكون إلى الأمام وقد تكون رجعية، ولربّما تكون ساكنة أو

تكون بطيئة في بعض الأحيان. ومن هنا لا يمكن أن نعتبرها جبرية وحتمية، ومع ذلك لا ينبغي أن نتجاهل أنها حركة تكاملية في محصلتها النهائية.

ولا ينبغي كذلك أن نخلط بين مبدأ التضاد، هذا المبدأ المقبول في الفكر الإسلامي، وبين التناقض الديالكتيكي، لأن التناقض الديالكتيكي يعتبر الحقيقة الخارجية وفكر الانسان من الحقائق الخاضعة لمبدأ التناقض، هذا أولاً، وثانياً تذهب نظرية التناقض الديالكتيكي إلى القول بأن كل وجود يحمل العدم في ذاته، وتعرّف تكامل التاريخ بأنه عبارة عن الجمع بين الضدين أو المتناقضين. حيث يتحول أحدها إلى الآخر. بينما تتعارض هذه النظرية مع الكثير من أسس وأصول الفكر الإسلامي، كمطلقية الأصول والحقائق الخالدة، كما لا تتسجم مع طبيعة القوى المبلورة للإنسان والمجتمع، وكيفية ظهور القوى المتضادة.

عدم تغاير التضاد مع وحدة المجتمع الإنساني:

الإنسان موجود اجتماعي ومدني بالطبع، نظراً لما يتمتع به من خصوصيات ذاتية وفطرية يشترك فيها جميع أفراد النوع الإنساني، فميل بعضهم إلى البعض الآخر نابع من ميل الإنسان إلى الكمال. فالناس يجدون أنفسهم يمتلكون جوهر واحداً، وأنهم في حكم الفرد الواحد، بحيث لا يعتبرون حتى التضاد في عالم الإمكان عائقاً يحول دون وحدتهم. لذلك نرى صدر الدين الشيرازي (ت/١٠٥٠هـ) يقول بهذا الشأن: «واعلم أن العالم كله كشخص واحد رقاص على اختلاف أوضاعه وفنون حركات أعضائه، بعضها بالسرعة، وبعضها بالبطء، وبعضها بالإيماء اليسير، وبعضها بالسكون. فيرقص ظاهره، ويهتز باطنه فنوناً من الرقص والاهتزاز بحسب الحركة الطبيعية والنفسية والعقلية لدواع مختلفة، وأغراض متفاضلة في الدنو والعلو، وتقرباً إلى مبادئ مختلفة في نعر

ولشرف والجمال، حتى ينتهي إلى الغاية الأخيرة الإلهية للمبدأ الأوّل الفعّال،
التيء بالكلية من النقص والزوال في الموضوع، القابل المحمدي عليه وآله
الصلاة وأكمل الرحمات. فالصلوات والرحمات بمنزلة الصور المترادفة على
موضوع الحركة التي قيل في تعريفها: إنها كمال أوّل لما هو بالقوة من حيث هو
«بقوة»^(١).

ويُستشف من كلام صدر الدين الشيرازي، ما يلي:

أولاً: يتميّز نظام الخلقة وموجوداته بانسجام كامل.

ثانياً: إن جميع الموجودات تتحرك في إيقاع واحد يتمثل في حب الله،

وتطلق جميعاً نحو الجمال والشرف والكمال.

ثالثاً: تستفيض في حركتها نحو الكمال بالولاية المحمدية، فتستمد منها

لنشاط والاستمرارية.

رابعاً: الرحمات والألطف الإلهية، بمثابة الصور التي تتحرك على موضوع

الحركة المتمثل بالولاية المحمدية.

ويبدو أنّ الحديث القدسي القائل: «لولاك لما خلقت الأفلاك»^(٢) يعبر عن هذه

الحقيقة أيضاً، وهي أنّ الهدف من الخلقة هو تحقيق الكمال الذي يجري ويفيض

عن طريق الولاية المحمدية. وستستمر هذه الولاية حيث تتجلى من بعد الرسول

(١) تفسير القرآن الكريم / صدر المتألهين الشيرازي ٤: ٤٢٠.

(٢) ألقاب الرسول وعترته / بعض قدماء المحدثين: ٩، ومناقب آل أبي طالب / ابن

شهر آشوب ١: ٢٧١، وتأويل الآيات / الاستريادي ١: ٤٣٧، وبحار الأنوار / المجلسي ١٥:

٢٨، و١٦: ٤٠٦، وينايع المودة / القندوزي ١: ٢٤.

وأورده أيضاً المازندراني في شرح أصول الكافي ٩: ٦١ / شرح الحديث السادس عشر،

باب المصافحة، كتاب الإيمان والكفر.

الأكرم عليه السلام في أوصياؤه الإثني عشر عليه السلام. ويمثل الوجود المقدس للحجة بن الحسن المهدي أرواحنا له الفداء، موضوع حركة الخلق ومسار تحول التاريخ البشري في هذا اليوم، حيث يتناول رحمة الله، ويفيض بها على نظام الخلق والمجتمع البشري. وانطلاقاً من هذه الحقيقة ورد في الأحاديث الشريفة: «لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها»^(١).

وستُفَعَّل هذه الحقيقة تماماً في مرحلة قادمة من مراحل التاريخ.

الاستنتاجات:

- ١- تحرك المجتمع البشري نحو الكمال، أمر فطري.
- ٢- تجري خلال حركة المجتمع البشري سنن الله وقوانينه التي لا تقبل التغيير، كغلبة الحق للباطل، وانتصار الخير على الشر، مع احتفاظ الإنسان بحريته في اختيار طريقه، دون أن يتعارض ذلك مع السنن الإلهية القطعية.
- ٣- طالما يلاحظ في التاريخ وقوع انحطاطات، وانحرافات، وسقوط حضارات خلال عملية الحركة نحو الكمال. فما أكثر المجتمعات التي انطلقت في برهة زمنية نحو الكمال، لكنها غيرت اتجاه حركتها عندما اصطدمت بالعقبات والحوادث، فالحكومة الدستورية - مثلاً - قد طرحت في إيران سعيًا لتحقيق أهداف سامية، لكنها جوبهت بمن أجبرها على تغيير مسارها. وقد قال المجتهد المصلح الشيخ فضل الله نوري في ذلك: لقد زرعنا عنباً كي نستخرج منه خلافاً فأعطانا خمراً.

رغم ذلك كله، فالانحطاطات والانحرافات، عبارة عن حركات متعرجة

(١) حديث متواتر مروى من طرق صحيحة شتى كما سيأتي تفصيله في الجزء الأخير بحتمية وجود الإمام عليه السلام في كل زمان في هذه الموسوعة.

تعرض مع الحركة المستقيمة، لأنَّ الحركة المتعرجة محدودة وجزئية، بينما الحركة المستقيمة للتاريخ، حركة طبيعية وذاتية، وتخضع لقانون إلهي، وتجري على أساس مشيئة فوق عالم الإمكان فتجتاز جميع العقبات والمعرقلات المرحلية. وأولئك الذين يعبرون عن الحركة المتعرجة بالحركة الدورية، لا يميزون بدقة في التعبير لعدم إدراكهم عمق هذه المسألة وأبعادها.

تعرض المجتمع الإنساني للظلم الذي فرضه عليه الأقوياء، منذ بداية التاريخ، أي: منذ ذلك اليوم الذي أبعده عن الرسل والأنبياء، وفضل أفكاره كقصة على قيادة الأولياء الإلهيين وتعاليمهم السامية. وتعاظم الظلم والجور فيما بعد لاسيما في أعقاب التطورات العلمية وشتى الاختراعات، وابتداع الوسائل والأساليب الحديثة، حتى أصبح الإنسان أكثر بعداً عن الولاية الإلهية. ورغم ذلك كله كانت تجري عملية التكامل الفكري وتنمو تدريجياً، حتى أخذت - بدورها - تلفت انتباه المجتمع البشري إلى أخطائه، وتدفعه بشكل متزايد نحو المبادرة إلى تصحيح مساره. غير أنَّ نمو الوعي وازدياد المعرفة أمر ضاعف من آلام الإنسان، لأننا كلما اطلعنا بشكل أكبر على المصائب والكوارث التي تحيط بنا، ازدادت آلامنا ومعاناتنا، وهو ما وضع البشرية على مشارف عورة عالمية.

أشار (رينه غينون) إلى أزمات واضطرابات العالم الجديد، وعدَّ ذلك تباشير نهاية العصر الراهن، وبداية حياة جديدة للإنسان؛ إذ يقول: «لو قيل: إنَّ العالم تحديث يعاني من الأزمات، فالمراد هو أنَّ هذا العالم بلغ مرحلة حرجة، أو تعبیر آخر: إنَّ ثمة تغييراً عميقاً سيقع في العالم سواء كان عن إجبار أو اختيار، وسيكون هذا التغيير فجائياً يرافقه إعصار عاصف... حينذاك يبدو أننا قد اقتربنا

من نهاية الأمر. وهذا الموضوع يجعل الوضع المضطرب الذي ظهر منذ قرون - لكن عواقبه لم تكن بحجم ما هو ملاحظ في العصر الراهن - محسوساً بشكل أكبر»^(١).

النظام الجائر للعالم الراهن نظام معقد إلى درجة بحيث كانت الهدية التي قدّمتها الاختراعات، والإبداعات العلمية، والفنية التي تمثل الوجه الإيجابي لعصرنا الراهن، هي الدمار والتخريب والظلم والعدوان، ناهيك عمّا قدمته الوجوه السلبية لهذا العصر.

يقول غينون بهذا الشأن:

(مع الاعتراف بوجود محاسن للتطور المادي - وإن كانت نسبية جداً - ولكن حينما نلاحظ مثل هذه النتائج، لنا الحق أن نسأل: ألم تصبح مساوئ هذا التطور المادي أكثر من محاسنه؟ فإننا إذا لم نتحدث عمّن ضحى في طريق التطور، وكانت قيمته أكبر من هذا التطور، ولم نتكلم عن المعارف العالية التي أُسدر عليها ستار النسيان، ولم نقل بشيء عن الإدراك القدسي الذي تقوّض صرحه - وعن المعنوية التي انتهكت حرمتها، وأخذنا الحضارة الحديثة نفسها بنظر الاعتبار فقط، وقارنّا بين أضرارها ومنافعها، لكانت نتيجة هذه المقارنة سلبية - إذن من حقنا أن نفكر ونقول: إذ لم يستطع العالم الحديث أن ينجح في هذا الطريق ما دامت هناك فرصة، فإنه سيدمر في نهاية المطاف نفسه بنفسه)^(٢).

التضاد والفوضى والاختلافات القائمة بين عوامل الظلم والجور في المجتمع، وبين الأناس الواعين للحقيقة والمناهضين للظلم والإجحاف، لا -

(١) أزمة العالم الحديث / رينه غينون: ٩ من المقدمة.

(٢) أزمة العالم الحديث: ١٤٢.

وأن تقود المجتمع الإنساني نحو هدفه النهائي .

حركة المجتمع نحو الغاية النهائية للتاريخ:

للمجتمع الإنساني في حركته التكاملية ، غاية أو غايات. ولا ريب في أنّ هذه الغاية هي تحقيق السعادة الفردية والاجتماعية للإنسان ، ولكن السؤال الأساسي الذي يثير نفسه هو: أين تكمن السعادة الفردية والاجتماعية؟ من أجل الإجابة على هذا السؤال ، من الضروري تناول موضوع السعادة بشيء من الإيجاز.

السعادة لغوياً تقع في مقابل الشقاء. وهذان العنصران - أي السعادة والشقاء - من بين العناصر المهمة التي استقطبت اهتمام المفكرين والفلاسفة.

يقول الفارابي (ت / ٣٣٩هـ): «السعادة هي الخير على الإطلاق ، وكل ما ينفع في أن تُبلغ به السعادة وتنال به ، فهو خير أيضاً ، لا لأجل ذاته ، لكن لأجل نفعه في السعادة ، وكل ما عاق عن السعادة بوجه ما ، فهو الشر على الإطلاق»^(١). وبعد أن يقسم الفارابي الخير إلى إرادي وطبيعي ، والشر كذلك إلى إرادي وطبيعي ، يقول:

«ومدبر المدينة - وهو الملك - إنما فعله أن يدبر المدن تديراً ترتبط به أجزاء المدينة بعضها ببعض وتأتلف ، وترتب ترتيباً يتعاونون به على إزالة الشرور وتحصيل الخيرات... وبالجملة يلتمس إبطال الشرين جميعاً ، وإيجاب الخيرين جميعاً»^(٢).

لابن سينا (ت / ٤٢٨هـ) كلام شبيه بكلام الفارابي في سعادة الفرد والمجتمع.

(١) السياسة المدنية / أبو نصر الفارابي: ٧٢.

(٢) السياسة المدنية: ٧٢.

وأما صدر المتألهين الشيرازي (ت/ ١٠٥٠هـ) فله كلام جديد في هذا المضمار. إذ يرى أن كمال النفس الناطقة يتحقق من خلال بلوغها مرحلة المعنوية والعلم اللذين يساعدها على بلوغ الحقيقة ومن ثم السعادة، فمن وجهة نظر الحكمة الإلهية، إن العامل الأساس للكمال أو ما يعبر عنه بعين الكمال في بعض الأحيان، هو معرفة الإنسان بحقيقته وبالعالم الذي يحيط به، والتي تؤدي إلى معرفة الأسماء الحسنی^(١).

وبتعبير آخر: يكمن كمال الفرد في معرفة موقعه، والعمل بوظائفه ومسؤولياته الملقاة على عاتقه. فالكمال أو القيمة التي تميز الإنسان عن غيره، هو التكليف والمسؤولية التي يتحملها، وكذلك الأمانة التي أودعها الله عنده بحسب التعبير القرآني:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٢).

هذه الآية العجيبة في بلاغتها وسعة دلالاتها تؤكد على أن الإنسان حر الوحيد الذي أعلن عن تحمله لتلك المسؤولية، فكان ظلوماً لنفسه وجاهلاً، لأنه حينما يغفل عن مسؤوليته الإنسانية يكون غارقاً في الجهل. فالله تعالى قد رفع الإنسان في هذه الآية الشريفة إلى الذروة، فعبر عنه بحامل للأمانة، وأنزله إلى الحضيض حينما عبر عنه فيها بالظلم الجهول، أي: إننا نشاهد في آية واحدة تكريم الإنسان في حال القيام بأعباء ما أوكل إليه كما ينبغي، وإهانته في حال إخفاقه وتقصيره في ذلك!

نعم، فهو مكرم إذا نجح في حمل تلك الأمانة وأوصلها إلى حيث طلبت

(١) الأسفار الأربعة / صدر المتألهين ١: ١٤٨.

(٢) سورة الأحزاب: ٧٢/٣٣.

لها. وهو مهان إذا فشل في حملها، ولم يكن بمستوى تحمل تلك الأمانة والمسؤولية.

صفة النطق التي لدى الإنسان، اتخذها الحكماء والفلاسفة للتمييز بين الإنسان والحيوان، ولكنهم لم يفسروها كما ينبغي، ولم يضع القرآن الكريم حدّ طيبه في تعرجات الاصطلاحات، فعبر عن الإنسان بأمين الخلق، لأنّ الإنسان العاقل وصاحب الشعور، أمين ومسؤول، وتتجلى سعادته في ظلّ حال الأمانة إلى موضعها.

إذن سعادة الإنسان كامنة في تفتح العقل وأداء المسؤولية، والتكليف. وقد جعل القرآن الكريم التعقل والتفكير طريقاً لبلوغ هذا الهدف، ولهذا تكررت في القرآن عبارات من قبيل: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١)، أو ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢). والتعقل هو الذي يجعل الإنسان عارفاً، ومسيطرأ على الخلق. ولو ذهب إلى ما هو أعلى من ذلك لتوصل إلى كماله. ولذلك يقول الإمام عليّ عليه السلام: «... فلأنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض...»^(٣)، فهذه المعرفة هي التي تصبح قوة الولاية.

والمدهش في الأمر أن يذهب بعض المفكرين في الشرق والغرب إلى القول بحرية الإنسان إلى حد الإطلاق! والعقل لا يحكم بهذا أبداً وهو يرى أن الإنسان مسؤول ومكلف، وحرية الحقيقية إنما تكون في ظل الاقتراب من خالقه، ولا يتحقق هذا إلا في ظل المسؤولية والتكليف أيضاً.

وإذا حدّد الإنسان معالم الطريق، وانطلق لفهم الوجود على ضوئها، فسيفكر

(١) سورة البقرة: ١٦٤/٢.

(٢) سورة يونس: ٢٤/١٠.

(٣) نهج البلاغة، تحقيق الشيخ محمد عبده ٢: ١٣٠ خطبة رقم ٨٩، وكتاب سليم بن قيس ٢: ٧١٢ الحديث السابع عشر.

آنذاك بطريقة أخرى، ويعتبر بكل شيء من أجل الهدف الذي خلق من أجله .
 يقال: إنَّ المرحوم الشيخ جعفر الشوشتري - وكان من كبار علماء عصره -
 بينما هو يتجه نحو المسجد وإذا به يرى منظرًا هزّه من الأعماق، وحينما اعتلى
 المنبر لإلقاء وعظه الذي اعتاد عليه، انفجر باكياً، ولم يستطع أن يتكلم. فسأته
 الحاضرون عما حل به، فقال: حينما كنت في طريقي إلى المسجد وقع بصري
 على حمار كان يحمل التبن. وحينما وصل ذلك الحمار الى موضع كانت تُبنى فيه
 بناية، وقف الحمار عنده، فأنزل البناؤون ذلك التبن عن ظهره. وقد أثار ذلك
 المنظر في ذهني ما عاتبت به نفسي فقلت: إلهي لقد أوصل هذا الحمار الحمل
 الذي كان يحمله إلى الموضع الذي كان ينبغي عليه أن يوصله إليه، فهل سأوصل
 أنا الحمل الذي أحمله إلى موضعه؟! إلهي ماذا سأقول لو قلت لي: إنَّ الحمار قد
 أوصل حملة إلى مقصده، فلماذا لم توصل حملك إلى مقصدك أيّها الإنسان؟!
 صفوة القول هي أنَّ على المجتمع الإنساني الإنطلاق على أساس العدل
 والعلم، وهذا هو مفاد القرآن الكريم. فحينما يرى الفلاسفة تحقق سعادة المجتمع
 في بلوغ الخير، والشقاء في الوقوع بأسر الشر، ينطلقون في ذلك من هذا الكلام
 الإلهي، لأنَّ المجتمع الذي يقوم على العدل والعلم، وتحترم فيه حقوق كل فرد
 من أفراده، مجتمع سعيد وناجح.

وعلى ضوء ما تقدم يمكن أن نستكشف من الآية الكريمة السابقة، الحقائق

الثلاث التالية:

١- تتحقق سعادة الإنسان وكماله الحقيقي في بلوغه المكانة الحقيقية
 والمقصد النهائي. فالإنسان من وجهة نظر القرآن الكريم حامل للأمانة الإلهية.
 وحينما ينجح في إيصال هذه الأمانة، يحقق السعادة المطلوبة.

٢- من أمارات أمانة الإنسان: العقل (العلم)، والعدل (العمل). ومن الواضح

٢٩١ ٥: مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ

إن الإنسان يدرك الوجود كما هو بواسطة العقل والعلم، فيتحرك على هذا الأساس، فيضع كل شيء موضعه بواسطة العدالة، فلا يظهر أي خلل أو ثغرة في نظام الفردي والاجتماعي للحياة البشرية.

٣- يعد الانحراف عن مسار الخلق وغايتها، ظلماً وجهاً. فتجاهل المجتمع بشري من حيث الحقوق والقيم، والإعراض عن نظام الخلق، لدليل على شرور والشقاء والبؤس.

ومن هذا المنطلق فإن ما تعنيه الحركة التكاملية للتاريخ، إنما هو تعميق، وتوسيع للعناصر التي تتيح للإنسان بلوغ السعادة. فالإنسان يتحرك فطرياً نحو تكامل الفردي والأخلاقي، فكلما استطاع أن يتخلص من أنواع الفساد الروحي والاجتماعي، اقترب من غاية الحركة التكاملية، أي: السعادة والفلاح. إذن مستقبل التاريخ مستقبل مشرق وضاء، تزول فيه جميع العقبات التي تعترض طريق السعادة، فينجح الإنسان الكامل في تحقيق السعادة الفردية والاجتماعية من خلال استثمار جميع التعاليم الإلهية، والاعتماد على التجارب التاريخية والحضارية. وهذه هي تلك البشارة التي عبّر عنها الإسلام بالنهضة العالمية والتاريخية للإمام المهدي الموعود عجل الله تعالى فرجه.

المدينة الفاضلة من منظور الفارابي:

لا تتحقق السعادة والحياة البشرية الطيبة إلا في المجتمع الذي يوفر مقدمات تربية الناس وهدايتهم نحو السعادة.

وقليل هم أولئك الذين استطاعوا العثور على طريق السعادة، ولم تتزعزع إرادتهم في خضم الأجواء الملوثة الفاسدة التي تحيط بهم. لقد انطلق الحكماء والفلاسفة -الذين اهتموا بموضوع السعادة البشرية- لرسم ملامح المدينة الفاضلة، وهي المدينة التي تعيش حالة الاعتدال التي تبعث على نضج

الاستعدادات والمواهب. ويُعدّ أبو نصر الفارابي (ت/٣٣٩هـ) على رأس المهتمين بهذا الشأن:

الناس، من وجهة نظر الفارابي، مختلفون فيما بينهم من حيث المؤهلات والاستعدادات، ولديهم فِطْرٌ متنوّعة.

فلبعضهم استعداد محدود لإدراك المعقولات، بينما للبعض الآخر استعداد أكبر. وهذا الاختلاف في الإدراك هو الذي يؤدي إلى ظهور صنائع وحرف مختلفة، ويعمل على ظهور الاختلاف في الطبقات، وقد تقع هذه الفِطْرُ المختلفة تحت التعليم، وقد لا تقع في بعض الأحيان، وحينما تتعلّم تبلغ مرتبة الكمال المطلوب. لذلك ينبغي في المدينة الفاضلة أن تربي جميع الاستعدادات والفِطْرُ بالاتجاه الذي يلائمها، والإفادة منها.

الفارابي يعتقد أنه لو وجد من يتمتع باستعداد جميع الفضائل، ثم أصبح يمتلك جميع هذه الفضائل بفضل التكرار والتمرين، فمثل هؤلاء مفضّلون على الآخرين جميعاً، حتى أنّ القدماء كانوا يعتبرون هذا اللون من الرجال، إلهيين.

ويعتقد كذلك أن السعادة تتحقّق حينما تفيض العقول الفعالة على الناس. فتفيض المعارف والمعقولات الأولية أولاً، كي يبلغ الناس مرحلة الكمال بحسب الفطرة والاستعداد. ويؤكد على أنّ الفطرة ليست واحدة، وليس بوسع كل فطرة أن تستقبل المعقولات. فالناس قد خلقوا مختلفين في الخلقة الأولية.

يقول الفارابي: «فهذه الإفاضة الكائنة من العقل الفعال إلى العقل المنفعل بأن يتوسط بينهما العقل المستفاد هو الوحي. ولأنّ العقل الفعال فائض عن وجود السبب الأول، فقد يمكن لأجل ذلك أن يقال: إن السبب الأول هو الموحى إلى هذا الإنسان، بتوسط العقل الفعال. ورئاسة هذا الإنسان، هي الرئاسة الأولى.

ف ٥ : مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ..... ٢٩٣

وسائر الرئاسات الإنسانية متأخرة عن هذه أو كائنة عنها، وتلك هي بيّنة»^(١).
والفارابي يقسم المدن - على أساس الأهداف والإمكانات ولون التربية -
إلى نوعين: مدينة فاضلة، ومدينة غير فاضلة. ويرى أنّ هدف رئيس المدينة - أو
ملكها - هو إسعاد نفسه وسائر أفراد المدينة، لذلك ينبغي أن يكون ملك المدينة
أسعد أهل المدينة.

الرئيس الأول للمدينة الفاضلة عند الفارابي، هو الذي حصلت له العلوم
والمعارف بالفعل ولا تكون لديه حاجة في شيء إلى إنسان يرشده. «وهو الذي
ينبغي أن يقال فيه أنّه يوحى إليه. فإن الإنسان إنما يوحى إليه إذا بلغ هذه الرتبة،
وذلك إذا لم يبق بينه وبين العقل الفعال واسطة. فإنّ العقل المنفعل يكون شبه
المادة والموضوع للعقل المستفاد. والعقل المستفاد شبه المادة والموضوع للعقل
الفعال، فحينئذ يفيض من العقل الفعال على العقل المنفعل القوة التي بها يمكن أن
يوقف على تحديد الأشياء والأفعال، وتسديدها نحو السعادة»^(٢).

يقول الفارابي أيضاً: «والناس الذين يُدبّرون برئاسة هذا الرئيس هم الناس
الفاضلون والأخيار والسعداء. فإن كانوا أمة فتلك هي الأمة الفاضلة. وإن كانوا
أناساً مجتمعين في مسكن واحد كان ذلك المسكن الذي يجمع جميع من تحت
هذه الرئاسة، هو المدينة الفاضلة»^(٣).

ويؤكد الفارابي على أنّ «الرئيس الأوّل هو الذي يرتّب الطوائف، وكل إنسان
من كل طائفة في المرتبة التي هي استحقاقه»^(٤)، كي تنضج جميع الاستعدادات،

(١) السياسة المدنية / أبو نصر الفارابي: ٧٩ - ٨٠.

(٢) السياسة المدنية: ٧٩ - ٨٠.

(٣) السياسة المدنية: ٨٠.

(٤) السياسة المدنية: ٨٣.

فيصبح جميع أهل المدينة كالروح في أجسام متعددة، فيخدمون البلد، وينالون السعادة الحقيقية.

ولو تحقق هذا الأمر، وتفعل النظام الاجتماعي بشكل معتدل ومتناسب، وانطلق المجتمع وأفراده نحو اجتثاث الشرور وتعميق الخيور، لتحققت السعادة النهائية^(١).

علائم سعادة المجتمع في القرآن الكريم:

هناك جملة وافرة من الآيات القرآنية التي تحدثت عن سعادة المجتمعات البشرية، ومن بينها قوله تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾^(٢).

أشارت هذه الآية المباركة إلى ثلاث نتائج إيجابية لتلك السعادة الاجتماعية

تتبلور مع، تحقق الوعد الإلهي، وهي:

١- أفضل الأديان:

حينما يستخلف الله تعالى المؤمنين، وتتحقق لهم السعادة الموعودة، وتبلغ التطورات التاريخية مرحلتها الأخيرة، سيجد المجتمع البشري بين يديه دينه المطلوب، بل النظام الأفضل الأكمل للحياة: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾.

٢- الأمن:

إن اضطراب وخوف وقلق المجتمع ستتحول إلى هدوء وطمأنينة، فيشعر

(١) السياسة المدنية: ٨٣.

(٢) سورة النور: ٥٥/٢٤.

ناس بالأمن والسكينة: ﴿وَلْيُبَدِّلْنَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ .
وهذا تأكيد من القرآن الكريم - كما في العديد من آياته - على ضرورة
ستباب الأمن في المجتمع، والقضاء على حالة الخوف التي من الممكن أن تنفذ
في شتى جوانب حياة الإنسان. والخوف أنواع:

أ - الخوف على النفس: إن قتل الأنفس، وإراقة الدماء وارتكاب شتى أنواع
ظلم بحق الأبرياء، والتي تجتاح الأرض في آخر الزمان، وتضييق الخناق على
ناس، تتحول جميعاً عندما يحلّ الوعد الإلهي إلى أمن، لاسيما حينما يمسك
صالحون بزمام العلم والسلطة، وهما العنصران اللذان أديا إلى ارتكاب الكثير
من الجرائم في التاريخ القديم والمعاصر.

ب - الخوف على العرض والشرف: في آخر الزمان، تُهتك الأعراض وتُنتهك
الحرمات، ويُعتدى على الكرامات، فتذل البشرية، وتستجير بالله مما يحل بها،
فترفع كل هذه الممارسات الشريرة حينما يحكم الصالحون، وتتحقق السعادة
الاجتماعية.

ج - الخوف على المال: في آخر الزمان، يستحوذ على الأموال والثروات فئة
من الجبابرة والمستكبرين في العالم، فيما يعيش كثير من الناس جائعين،
ومشردين وبؤساء، فتحطم حكومة أولياء الله جميع هؤلاء عبدة الأصنام
والمادة، وتعيد الحقوق لأهلها، وتبدل خوف الناس إلى أمن.

ومما لا شك فيه أن الحركة التكاملية للتاريخ لا تبلغ هدفها إلا إذا استوعبت
البشرية جمعاء. وحلقات التكامل التاريخي تبشر البشرية في مرحلتها الأخيرة
بحالة الأمن التي ستوفرها العدالة العالمية. وتؤكد تعاليم الإسلام - لاسيما مذهب
أهل البيت عليهم السلام - على أن العالم سيصل في مرحلة من مراحل التغيير التاريخي
إلى العدالة العامة في جميع الميادين ضمن عملية نوعية يقودها الإنسان الكامل.

٣ - علاقة الناس بالله عزّ وجلّ:

حينما يتوفر للمجتمع البشري الدين الأفضل ، وتقوم حكومة الصالحين ، ويستتب الأمن ، ستنمهد الأرضية لإصلاح العلاقة بين العبد والمعبود ، ويسير الناس نحو مبدأ الوجود وغايته ، ويرجّحون عبودية الله تعالى على عبودية غيره: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ .

سيتحرك الإنسان باتجاه الحرية المعنوية ، وتتفعل القيم والفضائل الأخلاقية والمعنوية في الحياة الفردية والاجتماعية ، وسيتميّز المجتمع الإنساني في الحلقة النهائية للتاريخ بالميزات الإلهية الآتية:

- ١- انتشار العبودية لله عزّ وجلّ وانتصارها على كل عبودية زائفة .
 - ٢- انتصار العدالة والنقاء على الظلم والتلوث في العلاقات الاجتماعية .
 - ٣- شمولية العدل ، وامتداده إلى جميع المجتمعات البشرية .
 - ٤- تفعيل العقل ، وتحقيق الحرية المعنوية للإنسان .
 - ٥- نضج وانتشار الفضائل الأخلاقية .
 - ٦- استتباب الأمن ، وتعمّق المودة ، واتساع حالة التعاون والتضامن بين المجتمعات والأفراد .
 - ٧- الاستثمار العادل والصحيح للثروات والخيرات الإلهية .
 - ٨- انسجام الإنسان مع الطبيعة .
- هذه المميزات ، وغيرها ، عناصر أساسية تحكي عن سعادة الإنسان إلى جانب تعزّز الأخلاق ، والمعنويات في مهد الأمن والعدالة الاجتماعية .

المبحث الرابع

المؤاخذات على الحركة التكاملية للتاريخ

هناك أربع مؤاخذات تثيرها أربع نظريات ضد الحركة التكاملية للتاريخ وهذه النظريات الأربع هي:

١- نظرية دورانية حركة التاريخ:

يعتقد بعض المفكرين مثل أرنولد توينبي (١٨٨٩ - ١٩٧٥م) أن حركة تاريخ حركة دورانية أي تظهر حضارات، وتنقرض حضارات أخرى باستمرار، ولا تخرج حركة التاريخ عن هذا الإطار، وعلى هذا الضوء لا يوجد أمام الإنسان أي كمال نهائي، وإنما يبلغ التاريخ موقفاً كمالياً ثم يتراجع ضمن عملية تناوبية مستمرة.

توينبي الذي يُعد مؤرخاً ومحللاً تاريخياً قبل أن يكون فيلسوفاً، كان يحاول أن يقدم قاعدة للحوادث التاريخية لاسيما تلك الحوادث التي وقعت في عصره سواءً على الصعيد العسكري أو الصعيد الثقافي والسياسي. وقد انتقد في بادئ الأمر فلسفة هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١م) في التاريخ؛ لأنها تتجاهل أي نمو فردي لعقول الناس، وتنسى روح وإيمان الفرد! وهما من أبده حقائق عالم

الوجود، وتقدم للموجود المجرد تفسيراً مادياً تماماً^(١).

وفي مقابل تفسير هيجل للروح والتكامل التاريخي، يقف التفسير الايسكاتولوجي Eschatology للتاريخ الذي يضع الروح خارج حقيقة التاريخ، ويبحث عنها في عالم آخر غير العالم الإنساني، وينظر إلى سعادة البشر بالأساس في فصل الروح عن هذا العالم، وفي عالم الآخرة. وقد تعرض هذا التفسير لانتقاد (توينبي) أيضاً.

توينبي كان يواجه من جانب نظرية هيجل في التاريخ وفلسفته، والتي لا تركز على أساس، كما كان يدرك من جانب آخر أن تكامل التاريخ لا يمكن أن يتحقق من دون الارتكاز إلى قاعدة ونظام، ولا يمكن النظر إلى الحوادث التاريخية كحوادث اتفافية أو تصادفية، لذلك حاول إيجاد حل آخر عن طريق تقديم نظرية الحركة الدورانية للتاريخ، لإثبات وجود قاعدة تسير على ضوئها الحوادث التاريخية من جهة، وكى يبقى - من جهة أخرى - بمنأى عن الإشكالات والمؤاخذات الواردة على النظريات الأخرى في فلسفة التاريخ.

دراسة النظرية الدورانية ونقدها:

تواجه نظرية دورانية حركة التاريخ إشكالاً جاداً، وهو أن النظرة إلى التاريخ، من الضروري أن تكون واسعة وشمولية، مع مشاهدة الخط الزمني الممتد وحوادثه في فلسفة التاريخ والقوانين والأنظمة الكامنة في التاريخ. بيند كانت نظرة (توينبي) إلى التاريخ من الأسفل، وكان يركز على نقطة خاصة. فقد ركز على الحوادث التي جرت في حياته واحدة واحدة. فشاهد بعضها في حالة الرقي، والبعض الآخر في حالة الانحطاط. لكنّه لو كان قد نظر لتلك الحوادث

(١) راجع: فلسفة التاريخ / أحمد محمود صبحي: ٢٦٤.

ف ٥: مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ..... ٢٩٩

من الأعلى، وشاهد خطها الممتد، ولم يفصل بين حادثة وأخرى، لتوصل إلى نتيجة أخرى.

إن دراسة التاريخ يمكن أن تكون باحدى طريقتين، وهما:
الأولى: دراسة الحوادث التاريخية كظواهر مستقلة من دون أن يوجد بينها أي ارتباط أو صلة.

الثانية: دراسة التاريخ كوحدة واحدة وسلسلة واحدة مؤلفة من حلقات عديدة مترابطة فيما بينها يهيمن عليها نظام واحد.

وإذا ما جعلنا شتى مراحل حياة الإنسان وظهور الحضارات وسقوطها مجموعة واحدة، ولا ننظر إلى كل منها كمرحلة منقطعة عن المراحل الأخرى، فلا معنى حينذاك للحركة الدورانية للتاريخ، لأنّ النظر إلى مقاطع خاصة من التاريخ، وتجاهل خطها المستقيم المستمر، وتجاهل المراحل الأخرى بسبب عدم الاهتمام الكافي بدراسة التاريخ ومبادئه، أمر لا يؤيده أي دليل من منظور فلسفة التاريخ.

٢- نظرية رجعية حركة التاريخ:

الرجعية الاجتماعية، نظرية نادى بها في الغرب الفيلسوف الانجليزي (ايوينغ)، ويقول فيها: إنه كلما تقادم عمر المجتمع الإنساني، كان المجتمع أقل نجاحاً في تحقيق السعادة الإنسانية، وكان مسار المجتمعات مساراً رجعياً.

يستشف من كتابات بعض علماء الاجتماع، والمؤرخين المنكرين للحركة التكاملية في التاريخ، بعض الإشكالات والمؤاخذات التي تعود لأحد الأمرين التاليين^(١):

(١) راجع: أرضية علم الاجتماع / آغ برن: ٣٧.

١- إن مفهوم التكامل الاجتماعي يعني أن المجتمعات تبحث طيلة عصور التاريخ عن هدف مشترك ومعين، في حين أن هذه المجتمعات ليست متماثلة، ولا أهدافها مشتركة، ولا العامة منها فعالة، فطلب السعادة والعدالة بشكل عام، أمر لا يحل المشكلة، لأنّ للسعادة والعدالة الكثير من المفاهيم المبهمة، ولذلك فكل مجتمع يفهمها بالطريقة التي تنسجم معه. وعليه: لا يمكن تقويم شتى المجتمعات أو معرفة انحطاطها الأخلاقي على هذا الأساس.

٢- معنى التكامل الاجتماعي هو معرفة المجتمع من الأعلى والأسفل. وعند عدم تحقق هذه المعرفة لا يتحقق التكامل.

إذن حينما يدعو منكر و التكامل الاجتماعي إلى الاهتمام بالوضع القائم في المجتمعات من أجل تبين التكامل الاجتماعي، والقول بأنّ النظرة العامة للمجتمعات وتقويم تكاملها بحاجة إلى معيار، نتساءل: هل هناك مثل هذا المعيار؟

إن حياتنا الراهنة أكثر تطوراً من حياة القدامى، ولكن هل يعد هذا التطور دليلاً على التكامل. فهل الانتقال السريع من هذا الجانب من العالم إلى ذلك الجانب دليل على تكاملنا؟ وهل تعد السرعة نفسها دليلاً على التكامل؟ وهل المجتمعات الصناعية أكثر تكاملاً من المجتمعات الأخرى؟

مجموعة كبيرة من الشرقيين لا تعتبر التفوق المادي والصناعي الغربي كمالاً، وبعض الجماعات - كالمطالبين بالاقتصاد المتحلل - تعتبر مسؤوليات الحكومات الجديدة انحطاطاً اجتماعياً.

أي أن منكري التكامل الاجتماعي لا يعتبرون التغيرات الاجتماعية تكاملاً، والحقيقة هي أنّ الإنسان قد تطور كثيراً في حقول عديدة كالصناعة،

ف ٥ : مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ ٣٠١

والزراعة ، ولكن المراد بالحركة التكاملية التاريخية ، التقدم التام الكامل في شتى جوانب الحياة المدنية والحضارية .

صحيح أن هناك نواقص جدية ، كفقدان المعنوية في العلاقات القائمة في العالم ، غير أن هذه النواقص لا يمكن اعتبارها حركة رجعية في التاريخ ، فمن خلال إلقاء نظرة عامة على التاريخ وتطورات المجتمعات الإنسانية ، ندرك أن حركة الحياة المدنية للناس ، حركة تكاملية ، أمّا هذه النواقص والعيوب الملاحظة فإنها سترتفع في يوم ما بفضل استخدام التعاليم السماوية المنبثقة عن الدين الكامل ، بواسطة الإنسان الكامل في ظل ظروف خاصة .

المؤاخذات على حركة التكامل التاريخي والرد عليها:

المؤاخذة الأولى:

تواجه الحركة التكاملية التاريخية عقبات جادة. فالإنحطاطات الاجتماعية والمدنية للإنسان خلال بعض المراحل التاريخية ، تكشف النقاب عن التأثير الكبير لهذه العقبات على طبيعة هذه الحركة. وقد تحدثت بعض التعاليم الدينية - كالحديث النبوي القائل «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً»^(١) - عن شيوع الفساد والظلم ، ولا شك في أن الشيوع يتنافى مع حركة تكامل المجتمع!

الرد:

الحقيقة هي أن شيوع الظلم والجور في مرحلة من التاريخ ، سيكون مصحوباً بإدراك ضرورة النهوض ضده ، والتصدي له. وهذا التحول النوعي في

(١) هذا الحديث متواتر من طرق الفريقين وهو ما بيناه - بفضل الله تعالى - في محله المناسب من هذه الموسوعة.

الوعي العام، يمثل نقطة الحركة نحو الكمال. أي إن الفساد الذي يستشري في المجتمع بما معه من ظلم وجور، هو الذي يبعث على يقظته، ومن ثم تحركه نحو طلب العدل والإصلاح. معنى هذا أن الانحطاط لا يعمل على عرقلة انطلاقة المجتمع نحو كماله دائماً، وإنما قد يؤدي في كثير من الأحيان الى التعقل والتدبر والبلوغ، وبلورة حالة النهوض، وقدح فتيل الثورة التي ستعصف بركائز الظلم، وتؤسس لحياة جديدة قائمة على العدل.

على ضوء هذا التساؤل، من الضروري تقديم مزيد من التوضيح، كي تتضح الإجابة على العديد من التساؤلات الأخرى المثارة على هذا الصعيد، فنقول:

للمفكر المعاصر (باول تيليش Paul Tillich): الكثير من الآراء في مستقبل الأديان وفلسفة التاريخ. ويقول حينما يتحدث عن مفهوم البلوغ:

البلوغ في الطبيعة، أشبه بإنبات البذرة في التربة. فحينما تنمو تلك البذرة وتنشأ عنها سيقان، وأوراق، وأزهار، وثمار، يُعد ظهور الثمار بلوغاً لتلك البذرة. أما البلوغ في الانسان فهو أن يبلغ الطفل مرحلة الصبا. ولكن لدينا بلوغ آخر هو البلوغ الثقافي.

ويعرف البلوغ الثقافي بالشكل التالي: هو أن يكون لدى الإنسان إدراك عميق لفطرته في شتى العلاقات الفردية، والاجتماعية، وفي إطار الأخلاق والعناصر الثقافية الأخرى. وبهذا اللون من البلوغ يولي الإنسان اهتماماً لمصيره ومصير البشرية.

ويعتقد تيليش بانتقال البلوغ الثقافي من جيل لآخر، وأنه يتجه نحو حالة التكامل باستمرار، ولذلك يتوقع أن يكون المستقبل أفضل من الماضي، لأن الأخلاق المستقبلية متحضرة، بينما الأخلاق الماضية بدوية. ويؤكد على أن

ف ٥ : مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ..... ٣٠٣

التكامل الأخلاقي ، مسألة أساسية في التاريخ^(١).
ويقول: إن التكامل ليس معناه أن تقيس فرداً بآخر ، وإنما نعني - مثلاً - أن الفن أكثر تطوراً في هذا اليوم منه في الماضي. وحينما نتحدث عن البلوغ الفني نعني ظهور نقاط عطف وإبداعات فنية ، ولا نعني أن فنان اليوم أفضل من فنان القرون السابقة ، ويمكن أن نطبق هذا الأمر على المعرفة أيضاً. ففلاسفة من قبيل أرسطو كانوا متطورين جداً من حيث التجربة والعلم ، ولديهم آراء في الجوانب المعنوي ، والإلهام وتعقيد عالم الغيب. ولا يمكن أن نقول: إن الفيلسوف المعاصر أفضل من أرسطو ، ولكننا نقول: إن المعارف الفلسفية والعرفانية المعاصرة ، أعمق وأوسع بكثير من المعارف الفلسفية والعرفانية التي كانت لدى القدماء .
ويتحدث تيليش عن العدالة أيضاً ويقول: لربما لم يحصل تطور في العدالة والإنسانية ، غير أن العوامل الفنية قد تطورت من حيث المنظار الكمي. فقد كان في أثينا ، وروما ، وإيران نمط من العدالة ، غير أن الديمقراطية المعاصرة تمثل نموذجاً آخر للعدالة .

أما بشأن الأديان فيرى أن الدين اللاحق أكثر تكاملاً من الدين السابق. ويرى على صعيد الدين المسيحي أن الإنجيل الذي كُتب بعد الأناجيل الأخرى ، ذو كمال أكبر منها .

ويتحدث عن الاستثناءات أيضاً ويقول: بأن مفهوم الاستثناء في التكامل التاريخي ، عبارة عن لحظة مصيرية. ويعتقد أن اللحظة المصيرية والبلوغ ، حقيقتان يمكن أن نفهم من خلالهما التاريخ. أي: لا بدّ من أخذ الإثنين بنظر الاعتبار إذا ما أردنا أن نفهم التاريخ كما ينبغي ، وليس أن نهتم بخط واحد مستمر من التطور ونقول: أين تقدّم هذا الخط ، وأين تأخّر .

(١) مستقبل الأديان / باول تيليش: ١١٦ وما بعدها.

ويؤكد على أن تطلع الإنسان إلى بلوغ المجتمع واللحظات الحساسة أمر فطري وذاتي. ويستشهد لذلك أنه حاضر يوماً في إحدى الجامعات الأمريكية، فتحدث عن مشاكل المستقبل، والمخاطر التي تهدد حركة التاريخ، فاعترض عليه الطلبة الذين كان يحاضر فيهم، وقالوا له: إنك تززع ثقتنا بالمستقبل والكمال.

فأجابهم: لقد تحدثت عن الدين والكنيسة والإنجيل، وأشرت إلى ما في المسيحية من إشكالات، فلم تعترضوا عليّ، أما حينما تحدثت عما يهدد مستقبل البشرية وكمالها، انطلقتم جميعاً معترضين! فردوا عليه قائلين: لأنك عرضت مستقبلنا للخطر، بينما جميع آمالنا معلقة على المستقبل.

ويستنتج (تيليش)، من ردة الفعل تلك أن الانطلاق نحو الكمال والتطلع إليه، أمر كامن في فطرة الإنسان وطبيعته، ولذلك لا يطيق هذا الإنسان أية ممارسة من شأنها النيل من هذا الأمر الفطري. ويؤكد على أن هذه الفطرة ستنتصر على كل شيء في نهاية المطاف. وسيخيم الأمن والعدل والحق - التي هي عناصر فطرية يتطلبها المصير الإنساني - على الأرض بأسرها^(١).

وعلى ضوء ما تقدم، قد يثار السؤال التالي:
إذا كان المجتمع البشري يتجه نحو التطور والتكامل، فكيف يمكن تفسير الانحطاطات والانحرافات التي تُصاب بها البشرية والحضارات؟
يعتقد بعض المفكرين مثل (تيليش) أن هذه استثناءات تاريخية. والحركات الاستثنائية في التاريخ لا تؤدي إلى الانحطاط والسقوط.

(١) مستقبل الأديان / باول تيليش: ٨٣.

ف ٥ : مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ..... ٣٠٥

لا ريب في حركة المجتمع البشري نحو الكمال. وعلى غرار عالم الطبيعة كالنباتات والحيوانات والبشر سينطلق المجتمع والتاريخ نحو التكامل، وعليه.. فمن الضروري أن نفهم معنى هذا الكمال.

وعلى صعيد فهم الموضوع لا بدّ من تناول أمرين، يمكن أن تتضح من خلالهما الإجابة على السؤال المذكور.

الأمر الأول: هناك تفسير للكمال يقول بأنّ اليوم أفضل من الأمس، وغداً أفضل من اليوم. ويقوم هذا التفسير على أساس رؤية علمية وفكرية تنبئ عنها زيادة معلومات الإنسان عن العالم الذي يحيط به، وحصوله على جزئيات وتفاصيل أكبر. ولكن الهدف الأساس هو أن معرفة الإنسان عن كل العالم في حالة اتساع مستمر، ليس في مضمار الصناعة والتقنية والسيطرة على الطبيعة فحسب وإنما في قضايا ما وراء الطبيعة والأخلاق والفضائل الإنسانية أيضاً. وتقدمت عقول الناس في إدراك حقائق الوجود، وهي في أطراد مستمر. وهذا ما يمكن ملاحظته بوضوح في الكتابات والآراء والنظريات الراهنة.

وينطبق هذا الأمر على القضايا العقلية والاجتماعية أيضاً، فالإنسان في هذا اليوم أكثر فهماً وإدراكاً للقضايا العقلية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية. لذلك كلما كانت النظرية أكثر شمولية وذات نظرة أكمل للعالم، كانت أكثر نجاحاً من غيرها، وعلى هذا الضوء أخذ النسيان يلف الكثير من المذاهب والنظريات الضيقة وذات الأفق المحدودة كالمادية.

ما نريد التأكيد عليه.. هو أن إدراك حقيقة العالم والوجود، عملية ذات منحى متطور ومتكامل. وهذه حقيقة غير قابلة للإنكار.

فعلى صعيد مقولة الحركة - مثلاً - نلاحظ أن لدى الحكماء آراءً ونظريات مختلفة بهذا الشأن منذ العصر الإغريقي، فكان يقال - مثلاً - إنّ الحركة معناها

تحول ما هو بالفعل إلى ما هو بالقوة. بينما نرى وجود معان متفاوتة للحركة في كلمات فلاسفة وفيزيائيي هذا العصر، وهو ما يعبر عن التطور العظيم الذي تحقق للفكر، ولا يقتصر هذا التطور على معرفة أبعاد عالم المادة، وإنما يمكن ملاحظته في جميع الحقول والأبعاد. فالمجتمع العلمي البشري، يزداد تطوراً ورقياً في جميع المجالات.

الأمر الثاني: ويتعلق بالسلوك والأخلاق والأعمال.

إن المجتمع الإنساني لم يتراجع من حيث الإيمان بالأخلاق وذمّ الظلم والجهل والهمجية. لقد تحدثت في فلورنسا مع أحد أساتذة الجامعات بهذا الشأن، فكان مستاءً جداً من سلوك هذا الجيل وانجراره إلى الفساد والفوضى، وتزعزع الوضع الأسري، واقترح أن تسنّ برلمانات العالم قوانين رادعة، وتشرع عقوبات قاسية لمثل هذه الانحرافات، لأنه يعتقد إذا حصلت حالة الخوف من القانون عند الشباب، فسنحقق نتائج قيمة، وبعكسه ستحدر البشرية إلى مزيد من السقوط الأخلاقي.

فأبدت وجهة نظري في هذا المجال وقلت له: أعتقد أن طريقة الحل هذه ليست أساسية، وإنما طريقة الحل الأساسية هي أن يخشى جيل الشباب من الله. فالأمر المهم هو أن نذيق الناس لذة القيم المعنوية، وطعم العمل. فندفعهم نحو اللذات العقلانية من جانب، ونرغبهم في الخشية من الله من جانب آخر. فلو أفهمنا الطالب الجامعي مدى أهمية المطالعة وحل المعضلات العلمية، ونفخنا في روحه لذة ذلك، فإنه سوف لن يستعيب عن هذه اللذة بأية لذة جسمية. فلو أثرنا في دروسنا موضوع الخوف من الله، لربما استطعنا أن نضع حلاً لـ ٨٠٪ من المشكلة. طبعاً لا نقصد بالخوف ذلك اللون الذي نجده في الأديان الأخرى، وإنما ذلك الخوف الذي يطرحه الإسلام، والذي يقترن بحالة الرجاء دائماً. أمّا

ف ٥: مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ.....٣٠٧
الجزء المتبقي من المشكلة فيمكن أن يُحل من خلال القوانين التي تشرع في
البرلمانات.

وقد اتفق معي ذلك الأستاذ وأعرب عن تأييده لرأبي في نهاية المطاف .
نريد أن نقول بأنّ الإنسان بلغ من حيث السلوك والتصرفات مرحلة في
منتهى الخطورة. وبات الإنسان نفسه يدرك هذا الأمر، وأخذ هذا الإدراك يزداد
يوماً بعد آخر.

إذن مع تقدم الإنسان في مختلف الحقول العلمية، وتطوره في تشخيص
الأخطاء والفساد والظلم، فهو مشتمئ من الظلم في هذا اليوم بدرجة أكبر مما كان
عليه بالأمس، رغم ما هو ملاحظ من فساد وخطايا وفوضى.

الساعات المصيرية:

ما ينبغي الإشارة إليه بهذا الصدد، هو ذلك الأمر الذي أشار إليه باول تيليش
أيضاً، رغم أنه لم يفسر هذا الموضوع كما ينبغي خلال تناوله لمستقبل الأديان
وبلوغ المجتمع والتاريخ.

لا يمكن إنكار دور الساعات المصيرية في التاريخ، ولا ينبغي عدّ هذه
الساعات مقوّضة لخط التكامل. فهذه الساعات تدعم الحركات التكاملية وتعمل
على تسريعها ونقلها بخطوات إلى الأمام. ولكن ماذا لو حدث ما يتناقض مع
الحركة التكاملية، أو وقع ما هو غير تكاملي؟

الحقيقة هي أنّ الحوادث المؤلمة التي تقع في العالم -جزئية كانت أم كلية
عامة- تمثل حالة من التراجع، ولكن ليس بالشكل الذي يقرب حركة التكامل
رأساً على عقب، لأنّ التكامل ليس معناه أن يكون كل يوم أفضل من أمسه وإنما
معناه ازدياد النضج العقلي. فهذه الجرائم التي تحدث في العالم، لا بد وأن تعمل
على تكامل العقول والأفكار، أي تؤدي إلى ظهور نوع من التلاقح في الأفكار.

فالساعات المصيرية تعمل على إنضاج العقل الإنساني سواء في نماذج الذروة الإنسانية كالأنبياء وأتباعهم أو في مراحل التخلف والهمجية. فظهور الشخصيات الكبرى، لا بد وأن يترك تأثيره على التاريخ، كظهور النبي عيسى عليه السلام والرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، كما لظهور الشخصيات الظالمة المتجبرة تأثير آخر في التاريخ.

البلوغ الذي يتحدث عنه باول تيليش، صحيح، ولكن الأصح منه هو أن نعتبر هذا البلوغ بلوغ العقل والأفكار والأرواح، وليس البلوغ من حيث المعلومات والمعارف العلمية الصرفة.

المؤاخذة الثانية:

إذا كانت الحركة نحو الكمال أمراً منتظماً مستمراً، فهذا يعني أن أنواع السقوط والفساد الاجتماعي وشتى أشكال الانحطاطات، متغايرة مع عملية التكامل ومنسجمة مع رأي بعض الفلاسفة مثل كارل رايموند پوپر الذي يعتبر حركة التاريخ حركة ملتوية ومتعرجة، إذ إن معنى الالتواء والتعرج هو هذه الحالات من الرقي والانحطاط، وهو ما لا ينسجم مع الحديث عن حركة تكاملية للتاريخ.

الرد:

رغم اعتقاد البعض بأن هذه الحركة متناقضة مع فكرة التكامل الاجتماعي، لكنهم يتجاهلون وجود حركتين في التاريخ:

الأولى: حركة مستمرة ودائمة نحو الكمال.

الثانية: حركة منحرفة إلى اليمين واليسار والخلف.

غير أن أساس التاريخ يقوم على الثبات والاستمرارية نحو الكمال، أما

ف ٥: مستقبل البشرية من منظار فلسفة التاريخ..... ٣٠٩

الانحرافات فليست سوى حركات مرحلية في التاريخ. بتعبير آخر.. إن الذين يثيرون هذه المؤاخذة ينظرون إلى حركة التاريخ وكأنها ذات حلقات مقطّعة، وينظرون إلى كل حلقة وكأنها كيان قائم بذاته. غير أن هذا اللون من الحركة لا يمكن أن يعتم على حركة البلوغ ولا ينال من خط الكمال.

المؤاخذة الثالثة:

بما إن معنى السير نحو الكمال هو أن يكون اليوم أفضل من الأمس، والغد أفضل من اليوم، ومجتمع اليوم أفضل من مجتمع الأمس، ومجتمع الغد أفضل من مجتمع اليوم، فماذا عسانا أن نقول عن الشخصيات الكبرى في التاريخ وغيرهم من العلماء الأفاضل والعباقرة والمجددين، كابن سينا (ت/٢٨٤٥)، والفارابي (ت/٣٣٩هـ)، والفقير الكبير الشيخ محمد حسن النجفي صاحب الجواهر (ت/١٢٦٦هـ)، والأصولي الشهير صاحب الفصول الشيخ محمد حسين بن محمد رحيم الطهراني (ت/١٢٤٨هـ)، والرسام الأسباني اللامع بابلو بيكاسو (١٨٨١ - ١٩٧٠م)؟!

الرد:

نؤكد هنا على ما قلناه في الإجابة عن السؤال الأول، وهو أن الحركة التكاملية تعني في الحقيقة أن معرفة الإنسان عن كل العالم في حالة من النمو والرقى، ولا تقتصر على حقول خاصة من العلوم. أي علينا أن ننظر إلى التحول الفكري لدى الإنسان بشأن الطبيعة وما بعدها، وهو تحول يتجه باستمرار نحو الرقى كما إن الذهنية البشرية تطورت من حيث فهم وإدراك القضايا الاجتماعية والسياسية. وعليه.. ستكون النظرية ذات الشمولية الأكبر والنظرة الأعم للعالم المحيط أكثر نجاحاً من غيرها، بينما سيطوي النسيان النظريات الضيقة ذات البعد الواحد، كالنظريات المادية.

فلا يمكن نكران التطور في إدراك حقيقة العالم والكون، وتقدم النظريات الهادفة إلى دراسة عالم الطبيعة، وما بعد هذا العالم، وحقيقة الوجود.

المؤاخذة الرابعة:

ما هو المراد بالتكامل؟ فهل المراد التكامل في العلوم الطبيعية، أم العادات والتقاليد والثقافات، أم الصفات الإنسانية العليا؟ فإذا كان المراد هو العلوم الطبيعية. فلا شك في المسار التكاملي لهذه العلوم، كما لا شك أيضاً في المنحى التكاملي الذي عليه العادات والتقاليد والثقافات. أمّا إذا كان المراد هي الصفات الإنسانية العليا، فلا ريب في أنّ هذه الصفات تتجه نحو الانحطاط، لأننا نعلم جيداً أنه لا يوجد بيننا الصالحاء الذين كانوا موجودين بالأمس، ولا المفكرون الذين شهدتهم العصور الماضية.

المراد بالتكامل، هو التكامل في شتى الجوانب والأصعدة. وسبق أن أشرنا إلى هذه الحقيقة، ونعود نؤكد هنا مرة أخرى على:

أولاً: إن وجود الشخصيات الكبرى في الأزمنة الماضية والتي لا نظير لها في هذا اليوم - كالرسل والأولياء والصالحين - لا ينال من الحركة العامة نحو الكمال، لأنّ الخط المستقيم للحركة التاريخية لا يتعارض مع الخطوط المنحرفة.

ثانياً: لقد اتسعت الكمالات العلمية وأثرت الثقافة البشرية، وعليه.. بالإمكان القول إنّ المجتمع البشري ينطلق نحو الكمال.

المبحث الخامس

المادية التاريخية

نظرة الماديين للحركة التاريخية:

يعتقد الماديون أن الاقتصاد هو المحرك للتاريخ، أي: أن جميع الأبعاد الحياتية لأمة ما تعود إلى علاقات الإنتاج والأوضاع الاقتصادية. وتُنسب هذه النظرية إلى كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣م) وأتباعه الماركسيين. فمؤيدو هذه النظرية يعتقدون بوجود عدة عوامل مؤثرة في حركة التاريخ، وهي:

١- قوى الإنتاج (أدوات الإنتاج، والمهارات).

٢- علاقات الإنتاج (الهيكلية الاقتصادية للمجتمع).

٣- الأفكار (الأنظمة الاقتصادية المبنية للمعادلات المالية).

ويقوم التفسير الاقتصادي لحركة التاريخ على الفكر الذي يعطي للتاريخ طبيعة مادية. كما يقوم التفسير المادي للتاريخ على سلسلة من الإدراكات النفسية والاجتماعية الخاصة، مثل:

١- الإنسان مؤلف من مادة وروح. والأمور الروحية - أي الأفكار والعقائد -

تقع في مسار الحركة التكاملية للتاريخ، لكنها ليست منتجة لتغيير كفي.

٣١٢ بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية/ج ١

٢- تتقدم الحاجات المادية للإنسان كالمسكن والملبس، على حاجاته المعنوية كالإيمان والأدب والفن.

٣- يتقدم العمل الإنتاجي للإنسان على فكره وإيمانه.

٤- يتقدم الوجود الجماعي للإنسان على وجوده الفردي. أي: أن الأبعاد الإنسانية إفراز للعوامل الاجتماعية.

٥- الكيان المادي للمجتمع يتجلى في الكيان الاقتصادي، أي: أن لأدوات الإنتاج والعلاقات الاقتصادية لأفراد المجتمع في مضمار توزيع الثروة، الأفضلية على الكيان المعنوي للمجتمع.

المسار التاريخي للمجتمع من منظار الماديين:

تحدّث الماركسية عن أربع مراحل متميزة للحركة التاريخية، لا بد لكل مجتمع من اجتيازها حتى يتحول في نهاية المطاف إلى المجتمع الشيوعي. فالمرحلة الأولى هي مرحلة الشيوعية الأولى، والتي هي ما قبل التاريخ. وتُدعى بالآسيوية أيضاً. ومن خصوصيات هذه المرحلة: الملكية الجماعية للفرد، والعمل الجماعي، وعدم وجود ملكية خاصة.

نظراً لصعوبة الحصول على أيدي عاملة حركية في مرحلة الشيوعية الأولى، ظهرت الحاجة للحصول على هذه الأيدي من خلال الحصول على أسرى في الحرب، فظهرت بذلك المرحلة القديمة التي هي من أهم ملامحها: الاسترقاق. والصراع بين الأحرار والعبيد.

ف ٥ : مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ..... ٣١٣

تحدث ماركس وانجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥م)^(١) عن عوامل تاريخية عديدة، تمثل القرون الوسطى ذروتها، للانتقال إلى المرحلة التالية، أي مرحلة الإقطاع. فخلال القرون الوسطى ظهرت طبقة برجوازية، أو وسطى بشكل تدريجي، فكانت الأوضاع الاجتماعية في مرحلة الإقطاع تحول دون اكتناز هذه الطبقة للثروة، لكن التطورات التي ظهرت مثل اكتشاف قارة أمريكا، وافتتاح أسواق اقتصادية جديدة، وظهور أعداد كبيرة من البؤساء المستعدين للقيام بأية أعمال؛ وفرت ظروفًا ساعدت على حركة المجتمع باتجاه الرأسمالية التي تتصارع فيها طبقتا أرباب العمل وأصحاب رأس المال من جهة، وطبقة العمال من جهة أخرى.

وينتهي الأمر إلى حالة يتعذر معها استمرار النظام الرأسمالي، ويصبح من مهمة الجهود الثورية، نصر البروليتاريا للهيمنة على المجتمع، وتأسيس ديكتاتورية البروليتاريا التي تمهد الطريق لبلوغ المجتمع الشيوعي. وعلى هذا الضوء يُعدّ تاريخ البشرية عند المادية التاريخية عبارة عن حركة دياكتيكية

(١) «انجلز (فريدريك): (Friedrich Engels (1820 - 1895 AD)

ألماني، ولد ببارمن من أسرة رأسمالية، وصاغ وماركس الفلسفة الماركسية ونظرية المادية الجدلية والتاريخية، اشترك مع ماركس في تأليف جملة من الكتب وما كتبه مستقلاً:
«لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية:

«Ludwig Feuerbach and the End of Classical German Philosophy

و«الرد على دورنج: Anti Dühring».

«وأصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة:

«Origin of the Family, Private Property and the state

و«الاشتراكية الطوباوية والعلمية: Socialism: Utopian and Scientific».

منطلقة من الشيوعية الأولى نحو الشيوعية المتكاملة .

عيوب نظرية المادية التاريخية:

تعاني نظرية المادية التاريخية من عيوب كثيرة وتقوم على مفاهيم يعاني كل منها من ثغرات واضحة .

لو ألقينا نظرة عامة على المفاهيم الأساسية التي تطرحها هذه النظرية ،
لأمكن إيجازها بالشكل التالي:

- ١- الإنسان قد انطلق للحياة وبادر إلى الإنتاج منذ بداية ظهوره .
- ٢- الإنتاج بحاجة إلى آلة وأداة. لذلك وجد الإنسان نفسه مرغماً على صناعة الأدوات البسيطة .
- ٣- كان من الصعب عليه صناعة الأدوات بمفرده ، لذلك أقبل على الحياة الاجتماعية لصناعة الأدوات واستخدامها في الإنتاج .
- ٤- كانت عملية الدمج بين القوى المنتجة ، ووسائل العمل ، وعلاقات الإنتاج هي العوامل المؤسسة للعلاقات الاقتصادية .
- ٥- البناء الاقتصادي للفكر يتطلب أيديولوجية خاصة به .
- ٦- البناء الاقتصادي الذي يعد انعكاساً للإدراكات والنزعات في حقل القوى الذهنية ، لا بد من اعتباره بنية تحتية ، بينما ينبغي عد الأمور النفسية والفكرية بنية فوقية^(١) .
- ٧- تطور واتساع الصراع بين الفريق الذي يستحسن العلاقات الاقتصادية

(١) راجع: أرضية علم الاجتماع / انج برن ونيم كوف: ٣٨.

ف ٥ : مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ..... ٣١٥

القديمة ، والفريق الذي يدعو إلى مناسبات اقتصادية جديدة .

٨- تغلب النظام الجديد على النظام القديم ، وبدء مرحلة تاريخية جديدة .

يمكن أن نستنتج من خلال إنعام النظر في المفاهيم المذكورة ، أن حركة التاريخ في النظرية المادية للتاريخ تقوم على أساس دياكتيكي . وتقوم هذه الفكرة الديالكتيكية على مبدأ أن التاريخ جزء من الطبيعة ويقع ضمن حركتها ، والطبيعة في حالة حركة مستمرة وضرورة ، بحيث يكون كل جزء منها تحت تأثير الأجزاء الأخرى لشدة تماسك الأجزاء وارتباط بعضها ببعضها الآخر إلى درجة كبيرة ، وهذه الحركة الملاحظة في الطبيعة منبعثة من التناقض الكائن في باطن الطبيعة ، أي : أن كل شيء يحمل نقيضه في ذاته . وينتهي ذلك الصراع أو الجدل بتغلب النقيض . ولا يخرج التاريخ عن إطار هذه العملية الجدلية باعتباره جزءاً من الطبيعة . فبما إن العمل الإنتاجي يمثل أساس حياة الإنسان ، وضرورة أن يكون العمل الإنتاجي اجتماعياً ، وبما إن العلاقات الاقتصادية تتطلب علاقات اجتماعية ، سواء كانت ثقافية أو سياسية أو قانونية ، واستمرار هذه العملية باستمرار التكامل المستمر لوسائل الإنتاج ، لذلك تواجه عملية التحول من العلاقات الاقتصادية السابقة إلى العلاقات الاقتصادية الجديدة نظريات مختلفة ومتباينة . وينتهي ذلك الجدل بفوز القوى المطالبة بالحدثة على القوى المنحازة للعلاقات الاقتصادية القديمة والعلاقات الاجتماعية السابقة . فيطوي التاريخ حركته التطورية على أساس سلسلة من الأضداد ولهذا يوصف هذا التفسير لحركة التاريخ بالديالكتيكي .

هكذا نرى كيف تؤكد نظرية المادية التاريخية على أصالة المجتمع، وتقدم المؤسسات المادية والاقتصادية على المؤسسات المعنوية والثقافية، بعد التأكيد على أصالة المادة وتقدمها على الروح.

لاريب في أنّ الدراسة الواقعية للمجتمعات والتاريخ والإنسان، تؤكد على بطلان المزاعم السابقة، لأنّ:

أولاً: إنّ التجربة التاريخية والحقائق العينية لا تتحمل تعميم تلك المفاهيم على جميع مراحل التاريخ ومجتمعاته.

ثانياً: هناك تأثير متبادل بين العوامل الاقتصادية والمعنوية، وهذا ما يؤكد عليه تراجع بعض أنصار المادية التاريخية عن كون الاقتصاد عاملاً أو حداً، أو أساسياً.

ثالثاً: تؤكد التجربة أنّ العناصر الأيديولوجية والعقائدية قد تجرّ خلفها عوامل أخرى.

رابعاً: تنشأ الحياة المعنوية والأخلاقية للإنسان من مبادئها، ولربما تتميز بنحو مستقل عن العناصر والعوامل الأخرى.

فكيف بمقدورنا اعتبار الفضائل والقيم الإنسانية من مبادئها؟ ولربما تتميز بنحو مستقل عن العناصر والعوامل الأخرى.

فكيف بمقدورنا اعتبار الفضائل والقيم الإنسانية التي يوليها العقل أهمية فريدة، ويعتبرها كمالاً، معلولة لعناصر مادية؟ لاريب في اتّسام الكمالات المعنوية -التي تعدّ سبباً في فوز الإنسان وسعادته -بالمطلوبية التي تدفع بالعديد

ف ٥ : مستقبل البشرية من منظور فلسفة التاريخ.....٣١٧
من أفراد البشر إلى تجاهل مصالحهم من أجل بلوغ تلك الكمالات.

إشكاليات حركة التاريخ من منظور المادية:

النظرية الماركسية في التاريخ هي: إن التاريخ البشري عبارة عن تطور دياكتيكي من الشيوعية الابتدائية إلى الشيوعية المتكاملة. وأساس هذه النظرية هو: إن على الإنسان أن ينطلق في مسار تكاملي من أجل إضفاء الواقعية على نفسه.

ويعد العمل الخطوة الأولى على طريق إضفاء الواقعية أو الموضوعية، وتحققاً للإنسان في عالم الخارج، وأساساً لجميع التغيرات الاجتماعية. على هذا الأساس، يعد تاريخ الإنسان عبارة عن التغيرات والتطورات الاقتصادية. أي أن المادة والاقتصاد تمثلان المسار التكاملي. وسيتبلور في نهاية التاريخ مجتمع موحد لا يوجد أي امتياز فيه بين العامل وربّ العمل، وشتى الطبقات البشرية. وهذه هي المادية التاريخية.

لقد رد الفلاسفة الإلهيون في الشرق والغرب على دعاة المادية التاريخية ردوداً قوية لا مجال لاستعراضها هنا. ولكن يمكن أن نوجز إشكاليات التطور أو التكامل المادي في خمس:

١- تجمع هذه النظرية بين المادية والمثالية. فهي تعتبر المادة والعمل أساساً من جهة، بينما تتطلع إلى الكمال النهائي والمجتمع الموحد من جهة أخرى. فهذا التطلع أمر يقوم على فلسفة هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١م)، الفيلسوف المثالي الألماني الذي كان ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣م) أحد تلامذته.

وطبقاً لمثالية هيغل، فإنّ الفكر العالمي المطلق يعيش في حالة ظهور وانتشار في مسار التاريخ من أجل أن يتبلور المجتمع الكامل النهائي. ويرى عامة العارفين بأفكار هيغل أن من غير الممكن التوفيق بين آرائه وبين المادية ولذلك تعاني الماركسية في هذا المضمار من تناقض باطني. وقد أثار بعض فلاسفة الغرب هذه الإشكالية وغيرها على المذهب الماركسي^(١).

٢- أرادت الماركسية أن تمزج فلسفتها بالأخلاق لتقول أنّ المجتمع لا يقوم بدون أخلاق. ومن الواضح أنّ الأخلاق بحاجة إلى أساس معنوي، وإذا كان الاقتصاد هو الأساس فكيف تضم إليه الأخلاق. فإذا كانت الأخلاق عبارة عن أوامر ونواهٍ إلهية، فالماركسية ترفض ذلك، وإذا كانت عبارة عن أوامر ونواهٍ فطرية ووجدانية، فستكون أساساً أيضاً، فكيف يمكن أن تضي الكمال المعنوي على عملية التطور الاقتصادي إذا كانت مسألة فرعية وثنوية؟

٣- تعتقد الماركسية في حركتها التكاملية بالجبر التاريخي، ومن الواضح أنّ الجبر التاريخي ينتزع من الإنسان حريته واختياره، بينما تزعم الماركسية حرية الإنسان، وضرورة حركته من أجل إيجاد التغييرات الاجتماعية، وإذا كان الأمر كذلك، كيف يجتمع الجبر التاريخي مع الحرية؟

أمّا الإلهيون فيجمعون بين حرية الإنسان والفعل الإلهي، ويعتبرون العالم يقظاً وذكياً، وليس أعمى أصمّ. أي: أنّهم يضعون تحولات التاريخ في يد الإنسان دون تجاهل دور السنّة التاريخية في حركة التاريخ، وبستعبير آخر: إنّ لأفعال الإنسان وممارساته آثاراً، ويقوم العالم على هذا الأساس. وقد قال القرآن

(١) راجع: تاريخ الفلسفة / فردريك كابليستون ٧: ٣٢٢.

الكريم في ذلك:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾^(١).

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ

وَالْأَرْضِ ﴾^(٢).

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾^(٣).

نلاحظ في القرآن الكريم قضيتين أساسيتين: الأولى هي أن الإنسان حرٌّ ومسؤول، والثانية هي أن نظام الخلقة قد خلق على أساس الحكمة والعدل.

٤- ليس بوسع الماركسية إنكار أن العمل أو الإنتاج معلول وأن الإنسان هو العلة، أي أن الشرط الأول لوجود التاريخ البشري هو وجود الإنسان؛ لأن العامل الإنساني هو المنتج والمولد للعمل، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن للعمل أن يتقدم على الإنسان؟ وكيف بوسع المولود أن يسبق الوالد؟ فما يقال عن كون الإنتاج بُنية تحتية والإنسان بُنية فوقية، أو إن الإنتاج مساوٍ للإنسان، أفكار غير منطقية، بل ينبغي أن توصف بالجهل المحض.

٥- الماركسية تعتقد بالتكامل، وتعتبر الكمال متمثلاً في وحدة المجتمع. ويقول (كابلستون) في فكرة ماركس: سيظهر في آخر المطاف الإنسان الكامل، وتحل الأخلاق الإنسانية محل الأخلاق الطبقية، وستحكم الإنسانية الأصيلة^(٤).

صفوة الكلام.. إن النتيجة المستحصلة من سقوط الرأسمالية على يد

(١) سورة البقرة: ١٣٤/٢.

(٢) سورة الأعراف: ٩٦/٧.

(٣) سورة الرعد: ١١/١٣.

(٤) تاريخ الفلسفة / فردريك كابلستون ٧: ٣٢١.

البروليتاريا، ليست أن تحل طبقة حاكمة جديدة محل طبقة حاكمة قديمة أو ما يدعي بديكتاتورية البروليتاريا، وإنما ينطلق ماركس إلى ما هو أبعد من هذه المرحلة حيث يمهد الطريق لمجتمع شيوعي من دون طبقات. أي أن البروليتاريا العالمية تعمل بعملها الثوري ليس على انقاذ نفسها فقط، وإنما على انقاذ البشرية أيضاً. أي: أن لها رسالة مسيحية أيضاً.

نستشف من كلمات ماركس أن الإنسان الكامل يمثل الكمال النهائي للإنسان.

والإنسان الكامل عبارة عن إنسانية موحدة.

يلزم عن هذا الكلام، توقف التاريخ عن الحركة، وكذلك توقف المجتمع الإنساني. ولا ريب في أن التوقف يؤدي إلى الفساد والدمار، فهو في ذلك أشبه بالماء الراكد في حوض واسع وعميق انقطعت عنه مياه العين التي كانت ترفده بالماء، فأصبح ماؤه آسناً.

هذه الإشكالات وغيرها، تثار حول التوهم والخيال في المذهب الماركسي.

أما في المذهب الإلهي فلا يتوقف تكامل الإنسان عند نقطة معينة. وما أطف التعبير القرآني الذي عبر عن لا محدودية التكامل حينما قال: ﴿... وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾^(١)، حيث لا يتوقف حتى أهل الجنة في شتى أنواع النعم. فالحركة نحو الله تعالى طريق لا نهاية له. وكلما ازداد الإنسان انطلاقاً فيه، تعاظمت لديه البهجة واللذة.

المبحث السادس

الحتمية وأنواعها

السؤال الذي يشغل بال المفكرين دائماً هو: هل أن جميع ما يحدث في العالم - على مدى التاريخ - أمر محدد ومرسوم من قبل، وأن دور الناس في هذا كدور الشطرنج في يد لاعبه؟ أم أن الناس أنفسهم محور للتاريخ والمنفذون للأحداث والوقائع التاريخية؟

منذ القدم، كانت الحتمية والجبرية والضرورة وما شاكلها من الاصطلاحات المرادفة، تعد من أعظم المسائل في الفلسفة النظرية للتاريخ، بل من طلاس التأمّل الفلسفي.

الحتمية (Determinism) معناها: إن الحوادث والسلوكيات متعيّنة ومحتومة من قبل قوانين العالم أو بواسطة الله، قبل وقوعها، وإنها لا تتخلف عن ذلك قط. والحتمية أنواع عديدة، منها:

١ - الحتمية العلمية أو العلية (Scientific/ causal determinism):

وتعني هذه الحتمية أن كل حدث في العالم، منبثق عن حدث آخر أو أمور أخرى طبقاً لقوانين العلية العامة المهيمنة على العالم. وعلى هذا الأساس فإن وضع العالم يوجب في كل لحظة مستقبلاً فريداً. والمعرفة الكاملة بهذا الوضع

تتيح إمكانية التنبؤ بمستقبل العالم بدقة. وقد طُرحت هذه الفكرة من قبل (الابلاس) بالاستيحاء من النجاحات النيوتنية في مجال الفيزياء، وشكك البعض في هذا الرأي بعد ظهور الفيزياء الكميّة.

وطرح بعضهم الحتمية العلمية بالشكل التالي:

أ- لكل حدث علة كافية.

ب- بالإمكان ظهور مستقبل واحد في كل زمان معين على ضوء الماضي.

ج- على ضوء معرفة جميع الظروف المتقدمة وجميع قوانين الطبيعة، يمكن

في كل زمان معين التكهن بالتاريخ التالي للعالم بشكل دقيق.

إذن تنكر الحتمية وقوع الصدفة، رغم أنها تعترف بأن جهلنا بالقوانين أو الظروف المتقدمة، يدفعنا لإطلاق كلمة الصدفة على بعض الأحداث غير المتوقعة. ويُدعى هذا اللون من الحتمية بالعلّي أو العلمي، لأنه يعترف بهيمنة قوانين العلية العامة على نظام الطبيعة. ويرى البعض أن الحتمية لا تتسجم مع اختيار الإنسان وإرادته إذا كانت شاملة ومنطبقة على أفعاله وقراراته.

٢- الحتمية الدينية أو الكلامية (Theological determinism):

ترى هذه الحتمية أن كل ما يقع في العالم، إنما يقع بمشيئة الله وقدرته. ولذلك يرى البعض عدم وجود انسجام بين اختيار الإنسان وبين المشيئة الإلهية. كما يرى آخرون وجود تعارض بين هذا اللون من الحتمية، وبين القوانين التي تسيطر على العالم.

ويميّز البعض بين هذه الحتمية وبين الجبرية (Fatalism) التي يعتقد أصحابها أن بعض القوى كالأجرام السماوية وغيرها، تتلاعب بمصير الإنسان بعيداً عن جهوده وإرادته.

٣ - الحتمية التاريخية (Historical determinism):

هذه الحتمية تقول: إنه لم يكن بمقدور أي شيء في ماضي الإنسان أن يقع إلا كما وقع، ويقوم أساس هذه الرؤية على أن الحركة التاريخية حركة لا يمكن تجنبها وأمر حتمي لا بد منه، وهذه الحتمية إما أن تكون ناشئة عن القوانين العامة المتحركة في مسار التاريخ والتي تعين مبدأ ومسار وغاية التاريخ، أو ناشئة عن المشيئة الإلهية التي تقود كل العالم؛ ووفقاً لهذا المنظار، فإنه بمقدور الحتمية التاريخية أن تكون حتمية عليّة أو حتمية إلهية. وإذا كان هناك من يعتبر حركة المشيئة الإلهية في العالم جارية على طريق القوانين الطبيعية، فإنه يجمع بين الحتمية العلية والحتمية الإلهية، ولا يرى وجود أي تعارض بين جريان الإرادة الإلهية في العالم وبين القوانين الطبيعية.

وهناك تساؤل بهذا الشأن: كيف يمكن التوفيق بين الحتمية التاريخية وبين إرادة الإنسان واختياره في الأفعال والقرارات؟ ثم ألا يتناقض القول بالحتمية التاريخية مع إلقاء تبعه أعمال الخير والشر على عاتق فاعليها، ومدحهم وذمهم على هذا الأساس؟

كذلك: إذا كانت المشيئة الإلهية هي التي تتحكم في مسار التاريخ، فهل يمكن إدراكها ومعرفتها؟ وكيف يمكن استحصال هذه المعرفة؟ وهل الوحي هو الطريق الوحيد لتحقيق تلك المعرفة؟

إسناد الجبر إلى تلك الآراء، ناشئ إلى حد كبير من ضعف ذهنية الفلاسفة الغربيين. فيما إنهم عاجزون عن التمييز بين مفهومي (الضرورة) و (الجبر)، فقد أخذوا يضعون كل علاقة تمت إلى الضرورة بصلة، ضمن إطار الجبر.

هذه الحقيقة واضحة جداً في الجبر العليّ. فجميع الفلاسفة المسلمين يقولون بوجود علاقة ضرورية وقاطعة بين العلة والمعلول، ويرون أن ظهور العلة مساوٍ

لظهور المعلول ويقولون: (ما لم يجب الشيء لم يوجد). ففي التاريخ كذلك، سنن وقوانين حاكمة تربط بين الحوادث، وتوجب لكلّ حادثة تاريخية آثاراً وعواقب محددة.

إذن يلزم للأخذ بمبدأ العلية العامة، الأخذ بالفكرة التالية، وهي: إن كلّ حادثة تستمد ضرورتها وقطعيتها وخصوصيتها وشكلها من علتها. وإن مبدأ العلية منبثق بدوره عن القوانين العامة التي تشكل الأصل لكل دراسة تاريخية. على أية حال، إن الاعتراف بهذا القانون وعدّه حاكماً على الحوادث التاريخية، لا يوجب الحتمية؛ لأنّ الإنسان كموجود ذي فكر واختيار وبمقدوره صناعة الحوادث التاريخية بفكره وعمله، هو اللاعب الأصلي في الحركة التاريخية، وهو أمّ العلل والعوامل التي تضيء الضرورة على ظهور الحوادث المستقبلية بما يتناسب مع إرادته.

إذن ليس من الضروري إنكار مبدأ العلية من أجل الهروب من الجبر، وإنما المهم هو الاهتمام بدور الإنسان العليّ في الحوادث التاريخية. وفي هذا يقول أحد كبار الفلاسفة: «في الحقيقة أن أياً من التفاسير لم يؤكد على وقوع كل حدث تاريخي على أساس الضرورة. ويقتصر هذا الادعاء عادة على الحركة العامة أو الأحداث ذات الأهمية الكبرى. ولم يبلغ في ادّعاءه إلى هذا المستوى حتى الكثير من المنظرين في ما وراء الطبيعة»^(١).

وحتى إذا عجز القائلون بالضرورة التاريخية عن التمييز بين الضرورة والجبر، فلن يكون لذلك تأثير على النتيجة. فالحركة المحددة للتاريخ شيء. والجبر شيء آخر. فضرورة التكامل التاريخي ناشئة برأينا من الضرورة العلية

(١) paul Edwards, The Encyclopedia of Philosophy, (Determinism in History W.H. DRAY).

ف ٥: مستقبل البشرية من منظار فلسفة التاريخ..... ٣٢٥

القائمة بين مختلف حوادث التاريخ والتي تقود تكامل الناس بالضرورة نحو هدف نهائي على أساس الحوادث والأزمات التي يتعرض لها الإنسان في مساره الحياتي، حيث يسعى الإنسان بإرادته واختياره للتحرر من تلك الحوادث والأزمات للإنطلاق نحو تلك الغاية النهائية.

إذن فالعدل والأمن من مقتضيات الحركة العامة للتاريخ، ولا بد أن ينتصر في نهاية المطاف الحق على الباطل، والعدل على الظلم، وتتألق القيم الإنسانية في سماء المجتمع العالمي. والباحث المنصف يعلم أن هذا المسار التكاملي لا يتحقق من دون وجود قيادة ربانية. ولهذه الحقيقة أشار دِعْبِلُ الخزاعي - الشاعر المعروف - حين إلقائه لقصيدته الثائية بين يدي الإمام الرضا عليه السلام.

قصيدة دِعْبِلِ الخزاعي:

يقول أبو الصلت الهروي: إن دِعْبِلَ الخزاعي دخل على الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام واستأذنه في ان ينشد بين يديه قصيدة قالها في آل بيت النبوة ومهبط الوحي ومعدن العلم.

بدأ دِعْبِلُ الخزاعي قصيدته المؤلفة من ١٢٠ بيتاً بالتأوه والتألم من البلايا والمصائب التي حلت بالإسلام والبيت النبوي، ثم يشير الى إنتظار ظهور قائم آل محمد عليه السلام الذي لا يخلط بين الحق والباطل ويثيب المحسن ويعاقب المسيء^(١). ومما جاء فيها:

تجاوبن بالأرنان والزفرات	نوائح عجم اللفظ والنطقات
يُخَبِّرُنَ بالأنفاس عن سر أنفس	أسارى هوى ماضٍ وآخر آت
ألم تر للأيام ما جرَّ جورها	على الناس من نقصٍ وطول شتات
هم نقضوا عهد الكتاب وفرضه	ومحكمه بالزور والشبهات

(١) بحار الأنوار / العلامة المجلسي ٤٩: ٢٤٥ - ٢٥١.

تراثُ بلا قربي ومُلك بلا هدى
 رزايا أرتنا خُصرة الأفق حُمره
 وما سهّلت تلك المذاهبُ فيهم
 مدارسُ آياتٍ خلت من تلاوة
 منازلُ وحي الله ينزل بينها
 منازلُ كانت للصلاة وللتقى
 ديارُ عفاها جورُ كلِّ منابذٍ
 إذا لم نناج الله في صلواتنا
 أفاطم قومي يا ابنة الخيرِ وانُدبي
 إلى الحشر حتى يبعث الله قائماً
 فلولا الذي أرجوه في اليوم أو غدٍ
 خروجُ إمامٍ لا محالة خارجٍ
 يُميزُ فينا كلَّ حقٍّ وباطلٍ
 فيا نفسُ طيبي ثم يا نفس فابشري
 ولا تجزعي من مدة الجور إنني
 فياربِّ عجل ما أومل فيهم
 فإن قُرب الرحمن من تلك مدتي
 شفيت ولم أترك لنفسي غُصّةً
 فإني من الرحمن أرجو بحبِّهم
 عسى الله أن يرتاح للخلق إنه

وحكم بلا شوري بغير هداة
 وردت أجاجاً طعم كلُّ فُراتٍ
 على الناس إلا بيعة الفلتاتِ
 ومنزلُ وحي مُقفر العرصاتِ
 على أحمد المذكور في الصلواتِ
 وللصوم والتطهير والحسناتِ
 ولم تعفُ للأيام والسنواتِ
 بأسمائهم لم يقبل الصلواتِ
 نجومَ سماواتٍ بأرض فلاتِ
 يُفرِّج عنا الغمَّ والكُرباتِ
 تقطع نفسي إثرهم حسراتِ
 يقوم على اسم الله والبركاتِ
 ويجزي على النعماء والنقمتِ
 فغير بعيد كلُّ ما هو آتٍ
 أرى قوتي قد آذنت بثباتِ
 لأشفي نفسي من أسي المحناتِ
 وأخر من عمري ووقت وفاتي
 ورويتُ منهم منصلي وقناتي
 حياةً لدى الفردوس غير بتاتِ
 إلى كلِّ قوم دائم اللحظاتِ

يمكن دراسة هذه القصيدة في خمسة محاور هي:

- ١- التأوّه والتذمر من انقلاب الحقائق والقيم، وحلول القيم والمفاهيم المزيفة محل قيم الخير والعدل، مما بعث الأسى والألم في قلوب عشاق الحقيقة

ف ٥ : مستقبل البشرية من منظار فلسفة التاريخ..... ٣٢٧

على مدى التاريخ، وفجر فيها الهمّ.

فالمجتمع الإنساني يطلب العدل والإنصاف والحق، ويتحرك باتجاهه، ولذلك حظيت هذه القصيدة باستحسان الجميع بما فيهم المأمون العباسي؛ لأنه أصبح في مواجهة حقيقة غير قابلة للإنكار تعبّر عن ضمير المجتمع، وتمثل التاريخ.

٢- الاستبشار والتطلع إلى تغير الأوضاع، إذ لا بد من حدوث الثورة والتغيير النهائي، ولا بد أن يستتب العدل والأمن بقيام الإنسان الكامل، الإمام المهدي أرواحنا فداه:

خروج إمام لا محالة خارج يقوم على اسم الله والبركات

يميز فينا كل حق وباطل ويجزي على النعماء والنقمات

هذان البيتان المتعلقان بالمهدي المنتظر عليه السلام، كان لهما تأثير كبير على الإمام الرضا عليه السلام وأسالت الدمع من عينيه وخاطبه قائلاً: يادعبل لقد أجرى روح القدس هذين البيتين على لسانك!

هذان البيتان في كفة، والقصيدة كلها في كفة أخرى. أي: أنّهما يعادلان القصيدة بأسرها. فإلى ما قبل هذين البيتين، كانت الأبيات تضج باللوعة والفجيرة والتظلم، غير أنّ هذين البيتين يعبران عن الأمل بانتصار الحق على الباطل والنور على الظلام. وهذه النهاية لمسار التاريخ حلوة ولذيذة، ويكفي أن فاض لها كأس الشوق دمعاً من عيني الإمام الرضا عليه السلام.

٣- انتظار إمام الزمان وأهمية ذلك في مصير التاريخ:

فلولا الذي أرجوه في اليوم أو غدٍ تقطع نفسي إثرهم حسرات

ولا تجزعي من مدة الجور أنني أرى قوتي قد آذنت بثبات

فيانفس طيبي ثم يا نفس فابشري فغير بعيد كل ما هو آت

٤- الانتظار وتأثيره العملي:

فإن قَرَّبَ الرحمنُ من تلك مدتي وأخر من عمري ووقت وفاتي
شفيتُ ولم أترك لنفسي عُصَّةً وَرَوَّيْتُ مِنْهُمْ مَنْصِلِي وَقِنَاتِي

يشير في هذين البيتين إلى استعداده للوقوف إلى جانب الإمام ومقاتلة أعدائه والثأر منهم.

٥- تمني تحقيق سعادة المجتمع البشري بظهور الإمام الموعود:

عسى الله أن يرتاح للخلق أنه إلى كل قوم دائم اللحظات

لاشك في أن جميع هذه المحاور، عبارة عن هتاف حركة التاريخ، فالتأوهات، والحسرات، والتمنيات، والآمال، والانتظار، وحبّ المستقبل، منبثقة جميعاً عن مدّ التاريخ وجزره. فالأمل بالمستقبل، والفرح، والسرور، والهدوء، والطمأنينة، نزعات منبثقة من العقل الفطري. كما أن الاستعداد الفكري والروحي والعملي في الدفاع عن الحق ودعم المهدي الموعود، سجية فطرية لدى جميع الناس.

لا ريب في أن خلاص المجتمع البشري من الظلم، واللامن، والفوضى، والاضطراب، والفساد، يمثل المستقبل الحتمي للتاريخ.

يشير دُعْبُلُ الخزاعي في هذه الأبيات إلى حركة التاريخ، ويستطلع إلى المستقبل بعين يملؤها التفاؤل والأمل، لأنّ وعد الله حق.

الفصل السادس

قاعدة اللطف وضرورة تعيين إمام

لهداية البشرية

تُعدّ قاعدة اللطف، أحد الأدلة التي يطرحها الإمامية، ويستند إليها المتكلمون في كتبهم الكلامية، لإثبات ضرورة الإمام لهداية البشر. فما المراد باللطف وقاعدته؟ وهل ورد اللطف اللطف في الأدلة النقلية في الإسلام؟ وهل عرفته الأديان السابقة؟ وما هو جواب الإشكالات المثارة حول دلالة تلك القاعدة على ما يقوله الشيعة الإمامية؟ ومن ثمّ كيف يتم الاستدلال بها على المدّعي؟ إنها أسئلة جديرة بالوقوف عندها، والإجابة عليها.

المبحث الأول معنى قاعدة اللطف

اللطف لغة:

اللطف الإلهي في اللغة: هو التوفيق أو العصمة التي يهبها الله للإنسان^(١).

اللطف اصطلاحاً:

اللطف في اصطلاح المتكلمين عبارة عن موهبة إلهية تقرب الناس من الطاعة وتبعدهم عن المعصية. ويرى عدد كبير من المتكلمين وجوب مثل هذا اللطف على الله. أي: من الواجب على الله أن يهيئ للإنسان ما يضعه في مسار الطاعة ويبعده عن المعصية. أي: أن المتكلمين الشيعة والمعتزلة يؤمنون بوجوب مثل هذا اللطف على الله سبحانه وجوباً عقلياً.

يقول نصير الدين الطوسي (٥٩٧ - ٦٧٢هـ) في كتاب (تجريد الاعتقاد):

«واللطف واجب لتحصيل الغرض به»^(٢).

ويقول العلامة الحلّي في تعريف اللطف خلال شرحه لعبارة الطوسي، هو:

«ما يكون المكلف معه أقرب إلى الطاعة وأبعد من المعصية».

(١) لسان العرب / ابن منظور ٩: ٣١٦.

(٢) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد / العلامة الحلّي: ٤٤٤.

إذن كل ما يوجب قرب العباد نحو الطاعة الإلهية - التي هي الهدف من خلقه الإنسان - وبعدهم عن المعصية، يجب أن يتحقق من قبل الله تعالى.

ويقول العلامة الحلبي في توضيح هذه الفكرة:

«والدليل على وجوبه (أي اللطف): أنه يحصل غرض المكلف، فيكون واجباً، وإلا لزم نقض الغرض. بيان الملازمة أن المكلف لا يطيع إلا باللطف، فلو كلفه من دونه كان ناقضاً لغرضه، كمن دعا غيره إلى طعام وهو يعلم أنه لا يجيبه إلا إذا فعل معه نوعاً من التأدب. فإذا لم يفعل الداعي ذلك النوع من التأدب، كان ناقضاً لغرضه. فوجوب اللطف يستلزم تحصيل الغرض»^(١).

المبحث الثاني

اللفظ في الآيات والروايات والأدعية

اللفظ في الآيات:

وردت لفظة «لطيف» في العديد من آيات القرآن الكريم، وهي من الأسماء الحسنى والمباركة الإلهية.

وقد استُخدمت في تلك الآيات في خمسة معان:

١- بمعنى الذي لا يرى، كما في الآية: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١)، حيث تشير كلمة اللطيف في هذه الآية إلى أنّ الذات الإلهية المقدسة غير قابلة للإدراك والإحاطة من قبل أي إنسان، أو مخلوق آخر.

ويقول هادي السبزواري (١٢١٢ - ١٢٩٥هـ) في منظومته، بهذا الخصوص:

مفهومه من أظهر الأشياء وكنهه في غاية الخفاء^(٢)

٢- بمعنى التدبير الخاص، ووضع برنامج دقيق يخرج عن إدراك الإنسان تصديقه، كما هو الحال في الآية التي وصف فيها يوسف عليه السلام ربّه باللطيف حين

(١) سورة الأنعام: ١٠٣/٦.

(٢) شرح المنظومة / هادي السبزواري ٢: ٥٩.

لقائه بأبيه وإخوته، من قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

فاللطف في هذه الآية يعطي معنى الخطة الإلهية الدقيقة التي تجري على يد الله. فقصة يوسف التي تبدأ من إلقاء إخوته له في الجب، وعثور القافلة التجارية عليه، وحمله إلى مصر، ودخوله إلى بيت عزيزها، ونجاته من مكيدة زوجة العزيز، وزجه في السجن، والجفاف الذي ضرب مصر، ومنام العزيز، وبلوغه الرئاسة في نهاية المطاف. تُعدّ جميعاً من المصاديق الواضحة على اللطف الإلهي المتمثل في التنفيذ الدقيق لمخطط رسمته يد القادر المطلق. لذلك يعبر يوسف - حين دخول أبيه وإخوته عليه وسجودهم - عن الله باللطيف، ثم بالعليم الحكيم - كي يؤمن الجميع بلطف الله ورحمته.

٣- يراد باللطف، الرحمة الإلهية الواسعة كما في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾^(٢).

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾^(٣).

٤- قد يعني اللطف في بعض الأحيان العلم بدقائق الأمور، كما في قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي

(١) سورة يوسف: ١٢/١٠٠.

(٢) سورة الحج: ٦٣/٢٢.

(٣) سورة الشورى: ١٩/٤٢.

ف ٦: قاعدة اللطف وضرورة تعيين إمام لهداية البشرية ٣٣٥

السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾
﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ
خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿٢﴾.

٥- اللطف الإلهي بمعنى توعية العباد بمصالح ومفاسد الأمور، وإرشادهم نحو الطاعة والبعد عن المعصية، وهو ما يمكن أن يعبر عن مفاد قاعدة اللطف، كما في قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣﴾.

تدل هذه الآيات على نشوء الأمر والنهي الإلهي عن لطف الحق تعالى. وقد أيد بعض المفسرين هذا المعنى وأشاروا إليه في كتبهم.

قال الألوسي في تفسير (روح المعاني): «يعلم ويدبر ما يصلح في الدين ولذلك فعل ما فعل في الأمر والنهي»^(٤).

ويرى المراغي أن من لطف الله على نساء النبي ﷺ أنه أمرهن أن يقرن في بيوتهن^(٥)، وهذا يتلازم مع معنى اللطف المصطلح لدى المتكلمين من أنه موهبة

(١) سورة لقمان: ١٦/٣١.

(٢) سورة الملك: ١٣/٦٧ و ١٤.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٣/٣٢-٣٤.

(٤) روح المعاني / شهاب الدين محمد الألوسي ١: ٢١.

(٥) تفسير المراغي / أحمد مصطفى المراغي ٨: ٧، ونحو هذا في جامع البيان / محمد بن

إلهية تقرب الناس من الطاعة وتبعدهم عن المعصية، ولكن لا بنحو الجبرية، التي ينتفي معها الثواب والعقاب.

مما سبق يتضح أن أحد معاني اللطف الواردة في القرآن الكريم هو ذات المعنى الذي يصطلح عليه المتكلمون، أو يتلازم معه على الأقل. وعليه يرتفع إشكال ملاً أحمد النراقي (ت/ ١٢٤٥ هـ) وقوله: إن اللطف ليس لديه مصدر لا في القرآن ولا في السنة، والله أعلم^(١).

اللطف في الروايات:

تلاحظ مفردة اللطف في كثير من الأحاديث المروية عن الأئمة المعصومين عليهم السلام، نشير إلى ثلاثة أحاديث منها:

١- قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ مَكَّنَ أَنْبِيَاءَهُ مِنْ خَزَائِنِ لُطْفِهِ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ»^(٢).

٢- وروى الصدوق قائلاً: «وقال إبراهيم بن أبي محمود: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٣). فقال عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يوصف بالترك كما يوصف خلقه، ولكنه متى علم أَنَّهُمْ لَا يرجعون عن الكفر والضلال، منعهم المعاونة واللطف...»^(٤).

٣- وقال الإمام الصادق عليه السلام: «... قال: قلت: أجبر الله العباد على المعاصي؟

→ جرير الطبري ١٢: ٩؛ والكشاف / الزمخشري ٣: ٣٢٦؛ وفي ظلال القرآن / سيد قطب ٦: ٨. وكذلك في التبيان في تفسير القرآن / الشيخ الطوسي ٨: ٣٠٩.

(١) سنتناول إشكال النراقي على قاعدة اللطف، في المبحث الخامس من هذا الفصل.
(٢) مصباح الشريعة: ٦١، باب ٢٧: في معرفة الأنبياء، وذكره المجلسي في بحار الأنوار ١١: ٣٤/٣٧، باب معنى النبوة وعلة بعثة الأنبياء.

(٣) سورة البقرة: ١٧/٢.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام / الشيخ الصدوق ١: ٢٤٧/ ١٦، باب التوحيد.

ف ٦: قاعدة اللطف وضرورة تعيين إمام لهداية البشرية ٣٣٧

قال عليه السلام: لا، قلت: ففوّض إليهم الأمر؟ قال عليه السلام: لا، قلت: فماذا؟
قال عليه السلام: لطف من ربك بين ذلك»^(١).

يبدو أن كلمة «اللطف» في هذا الحديث، إشارة إلى قدرة الإنسان في ظل إرادة الله. أي: مع أن الإنسان حرّ في الفعل والترك، لكنه ليس مطلقاً، بل إن جميع حركاته وسكناته لا تخرج عن قدرة الحق تعالى. وهذا هو عين ما يراد من «أمر بين أمرين».

والسرّ في استخدام الإمام الصادق لتعبير اللطف، هو أن طريق تكامل الإنسان وبلوغه للسعادة الأبدية، هو هذه القدرة والحرية المحدودة التي لدى الإنسان. وينبثق التوفيق الإلهي في سعادة الإنسان من هذا الإمتياز بالذات. بتعبير آخر: إن الإنسان يعرف طريق السعادة وبمقدوره أن يطويه، وهذه المعرفة والقوة التي لدى الإنسان، مفاضة من الله عليه، ولذلك عبّر عنها باللطف، وهذا هو ذات المعنى الذي يصطلح عليه المتكلمون للطف، أي: «تقريبهم إلى الطاعة وتبعيدهم عن المعصية». ولا ريب في أن تبين طريق السعادة ومنح القدرة على الإنطلاق فيه، هو لطف من الله تعالى، وليس واجباً عليه.

قدّم شرّاح كتاب (الكافي) وجهات نظر مختلفة في معنى هذا الحديث، فذهب بعضهم إلى الرأي الذي ذكرناه، وتحدث البعض الآخر عن غموض المعنى، ويبدو أن اللطف الذي أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام، معناه عناية الحق تعالى في انطلاق الإنسان نحو طريق السعادة.

اللطف في الأدعية:

استُخدم اللطف في أدعية الأئمة المعصومين عليهم السلام، بالمعنى الذي ذهب إليه

(١) أصول الكافي / الشيخ الكليني ١ : ٨/١٥٩، باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين، من كتاب التوحيد.

المتكلمون. فيقول الإمام علي بن الحسين المعروف بالسجاد، وزين العابدين عليهما السلام في الدعاء الثلاثين الوارد في الصحيفة السجادية:
«واحجبني عن السرف والازدياد... واقبضني بلطفك عن التبذير».

هكذا نلاحظ كيف يستعين الإمام السجاد عليه السلام باللطف الإلهي، كي لا يقع في التبذير الذي يُعدّ من المحرمات الإلهية، فيكشف هذا الدعاء عن وجود ملازمة بينه وبين مصطلح المتكلمين الذي يصف اللطف بأنه «ما يقرب إلى الطاعة ويبعد عن المعصية».

كذلك نقرأ في دعاء يوم الأربعاء:

«اللهم اقبض لي في الأربعاء أربعاً: إجعل قوّتي في طاعتك، ونشاطي في عبادتك، ورغبتني في ثوابك، وزهدي فيما يوجب لي أليم عقابك إنك لطيف لما تشاء».

فالإمام عليه السلام وبعد أن يسأل الله تعالى القوة في الطاعة، والنشاط في العبادة، والرغبة في الثواب، والزهد في ما يوجب العقاب، يخاطب الله تعالى باللطيف. وهذا ما ينم عن الترابط في المعنى بين اللطف ونعمة الهداية الإلهية التي تقرب إلى الطاعة وتقضي عن المعصية.

وبهذا يمكن أن نصل - من كل ما ذكرناه - إلى المحصلة التالية، وهي أن المعنى المصطلح بين المتكلمين للطف، يمكن أن يكون مقتبساً من القرآن والحديث.

المبحث الثالث

كيفية دلالة قاعدة اللطف على ضرورة وجود إمام العصر

من منظار الكثير من متكلمي الشيعة كالشيخ المفيد (ت/ ١٣٠٤هـ) والشريف المرتضى (ت/ ٣٦٤هـ) وشيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي (ت/ ٦٠٠هـ) ونصير الدين الطوسي (ت/ ٦٧٢هـ)، أن من أهم مصاديق اللطف الإلهي هي صبّ الهداية العامة للبشر في قالب الإمامة، ومن الواجب على الله تعالى أن يختار أوصياء للنبي الخاتم من أجل تحصيل الغرض من خلق الإنسان، حيث يأخذ هؤلاء الأوصياء على عاتقهم مهمة إرشاد الناس إلى الفلاح والفوز والسعادة.

وفي هذا يقول الشيخ المفيد (ت/ ١٣٠٤هـ): «فإن قيل حكمة الله تعالى تقتضي نصب الإمام وتوجيهه أم لا فالجواب الحكمة تقتضي ذلك وتوجيهه.

فإن قيل ما حدّ الإمام فالجواب الإمام هو الإنسان الذي له رئاسة عامّة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ. فإن قيل ما الدليل على أنّ الإمامة واجبة

في الحكمة فالجواب الدليل على ذلك أنها لُطْفٌ واللفظُ وَاجِبٌ في الحكمة على الله تعالى فالإمامة واجبة في الحكمة»^(١).

وأيضاً: «وأقول إن الله تعالى لا يفعل بعباده ما داموا مكلفين إلا أصلح الأشياء لهم في دينهم ودنياهم وإنه لا يدخرهم صلاحاً ولا نفعاً وإن من أغناه فقد فعل به الأصلح في التدبير وكذلك من أفقره ومن أصحبه ومن أمرضه فالقول فيه كذلك».

وأقول إن ما أوجبه أصحاب اللطف من اللطف إنما وجب من جهة الجود والكرم لا من حيث ظنوا أن العدل أوجبه وأنه لو لم يفعله لكان ظالماً»^(٢).

وأيضاً: «فإن قيل من الإمام بعد عليٍّ عليه السلام فالجواب ولده الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي الباقر ثم جعفر بن محمد الصادق ثم موسى ابن جعفر الكاظم ثم علي بن موسى الرضا ثم محمد بن علي التقي الجواد ثم علي ابن محمد الهادي ثم الحسن بن علي العسكري ثم الخلف القائم المهدي صلوات الله عليهم أجمعين».

فإن قيل ما الدليل على إمامة كل واحد من هؤلاء المذكورين فالجواب الدليل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله نصَّ عليهم نصّاً متواتراً بالخلافة مثل قوله صلى الله عليه وآله: «إِنِّي هَذَا الْحُسَيْنِ إِمَامٌ ابْنُ إِمَامٍ أَخُو إِمَامٍ أَبُو أُمَّةٍ تَسَعُهُ تَسِعُهُمْ قَائِمُهُمْ يَمَلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلَأَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا».

(١) شيخ مفيد، النكت الاعتقادية، المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم، ١٤١٣ ق، چاپ اول، ص ٣٩.

(٢) شيخ مفيد، اوائل المقالات، المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم، ١٤١٣ ق، چاپ اول، ص ٦٠، القول في اللطف والأصلح.

ف ٦ : قاعدة اللطف وضرورة تعيين إمام لهداية البشرية ٣٤١

قوله ﷺ فِي حَقِّ الْقَائِمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ تِلْكَ السَّاعَةَ حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْ ذُرِّيَّتِي اسْمُهُ كَاسِمِي وَكُنْيَتُهُ كَكُنْيَتِي يَمَلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلِئْتُ ظُلْمًا وَجَوْرًا».

ويجب على كل مخلوق متابعته ولأن كل إمام منهم نصّ على من بعده نصّاً متواتراً بالخلافة ولأنهم ﷺ ظهر عنهم معجزات وكرامات خارقة للعادة لم تظهر على يد غيرهم كعجن الحصى وختمه وأمثال ذلك .

فإن قيل من إمام هذا الزمان فالجواب القائم المنتظر المهديّ محمد بن الحسن العسكريّ صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين .

فإن قيل هو موجود أم سيوجد فالجواب هو موجود من زمان أبيه الحسن العسكريّ ﷺ لكنه مستتر إلى أن يأذن الله تعالى له بالخروج فيملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً .

فإن قيل ما الدليل على وجوده فالجواب الدليل على ذلك أن كل زمان لا بدّ فيه من إمام معصوم وإلا لخلأ الزمان من إمام معصوم مع أنه لطف واللفظ واجب على الله تعالى في كل زمان .

فإن قيل ما وجه استناره فالجواب وجه استناره لكثرة العدو وقلة الناصر وجاز أن يكون لمصلحة خفية استأثر الله تعالى بعلمها .

فإن قيل قد تقدّم أن الإمام لطف واللفظ واجب على الله تعالى فإذا كان الإمام مستتراً كان الله تعالى مخلاً بالواجب تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فالجواب اللطف الواجب على الله تعالى في الإمام هو نصبه وتكليفه بالإمامة والله تعالى قد فعل ذلك فلم يكن مخلاً بالواجب وإنما الإخلال بالواجب من قبل الرعية فإنهم يجب عليهم أن يتابعوه ويمتثلوا أوامره ونواهيه ويمكنوه من أنفسهم

فحيث لم يفعلوا ذلك كانوا مخلّين بالواجب فهلاكهم من قبل أنفسهم.

ويقول السيّد الشريف المرتضى (ت / ٤٣٦ هـ):

فإن قالوا: ما هذا الأمر الذي فعله الظالمون فمنعوا منه الإمام من الظهور،

بيّنوه لنعلم صحّة ما ادّعيتموه من تمكّنهم من إزالته، والانصراف عنه؟

قيل له: المانع - في الحقيقة - عندنا من ظهوره هو إعلام الله تعالى أنّ

الظالمين متى ظهر أقدموا على قتله وسفك دمه، فبطل الحجّة بمكانه...

فإن قال: إذا كان المانع هو ما ذكرتموه فيجب في كلّ من كان في المعلوم أنّ

رعيتنه تقتله من إمام أو نبيّ أن يوجب الله تعالى عليه الاستتار والغيبة، ويحظر

عليه الظهور وإلاّ فإن جاز أن يبيح الله تعالى لبعض [من] يعلم أنّه يقتل من حججه

الظهور جاز مثل ذلك في كلّ إمام، فبطل أن يكون المانع ما ذكرتموه.

قيل له: إنّما أوجبنا أن يكون ما بيّناه مانعاً بشرط أن تكون مصلحة المكلفين

مقصورة على ذلك الإمام بعينه، ويكون في معلوم الله تعالى أنّ أحداً من البشر لا

يقوم في مصلحة الخلق بإمامته مقامه، ومن إباحة الله تعالى التصبّر على القتل من

حججه وأنبيائه لم يتّجه ذلك إلّا مع العلم بأنّه إذا قتل [قام] مقامه غيره من الحجج

فهذا واضح لمن تأمله^(١).

وشيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي (ت / ٤٦٠ هـ) يقول:

فإن قيل: فما تقولون: في هذا الرئيس الذي ذكرتم أنّه لطف: أذاته هي لطف

للمكلفين أم تصرّفه وأمره ونهيه؟ فإن قلتم: ذاته هي اللطف، قيل لكم: فما الفرق

بين ذاته وذات غيره...؟ وإن قلتم: تصرّفه وأمره ونهيه هو اللطف، قيل لكم: كيف

(١) الشافي في الإمامة / الشريف المرتضى، مؤسّسة الصادق عليه السلام، تهران، ١٤١٠، تحقيق سبّ

ف ٦: قاعدة اللطف وضرورة تعيين إمام لهداية البشرية ٣٤٣

يمكنكم إ دعاء ذلك - وهو لم يوجد من سنين كثيرة عندكم - وهلا ذلكم ذلك على أن الرئاسة ليست لطفاً أصلاً..؟

قيل له: الذي نقول في ذلك: إنَّ تصرّف الإمام وأمره ونهيه وزجره ووعدده ووعيدده هو اللطف. وإنّما أوجبنا وجوده من حيث لم يتم هذا التصرف إلا به، فجرى مجراه في تمام حصول شرائط التكليف»^(١).

والشيخ مثل في كتابه الاقتصاد فيما يتعلّق بالاعتقاد بأنَّ «الصلاة لطف لكلّ مكلف، فمن لم يصلّ لم يجب سقوط تكليفه لأنّه أتى من قبل نفسه وكذلك هاهنا».

وللمحقّق الطوسي هنا كلام في الأسلوب والنظام في غاية الفصاحة والتمام كأنّه كرامة وإلهام وهو:

«والمفاسد معلومة الانتفاء وانحصار اللّطف فيه معلوم للعقلاء ووجوده لطف وتصرفه آخر وعدمه منّا»^(٢).

الاستنتاج:

يدرك الإنسان الباحث عن الحقيقة أنّ وجود الإمام المعصوم في كل عصر وزمان، لطف من قبل الله تعالى. وأنّ هذا اللطف واجب على الله تعالى أيضاً، لأنّ الإمامة استمرار للنبوّة، ولا يتاح تبين الوحي بشكل كامل إلا عن هذا الطريق،

(١) تلخيص الشافي، الشيخ الطوسي، انتشارات المحييين، ١٣٨٢، تحقيق حسين بحر العلوم، ج ١، ص ٨٩.

(٢) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، العلامة الحلي، مؤسّسة النشر الإسلامي، ١٤١٣، تصحيح آيت الله حسن زاده أملي، ص ٣٦٢.

وبما أنّ الوحي وتفسيره الصحيح يمثّل الطريق الوحيد لمعرفة الإنسان بسعادته الحقيقية وطريق بلوغها، لذلك يُعدّ عدم تنصيب الإمام مساوياً لإغلاق طريق التكامل، والصدّ عن الانطلاق نحو الهدف النهائي للخلق. وعليه ينبغي أن يعيّن الله تعالى إماماً في كل عصر، كي يرشد البشرية للغاية التي لا بدّ أن تسعى لها وتتاثر من أجل بلوغها.

المبحث الرابع

اللفظ في الأديان السابقة

أولت الأديان الأخرى موضوع «اللفظ» أهمية أيضاً، وقد أُشير إليه في اللاهوت المسيحي بلفظة «الفيض الإلهي». فالفيض الإلهي في اللاهوت المسيحي عبارة عن الدعم الإلهي الذي يفوق الحد للكائن العاقل تشميناً له، ورغم الأخذ بضرورة هذا الدعم، لكن المسيحيين أخذوا يبحثون أسلوب هذا الدعم منذ القرن الرابع الميلادي. وأكثر الإِستخدامات المتداولة لكلمة «الفيض» يمكن ملاحظتها في كتاب القديس بولس (أعدِم ما بين سنة ٥٤ - ٦٨م)^(١) خلال العهد الجديد، ويلاحظ في مواضع من العهد القديم وعلى لسان أنبياء الإِغتراب

(١) «القديس بولس، أو ما يعرف بـ (بولس الرسول): (Apostel Paulus)

يهودي روماني كان شديد العداء للمسيحيين ثم تحول سنة (٣٣م) إلى المسيحية وأخذ يبشّر بالمسيح، يعد ناشر المسيحية ومفسرها، واتخذت المسيحية تأويلاته كعقيدة لها، واعتبرها الكثيرون من المصلحين المسيحيين من بعد أصولاً وثنية للمسيحية، وأنكروها بشدة، له بضعة رسائل تشكل ثلثي العهد الجديد، وهي تقوم على أمرين: أحدهما: في العقيدة المسيحية، والآخر: في آداب المسيحية، وقد صرّح في رسائله بأفضلية المسيح على موسى الكليم، وفضل الإنجيل على التوراة وفضل كهنوت المسيح على كهنوت اللاويين، وزعم في رسائله أن عيسى ابن الله!! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وانتهت حياته باعتقاله والحكم بإعدامه في زمان الإمبراطور نيرون (٥٤ - ٦٨م).

ببابل أن كلمة الفيض تعني إعطاء الله تعالى للأمة التي يختارها القدرة على القيام بالأعمال التي يريد، (مثلاً: سفر إرميا، ٣١: ٣١ - ٣٤؛ سفر حزقيال، ٣٦: ٢٦ فما بعد). ويتحدث العهد الجديد عن الرحمة الإلهية المقدرة للجاحدين، على أساس حاجة البشر (مثلاً: إنجيل متي ٥: ٤٥، إنجيل لوقا ٨: ٩ - ١٤).

وتلاحظ الخطوة الأولى لتنظيم معلومة الفيض، في آثار ترتوليان (١٦٠ - ٢٢٠م)^(١)، الذي عبر عن الفيض بأنه طاقة إلهية فاعلة في الروح، ورغم أنه قد يعتبر الفيض أمراً إجبارياً في بعض الأحيان، لكنه يؤكد في الوقت نفسه على مسؤولية الإنسان أيضاً. وقد يسمّى هذا الفيض هدية إلهية أحياناً، أو يفترضه مساوياً لفيض روح القدس في أحيان أخرى.

نظرة توما الأكويني للفيض:

بما أن رؤية الفيلسوف والمتكلم المسيحي المعروف توما الأكويني (١٢٢٤ - ١٢٧٤م)^(٢) ذات تأثير فاعل ومستمر على الكلام المسيحي، فمن المناسب

(١) «ترتوليان (كوينتس سيبتيميوس فلورينس ترتوليان):

«Tertullien; Tertullianus; Tertullian (160 - 220 AD)

ولد بقرطاجة، واعتنق المسيحية، وعين كاهناً، كان متمرساً بالقانون واللغتين اليونانية واللاتينية، وهو أول كاتب مسيحي يكتب باللاتينية متأثراً بكتابات فارو (Varro) في نقد المسيحية على أساس من الفلسفة الرواقية اشتهر بكتبه الثلاثة:

«إلى الأمم: Ad Nationes».

و«الدفاع: Apologeticum».

و«النفس: De Anima».

(٢) «توما الأكويني (1224 - 1274 AD):

Thommaso d'Aquino; Thomas d'Aquin; Thoms Aquinas:

ولد في روكاسيكا على الحدود الشمالية لمملكة صقلية القديمة بإيطاليا درس بكلية

ف ٦: قاعدة اللطف وضرورة تعيين إمام لهداية البشرية ٣٤٧

إلقاء نظرة سريعة على آرائه في الفيض واللطف^(١).

فقد سئل القديس توما الاكوييني ذات يوم: هل بمقدور المرء أن يمارس عمل الخير بدون الفيض (اللطف)؟ فأجاب قائلاً: يمكن النظر إلى طبيعة المرء من زاويتين:

الأولى: من زاوية الكمال، أي حالة ما قبل الخطيئة الأولى.

والثانية: من زاوية الطبيعة الملوثة، أي حالة ما بعد الخطيئة الأولى. ففي الحالة الأولى بمقدور المرء أن يفعل أعمال الخير الأولى بالمواهب الطبيعية، لكنه يعجز عن القيام بالفضائل. أمّا في الحالة الثانية التي يتلوث فيها الإنسان، فلا يستطيع القيام بأعمال الخير من دون فيض.

ومعنى هذا أن المرء بحاجة إلى الدعم الإلهي في كلا الحالتين.

وسئل أيضاً: هل بوسع الإنسان تجنب الخطيئة بدون فيض^(٢)؟

فأجاب قائلاً: إن بوسع الإنسان تجنب الوقوع في المعصية في حالة الكمال - أي قبل الخطيئة الأولى - من دون الحاجة في ذلك إلى الفيض. لكنه بحاجة إلى هذا الفيض حينما يتلوث بالذنب، كي يتخلص به من الذنب، ثم يستطيع بعد ذلك

➔ الآداب بجامعة نابولي ثم بجامعة باريس وحصل فيها على الدكتوراه في اللاهوت، لُقّب بالقديس والمعلم وفقه الكنيسة، أعجب به البابا، له مؤلفات كثيرة بلغت ثمانية وتسعين كتاباً.

منها: «الخلاصة في الرد على الأمم: Gentiles Summa Contra».

و«الخلاصة اللاهوتية: Summa Theologiae».

وله شروح على الأسماء الإلهية لديونيسيوس المجهول، وشروح على كتب أرسطو، وتأثر بما كتبه شيشرون وابن سينا وابن رشد وغيرهم من شروح لفلسفة أرسطو.

(1) Summa Theological, vol2, a O. 109, Art 3, p. 1124 christian Classics, 1981.

(2) Idid, p. 1129.

تجنّب الذنب والمعصية تماماً.

مما يجدر ذكره هنا هو أنّ المسيحية تعتبر الإنسان قد ورت الخطيئة الأولى، وهي الخطيئة التي تُنسب إلى آدم عليه السلام. أي: أنّ الإنسان كان مذنباً وعاصياً إلى أن جاء المسيح عليه السلام فأنقذ الناس وطهرهم من تلك المعصية والخطيئة.

يقول توما الأكويني: إنّ الإنسان بحاجة إلى معونتين من الله تعالى من أجل أن يكون بمقدوره العيش بشكل صحيح.

الأولى: هي موهبة ذاتية يُشفي بها الله الإنسان، ويخرجه من التلوّث، ويعده لعمل الخير.

والثانية: هي حاجة الإنسان إلى دعم الفيض (اللطيف)، كي ينطلق من الله لعمل الخير. فعلى ضوء الموهبة الذاتية، لا يحتاج الإنسان إلى دعم مجدد. ولكن على ضوء الحالة الثانية فالإنسان بحاجة إلى اللطف، أو العون الإلهي من أجل القيام بعمل الخير، لأننا لا نستطيع أن نحدد بشكل كامل ما هو الخير، وما الذي ينفعنا، لذلك لا بد أن نُهدى إليه بواسطة الله سبحانه، لأنّه قادر على كل شيء، وعليم بكل شيء^(١).

(1) Ibid, p. 1130.

المبحث الخامس

الإشكالات المثارة حول دلالة قاعدة اللطف على

ضرورة وجود الإمام في كل عصر

رغم طرح قاعدة اللطف منذ بداية ظهور الكلام الشيعي، واستنادهم عليها كثيراً في البرهنة على ضرورة وجود الإمام، لكنّ العديد من الإشكالات أُثيرت حولها، بعضها من قبل الأشاعرة الذين يختلفون مع الإمامية من حيث المبنى الذي يستندون إليه في مباحثهم الاعتقادية والكلامية، والبعض الآخر من قبل بعض مفكري الشيعة.

ونظراً لعدم ارتباط النوع الأول من الإشكالات بقاعدة اللطف بشكل مباشر، لذلك سنتناول النوع الثاني من هذه الإشكالات فقط، وهي إشكالات حظيت باهتمام كبار الحكماء والأصوليين مثل ملا صدرا الشيرازي، وملاً أحمد النراقي.

الإشكال الأول وجوابه:

يرى ملاً أحمد النراقي (ت/ ١٢٤٥م) في كتاب (عوائد الأيام) أن تفسير اللطف بمعنى التقريب إلى الطاعة والإبعاد عن المعصية، هو من اختراع المتكلمين، ويتساءل قائلاً:

«إنّه من أين يُعلم اللطف الواجب علينا إثباته له سبحانه بمثل قوله: ﴿اللَّهُ

لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴿١﴾ هو اللطف بهذا المعنى الذي يريدون إثبات مطلبهم به؟ فإنه معنى مصطلح في علم الكلام، فلعله مرادف للرؤوف والحنان ونحوهما»^(٢).
وجوابنا على هذا الإشكال قد مرّ في بيان معنى اللطف الإلهي، حيث ذكرنا هناك أن المعنى المصطلح للطف في علم الكلام مأخوذ من الآيات والروايات. فأية: ﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾^(٣)، التي وردت في سورة الأحزاب، استخدمت كلمة «اللطف» بعد الإشارة إلى مصالح نساء النبي ﷺ، والعمل وفق هذه المصالح، ويمكن أن يكون معنى الآية هو: إن الله خبير بما يقربهن إلى طاعته، وقد أمر به وحكم.

وقد ردّ الحكيم الكبير نصير الدين الطوسي (ت/٦٧٢هـ) في كتاب (تجريد الاعتقاد) في عبارة موجزة، على جميع الإشكالات المثارة ضد قاعدة «اللطف»، قائلاً: «وجوده لطف وتصرفه لطف آخر، وعدمه منّا»^(٤).

وصفوة القول: إن تفسير اللطف بالقرب إلى الطاعة مستفاد من الكتاب والسنة.

الإشكال الثاني وجوابه:

يستند هذا الإشكال على كثرة المصالح والمفاسد الموجودة في العالم، وتوقف الاستدلال بقاعدة اللطف على علمنا بجميع مصالح ومفاسد الأشياء والذي هو أمر منتف بالبداهة. فكل أمر يحتاج في تحقيقه إلى مقتض وإزالة

(١) سورة الشورى: ١٩/٤٢.

(٢) عوائد الأيام / الملاً أحمد النراقي: ٧٠٧.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٤/٣٣.

(٤) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد / العلامة الحلي: ٣٨٨، المقصد الخامس في الإمامة.

ف ٦: قاعدة اللطف وضرورة تعيين إمام لهداية البشرية ٣٥١
الموانع والمعرفلات. بينما ليس بمقدور الإنسان إدراك جميع المقتضيات وإزالة
جميع المعرفلات.

يطرح العلامة النراقي هذا الإشكال بالطريقة التالية:

«يجب اللطف عليه بشرط وجود المقتضي في كل فعل وانقضاء الموانع
الداخلية والخارجية، فلا تفيد هذه القاعدة لنا في مقام أصلاً، لأن الحكم
بمقتضاها والإستناد إليها في كل مورد يراد، موقوف على علمنا بالمقتضيات
وانتفاء جميع الموانع، وهو موقوف على إحاطتنا التامة بذوات الأشياء والأفعال
وحقائقها وجميع الأمور الداخلية والخارجية والحسية والمعنوية، مع أننا نرى
من المقتضيات والموانع ما لا يمكن دركه لنا»^(١).

أي إن إيجاب اللطف على الله، يتوقف على علمنا بجميع المصالح والمفاسد،
وهو أمر منتف. وعليه لا يمكن أن يُعدّ أي أمر لطفاً لازماً على الله تعالى.

وقد أورد صدر المتألهين الشيرازي عين هذا الإشكال أيضاً، لاسيما خلال
شرحه لأصول الكافي عند تناوله للحديث القائل: «إن الأرض لا تخلو من
حجة»^(٢)، فقال: «وأما القائلون بوجوب نصب الإمام لطف من الله في حق العباد.
واللطف واجب عليه تعالى، فيكون واجباً عليه... وهذا الإستدلال لا يخلو من
ضعف، وذلك لقصور عقولنا عن إدراك غوامض أطفاف الله في حق عباده»^(٣).

والرد على هذا الإشكال واضح. فنظام الوجود عميق ومعقد إلى درجة
بحيث لا يتاح للإنسان معرفة تفاصيله ودقائقه. فليس بمقدور الإنسان الإمساك

(١) عوائد الأيام / الملاً أحمد النراقي: ٧-٨.

(٢) هذا الحديث متواتر، وقد بينا تواتره في الجزء الخاص بحتمية وجود الإمام في هذه
الموسوعة.

(٣) شرح أصول الكافي / صدر المتألهين الشيرازي ٢: ٤٧٤.

بجميع جوانب الوجود، والوقوف على جميع أسراره وغوامضه وخفاياه. وعليه تبقى المصالح والمفاسد مجهولة للإنسان في شتى الأبعاد الحياتية. ومن الصعوبة أو من المتعذر عليه معرفة جميع الأمور التي تعد لطفاً وجميع الأمور التي لا تُعد لطفاً، غير أن العالم ليس مجهولاً بأسره للإنسان، وليس عاجزاً عن تشخيص جميع أنواع اللطف. ففي بعض الحالات تكون المصلحة الموجودة في الأمور واضحة إلى درجة بحيث يحصل لدى الإنسان اليقين والثقة بأن عدم تحقق مثل هذه الأمور يؤدي إلى زوال بعض المصالح التي لا يمكن تداركها. كما يحصل لديه يقين أيضاً بأن الله سيهيء الوسيلة لتحقيقها، أو أنه سيأمر بها. فاللطف الإلهي يشمل جميع الأمور التي تقرب الإنسان إلى الطاعة الإلهية.

وينطبق هذا الأمر على الإمامة أيضاً، وعلى ضوء المصالح المترتبة عليها، يحصل لدينا يقين بأن قيادة الإمام المختار من قبل الله هي الطريق الوحيد الذي يهدي البشرية، ويقودها باتجاه الغاية التي حددها الله لها.

وللخواجة نصير الدين الطوسي كلام بهذا الشأن يقول فيه:

«إنّ المفاسد معلومة الإنتفاء عن الإمامة، لأنّ المفاسد محصورة معلومة، فيجب علينا اجتنابها أجمع»^(١).

وقد يحصل لنا هذا العلم بواسطة التأمّلات العقلية في الدلائل النقلية: «ولأنّ المفسدة لو كانت لازمة للإمامة، لم تنفك عنها، والتالي باطل قطعاً، ولقوله تعالى: ﴿... إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^(٢)، وإن كانت مفارقة جاز انفكاكها عنها، فيجب على تقدير الإنفكاك»^(٣).

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد / العلامة الحلي: ٧٠٩.

(٢) سورة البقرة: ١٢٤/٢.

(٣) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد / العلامة الحلي: ٧٠٩.

ف ٦: قاعدة اللطف وضرورة تعيين إمام لهداية البشرية ٣٥٣

إذن وإن كان من غير الممكن، أو من غير المتيقن استخدام قاعدة اللطف في كثير من الحالات نظراً لمحدودية العلم البشري، ولكن توجد حالات أخرى يحصل لدى الإنسان يقين كامل بها، وبوجود المصالح وعدم المفسد، فتجري فيها قاعدة اللطف بشكل واضح، ومنها موضوع الإمامة.

الإشكال الثالث وجوابه:

الإشكال الآخر الذي يثيره معارضة قاعدة اللطف، يشدد على عدم وجود شرط آخر من شروط هذه القاعدة في باب ضرورة وجود الإمام. فالإستناد إلى هذه القاعدة لا يُسمح به، إلا إذا كان الموضوع المطلوب هو الطريق الوحيد لهداية الإنسان، إذ في غير هذه الحال، لربما هناك طرق أخرى تتمتع بالمصلحة البشرية ويتعلق بها اللطف الإلهي^(١).

وجواب هذا الإشكال:

«إنّ انحصار اللطف الذي ذكرناه في الإمامة، معلوم للعقلاء، ولهذا يلتجئ العقلاء في كل زمان وكل صقع إلى نصب الرؤساء دفعا للمفسد الناشئة من الاختلاف»^(٢).

ومع وجود المصالح وانتفاء المفسد في موضوع الإمامة، فهناك يقين بأنها الطريق الوحيد الذي يحقق الهداية بعد النبوة، ولذلك تجري فيها قاعدة اللطف أيضاً.

الإشكال الرابع وجوابه:

«الإمام إنما يكون لطفاً إذا كان منصرفاً بالأمر والنهي، وأنتم لا تقولون بذلك، فما تعتقدونه لطفاً لا تقولون بوجوبه، وما تقولون به، ليس

(١) عوائد الأيام / الملا أحمد النراقي: ٧٠٩.

(٢) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ٤٩١.

بلطف»^(١).

هذا الإشكال، طُرح مراراً من قبل متكلمي أهل السنة. فالنسفي أبو حفص عمر بن محمد (ت/٥٣٧هـ) - المتكلم السني المعروف - رغم اعترافه بمبدأ الإمامة وضرورتها، واستناده في ذلك إلى الحديث النبوي «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»^(٢)، لكنه يرى أن الأمة هي التي تنتخب الإمام في كل عصر، موجهاً من خلال ذلك الانتقاد إلى الاعتقاد الشيعي، قائلاً:

«لا كما زعمت الشيعة خصوصاً الإمامية منهم أن الإمام الحق بعد رسول الله، علي عليه السلام... ثم ابنه محمد المنتظر المهدي، وقد اختفى خوفاً من أعدائه، وسيظهر فيملاً الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. وأنت خير بأن اختفاء الإمام وعدمه سواء في عدم حصول الأغراض المطلوبة من وجود الإمام، وأن خوفه من الأعداء لا يوجب الاختفاء بحيث لا يوجد منه إلا الاسم، بل غاية الأمر أن يوجب اختفاء دعوى الإمامة كما في حق آبائه الذين كانوا ظاهرين على الناس ولا يدعون الإمامة. وأيضاً فعند فساد الزمان واختلاف الآراء واستيلاء الظلمة، احتياج الناس إلى الإمام أشدّ وإنقيادهم له أسهل»^(٣).

وأثار الشيخ أحمد التراقي في كتاب (عوائد الأيام)، هذا الإشكال نفسه على قاعدة اللطف، ونسبها إلى عدم المعرفة بالمصالح الحقيقية، وليس إلى عدم وجود المصلحة في تصرف الإمام، كي يحافظ بهذه الطريقة على مبانيه الشيعية. فقال:

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد / العلامة الحلي: ص ٤٩١ - ٤٩٢.

(٢) الحديث صحيح رواه الفريقان من طرق شتى، وقد استوفينا جميع طرقه ومصادره في الجزء الخاص بحتمية وجود الإمام عليه السلام في هذه الموسوعة.

(٣) شرح العقائد النسفية للنسفي / مسعود بن عمر التفتازاني: ٢٣٥.

ف ٦: قاعدة اللطف وضرورة تعيين إمام لهداية البشرية ٣٥٥

«إننا نرى في الأشياء والأفعال ما نقطع بكونه لطفاً، بل لا نرى فرقاً بينه وبين سائر ما نقطع بلطفيته لتحقيقه، ومع ذلك لم يقع، كظهور الإمام وتصرفه. فإننا نقطع بكونه لطفاً، ولا نرى فرقاً بين ظهوره في هذه الأيام، ظاهر المقالة، منقذاً من الضلالة، شاهر السيف، منصوراً من الله سبحانه، وبين ظهوره بعد ذلك، بل لا نرى فرقاً بين مجرد ظهوره وظهور الإمام الحادي عشر عليه السلام في زمانه»^(١).

ويرد نصير الدين الطوسي على ذلك بعبارة شبيهة بالكرامة والإلهام، فيقول: «وجوده لطف، وتصرفه آخر (أي لطف آخر)، وعدمه (أي عدم تصرفه) منّا»^(٢).

ويتحدث العلامة الحلبي عن دليل لطفية نفس وجود الإمام حتى في حالة الغيبة، فيقول:

«إنّ لوجود الإمام لطفاً لوجوه:

أحدها: إنه يحفظ الشرائع ويحرسها عن الزيادة والنقصان.

وثانيها: إن اعتقاد المكلفين بوجود الإمام وتجويز إنفاذ حكمه عليهم في كل وقت سبب لردعهم عن الفساد ولقربهم إلى الصلاح، وهذا معلوم بالضرورة.

وثالثها: إنّ تصرفه لا شك أنّه لطف ولا يتم إلا بوجوده، فيكون وجوده نفسه لطفاً، وتصرفه لطفاً آخر»^(٣).

ثم يطرح الرد الذي يعتبره كاملاً على الوجه التالي:

«والتحقيق أن نقول: لطف الإمامة يتم بأمور:

(١) عوائد الأيام / الملاً أحمد النراقي: ٧-٩: راجع: شرح المواقف / الجرجاني ٣: ٣٤٨-٣٤٩.

(٢) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد / العلامة الحلبي: ص ٤٩٠.

(٣) المصدر نفسه.

منها: ما يجب على الله تعالى ، وهو خلق الإمام ، وتمكينه بالقدرة والعلم ، والنص عليه بإسمه ونسبه ، وهذا قد فعله الله تعالى .

ومنها: ما يجب على الإمام ، وهو تحمله للإمامة وقبولها ، وهذا قد فعله الله تعالى .

ومنها: ما يجب على الرعية ، وهو مساعدته ، والنصرة له ، وقبول أوامره ، وامتنال قوله ، وهذا لم تفعله الرعية ، فكان منع اللطف الكامل منهم لا من الله تعالى ولا من الإمام»^(١) .

وبحث قاعدة اللطف صدر المتألهين الشيرازي (ت / ١٠٥٠ هـ) في شرحه على أصول الكافي ، في ذيل الحديث الأول من باب «إِنَّ الْأَرْضَ لَا تَخْلُو مِنْ حِجَّةٍ» ، ونقل الإشكال المذكور والرد قائلاً:

«واعترض عليه مخالفوهم: بأننا نقول بعد تسليم المقدمتين: نصب الإمام إنما كان لطفاً واجباً إذ لم يكن لطف آخر يقاوم له ، والقول بأننا نعلم أن اللطف الذي يحصل بالإمام لا يحصل بغيره ، مجرد دعوى ليس بين ولا مبين . نعم لو ادعى أحد البديهة في كونه لطفاً إذ كان قاهراً زاجراً عن القبائح قادراً على تنفيذ الأحكام وإعلاء لواء الإسلام ، لكان له وجه ، ولكن هذا غير واجب عندكم ، فالإمام الذي ادعيتم وجوبه ليس بلطف ، والذي هو لطف ليس بواجب .

وأجابوا عنه: بأن وجود الإمام لطف ، سواء تصرف أو لم يتصرف ، على ما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إمّا ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيئاته»^(٢) ، وتصرفه الظاهر لطف

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد / العلامة الحلي: ص ٤٩٠.

(٢) صحّ هذا الحديث عن أمير المؤمنين عليه وهو من رواية كميل بن زياد النخعي عنه عليه السلام ،

ف ٦: قاعدة اللطف وضرورة تعيين إمام لهداية البشرية ٣٥٧

آخر، وإنما عدمه من جهة العباد وسوء اختيارهم من حيث أخافوه وتركوا نصرته، ففوتوا اللطف على أنفسهم»^(١).

فلسفة الغيبة:

لا ريب في أن العقل يستعين بالوحي في القضايا المتعلقة بالإلهيات والبعيدة عن إدراك العقل العادي، وذلك من أجل أن يتكامل. فالعقل ينمو ويتزعم في أحضان الوحي، كترعرع الطفل في حجر أمه. أي أنه ينمو ويكبر في ظل النبوة والولاية. فهذا اللون من العقل، عقل ثاقب النظر يشاهد الأشياء البعيدة ويصان من الخطأ، ويرى بشكل واضح القضايا التي لا يراها العقل العادي. ومعنى الحديث النبوي: «أنا وعلي أبوا هذه الأمة»^(٢)، هو أن الأفكار والعقول تنمو

→ والطرق إلى كميل متواترة كما بينا ذلك مفصلاً في الجزء الخاص بحتمية وجود الإمام عليه السلام في هذه الموسوعة.

(١) شرح أصول الكافي / صدر المتألهين ٢: ٤٧٤؛ كذلك راجع: شرح المقاصد / التفتازاني ٥: ٢٤٠.

(٢) الحديث رواه أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. والذي رواه عن أمير المؤمنين جماعة، وهم:

١- ولده السبط الإمام الحسين عليه السلام: الأمالي / الشيخ الصدوق: ٧٥٤ / ١٠١٥ (٦) مجلس (٩٤)، وكنز الفوائد / الكراجكي: ١٨٥-١٨٦.

٢- الأصبع بن نباتة: الروضة في المعجزات والفضائل / أحد محدثي الإمامية القدماء: ١٣٩، والصراط المستقيم / البياضي ١: ٣٤٣.

٣- أنس بن مالك: معاني الأخبار / الشيخ الصدوق: ١١٨ / ١ باب معنى عقوق الأبوين، وعنه في المحتضر / الشيخ حسن بن سليمان الحلبي: ٣٥.

٤- علي بن عثمان المعمر الأشج: كنز الفوائد: ٢٦٦.

وأرسله الحسن بن محبوب عن الإمام علي عليه السلام: تأويل الآيات الظاهرة / الأسترابادي ١:

١٢٨، كما رواه الحسن بن فضال، عن الإمام الرضا عليه السلام: علل الشرائع / الشيخ الصدوق ١:

→ ١٢٧ / ٢ باب ١٠٦.

ولهذا الحديث شواهد صحيحة:

منها: حديث رسول الله ﷺ: «**حق عليّ على هذه الأمة كحق الوالد على ولده**».

رواه عن رسول الله ﷺ ستة من الصحابة، وهم:

١ - أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: الأماي / الشيخ الطوسي ٢٧١ / ٥٠٣ (٤١) مجلس (١٠)،
و: ٣٣٤ - ٣٣٥ / ٦٧٣ (١٣) مجلس (١٢)، وبشارة المصطفى / عماد الدين الطبري: ١٤ / ٤١٤،
والعمدة / ابن بطريق الحلبي: ٣٤٤، وتاريخ مدينة دمشق / ابن عساكر ٤٢: ٣٠٨ في ترجمة
الإمام علي عليه السلام برقم (٤٩٣٣).

٢ و ٣ - أبو أيوب الأنصاري وعمار بن ياسر كلاهما في سند واحد: المناقب / الخوارزمي
الحنفي: ٣٢١ / ٣٢٧، وجواهر المطالب / محمد بن أحمد الباعوني الدمشقي ١: ٨٩ الباب
الرابع عشر، ونقله ابن شهر آشوب في مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٦ عن الثعلبي
والخركوشي.

٤ - أنس بن مالك: فرائد السمطين / الجويني الشافعي ١: ٢٩٧ / ٢٣٥، ومناقب آل أبي طالب
٣: ١٢٦ نقله عن ابن شيرويه الديلمي وغيره من العامة والخاصة.

٥ - جابر بن عبد الله الأنصاري: الأماي / الشيخ الطوسي: ٥٣ - ٥٤ / ٧٢ (٤) مجلس (٢)،
ومناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٦ عن الثعلبي والخركوشي.

٦ - سلمان الفارسي: كتاب الأربعين / محمد بن طاهر القمي: ٧٤ نقله من كتاب الأربعين
لأبي المكارم.

ومنها: ما رواه الأصبع بن نباتة، عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام في حديث طويل جاء فيه:
«.. **ألا وإني أنا أبوكم، ألا وإني أنا مولاكم..**»: الأماي / الشيخ المفيد: ٣٥١ - ٣٥٣ / ٣ مجلس
(٤٢)، والأماي / الشيخ الطوسي: ١٢٢ - ١٢٤ / ١٩١ (٤) مجلس (٥).

ومنها: حديثهم عليه السلام: «**والوالدان رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام**» ورد في
تفسير قوله تعالى من سورة الأحقاف: ١٥/٤٦ ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

رواه عن الإمام الباقر عليه السلام اثنان، وهما:

١ - أبو بصير: تفسير العياشي ١: ٢٤١ / ١٢٨ و ١٢٩.

ف ٦: قاعدة اللطف وضرورة تعيين إمام لهداية البشرية ٣٥٩

وتتربى وتنضج في ظل القوتين الغيبيتين: النبوة، والولاية.
ويقول العقل الإلهي في فلسفة غيبة وليّ العصر (عج)، نفس الشيء الذي
يقوله الوحي. ووردت في الأحاديث والروايات تعابير مختلفة بشأن هذه الغيبة،
بعضها يقول إنه حافظ بغيبته على حياته، وإلا لو ظل ظاهراً لقتلوه. وبعضها يقول
إنه لم يكن يريد أن تكون لأحد بيعة في عنقه. وبعضها يعزو تلك الغيبة إلى
المصالح والحكم التي لا يمكن بحثها ودراستها قبل الظهور، ولا فائدة من
الإفصاح عنها في عصر الغيبة، أو إن الإفصاح عنها يترك نتائج سلبية. أي: أنها
من سنخ الأسرار التي كانت بين موسى بن عمران والخضر.
فكان الخضر يرى أن موسى لن يستطيع تحمل رؤية ما سيفعله، لكنه كان

→ ٢ - سالم الجعفي: مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٦.

ورواه عن الإمام الصادق عليه السلام ثلاثة، وهم:

١ - أبان بن تغلب: مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٦ قال: «وروي مثل ذلك في حديث ابن جبلة»
ولم نقف عليه.

٢ - أبو بصير: تفسير فرات الكوفي: ١٠٤ - ١٠٥ / ٩٦.

٣ - أبو مريم الأنصاري: تفسير فرات الكوفي: ١٠٤ / ٩٣.

كما رواه أبو المضا صبيح، عن الإمام الرضا عليه السلام: مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٦.

ومنها: ما ورد في تفسير قوله تعالى من سورة لقمان: ١٤/٣١: ﴿أَنْ أَشْكُرُ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾
من أن الوالدين هما رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام بنحو الشاهد السابق.

رواه عن الإمام الباقر عليه السلام أربعة، وهم:

١ - زياد بن المنذر: تفسير فرات الكوفي: ٣٢٥ / ٤٤٢.

٢ - عبد الله بن سليمان: تأويل الآيات الظاهرة / الأسترابادي ١: ٤٣٦ / ١ نقله من كتاب منازل
من القرآن في أهل البيت عليهم السلام لمحمد بن العباس بن مروان الثقة المشهور.

٣ و ٤ - عبد الواحد بن المختار و زرارة بن أعين كلاهما في سند واحد: تأويل الآيات ١: ٤٣٦ -
٤٣٧ / ٢ نقله من كتاب محمد بن العباس أيضاً.

كما رواه بشير الدهان، عن الإمام الصادق عليه السلام كما في تأويل الآيات ١: ٤٣٧ / ٤ نقله من
الكتاب المذكور أيضاً.

يقول له: ﴿... سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا...﴾^(١)، غير أن صبره كان ينفد في كل مرة في أعقاب كل فعل يفعله الخضر، فيقوم بالإعتراض عليه. وحينما تكرر ذلك الإعتراض من موسى خاطبه الخضر قائلاً: ﴿... هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾^(٢)، ثم علل له الأعمال التي فعلها وبيّن له أسبابها. فقد كان بمقدور الخضر أن يضع موسى منذ البداية في صورة الأعمال التي سيقوم بها، ولكن المصلحة كانت تقتضي أن يؤخر الإفصاح عنها حتى نهاية اللقاء.

وهكذا هو الأمر بالنسبة لغيبة الإمام المنتظر، فلربما هناك حوادث لا يمكن الكشف عنها قبل وقوعها. فظرف الزمان يلعب دوراً أساسياً في الكشف عن الأحداث لا سيما الاجتماعية منها، لذلك لو أُخبر عنها في هذا اليوم فلربما أدت إلى إيجاد المفسد، أما إذا أُجل الإفصاح عنها إلى غد لكان في ذلك خير وبركة. الإمام عليه السلام باعتباره أسوة وقدوة، يقول في هذه الروايات إنّ لعالم الوجود والحوادث التاريخية باطناً لا تعرفونه. لذلك ينبغي السكوت إزاء دليل الغيبة وعدم الإعتراض أو الإنكار.

لا ريب في أن الأحداث الاجتماعية المهمة تتميز بلون من التعقيد والغموض، بحيث لا يمكن أن نعزو حدوثها إلى سبب واحد، بل لا بد من إسهام العديد من العوامل في حدوثها وظهورها. ورغم أننا لن نستطيع إدراك جميع هذه العوامل والعلل، ولكن لا بد أن ينكشف بعضها لنا.

فعلى صعيد غيبة الإمام المهدي، يُعد الخوف من القتل، والخشية من خلو الأرض من حجة، جزءاً من تلك العوامل. كذلك من بين الأسباب أيضاً زرع الأمل في قلوب البشرية وجعلها تحيا في حالة من الأمل والتفاؤل بظهور المصلح الذي سيملا الأرض عدلاً وقسطاً.

(١) سورة الكهف: ٦٩/١٨.

(٢) سورة الكهف: ٧٨/١٨.

ف ٦: قاعدة اللطف وضرورة تعيين إمام لهداية البشرية ٣٦١

مع ذلك ثمة أسباب وعوامل كثيرة لا زالت خافية علينا، وليس من المصلحة أن تتضح لنا ونعرفها. وهناك العديد من الأمثلة على هذه الحالة في حياتنا اليومية. فقد لا تودّ - على سبيل المثال - الإشتراك في المأدبة التي أقامها أحد أصدقائك لأنك لا ترغب في ذلك الطعام، ولا تميل للضيوف الآخرين، ولا تودّ سماع أحاديثهم. ولكن حينما يسألك صديقك عن عدم المجيء، تقول له لأنّ فلاناً كان مدعواً أيضاً ولا أود أن أراه، بينما كان ذلك جزءاً صغيراً من العلة، ولكنك رأيت من المصلحة ألا تكشف عنها جميعاً.

ومما لا شك فيه أنّه إذا تحقق الظهور ستتضح ما هي تلك المصالح، وندرك - آنذاك - أنّه لو لا الغيبة لما كان بالإمكان تحقيق حكومة العدل الإلهي.

من جانب آخر، لو كان الإمام ظاهراً ولم يلجأ إلى الغيبة، فإنه سيقتل مثل أجداده مع أية حركة سياسية يقوم بها في ظلّ الظروف غير المؤاتية. وقد يقال: ليكن ظاهراً، ولكن من دون أن يمارس أية حركة سياسية. ولكن هذا الرأي ساذج تماماً، إذ هل سيضع الطواغيت يداً على يد وينتظرون في كلّ لحظة ظهور الموعود العالمي؟ ألم نشاهد مقتل أجداده على يد طواغيت عصرهم رغم أنّهم كانوا في غياهب السجون وبعيدين عن أنظار الأمة؟ وقد يقال أيضاً: ليكن ظاهراً ويتخذ من إحدى الجزر النائية محلاً لسكناه! وقيل في الردّ إنّّه لا توجد في هذا اليوم نقطة جغرافية مجهولة، ثم ما الفرق بين أن يعيش غائباً أو أن يقطن جزيرة نائية مجهولة؟

أضف إلى ذلك أن هناك مصلحة أيضاً في عدم الكشف عن مصالح الغيبة وفلسفتها، لأنّ المسلمين لو انشغلوا في تلك المصالح ومناقشتها وتحليلها، لتعرّضوا إلى كثير من المزالق، ولتهيأت الأرضية للمعاندين للتشويه والإنكار ونشر الشبهات والأراجيف، والعمل في آخر المطاف على التشويش على الهدف النهائي وهو إيجاد الأرضية المناسبة لإقامة حكومة العدل الإلهي.

حينما يقول نصير الدين الطوسي: «وجوده لطف وتصرفه لطف آخر، وعدمه منّا»^(١)، يقصد أنه لطف، لأنه مجرى الفيض الإلهي ومفسر الوحي. كما إن تصرفه وحكومته لطف آخر. بينما يعزو غيبته وعدم ظهوره إلى عدم وجود الاستعداد لدى المجتمع الإسلامي.

ويفسر العلامة الحلّي عبارة «عدمه منّا» بالخوف من القتل. ومن الواضح أن الخوف من القتل يمثل جزءاً من أسباب وعوامل الغيبة، ولا ينبغي أن تنحصر فلسفة الغيبة فيها.

وقال صدر المتألّهين - بعد بيان قاعدة اللطف من منظار المتكلّمين -: «وأما حكمائهم وعرفائهم فيعلمون بقوانينهم العقلية والآيات القرآنية عدم خلوّ الأرض عمّن يقوم به حجّة الله على خلقه، إمّا رسول نبيّ أو إمام وصيّ، وبهذا جرت سنّة الله من لدن آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران، وهكذا إلى وقت نبينا محمّد ﷺ.

لكن النبوة ختمت به أعني نبوة الرّسالة والتشريع، وبقيت الإمامة التي هي باطن النبوة إلى يوم القيامة، فلا بدّ في كلّ زمان بعد زمان الرّسالة من وجود ولي يعبد الله على الشهود الكشفي ويكون عنده علم الكتاب الإلهي وماخذ علوم العلماء والمجتهدين، وله الرئاسة المطلقة والإمامة في أمر الدين والدنيا، سواء الرعية أطاعوه أو عصوه والناس أجابوه أو أنكروه، وكما كان الرسول رسولاً وإن لم يؤمن برسالته أحد كما كان حال نوح عليه السلام مثلاً، فكذلك الإمام إمام وإن لم يطعه أحد من الرعية، وليس إذا لم يستعلاج ولم يستشف المرضى من الطبيب لم يكن طبيباً، فهكذا حكم الذين هم أطباء النفوس ومعالجوا الأمراض النفسانية والأدواء القلبية وهم الأنبياء والأولياء عليهم الصلاة والثناء»^(٢).

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد / العلامة الحلّي: ٤٤٤.

(٢) شرح أصول الكافي: ٤٧٦/٢، صدر المتألّهين شيرازي.

الفصل السابع

التعامل بين العقل والشرع

في معرفة هوية إمام الزمان عليه السلام

هذه المباحث استدلالات عقلية أفضت إلى ضرورة وجود إمام معصوم في جميع العصور والأزمنة، غير أن هوية هذا الإمام كشفت عنها الأحاديث المتواترة المعتبرة. أي: أن الشرع قام بدعم العقل في تسليط الضوء على هوية هذه الشخصية الربانية. وكما يهبّ الشرع لدعم العقل، كذلك يهبّ العقل لدعم الشرع أيضاً. فعلى سبيل المثال لقد ثبت أصل النبوة بالعقل والاستدلال العلمي، غير أن ما أنزل الله تعالى وما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله، لا يقع ضمن دائرة إدراك العقل، لكنه يوسّع رؤية العقل ونطاق تفكيره.

بتعبير آخر: العلاقة بين الشرع والعقل، علاقة متبادلة وذات طرفين، ولكل منهما دور تجاه الآخر. فالعقل أشبه بالركيزة أو القاعدة، والشرع كالمبنى الذي يرتكز على هذه القاعدة، ونعم ما قال الراغب الإصفهاني: «اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لا يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأسس، والشرع كالبناء، ولن يغني أسس ما لم يكن بناءً، ولن يثبت بناء ما لم يكن أسس. وأيضاً فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر. ولهذا قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾^(١).

وأيضاً فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمدّه، فإن لم يكن زيت لم يحصل السراج، وما لم يكن سراج، لم يضيء الزيت. وعلى هذا نبّه الله تعالى بقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ

(١) سورة المائدة: ١٥/٥-١٦.

المُصْبَاحُ فِي زُجَاجَةِ الزُّجَاجَةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةِ مُبَارَكَةٍ
زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى
نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴿١﴾

وأيضاً فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل، وهما يتعاضان بل
يتحدان. ولكون الشرع عقلاً من الخارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر في
غير موضع من القرآن نحو قوله: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢) ولكون
العقل شرعاً من داخل في صفة العقل ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا
تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ﴾^(٣) فسُمِّيَ العقل ديناً. ولكونهما متحدان
قال تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾^(٤) أي نور العقل ونور الشرع ثم قال: ﴿يَهْدِي اللَّهُ
لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فجعلهما نوراً واحداً لأنَّ العائد إليه مفرد وهو لتوره فالشرع إذا
فقد العقل عجز عن أكثر الأمور كعجز العين عند فقد التور.

واعلم أنَّ العقل بنفسه قليل الفناء لا يكاد أن يتوصل به إلا إلى معرفة كليات
الأشياء دون جزئياتها؛ نحو أن يعلم جملة حسن اعتقاد الحق وقول الصدق
وتعاطي الجميل وحسن استعمال العدالة وملازمة العقَّة ونحو ذلك من غير أن
يعرف ذلك في شيءٍ شيءٍ، والشرع يعرف كليات الشيء وجزئياته ويبيِّن ما الذي
يجب أن يعتقد في شيءٍ شيءٍ، وما الذي هو معدلةٌ في شيءٍ شيءٍ ويعرِّفنا العقل
مثلاً أنَّ لحم الخنزير والدم والخمر محرَّم، وأنَّه يجب أن يتحاشى تناول الطعام
في وقت معلوم، وأن لا ينكح ذوات المحارم، وأن لا تجامع المرأة في حال

(١) سورة النور: ٢٤ / ٣٥.

(٢) سورة البقرة: ٢ / ١٧١.

(٣) سورة الروم: ٣٠ / ٣٠.

(٤) سورة النور: ٢٤ / ٣٥.

ف ٧: التعامل بين العقل والشرع في معرفة هوية إمام الزمان عليه السلام ٣٦٧

الحيض فإنّ أشباه ذلك لا سبيل إليها إلا بالشرع. فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة والدالّ على مصالح الدنيا والآخرة، ومن عدل عنه فقد ضلّ سواء السبيل، ولأجل أن لا سبيل للعقل إلى معرفة ذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١). وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾^(٢). وإلى العقل والشرع أشار بالفضل والرحمة بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣). وعني بالقليل المصطفين الأخيار^(٤).

وبعد أن سلطنا الضوء على الأدلة والبراهين العقلية، نورد - تيمناً بالمعصومين الأربعة عشر عليهم السلام - أربعة عشر حديثاً صحيحاً من بين مئات الأحاديث المعتبرة التي تؤكد على أن إمام العصر والزمان المهدي الموعود هو محمد بن الحسن العسكري عليه السلام^(٥)، مما يبرهن على تلاحم العقل والشرع في تحديد هوية هذه الشخصية الربانية التي ادّخرها الله لآخر الزمان والتي ستملأ الأرض قسطاً وعدلاً.

(١) سورة الإسراء: ١٧ / ١٥.

(٢) سورة طه: ٢٠ / ١٣٤.

(٣) سورة النساء: ٤ / ٨٣.

(٤) تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين / حسين بن محمد الراغب الإصفهاني: ص ٨٨ -

٩٠. بنياد پژوهش های اسلامی آستان قدس رضوی.

(٥) وسيأتي في محله من بشارة الأمان جزء خاص فيه بيان موقف أهل السنة من القضية المهدوية، وسيجد القارئ في العشرات ممن صرّحوا منهم بهوية الإمام المهدي عليه السلام، هذا فضلاً عما سيأتي في محله أيضاً من تحديد دقيق وتفصيل واسع حول هوية الإمام المهدي عليه السلام في الأحاديث الشريفة في هذه الموسوعة إن شاء الله تعالى.

الحديث الأول

قال الصدوق عليه السلام في إكمال الدين ٢: ٤٤١ - ٤٤٢ / ١٤ باب (٤٣): «حدّثنا أبي ومحمد بن الحسن رضي الله عنهما؛ قالوا: حدّثنا عبد الله بن جعفر الحميري، قال: كنتُ مع أحمد بن إسحاق عند العمريّ رضي الله عنه فقلت للعمريّ: إني أسألك عن مسألة، كما قال الله عزّ وجل في قصة إبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾^(١) هل رأيت صاحبي؟ فقال لي: نعم، وله عُنُقٌ مثل ذي - وأوماً بيديه جميعاً إلى عنقه - قال: قلتُ: فالإسم؟ قال: إِيَّاكَ أَنْ تَبْحَثَ عَنْ هَذَا، فَإِنَّ عِنْدَ الْقَوْمِ أَنَّ هَذَا النَّسْلَ قَدْ انْقَطَعَ!».

نوع الحديث ورتبته:

الحديث مسند متصل صحيح بهذا الإسناد ورواته كلهم من أعظم الثقات المشهورين:

ترجمة رواته:

١ - علي بن الحسين بن موسى، والد الشيخ الصدوق:
قال النجاشي: «علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، أبو الحسن، شيخ القميين في عصره ومنتقدّهم وفقههم وثقتهم، كان قدم العراق واجتمع مع

(١) سورة البقرة: ٢ / ٢٦٠.

ف ٧: التعامل بين العقل والشرع في معرفة هوية إمام الزمان عليه السلام ٣٦٩

أبي القاسم الحسين بن روح رحمه الله... ثم كاتبه بعد ذلك علي يد علي بن جعفر ابن الأسود يسأله أن يوصل له رقعة إلى صاحب عليه السلام ويسأله فيها الولد، فكتب إليه: قد دعونا الله لك بذلك وسترزق ولدين ذكرين خيَّرين. فولد له أبو جعفر (الشيخ الصدوق) وأبو عبد الله من أم ولد^(١).

وقال الشيخ الطوسي في رجاله: «ثقة له تصانيف»^(٢).

وقال في فهرست: «كان فقيهاً، جليلاً، ثقة، وله كتب كثيرة»^(٣).

وقال ابن داود: «الفقيه الجليل المعظم الثقة»^(٤).

ووثقه العلامة الحلبي^(٥).

وأثنى عليه ابن النديم في فهرست بقوله: «من فقهاء الشيعة وثقاتهم»^(٦).

ووصفه الذهبي في سير أعلام النبلاء بالعلامة^(٧).

ولا زال مرقد الشريف إلى اليوم في مدينة قم شاخصاً يُزار.

٢ - محمد بن الحسن بن الوليد:

قال النجاشي: «محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، أبو جعفر، شيخ

القُميين وفقههم ومتقدمهم ووجههم، ويقال: إنه نزيل قم وما كان أصله منها، ثقة،

ثقة. عَيْن، مَسْكُون إليه»^(٨).

(١) الرجال / النجاشي: ٢٦١ / ٦٨٤.

(٢) الرجال / الشيخ الطوسي: ٤٣٢ / ٦١٩١ (٣٤).

(٣) الفهرست / الشيخ الطوسي: ١٥٧ / ٣٩٢ (١٩).

(٤) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ٢٤١ / ١٠٢٠.

(٥) خلاصة الأقوال / العلامة الحلبي: ١٧٨ / ٥٣١ (٢٠).

(٦) الفهرست / النديم: ٢٤٦، الفن الخامس من المقالة الخامسة.

(٧) سير أعلام النبلاء / الذهبي ١٦: ٣٠٣ / في ترجمة الشيخ الصدوق برقم (٢١٢).

(٨) الرجال / النجاشي: ٣٨٣ / ١٠٤٢.

وقال الشيخ في الفهرست: «جليل القدر، عارف بالرجال، موثوق به»^(١).

وقال في رجاله: «جليل القدر، بصير بالفقه، ثقة»^(٢).

وقال ابن شهر آشوب: «جليل»^(٣).

ووثقه ابن داود والعلامة الحلبي^(٤).

٣ - عبد الله بن جعفر الحميري:

من أعظم ثقات القميين ومشاهيرهم. قال النجاشي في ترجمته: «شيخ

القميين ووجههم»^(٥).

وقال الشيخ الطوسي في الفهرست: «ثقة، له كتب»^(٦).

وعده في رجاله في أصحاب الإمام الحسن العسكري عليه السلام قائلاً: «قمي

ثقة»^(٧).

وعده البرقي في أصحاب الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام^(٨).

ووثقه ابن شهر آشوب في معالم العلماء وابن داود في رجاله والعلامة في

الخلاصة^(٩) وجمع غفير من علماء التراجع والرجال المتأخرين والمعاصرين.

(١) الفهرست / الشيخ الطوسي: ٢٣٧ / ٧٠٩ (١٢٤).

(٢) الرجال / الشيخ الطوسي: ٤٣٩ / ٦٢٧٣ (٢٣).

(٣) معالم العلماء / ابن شهر آشوب: ١٤٦ / ٧٦٣.

(٤) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ١٣١٩/٣٠٤ و ٣٠٨ / ذيل رقم (١٣٣٣)، وخلاصة الأقوال /

العلامة الحلبي ق ١: ٢٤٧ / ٨٤٢ (٤٤).

(٥) الرجال / النجاشي: ٢١٩ / ٥٧٣.

(٦) الفهرست / الشيخ الطوسي: ١٦٧ / ٤٣٩ (٧).

(٧) الرجال / الشيخ الطوسي: ٤٠٠ / ٥٨٥٧ (٢).

(٨) كتاب الرجال / البرقي: ٥٩، و ٦٠.

(٩) معالم العلماء / ابن شهر آشوب: ١٠٨ / ٤٩٣، وكتاب الرجال / ابن داود ق ١: ٢٠٠ / ٨٣١،

وخلاصة الأقوال ق ١: ١٩٣ - ١٩٤ / ٦٠٥ (٢٠).

٤ - أحمد بن إسحاق بن سعد:

قال النجاشي: «أحمد بن إسحاق بن عبد الله بن سعد الأشعري، أبو عليّ القمي، وكان وافد القميين»^(١). روى عن أبي جعفر الثاني وأبي الحسن عليهما السلام وكان خاصة أبي محمد عليه السلام. وقال الشيخ: أحمد بن إسحاق بن عبد الله بن سعد الأشعري، أبو عليّ، كبير القدر، وكان من خواص أبي محمد عليه السلام ورأى صاحب الزمان عليه السلام وهو شيخ القميين ووافدهم^(٢).

وعده الشيخ في رجاله في أصحاب الجواد عليه السلام وفي أصحاب أبي محمد العسكري عليه السلام، قائلاً: «أحمد بن إسحاق بن سعد الأشعري، قمي ثقة»^(٣).

(١) الرجال / النجاشي: ٢٢٥ / ٩١.

(٢) الفهرست / الشيخ الطوسي: ٧٠ / ٧٨ (١٦).

(٣) الرجال / الشيخ الطوسي: ٣٧٣ / ٥٥٦ (١٣)، و: ٣٩٧ / ٥٨١٧ (١).

الحديث الثاني

قال الفضل بن شاذان النيسابوري في إثبات الرجعة كما في مختصره المعروف بـ (مختصر إثبات الرجعة / الحر العاملي): ٢٠٦ - ٢٠٧ حديث / ٣: «حدثنا عبد الرحمن بن أبي نجران، عن عاصم بن حميد، عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

يا علي، إن قريشاً ستظهر عليك ما استبطنته وتجمع كلمتهم على ظلمك وقهرك، فإن وجدت أعواناً فجاهدْهم، وإن لم تجد أعواناً فكف يدك وأخفن دماك، فإن الشهادة من ورائك. وأعلم أن أبنِي ينتقم من ظالميك وظالمي أولادك وشيعتك في الدنيا، ويُعذبهم الله في الآخرة عذاباً شديداً. فقال سلمان الفارسي: من هو يارسول الله؟ قال: التاسع من ولد ابني الحسين، الذي يظهر بعد غيبته الطويلة فيعلن أمر الله ويظهر دين الله وينتقم من أعداء الله ويملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. قال: متى يظهر يارسول الله؟ قال: لا يعلم ذلك إلا الله، ولكن لذلك علامات، منها نداء من السماء، وخسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بالبيداء».

نوع الحديث ورتبته:

الحديث مسند متصل، صحيح بهذا الإسناد، ورواته كلهم ثقات، ومعناه

متواتر.

ترجمة رواته:

١ - عبد الرحمن بن أبي نجران:

عده البرقي في أصحاب الإمامين الرضا والجواد عليهما السلام قائلاً: «عبد الرحمن ابن أبي نجران كوفي قمّي»^(١).

وقال النجاشي: «عبد الرحمن بن أبي نجران واسمه عمرو بن مسلم التميمي، مولى كوفي، أبو الفضل روى عن الرضا [عليه السلام] وكان عبد الرحمن ثقة ثقة معتمداً على ما يرويه له كتب كثيرة»^(٢).

ووثقه ابن داود^(٣) والعلامة الحلّي^(٤)، ولثقتَه وجلالته روى عنه أجلاء المشايخ كأحمد بن محمد بن عيسى، وأحمد بن أبي عبد الله البرقي، ومن في طبقتهما.

٢ - عاصم بن حميد:

عده البرقي والشيخ الطوسي في أصحاب الإمام الصادق عليه السلام^(٥).

وقال النجاشي: «عاصم بن حميد الحنّاط، أبو الفضل، مولى، كوفي، ثقة، عين، صدوق، روى عن أبي عبد الله عليه السلام»^(٦).

وذكره ابن داود في القسم الأول من رجاله قائلاً «ثقة، عين، صدوق»^(٧).

(١) كتاب الرجال / البرقي: ٥٤ و ٥٧.

(٢) الرجال / النجاشي: ٢٣٥ / ٦٢٢.

(٣) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ٢٢٢ / ٩٢٧.

(٤) خلاصة الأقوال ق ١: ٢٠٥ / ٦٥٢ (٧).

(٥) كتاب الرجال / البرقي: ٤٥، والرجال / الشيخ الطوسي: ٢٦٢ / ٣٧٤٠ (٦٤٩).

(٦) الرجال / النجاشي: ٣٠١ / ٨٢١.

(٧) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ١٩٢ / ٧٨٦.

٣ - أبو حمزة الثمالي:

قال النجاشي: «ثابت بن أبي صفية أبو حمزة الثمالي... كان من خيار أصحابنا وثقاتهم ومعتمديهم في الرواية والحديث. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «أبو حمزة في زمانه مثل سلمان في زمانه» وروي عنه العامة^(١).

وقال الشيخ الصدوق: «... وهو ثقةٌ عدلٌ قد لقي أربعة من الائمة: عليّ بن الحسين ومحمّد بن عليّ وجعفر بن محمّد وموسى بن جعفر عليهم السلام»^(٢).
وقد سأل الكشي شيخه حمدويه بن نصير عن أبي حمزة وأولاده، فقال: «كلّهم ثقات فاضلون»^(٣).

وعده ابن النديم في فهرسته من النجباء الثقات^(٤)، ووثقه ابن داود والعلامة^(٥). وهناك أخبار كثيرة في الثناء على أبي حمزة منها ما رواه الكشي من الإمام الصادق عليه السلام قال لأبي حمزة: «إني لأستريح إذا رأيتك»^(٦). ومنها قول الإمام الكاظم عليه السلام في أبي حمزة: «وكذلك يكون المؤمن إذا نور الله قلبه»^(٧).

(١) الرجال / النجاشي: ١١٥ / ٢٩٦.

(٢) من لا يحضره الفقيه / الصدوق ٤: ٣٦، من المشيخة.

(٣) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) / الشيخ الطوسي: ٢٠٣ / ٣٥٧.

(٤) الفهرست / ابن النديم: ٣٦٠ الفن الثالث من المقالة الأولى.

(٥) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ٣٩٦ / ٢٦، وخلاصة الأقوال / العلامة الحلّي ق ١: ٨٥ -

١٧٩ / ٨٦ (٥).

(٦) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) / الشيخ الطوسي: ٣٣ / ٦١.

(٧) الخرائج والجرائح / الراوندي ١: ٢٣٠.

الحديث الثالث

قال الشيخ الصدوق رحمة الله عليه في كتابه إكمال الدين وتمام النعمة ٢:
٣٧٢-٣٧٣ / ٦ باب (٣٥):

حدّثنا أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني رضي الله عنه، قال: حدثنا علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد السلام بن صالح الهروي، قال: سمعت دِعْبِلَ بن عليّ الخزاعي يقول: فلما انتهيت إلى قولي «خروج إمام لا محالة خارج...» بكى الرضا بكاءً شديداً، ثم رفع رأسه إليّ فقال لي: ... هل تدري من هذا الإمام ومتى يقوم؟ فقلت له: لا يا مولاي، إلا أني سمعت بخروج إمام منكم يطهر الأرض من الفساد ويملاها عدلاً كما ملئت جوراً، فقال: يا دِعْبِلُ، الإمام بعدي محمد ابني، وبعد محمد ابنه عليّ، وبعد عليّ ابنه الحسن، وبعد الحسن ابنه الحجة القائم، المنتظر في غيبته، المطاع في ظهوره، ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله عز وجلّ ذلك اليوم حتى يخرج، فيملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وأما متي، فأخبار عن الوقت، فقد حدّثني أبي، عن أبيه، عن آباءه عليهم السلام أن النبي صلّى الله عليه وآله قيل له: يا رسول الله متى يخرج القائم من ذريتك؟ فقال عليه السلام: مَثَلُهُ مَثَلُ السَّاعَةِ الَّتِي ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ الْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾^(١).

(١) سورة الأعراف: ١٨٧/٧.

نوع الحديث ورتبته:

الحديث مسند متصل صحيح بهذا الإسناد وجميع رواته من الثقات الصادقين ، ومعناه متواتر .

ترجمة رواته:

١ - أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني:

من أجلاء مشايخ الصدوق ، وقرنه في كثير من الموارد بأبيه أو بشيخه ابن الوليد ، وقال بعد رواية هذا الحديث في كتابه إكمال الدين مباشرة: «لم أسمع هذا الحديث إلا من أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني بهمدان ، عند منصرفي من حج بيت الله الحرام ، وكان رجلاً ثقةً دَيِّناً فاضلاً رحمة الله عليه ورضوانه»^(١).

وعده ابن داود في رجاله في قسم الثقات ، قائلاً: «ثقة»^(٢).

وقال العلامة الحلبي في الخلاصة: «كان رجلاً ثقةً دَيِّناً فاضلاً رضى الله

عنه»^(٣).

ووثقه سائر المتأخرين .

٢ - علي بن ابراهيم بن هاشم القمي ، أبو الحسن:

قال النجاشي: «علي بن ابراهيم بن هاشم ، أبو الحسن القمي ثقة في

الحديث ، ثبت ، معتمد ، صحيح المذهب»^(٤).

ووثقه ابن داود في رجاله^(٥) والعلامة الحلبي في

(١) إكمال الدين / الصدوق ٢: ٣٦٩ / ٦ باب (٣٤).

(٢) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ٢٨ / ٧٧.

(٣) خلاصة الأقوال ق ١: ٧٠ / ١٠٢ (٣٧).

(٤) الرجال / النجاشي: ٢٦٠ / ٦٨٠.

(٥) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ٢٣٧ / ٩٩٨.

ف ٧: التعامل بين العقل والشرع في معرفة هوية إمام الزمان عليه السلام ٣٧٧
الخلاصة^(١) وسائر المتأخرين، وكان من أجلاء مشايخ ثقة الإسلام الكليني وقد
أكثر من الرواية عنه في جميع كتب الكافي. ووصفه الذهبي في ميزان الاعتدال
بالمحمّدي، وقال: «رافضي جلد»^(٢)، وتكفي هذه الأوصاف لبيان جلالته قدره
ووثوقه وصدقه في الحديث، وله مرقد مشهور في مدينة قمّ المشرفة لازال
شاخصاً يُزار.

٣- إبراهيم بن هاشم القمي، أبو إسحاق:

عدّه الشيخ في رجاله في أصحاب الإمام الرضا عليه السلام^(٣)، وادرك الإمام
الجواد عليه السلام وروى عنه.

أصله كوفي وانتقل إلى قمّ، وهو أوّل من نشر حديث الكوفيّين بقمّ.

وذكره ابن داود في القسم الأوّل من كتابه^(٤).

ورجّح العلامة الحلّي قبول روايته^(٥).

كما وثقه ابنه علي بن إبراهيم في جملة مشايخه في تفسيره^(٦)، وقد روى
عنه أكثر من غيره ولم يُضعّفه أحد قطّ.

وفي قبول القميين حديثه بلا خلاف بينهم مع منهجهم الرجالي المتشدد دليل
عظيم على جلالته ووثاقته.

٤- أبو الصلت الهروي، عبد السلام بن صالح بن سليمان بن أيوب:

ثقة، صحيح الحديث روى عن الرضا عليه السلام. قال الكشي: «قال يحيى بن نعيم

(١) خلاصة الأقوال ق ١: ١٨٧ / ٥٥٦ (٤٥).

(٢) ميزان الاعتدال / الذهبي ٣: ١١١ / ٥٧٦٦.

(٣) الرجال / الشيخ الطوسي: ٣٥٣ / ٥٢٢٤ (٣٠).

(٤) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ٢٠ / ٤٣٠.

(٥) خلاصة الأقوال ق ١: ٤٩ / ٩ (٩).

(٦) تفسير القمي / علي بن إبراهيم القمي ١: ٤.

[معين]: أبو الصّلت نقي الحديث، ورأيناه يسمع ولكن كان شديد التشييع، ولم يُرَ منه الكذب، وروى عن أحمد بن سعيد الرازي، أنّه قال: «إنّ أبا الصّلت الهروي ثقة مأمون على الحديث»^(١).

ووثّقه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل وروى عنه حديث «أنا مدينة العلم وعليّ بابها» وأضاف أن يحيى بن معين أثنى عليه وعده صدوقاً^(٢).

وقال المزي في تهذيب الكمال: إن أبا صلت الهروي كان خادماً لعليّ بن موسى الرضا عليه السلام، وكان أديباً فقيهاً عالماً^(٣).

نعم، لقد ضعّفه بعض النواصب لقوله «كلب العلويين خيرٌ من بني أمية» وهذه سيرتهم في تضعيف أمثال أبي الصّلت ممن أصحروا بواقع حال بني أمية.

(١) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) / الشيخ الطوسي: ٦١٥ / ١١٤٨ و ١١٤٩.

(٢) شواهد التنزيل / الحاكم الحسكاني ١: ١٠٥ ذيل ح / ١١٨.

(٣) تهذيب الكمال / المزي ١٨: ٧٣ / في ترجمة أبي الصّلت عليه السلام برقم (٣٤٢١).

الحديث الرابع

قال الشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه القمي في إكمال الدين ١ : ٢٦٢
٩ / باب (٢٤):

«حدّثنا أبي رضى الله عنه ، قال : حدّثنا سعد بن عبد الله ، قال حدّثنا يعقوب
ابن يزيد ، عن حمّاد بن عيسى ، عن عبد الله بن مسكان ، عن أبان بن تغلب ، عن
سليم بن قيس الهلالي ، عن سلمان الفارسي ، قال : دخلت على النبي ﷺ . فإذا
الحسين بن علي على فخذه وهو يقبل عينيه ، ويلثم فاه ويقول : أنت سيّد ابن
سيّد ، أنت إمام ابن إمام ، أخو إمام ، أبو أئمة ، أنت حجة الله وابن حجته وأبو حجج
تسعة من صلبك ، تاسعهم ، قائمهم » وفي بعض الطرق مع زيادة في آخره :
«أعلمهم ، أحكمهم ، أفضلهم» .

نوع الحديث ورتبته:

الحديث مسند ، متصل ، صحيح بهذا الإسناد ، ورواته ثقات أجلاء كلهم ،
ومعناه متواتر .

ترجمة رواته:

١ - والد الشيخ الصدوق:

ثقة ، جليل تقدّمت ترجمته في الحديث الأول .

٢ - سعد بن عبد الله:

قال النجاشي: «سعد بن عبد الله الأشعري القمي أبو القاسم، شيخ هذه الطائفة وفتيها ووجهها»^(١).

وقال الشيخ الطوسي في رجاله: «سعد بن عبد الله القمي، عاصر الإمام العسكري عليه السلام»^(٢) ووصفه في الفهرست بأنه «جليل القدر، واسع الأخبار، كثير التصانيف، ثقة»^(٣).

ووثقه كل من ابن داود والعلامة الحلبي، وأثنوا عليه وعدّوه فقيهاً من مشايخ الإمامية^(٤).

٣ - يعقوب بن يزيد، أبو يوسف:

عدّه البرقي في أصحاب الإمامين الكاظم والهادي عليهما السلام^(٥) وعدّه الشيخ الطوسي في أصحاب الإمام الرضا والإمام الهادي عليهما السلام قائلاً: ثقة^(٦).
وقال النجاشي: «كان ثقة صدوقاً»^(٧).

وقال في الفهرست: «كثير الرواية، ثقة، له كتب»^(٨).

ووثقه ابن داود في رجاله قائلاً: «أبو يوسف القمي، كان ثقة صدوقاً»^(٩).

(١) الرجال / النجاشي: ١٧٧ / ٤٦٧.

(٢) الرجال / الشيخ الطوسي: ٣٩٩ / ٥٨٥٢ (٣).

(٣) الفهرست / الشيخ الطوسي: ١٣٥ / ٣١٦ (١).

(٤) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ١٦٨ / ٦٧١، وخلاصة الأقوال ق ١: ١٥٦ / ٤٥٢ (٣).

(٥) كتاب الرجال / البرقي: ٥٢ و ٦٠.

(٦) الرجال / الشيخ الطوسي: ٣٦٩ / ٥٤٨٨ (١٢) و ٣٩٣ / ٥٧٩٧ (٢).

(٧) الرجال / النجاشي: ٤٥ / ١٢١٥.

(٨) الفهرست / الشيخ الطوسي: ٢٦٤ / ٨٠٧ (١).

(٩) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ٣٧٩ - ٣٨٠ / ١٧٠٠.

ف ٧: التعامل بين العقل والشرع في معرفة هوية إمام الزمان عليه السلام ٣٨١

وقال العلامة الحلبي: «كان ثقة صدوقاً»^(١).

٤ - حمّاد بن عيسى:

عدّه البرقي في رجاله في أصحاب الأئمة: الصادق، والكاظم والرضا عليهم السلام^(٢) وهو من أصحاب الاجماع الذين اجتمعت الطائفة على تصحيح ما يصحّ عنهم^(٣). وعدّه الشيخ في رجاله في أصحاب الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام قائلاً: «له كتب، ثقة»^(٤).

وقال في الفهرست: «حمّاد بن عيسى، ثقة»^(٥).

وقال العلامة في الخلاصة: «كان ثقةً في حديثه، صدوقاً»^(٦).

وعدّه ابن داود في القسم الأوّل في رجاله، وأورد بحقه بعض جمل الثناء والتوثيق والتجليل^(٧).

٥ - عبد الله بن مُسكان، أبو محمّد:

قال النجاشي: «أبو محمد ثقةٌ، عَيْنٌ، له كتب»^(٨).

وعدّه الكشي في أصحاب الإجماع^(٩).

ووثّقه الشيخ في الفهرست قائلاً: «ثقة له كتاب»^(١٠).

(١) خلاصة الأقوال: ٢٩٨ / ١١٠٧ (١).

(٢) كتاب الرجال / البرقي: ٢١ و ٤٨ و ٥٣.

(٣) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) / الشيخ الطوسي: ٣٧٥ / ٧٠٥.

(٤) الرجال / الشيخ الطوسي: ١٨٧ / ٢٢٩٤ (١٥١) و ٣٣٤ / ٤٩٧٠ (١).

(٥) الفهرست / الشيخ الطوسي: ١١٥ / ٢٤١ (٢).

(٦) خلاصة الأقوال ق ١: ١٢٤ / ٣٢٣ (٢).

(٧) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ١٣٢ / ٥١٣.

(٨) الرجال / النجاشي: ٢١٤ / ٥٥٩.

(٩) اختيار معرفة الرجال: ٣٧٥ / ٧٠٥.

(١٠) الفهرست / الشيخ الطوسي: ١٦٨ / ٤٤٠ (٨).

وذكره الشيخ المفيد في الرسالة العددية وأطراه غاية الإطراء، وعده من الفقهاء الاعلام المأخوذ منهم الحلال والحرام والفتيا»^(١).
ووثقه ابن شهر آشوب في المعالم، وابن داود في رجاله والعلامة الحلبي في الخلاصة، مع وصفه بالفقيه والمعظم^(٢).

٦- أبان بن تغلب:

عده البرقي في أصحاب الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام^(٣).
وقال النجاشي: كان «عظيم المنزلة، وقال له أبو جعفر عليه السلام: اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس، فإني أحب أن يرى في شيعتي مثلك، وقال أبو عبد الله عليه السلام لما أتاه نعيه: أما والله لقد أوجع قلبي موت أبان.
وكان أبان رحمه الله مقدماً في كل فن من العلم في القرآن والفقه والحديث والأدب واللغة والنحو وله كتب»^(٤).

وأسند النجاشي إلى أبان بن محمد بن أبان بن تغلب أنه قال: «سمعتُ أبي يقول: دخلت مع أبي إلى أبي عبد الله عليه السلام فلما بصر به أمر بوسادة فألقيت وصافحه واعتنقه ورحب به.

وقال: كان أبان اذا قدم المدينة تقوّضت إليه الحلق وأُخليت له سارية النبي صلى الله عليه وآله»^(٥).

(١) جوابات أهل الموصل في العدد والرؤية للشيخ المفيد (مطبوع ضمن سلسلة مؤلفات الشيخ المفيد) ٩: ٢٥ و ٣٣.

(٢) معالم العلماء / ابن شهر آشوب: ١٠٩ / ٤٩٤، وكتاب الرجال / ابن داود ق ١: ٢١٣ / ٨٨٨، وخلاصة الأقوال ق ١: ٦٠٧ (٢٢).

(٣) كتاب الرجال / البرقي: ٩ و ١٦.

(٤) الرجال / النجاشي: ١٠ - ١١ / ٧.

(٥) الرجال / النجاشي: ١١ - ١٢.

ف ٧: التعامل بين العقل والشرع في معرفة هوية إمام الزمان عليه السلام ٣٨٣

وأُسند إلى الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لأبان بن عثمان: «إِنَّ أَبَانَ بْنَ تَغْلِبَ رَوَى عَنِّي ثَلَاثِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ، فَارَوْهَا عَنِّي»^(١).

وفي رجال الكشي جملة من الروايات المعتمدة وكلها في بيان مكانة أبان ومنزلته عند الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، منها: ما رواه مُسلم بن أبي حَبَّة، قال: «كنت عند أبي عبد الله عليه السلام في خدمته، فلَمَّا أردت أن أفارقه، ودَّعته وقلت له: أَحَبُّ أن تزودني، قال: «إِنَّ أَبَانَ بْنَ تَغْلِبَ فَإِنَّهُ قَدْ سَمِعَ مِنِّي حَدِيثًا كَثِيرًا، فَمَا رَوَى لَكَ عَنِّي فَارَوْهُ عَنِّي»^(٢).

وهذا القول من الإمام دالٌّ على جلاله أبان وصدقه، بل هو من أعلى درجات التوثيق.

وعده الشيخ في رجاله في أصحاب الأئمة: السجّاد، والباقر والصادق عليهما السلام^(٣) وترجم له في الفهرست قائلاً: «ثقة، جليل القدر، عظيم المنزلة في أصحابنا»^(٤).

وقال ابن داود في رجاله: «ثقة، جليل القدر، سيّد عصره، روى عن الصادق عليه السلام ثلاثين ألف حديث»^(٥).

وذكر العلامة الحلّي بعض ما ذكره المتقدّمون في توثيق أبان بن تغلب عليه السلام وبعض ما رَووه من روايات في منزلته عند الأئمة عليهم السلام^(٦).

وقد وثّق علماء العامّة أبان كثيراً: قال المِزّي: «قال عبد الله بن أحمد بن

(١) الرجال / النجاشي: ١٢.

(٢) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) / الشيخ الطوسي: ٣٣١ / ٦٠٤.

(٣) الرجال / الشيخ الطوسي: ١٠٩ / ١٠٦٦ (٩) و ١٢٦ / ١٢٦٥ (٣٧) و ١٦٤ / ١٨٧١ (١٧٥).

(٤) الفهرست / الشيخ الطوسي: ٥٧ / ٦١ (١).

(٥) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ٩ - ١٠ / ٤.

(٦) خلاصة الأقوال ق ١: ٧٣ / ١١٩ (١).

حنبل، عن أبيه.

وإسحاق بن منصور، عن يحيى بن معين.

وأبو حاتم والنسائي: ثقة^(١).

وقال الذهبي: «الإمام المقرئ الكوفي الشيعي، وهو صدوق في نفسه»^(٢)،

وقال في ميزان الاعتدال: «أبان بن تغلب شيعي جلد، لكنه صدوق، فلنا صدقه

وعليه بدعته»^(٣)!!

وبدعته عليه السلام عند الذهبي محبة آل محمد عليهم السلام وتقديمهم على من سواهم.

٧ - سُليم بن قيس الهلالي:

عدّه البرقي من الأولياء من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، كما ذكره في

أصحاب الأئمة الأطهار: الإمام الحسن السبط، والإمام الحسين السبط الشهيد

والإمام عليّ بن الحسين السجاد والإمام محمد بن علي الباقر صلوات الله عليهم

أجمعين^(٤).

وقد أطراه ابن النديم في الفهرست، وجعله من طلائع علماء الشيعة

المصنّفين، ووصف كتابه المشهور بـ «كتاب سُليم» بأنه أوّل كتاب ظهر

للشيعة^(٥).

ووثّقه ابن داود في رجاله^(٦)، ومثله العلامة الحلّي وأثنى عليه^(٧).

(١) تهذيب الكمال / المزني ٢: ٧، في ترجمة أبان بن تغلب برقم (١٣٥).

(٢) سير أعلام النبلاء / الذهبي ٦: ٣٠٨ / ١٣١.

(٣) ميزان الاعتدال / الذهبي ١: ٥ / ٢.

(٤) كتاب الرجال / البرقي: ٤ و ٧ و ٨ و ٩.

(٥) الفهرست / ابن النديم: ٢٧٥ (الفن الخامس من المقالة السادسة).

(٦) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ١٧٨ / ٧٢١.

(٧) خلاصة الأقوال / العلامة الحلّي ق ١: ١٦١ - ١٦٣ / ٤٧٣ (١).

الحديث الخامس

قال الطبري الصغير في دلائل الإمامة ص ٤٥٣ - ٤٥٤، ح ٤٣٢، بعنوان معرفة وجوب القائم عليه السلام وأنه لا بد أن يكون: «أخبرني أبو الحسن علي بن هبة الله، قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى القمي، عن أبيه، عن سعد بن عبد الله، عن يعقوب بن يزيد، عن محمد بن أبي عمير، عن سعيد بن غزوان، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنَّ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) اخْتَارَ مِنَ الْأَيَّامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَمِنَ الشُّهُورِ شَهْرَ رَمَضَانَ، وَمِنَ اللَّيَالِي لَيْلَةَ الْقَدْرِ، فَجَعَلَهَا خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. وَاخْتَارَ مِنَ النَّاسِ الْأَنْبِيَاءَ، وَاخْتَارَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الرَّسُلَ، وَاخْتَارَنِي مِنَ الرَّسُلِ، فَاخْتَارَ مِنِّي عَلِيًّا، وَاخْتَارَ مِنْ عَلِيٍّ الْحُسَيْنَ وَالْحُسَيْنَ، وَاخْتَارَ مِنَ الْحُسَيْنِ أُمَّةً يَنْفُونَ عَنِ التَّنْزِيلِ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَاَنْتَحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ، تَاسِعُهُمْ بَاطِنُهُمْ، وَهُوَ ظَاهِرُهُمْ، وَهُوَ قَائِمُهُمْ».

نوع الحديث ورتبته:

الحديث مسند، متصل، صحيح بهذا الإسناد، ورواته كلهم ثقات، وصدوره مشهور، وما تضمنه الحديث من كون المهدي عليه السلام هو التاسع من ولد الحسين عليه السلام فهو من المتواتر عن أهل البيت عليهم السلام، بل فوق حد التواتر بدرجات.

ترجمة رواقه:

١ - علي بن هبة الله، أبو الحسن:

قال الشيخ منتجب الدين في فهرسته: «الشيخ أبو الحسن علي بن هبة الله بن عثمان الموصلية، حافظ، ورع، ثقة، وله تصانيف منها: «المتمسك بحبل آل الرسول» و «الأنوار في تاريخ الأئمة الأطهار» و «اليقين في أصول الدين»^(١). وهو من مشايخ أبي جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري الصغير الإمامي، ومن تلامذة الشيخ الصدوق، ومن ملاحظة أسماء كتبه يعلم بأنه من كبار المؤرخين والعلماء العاملين المتمسكين بحبل آل الرسول ﷺ، هذا فضلاً عن شهرته بالورع والوثاقة.

٢ - محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه، أبو جعفر القمي:

الملقب بالشيخ الصدوق، جليل القدر، عظيم المنزلة. له كتاب «من لا يحضره الفقيه» من الكتب الصحاح الأربعة عند الإمامية، وهو غني عن التعريف.

٣ - علي بن الحسين بن موسى: ثقة جليل القدر تقدمت ترجمته في الحديث

الأول.

٤ - سعد بن عبد الله: ثقة جليل القدر، تقدمت ترجمته في الحديث الرابع.

٥ - يعقوب بن يزيد: ثقة جليل القدر، تقدمت ترجمته في الحديث الرابع.

٦ - محمد بن أبي عمير: من أصحاب الأئمة: الكاظم والرضا والجواد ﷺ،

قال الشيخ في الفهرست: «كان من أوثق الناس عند الخاصة والعامة، وأنسكهم نسكاً، وأورعهم، وأعبدهم»^(٢) ويكفي في المقام أنه من أصحاب

(١) فهرست علماء الشيعة ومصنفهم / الشيخ منتجب الدين بن بابويه: ١٠٩ - ١١٠ / ٢٢٤.

(٢) الفهرست / الشيخ الطوسي: ٢١٨ / ٦١٧ (٣٢).

ف ٧: التعامل بين العقل والشرع في معرفة هوية إمام الزمان عليه السلام ٣٨٧

الإجماع^(١)، مع تصريح الشيخ عليه السلام في كتابه العدة في أصول الفقه بحصول الإجماع على قبول مراسيله^(٢) فهو إذن أكبر من أن يقال بحقه ثقة أو عَيْن.

وكان حُبس في أيام الرشيد ليدلّ على مواضع الشيعة وأصحاب موسى بن جعفر عليه السلام وضرب أسواطاً فصبر ولم يتكلم، ففرج الله عنه، وروي أنه حبسه المأمون وقضى في الحبس أربع سنين^(٣).

٧ - سعيد بن غزوان:

عدّه البرقي والشيخ في رجاليهما في أصحاب الإمام الصادق عليه السلام^(٤)، وقال النجاشي: «سعيد بن غزوان الاسدي، مولاهم الكوفي، روى عن أبي عبد الله عليه السلام، ثقة»^(٥).

وهو من أصحاب الأصول الأربعمائة، وأورده ابن داود في قسم الثقات من رجاله^(٦) كما وثقه سائر المتأخرين.

٨ - أبو بصير:

تردّت هذه الكنية في كتبنا الحديثية بين جماعة، والمراد بها في هذا الإسناد، اثنان:

الأوّل: ليث بن البختری المرادي، ثقة مشهور، أحد أصحاب الإجماع الذين أجمعت الشيعة على تصحيح ما يصح عنه^(٧)، روى عن الإمامين الباقر

(١) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) / الشيخ الطوسي: ٥٥٦ / ١٠٥٠.

(٢) عدّة الأصول / الشيخ الطوسي ١: ٣٨٦.

(٣) الرجال / النجاشي: ٣٢٦ / ٨٨٧.

(٤) كتاب الرجال / البرقي: ٣٨، والرجال / الشيخ الطوسي: ٢١٤ / ٢٨٠٩ (٤٧).

(٥) الرجال / النجاشي: ١٨١ / ٤٧٩.

(٦) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ١٧٠ / ٦٨٢.

(٧) اختيار معرفة الرجال: ٢٣٨ / ٤٣١.

٣٨٨ بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية / ج ١

والصادق عليه السلام ، وفي الصحيح عن الإمام الصادق عليه السلام أنه بشر أبا بصير ليث بن البختري المرادي بالجنة^(١).

وقد وثقه ابن داود في رجاله^(٢) وكذا العلامة الحلبي^(٣).

والثاني: يحيى بن القاسم الأسدي. ثقة مشهور، قال النجاشي: «ثقة وجيه، روى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.. وروى عن أبي الحسن موسى عليه السلام»^(٤).

(١) اختيار معرفة الرجال: ١٧٠ / ٢٨٦.

(٢) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ٣٩٢ / ٦.

(٣) خلاصة الأقوال ق ١: ٢٣٤ / ٧٩٨ (٢).

(٤) الرجال / النجاشي: ٤٤١ / ١١٨٧.

الحديث السادس

قال الشيخ أبو محمد الفضل بن شاذان النيسابوري رحمته الله في إثبات الرجعة كما في مختصره: ٢٠٧ / ٤: «حدّثنا صفوان بن يحيى، قال: حدّثنا أبو أيوب إبراهيم ابن زياد الخزاز، قال حدّثنا أبو حمزة الثمالي، عن أبي خالد الكابلي، قال: دخلتُ على مولاي علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، فرأيت في يده صحيفة كان ينظر إليها ويبكي بكاء شديداً، قلت: فداك أبي وأمي يا ابن رسول الله، ما هذه الصحيفة؟ قال: هذه نسخة اللوح الذي أهداه الله تعالى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله كان فيه اسم الله تعالى ورسوله وأمير المؤمنين وعمي الحسن بن علي وأبي عليهم السلام وأسمي وأسم ابني محمد الباقر وابنه جعفر الصادق وابنه موسى الكاظم وابنه علي الرضا عليهم السلام وابنه محمد التقي وابنه علي النقي وأبنيه الحسن الزكي وأبنيه الحجة القائم بأمر الله، المنتقم من أعداء الله، الذي يغيب غيبة طويلة ثم يظهر فيملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً».

نوع الحديث ورتبته:

الحديث مسند متصل، صحيح بهذا الإسناد، ورواته كلهم ثقات، وما تضمنه من النص على الأئمة الإثني عشر عليهم السلام متواتر، وطرق هذا الحديث وهو الحديث المعروف بحدث اللوح تؤول إلى التواتر، كما بيناه مفصلاً في محله من هذا

الكتاب .

ترجمة رواته:

١ - صفوان بن يحيى:

هو أبو محمد البجلي الكوفي، بياع السابري، من مشاهير أصحاب الأئمة عليهم السلام.

قال الشيخ المفيد: «وذكر محمد بن جعفر المؤدب أن صفوان بن يحيى يكنى بأبي محمد مولى بجيلة، بياع السابري، أوثق أهل زمانه عند أصحاب الحديث، وأعبدهم، كان يصلي في كل يوم خمسين ومائة ركعة، ويصوم في السنة ثلاثة أشهر، ويخرج زكاة ماله كل سنة ثلاث مرات، وذلك أنه اشترك هو وعبد الله بن جندب وعلي بن نعمان في بيت الله الحرام، تعاقدوا جميعاً إن مات واحد منهم، يصلي من بقي منهم صلاته، ويصوم عنه، ويحج عنه، ويزكي عنه ما دام حياً. فمات صاحبه وبقي صفوان بعدهما. فكان يفي لهما بذلك. يصلي عنهما، ويزكي عنهما، ويحج عنهما، وكل شي من البر والصالح لنفسه كذلك يفعله لصاحبه»^(١).

وقال النجاشي: «وكان من الورع والعبادة على ما لم يكن عليه أحد من طبقته، وصنف ثلاثين كتاباً»^(٢).

وقال الشيخ في الفهرست: «صفوان بن يحيى.. أوثق أهل زمانه عند أهل الحديث وأعبدهم». ثم قال: «وقال له بعض جيرانه من أهل الكوفة - وهو بمكة -: يا أبا محمد حمل لي إلى المنزل دينارين، فقال له: إن جمالي مكررة، قف حتى استأمر فيه جمالي، وروى عن أبي الحسن الرضا وأبي جعفر

(١) الاختصاص / الشيخ المفيد: ٨٨.

(٢) الرجال / النجاشي: ١٩٧ / ٥٢٤.

ف ٧: التعامل بين العقل والشرع في معرفة هوية إمام الزمان عليه السلام ٣٩١
عليهما السلام وروى عن أربعين رجلاً من أصحاب أبي عبد الله عليه
السلام»^(١).

وعده الكشي في تسمية الفقهاء من أصحاب أبي إبراهيم، وأبي الحسن
الرضا عليهما السلام في أصحاب الإجماع الذين اجتمعت الامامية على تصحيح ما يصح
عنهم^(٢).

كما أسند بحقه جملة من الروايات الكاشفة عن منزلته وعُلو قدره وثقته
وأمانته، فعن الإمام الرضا عليه السلام قال: «رحم الله إسماعيل بن الخطاب بما أوصى به
إلى صفوان بن يحيى، ورحم الله صفوان، فإنهما من حزب آبائي، ومن كان من
حزبنا أدخله الله الجنة»^(٣).

وعنه عليه السلام، قال: «ما ذئبان ضاريان في غنم قد غاب عنها رعاؤها بأضر في
دين المسلم من حُب الرئاسة... لكن صفوان لا يُحِبُّ الرئاسة»^(٤).

وعن الإمام الجواد عليه السلام قال: «جزى الله صفوان بن يحيى ومحمد بن سنان
وزكريا بن آدم عني خيراً فقد وفوا لي»^(٥).

قال عليه السلام ذلك مرّتين، وأضاف إليهم في الثانية سعد بن سعد^(٦) وفي رواية
أخرى عنه عليه السلام: «رضي الله عنهما برضاي عنهما فما خالفاني قط»^(٧).

وفي رواية أخرى: «رضي الله عنهما برضاي عنهما فما خالفاني، وما خالفا

(١) الفهرست / الشيخ الطوسي: ١٤٥-١٤٦ / ٣٥٦ (١).

(٢) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) / الشيخ الطوسي: ٥٥٦ / ١٠٥٠.

(٣) اختيار معرفة الرجال: ٥٠٢ / ٩٦٢.

(٤) اختيار معرفة الرجال: ٥٠٣ / ٩٦٦.

(٥) اختيار معرفة الرجال: ٥٠٣ / ٩٦٤.

(٦) اختيار معرفة الرجال: ٥٠٣ ذيل ح / ٩٦٤.

(٧) اختيار معرفة الرجال: ٥٠٣ / ٩٦٣.

أبي قطُّ»^(١).

هذا، وقد ذكر الشيخ في رجاله صفوان بن يحيى ثلاث مرات في أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام قائلاً: «وكيل الرضا عليه السلام، ثقة»^(٢)، وفي أصحاب الإمام الرضا عليه السلام، قال: «مولى، ثقة، وكيله عليه السلام، كوفي»^(٣). وفي أصحاب الإمام الجواد عليه السلام قائلاً: «بياع السابري»^(٤). كما وثقه ابن داود^(٥)، والعلامة الحلبي^(٦)، وسائر المتأخرين.

٢ - إبراهيم أبو أيوب الخزاز:

اختلفوا في اسم أبيه كثيراً، فبعضهم ذكره بعنوان إبراهيم بن عيسى، وبعضهم بعنوان إبراهيم بن زياد، وقيل ابن عثمان، كما اختلفوا في كونه خزازاً (بزايين) أو خزازاً (براء مهملة بعدها زاي).

عدّه البرقي والشيخ في رجاله في أصحاب الإمام الصادق عليه السلام^(٧).

وقد نقل الكشي عن محمد بن مسعود، عن علي بن الحسن، أنه قال: «أبو أيوب، كوفي، اسمه إبراهيم بن عيسى، ثقة»^(٨).

ووثقه الشيخ المفيد، وعدّه في رسالته العددية في جملة الفقهاء والرؤساء

(١) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي): ٥٠٣ - ٥٠٤ / ٩٦٧.

(٢) الرجال / الشيخ الطوسي: ٣٣٨ / ٥٠٣٨ (٣).

(٣) الرجال / الشيخ الطوسي: ٣٥٩ / ٥٣١١ (٣).

(٤) الرجال / الشيخ الطوسي: ٣٧٦ / ٥٥٥٩ (١).

(٥) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ١٨٨ / ٧٧٠.

(٦) خلاصة الأقوال ق ١: ١٧٠ - ١٧١ / ٥٠٠ (١).

(٧) كتاب الرجال / البرقي: ٢٧ - ٢٨، والرجال / الشيخ الطوسي: ١٥٩ / ١٧٧٥ (٧٩) و ١٦٧ /

١٩٣٥ (٢٣٩).

(٨) اختيار معرفة الرجال: ٣٦٦ / ٦٧٩.

ف ٧: التعامل بين العقل والشرع في معرفة هوية إمام الزمان عليه السلام ٣٩٣

المأخوذ عنهم الحلال والحرام والفتيا والأحكام الذين لا يُطعن عليهم ولا طريق إلى ذمٍّ واحدٍ منهم^(١).

وقال النجاشي: «روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليهما السلام، ذكر ذلك أبو العباس في كتابه، ثقة، كبير المنزلة، له كتاب نوادر، كثير الرواة عنه»^(٢).
وقال الشيخ في الفهرست: «ثقة، له أصل»^(٣).

كما وثقه ابن داود مرتين^(٤) والعلامة الحلبي^(٥) وجميع المتأخرين.

٣- أبو حمزة الثمالي:

ثقة جليل عظيم المنزلة، تقدّمت ترجمته في الحديث الثاني.

٤- أبو خالد الكابلي:

اسمه: وردان، ولقبه: كندر، وما في العنوان هو المشهور حتى غلب على

اسمه ولقبه.

عدّه البرقي في أصحاب الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام^(٦).

وعدّه الشيخ في رجاله تارة في أصحاب الإمام زين العابدين عليه السلام^(٧)،

وأخرى في أصحاب الإمام الباقر عليه السلام^(٨)، وثالثة في أصحاب الإمام أبي عبد الله

(١) جوابات أهل الموصل في العدد والرؤية (ضمن سلسلة مؤلفات الشيخ المفيد) / الشيخ المفيد: ٢٥ و ٤٣.

(٢) الرجال / النجاشي: ٢٥ / ٢٠.

(٣) الفهرست / الشيخ الطوسي: ٤١ / ١٣ (١٣).

(٤) كتاب الرجال / ابن داود: ١٤ / ١٩ و ١٦ - ١٧ / ٢٧.

(٥) خلاصة الأقوال: ٤١ / ١٣ (١٣).

(٦) كتاب الرجال / البرقي: ٨.

(٧) الرجال / الشيخ الطوسي: ١١٩ / ٢.

(٨) الرجال / الشيخ الطوسي: ١٤٨ / ٥.

الصادق عليه السلام (١).

أخرج الكليني عليه السلام في الكافي عن إسحاق بن جرير قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام، كان سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وأبو خالد الكابلي من ثقات علي بن الحسين عليه السلام...» (٢).

وفي رجال الكشي في ترجمة سعيد بن المسيب: «قال الفضل بن شاذان: ولم يكن في زمن علي بن الحسين عليه السلام في أول أمره إلا خمسة أنفس: سعيد بن جبير، سعيد بن المسيب، محمد بن جبير بن مطعم، يحيى بن أم الطويل، أبو خالد الكابلي واسمه وردان ولقبه كنكر...» (٣).

وأخرج عن أسباط بن سالم، عن الإمام الكاظم عليه السلام في حديث طويل، فيه قمة الثناء على أبي خالد الكابلي، إذ عدّه عليه السلام - في جملة آخرين - من أول السابقين، وأول المقربين والحواريين من التابعين (٤).

وأخرج عن أبي بصير قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: كان أبو خالد الكابلي يخدم محمد بن الحنفية دهرًا وما كان يشكّ في أنّه إمام. حتى أتاه ذات يوم فقال له: جعلت فداك إن لي حرمة ومودة وانقطاعاً، فأسألك بحرمة رسول الله وأمير المؤمنين إلا أخبرتني أنت الإمام الذي فرض الله طاعته على خلقه، قال فقال: يا أبا خالد حلفتني بالعظيم، الإمام علي بن الحسين عليه السلام عليّ وعليك وعلى كل مسلم.

فأقبل أبو خالد - لما أن سمع ما قاله محمد بن الحنفية - إلى علي بن الحسين

(١) الرجال / الشيخ الطوسي: ٣١٧ / ٢٦.

(٢) أصول الكافي / الكليني ١: ٤٧٢ / ١، باب مولد أبي عبد الله عليه السلام، من كتاب الحجّة.

(٣) اختيار معرفة الرجال: ١١٥ / ١٨٤.

(٤) اختيار معرفة الرجال: ٩ - ١٠ / ٢٠.

ف ٧: التعامل بين العقل والشرع في معرفة هوية إمام الزمان عليه السلام ٣٩٥
عليه السلام، فلما استأذن عليه فأخبر أن أبا خالد بالباب، فأذن له، فلما دخل عليه
دنا منه، قال: مرحباً بك يا كئبر ما كنت لنا بزائر، ما بدا لك فينا؟ فخرّ أبو خالد
ساجداً شاكراً لله تعالى مما سمع من علي بن الحسين عليه السلام فقال: الحمد لله
الذي لم يمتني حتى عرفت.

فقال له علي عليه السلام: وكيف عرفت إمامك يا أبا خالد؟ قال: إنك دعوتني
باسمي الذي سمّيتني أمّي التي ولدتني، وقد كنت في عمياء من أمري ولقد خدمت
محمد بن الحنفية عمراً من عمري ولا أشكّ إلا وأنه إمام.

حتى إذا كان قريباً، سألته بحرمة الله وبحرمة رسوله وبحرمة أمير المؤمنين
فأرشدني إليك، وقال: هو الإمام عليّ وعليك وعلى خلق الله كلّهم، ثم أذنت لي،
فجئت، فدنوت منك، سمّيتني باسمي الذي سمّيتني أمّي!! فعلمت أنك الإمام الذي
فرض الله طاعته عليّ وعلى كلّ مسلم.

ابن مهران والحسن وأبوه كلّهم كذا روى»^(١).

وأخرج عن أبي الصباح الكناني، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «خدم أبو خالد
الكابلي علي بن الحسين عليهما السلام دهنراً من عمره...» وفي الخبر ما يبين قربه
الشديد ومنزلته الرفيعة عند الإمام عليه السلام^(٢).

وأخرج من طريقين عن أبي عبد الله عليه السلام ذم سائر الناس بعد قتل الإمام
الحسين عليه السلام سوى أبي خالد الكابلي في نفر آخرين^(٣).

وقد بلغت شهرة تمسك أبي خالد الكابلي بالحق درجة استدعت أن يطلبه

(١) اختيار معرفة الرجال: ١٢٠ - ١٢١ / ١٩٢.

(٢) اختيار معرفة الرجال: ١٢١ / ١٩٣.

(٣) اختيار معرفة الرجال: ١٢٣ / ١٩٤.

٣٩٦ بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية / ج ١

الحجاج الفاسق السفاك ليقتله^(١) كما قتل سعيد بن جبير بغضاً لأمير المؤمنين عليه السلام.

وبالجملة، فإن أبا خالد الكابلي من أعمدة الشيعة الإمامية في عصر التابعين ومن ثقات، الإمام السجاد وحواريه عليه السلام.

وله روايات كثيرة تدلّ بوضوح على سمو قدره، ونبله، وفضله، ومنزلته عند الأئمة عليهم السلام لكماله ومعرفته الحق مع قوة إيمانه عليه السلام.

(١) اختيار معرفة الرجال: ١٢٣ - ١٢٤ / ١٩٥.

الحديث السابع

روى ثقة الاسلام الكليني رضي الله تعالى عنه بطريق صحيح في أصول الكافي ١ : ٥٣٢ / ٩ باب ما جاء في الاثني عشر والنص عليهم عليهم السلام من كتاب الحجّة، قال: «محمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن ابن محبوب، عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: «دخلتُ على فاطمة عليها السلام وبينَ يديها لوحٌ فيه أسماء الأوصياء، فعَدَدْتُ اثني عشر آخرهم القائم عليه السلام، ثلاثة منهم محمد وثلاثة منهم عليٌّ».

نوع الحديث ورتبته:

الحديث مسند، متصل، صحيح بهذا الإسناد، ورواته كلهم ثقات، وطرق حديث اللوح تؤول إلى التواتر وقد فصلنا ذلك في محله من هذا الكتاب.

ترجمة رواته:

١ - محمد بن يحيى:

قال النجاشي: «محمد بن يحيى، أبو جعفر العطار القمي، شيخ أصحابنا في زمانه، ثقة، عين، كثير الحديث»^(١) ووثقه ابن داود والعلامة الحلبي والمتأخرون كافة^(٢)، وقد أكثر الشيخ الكليني الرواية عنه.

(١) الرجال / النجاشي: ٣٥٣ / ٩٤٦.

(٢) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ٣٤٠ / ١٥٠٢، وخلاصة الأقوال ق ١: ٢٦٠ / ٩٠٨ (١١٠).

٢ - محمد بن الحسين بن أبي الخطاب:

قال النجاشي: «محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، أبو جعفر الزيات الهمداني - واسم أبي الخطاب زيدٌ - جليل من أصحابنا، عظيم القدر، كثير الرواية، ثقة، عيّن...»^(١).

وعده الشيخ في رجاله في أصحاب الإمام الجواد عليه السلام قائلاً: «كوفي ثقة»^(٢).

وفي أصحاب الإمام الهادي عليه السلام قائلاً: «الكوفي، ثقة»^(٣).

كما عده في أصحاب الإمام العسكري عليه السلام^(٤).

ووثقه في فهرست قائلاً: «كوفي ثقة»^(٥).

وعده الكشي من العُدول الثقات من أهل العلم^(٦).

كما وثقه ابن داود والعلامة الحلّي وجميع المتأخرين^(٧).

٣ - ابن محبوب، وهو الحسن بن محبوب:

أورده البرقي مرّتين في أصحاب الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام ووصفه بالسّرّاد تارةً وبالزّرّاد أخرى^(٨) والصحيح هو السّرّاد حسب ما روي عن الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال لأحمد بن محمد بن أبي نصر:

(١) الرجال / النجاشي: ٣٣٤ / ٨٩٧.

(٢) الرجال / الشيخ الطوسي: ٣٧٩ / ٥٦١٥ (٣١).

(٣) الرجال / الشيخ الطوسي: ٣٩١ / ٥٧٧١ (٢٣).

(٤) الرجال / الشيخ الطوسي: ٤٠٢ / ٥٨٩٠ (٨).

(٥) الفهرست / الشيخ الطوسي: ٢١٥ / ٦٠٧ (٢٢).

(٦) اختيار معرفة الرجال: ٥٠٧ - ٥٠٨ / ٩٨٠.

(٧) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ١٣١٨/٣٠٤، وخلاصة الأقوال ق ١: ٨١٨/٢٤٠ (٢٠).

(٨) كتاب الرجال / البرقي: ٤٨ و ٥٣.

ف ٧: التعامل بين العقل والشرع في معرفة هوية إمام الزمان عليه السلام ٣٩٩

لا تقل الزراد، بل قل: السّراد، إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾^(١)». (٢)
وعده الكشي من أصحاب الإجماع عند تسميته الفقهاء من أصحاب
أبي إبراهيم وأبي الحسن الرضا عليهما السلام^(٣).

ووثقه الشيخ الطوسي في رجاله مرتين: الأولى في أصحاب الإمام
الكاظم عليه السلام بقوله «مولى ثقة» والثانية في أصحاب الإمام الرضا عليه السلام بقوله: «مولى
لبجيلة، كوفي، ثقة»^(٤).

وأثنى عليه في الفهرست قائلاً: «كان جليل القدر، ويُعدّ في الأركان الأربعة
في عصره»^(٥).

ووثقه ابن داود والعلامة الحلّي^(٦).

وقد كان شغف ابن محبوب رضى الله عنه بالعلم منذ نعومة أظفاره، وقد
أحسن أبوه تربيته، وكان يعطيه بكل حديث يكتبه عن علي بن رئاب - الثقة
المشهور - درهماً واحداً، ترغيباً له في طلب العلم^(٧).

٤ - أبو الجارود، زياد بن المنذر:

قال النجاشي: «زياد بن المنذر أبو الجارود الهمداني الأعمى، كوفي، كان

(١) سورة سبأ: ٣٤ / ١١.

(٢) اختيار معرفة الرجال: ٥٨٥ / ١٠٩٥.

(٣) اختيار معرفة الرجال: ٥٥٦ / ١٠٥٠.

(٤) الرجال / الشيخ الطوسي: ٤٩٧٨ / ٣٣٤ (٩)، و: ٥٢٥١ / ٣٥٤ (١٢).

(٥) الفهرست / الشيخ الطوسي: ١٦٢ / ٩٦ (١).

(٦) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ٤٥٩ / ١١٦، وخلاصة الأقوال: ٢٢٢ / ٩٧ (١).

(٧) اختيار معرفة الرجال: ٥٨٥ / ١٠٩٥.

٤٠٠ بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية / ج ١

من اصحاب أبي جعفر، وروى عن أبي عبد الله عليهما السلام وتغيّر لما خرج زيد رضي الله عنه^(١)، ولم يضعفه الشيخ ولا النجاشي أصلاً وهما قطبا هذا الفن. وعدّه الشيخ المفيد من أعلام الرؤساء المأخوذ عنهم الحلال والحرام والفتيا والأحكام الذين لا يطعن عليهم ولا طريق إلى ذم واحدٍ منهم^(٢).

(١) الرجال / النجاشي: ١٧٠ / ٤٤٨.

(٢) جوابات أهل الموصل في العدد والرؤية / الشيخ المفيد: ٣٠.

الحديث الثامن

قال الشيخ الصدوق رحمه الله في كتابه إكمال الدين وتمام النعمة: ٣٨٤ -
٣٨٥ / ١ باب (٣٨):

«حدّثنا علي بن عبد الله الوراق، قال: حدّثنا سعد بن عبد الله، عن أحمد بن إسحاق بن سعد الأشعري، قال: دخلتُ على أبي محمد الحسن بن علي عليهما السلام، وأنا أريد أن أسأله عن الخلف من بعده، فقال لي مُبتدئاً: يا أحمد ابن إسحاق إن الله تبارك وتعالى لم يُخل الأرض منذ خلق آدم عليه السلام، ولا يُخليها إلى أن تقوم الساعة من حجةٍ لله على خلقه، به يدفعُ البلاء عن أهل الأرض، وبه يُنزلُ الغيث، وبه يُخرجُ بركات الأرض.

قال: فقلت له: يا ابن رسول الله، فمن الإمام والخليفة بعدك؟ فنهض عليه السلام مسرعاً، فدخل البيت، ثم خرج وعلي عاتقه غلامٌ كأنَّ وجهه القمر ليلة البدر، من أبناء الثلاث سنين، فقال: يا أحمد بن إسحاق لولا كرامتك على الله عزَّ وجلَّ، وعلى حُجَّجِهِ، ما عَرَضْتُ عليك أبنِي هذا، إِنَّهُ سَمِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَكُنْيُهُ، الَّذِي يَمَلُّ الْأَرْضَ قَسْطاً وَعَدْلًا كَمَا مَلَّتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، يَا أَحْمَدُ ابْنُ إِسْحَاقَ مَثَلُهُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَثَلُ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَثَلُهُ مَثَلُ ذِي الْقَرْنَيْنِ، وَاللَّهِ لِيَغِيْبَنَّ غَيْبَةً لَا يَنْجُو فِيهَا مِنَ الْهَلَكَةِ إِلَّا مَنْ ثَبَّتَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْقَوْلِ بِإِمَامَتِهِ، وَوَفَّقَهُ لِلدُّعَاءِ بِتَعْجِيلِ فَرَجِهِ.

فقال أحمد بن إسحاق، فقلتُ له: يا مولاي فهل من علامةٍ يطمئن إليها قلبي؟

فَنَطَقَ الْغَلَامُ عَلَيْهِ السَّلَامَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ فَصِيحٍ ، فَقَالَ : أَنَا بَقِيَّةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ، وَالْمُنْتَقِمُ مِنْ أَعْدَائِهِ ، فَلَا تَطْلُبْ أَثْرًا بَعْدَ عَيْنٍ يَا أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ .

فَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ : فَخَرَجْتَ مَسْرُورًا فَرِحًا ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ عُدْتُ إِلَيْهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ لَقَدْ عَظُمَ سُرُورِي بِمَا مَنَنْتَ بِهِ عَلَيَّ ، فَمَا السُّنَّةُ الْجَارِيَةُ فِيهِ مِنَ الْخَضِرِ وَذِي الْقَرْنَيْنِ ؟ فَقَالَ : طَوْلُ الْغَيْبَةِ يَا أَحْمَدُ . فَقُلْتُ : يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ وَإِنْ غَيْبَتَهُ لَتَطُولُ ؟ قَالَ : إِي وَرَبِّي حَتَّى يَرْجِعَ عَنْ هَذَا أَكْثَرُ الْقَائِلِينَ بِهِ ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا مَنْ أَخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدَهُ لَوْلَايَتِنَا ، وَكَتَبَ فِي قَلْبِهِ الْإِيمَانَ ، وَأَيَّدَهُ بِرُوحٍ مِنْهُ يَا أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ ، هَذَا أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، وَسِرٌّ مِنْ سِرِّ اللَّهِ ، وَغَيْبٌ مِنْ غَيْبِ اللَّهِ ، فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ ، وَأَكْتُمْهُ ، وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، تَكُنْ مَعَنَا غَدًا فِي عَلِيِّينَ .

نوع الحديث ورتبته:

الحديث مسند، متصل، معتبر بهذا الإسناد، ومضمونه متواتر.

ترجمة رواته:

١ - علي بن عبد الله الوراق:

من مشايخ الصدوق عليه السلام، روى عن سعد بن عبد الله، وروى عنه الصدوق في الفقيه والعيون وسائر كتبه وترضى عليه في العيون^(١)، فهو حسن الحديث معتمد.

٢ - سعد بن عبد الله:

ثقة جليل وفقه مشهور تقدمت ترجمته في الحديث الرابع.

٣ - أحمد بن إسحاق بن سعد الأشعري:

ثقة جليل، عظيم المنزلة والقدر، تقدمت ترجمته في الحديث الأول وفي هذا الحديث نفسه بيان عظيم لمنزلته رضي الله تعالى عنه.

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٩ / ٢٤ باب (٣٠).

الحديث التاسع

قال ثقة الإسلام الكليني رضي الله عنه في أصول الكافي ١ : ٥٢٥ - ٥٢٦
١ / ، باب ما جاء في الإثني عشر والنص عليهم عليهم السلام من كتاب الحجّة:
«عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد البرقي، عن أبي هاشم داود بن
القاسم الجعفري، عن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال:
أقبل أمير المؤمنين عليه السلام ومعه الحسن بن عليّ عليهما السلام وهو
مُتَكَيّ على يد سلمان فدخل، المسجد الحرام فجلس، إذ أقبل رجلٌ حسن الهيئة
واللباس. فسلم على أمير المؤمنين، فردّ عليه السلام، فجلس، ثمّ قال: يا أمير
المؤمنين أسألك عن ثلاث مسائل، إن أخبرتني بهنّ علمتُ أنّ القوم ركبوا من
أمرك ما قضي عليهم، وأن ليسوا بمأمونين في دنياهم وآخرتهم، وإن تكن
الأخرى، علمتُ أنك وهم شرعٌ سواءً.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: سلني عما بدا لك .

قال أخبرني عن الرجل إذا نام أين تذهبُ روحه، وعن الرجل كيف يذكر
وينسى، وعن الرجل كيف يشبهُ ولده الأعمام والأخوال؟ فالتفت أمير المؤمنين
عليه السلام إلى الحسن، فقال: يا أبا محمد أجبه .

قال فأجابه الحسنُ عليه السلام .

فقال الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله ولم أزل أشهد بها، وأشهد أن محمداً

رسول الله ولم أزل أشهد بذلك ، وأشهد أنك وصي رسول الله صلى الله عليه وآله والقائم بحجته - وأشار إلى أمير المؤمنين - ولم أزل أشهد بها ، وأشهد أنك وصيه والقائم بحجته - وأشار إلى الحسن عليه السلام ، وأشهد أن الحسين بن علي وصي أخيه والقائم بحجته بعده ، وأشهد على علي بن الحسين أنه القائم بأمر الحسين بعده ، وأشهد على محمد بن علي أنه القائم بأمر علي بن الحسين ، وأشهد على جعفر بن محمد بأنه القائم بأمر محمد ، وأشهد على موسى أنه القائم بأمر جعفر ابن محمد ، وأشهد على علي بن موسى أنه القائم بأمر موسى بن جعفر ، وأشهد على محمد بن علي أنه القائم بأمر علي بن موسى ، وأشهد على علي بن محمد بأنه القائم بأمر محمد بن علي ، وأشهد على الحسين بن علي بأنه القائم بأمر علي بن محمد ، وأشهد على رجل من ولد الحسن لا يُكنى ولا يُسمى حتى يظهر أمره فيملاها عدلاً كما ملئت جوراً ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، ثم قام فمضى .

فقال أمير المؤمنين: يا أبا محمد اتبعه ، فانظر أين يقصد ، فخرج الحسن بن عليّ عليهما السلام فقال: ما كان إلا أن وضع رجله خارجاً من المسجد ، فما دريت أين أخذ من أرض الله ، فرجعت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأعلمته ، فقال: يا أبا محمد أتعرفه؟ قلت: الله ورسوله وأمير المؤمنين أعلم ، قال: هو الخضر عليه السلام» .

نوع الحديث ورتبته:

الحديث ، مسند ، متصل ، صحيح بهذا الإسناد ، ورواته كلهم من الثقات المشهورين ، وما تضمنه الحديث من النص على الأئمة بأسمائهم عليهم السلام ، متواتر ، وهو ما سيأتي مفصلاً في هذا الكتاب .

ترجمة رواته:

- ١ - عدّة الكليني، عن أحمد بن محمد بن خالد البرقي:
إنّ رجال هذه العِدّة الذين يروي الكليني عنهم، عن أحمد بن محمد بن خالد البرقي في كتاب الكافي، هم سبعة من مشايخه الأجلاء المشهورين، وهم:
١ - أحمد بن عبد الله القمّي، وهو ابن ابن البرقي.
٢ - أبو الحسن علي بن إبراهيم القمّي، الثقة الثبت المشهور.
٣ - أبو الحسن علي بن الحسين السعدآبادي القمي.
٤ - علي بن محمد بن عبد الله القمي المعروف بـ (ماجيلويه)، ويقال له: (محمد بن علي بن بندار) وهو ابن بنت البرقي.
٥ - محمد بن جعفر، وهو مشترك بين ثقتين من مشايخ الكليني بهذا الاسم، الأول: أبو الحسين محمد بن جعفر الأسدي الكوفي ساكن الري الثقة المشهور (ت/٣١٢هـ). والثاني: أبو العباس محمد بن جعفر الرزاز الكوفي الثقة المعمر (ت/٣١٦هـ) وهو خال تلميذ الكليني أبي غالب الزراري الثقة المشهور (ت/٣٦٨هـ).
 - ٦ - محمد بن عبد الله بن جعفر الحميري القمي، الثقة المشهور.
 - ٧ - محمد بن يحيى العطار القمي، الثقة المشهور.
- وأما من عيّن لنا هؤلاء السبعة الذين يعبر عنهم الكليني بلفظ (عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن خالد البرقي) فهو الكليني نفسه؛ إذ ذكرهم صراحة ما عدا الحميري، فقال في الباب التاسع من كتاب العتق في فروع الكافي - كما في جملة من نسخ الكافي - ما هذا لفظه: «عدّة من أصحابنا: علي بن إبراهيم، ومحمد بن جعفر، ومحمد بن يحيى، وعلي بن محمد بن عبد الله القمي، وأحمد بن عبد الله، وعلي بن الحسين جميعاً؛ عن أحمد بن محمد بن

خالد... إلخ».

ولهذا اعتمد العلماء على تشخيص الكليني لرجال عِدَّة، عن البرقي، كالسيد التفرشي في نقد الرجال^(١)، والأردبيلي في جامع الرواة^(٢) والحر العاملي في خاتمة الوسائل^(٣)، والمحدث النوري في خاتمة المستدرک^(٤)، وغيرهم. وقد ذكّر الحميري مع غيره ممّن تقدّم في تشخيص رجال تلك العِدَّة من قبل الشيخ المفيد وابن الغضائري؛ إذ قالوا: «وكل ما كان - يعني في كتاب الكافي -: عِدَّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن خالد البرقي، فهم: علي بن إبراهيم، وعلي بن محمد ماجيلويه، ومحمد بن عبد الله الحميري، ومحمد بن جعفر، وعلي بن الحسين»^(٥).

وقال العلامة الحلّي في خلاصة الأقوال: «وقال - يعني محمد بن يعقوب الكليني -: كلّما ذكرته في كتابي المشار إليه - يعني الكافي -: عِدَّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن خالد البرقي، فهم: علي بن إبراهيم، وعلي بن محمد بن عبد الله (ابن ابنته)، وأحمد بن عبد الله (ابن ابنه)، وعلي بن الحسين»^(٦). وبعد.. فلا حاجة إلى ترجمة رجال عِدَّة الكليني، عن البرقي؛ لوجود أكثر

(١) نقد الرجال / السيد التفرشي ٥: ٣٢٦ من الفائدة الثالثة.

(٢) جامع الرواة / الأردبيلي ٢: ٤٦٦ من الفائدة الثالثة.

(٣) خاتمة وسائل الشيعة / الحر العاملي ٣٠: ١٤٨ - ١٤٩ من الفائدة الثالثة.

(٤) خاتمة مستدرک الوسائل / المحدث النوري ٣: ٥٠٩ من الفائدة الرابعة.

(٥) كتاب المستحسنات من المستنسخات (مخطوط) بقلم السيد محمد حسين الجلالی، وانظر: العِدَّة في أسانيد الكافي / الدكتور السيد ثامر العميدي، بحث منشور في مجلة علوم الحديث، العدد (١٦)، السنة الثامنة، إصدار كلية علوم الحديث في طهران / ١٤٢٥ هـ، وفيه تفصيل واسع في تشخيص عِدَّة الكافي وترجمة رجالها.

(٦) خلاصة الأقوال: ٤٣٠ من الفائدة الثالثة، وفيه: (ابن أذينة) مكان (ابن ابنته)، وكذلك: (ابن أمية) مكان (ابن ابنه)، وهو من تحريفات النسخ، والصحيح ما ذكرناه.

ف٧: التعامل بين العقل والشرع في معرفة هوية إمام الزمان عليه السلام ٤٠٧
من ثقة جليل، وفقه مشهور فيهم، سيّما وقد مرّ ذكر بعضهم في تراجم رواة الأحاديث السابقة كعلي بن إبراهيم بن هاشم، المتقدّم في الحديث الثالث، ومحمد بن يحيى، الثقة المتقدّم في الحديث السابع، وهذا يكفي.

٢ - أحمد بن محمد البرقي:

قال النجاشي: «أحمد بن محمد بن خالد البرقي، أبو جعفر، أصله كوفي، وكان ثقة في نفسه، يروي عن الضعفاء، واعتمد المراسيل»^(١).

وقال الشيخ في الفهرست: «... وكان ثقة في نفسه، غير أنه أكثر الرواية عن الضعفاء، واعتمد المراسيل»^(٢)، ولم يُطعن فيه.

وذكره ابن داود في قسم الثقات من رجاله قائلاً: «ويقوي ثقته مشي أحمد ابن محمد بن عيسى في جنازته حافياً حاسراً»^(٣).

وقال ابن الغضائري: «وكان أحمد بن محمد بن عيسى أبعد عن قم، ثم أعاده إليها واعتذر إليه... ولما تُوفي مشي أحمد بن محمد بن عيسى في جنازته حافياً حاسراً»^(٤).

٣ - أبو هاشم داود بن القاسم الجعفري:

عدّه البرقي في أصحاب الأئمة: الجواد والهادي والعسكري عليهم السلام^(٥).

وقال النجاشي: «... كان عظيم المنزلة عند الأئمة عليهم السلام، شريف القدر، ثقة»^(٦).

(١) الرجال / النجاشي: ٧٦ / ١٨٢.

(٢) الفهرست / الشيخ الطوسي: ٦٢ / ٦٥ (٣).

(٣) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ٤٠ / ١١٩.

(٤) خلاصة الأقوال ق ١: ٦٣ / ٧٢ (٧).

(٥) كتاب الرجال / البرقي: ٥٦ و ٥٧ و ٦٠.

(٦) الرجال / النجاشي: ١٥٦ / ٤١١.

وذكره الشيخ في رجاله أربع مرّات: الأولى في أصحاب الإمام الرضا عليه السلام،
والثانية في أصحاب الإمام الجواد عليه السلام، قائلاً: «ثقة، جليل القدر»
والثالثة في أصحاب الإمام الهادي عليه السلام، قائلاً: «ثقة» والرابعة في أصحاب الإمام
العسكري عليه السلام، قائلاً: «ثقة»^(١).

وقال في الفهرست: «داود بن القاسم الجعفري، يكنى أبا هاشم، من أهل
بغداد، جليل القدر، عظيم المنزلة عند الأئمة عليهم السلام، وقد شاهد جماعة منهم:
الرضا والجواد والهادي والعسكري وصاحب الأمر عليهم السلام»^(٢).
وذكره السيّد ابن طاوس في ربيع الشيعة، وجعله من السّفراء والأبواب
المعروفين^(٣).

وقال ابن داود: «عظيم المنزلة، شريف القدر، ثقة»^(٤).
وقال العلامة: «ثقة جليل القدر، عظيم المنزلة عند الأئمة عليهم السلام»^(٥).
وقد صرّح السيّد الخوئي رحمته الله في معجم رجاله بأنّه لا اشكال مطلقاً في جلالة
ووثوق أبي هاشم داود بن القاسم الجعفري^(٦).

(١) انظر: الرجال / الشيخ الطوسي: ٣٥٧ / ٥٢٩٠ (٤) و ٣٧٥ / ٥٥٥٣ (١) و ٣٨٦ / ٥٦٨٩ (١)
و ٣٩٩ / ٥٨٤٧ (١).

(٢) الفهرست / الشيخ الطوسي: ١٢٤ / ٢٧٦ (١).

(٣) نقد الرجال / التفرشي ٢: ٢١٩.

(٤) كتاب الرجال / ابن داود: ١٤٦ / ٥٨٣.

(٥) خلاصة الأقوال: ١٤٢ / ٣٩٠ (٣).

(٦) معجم رجال الحديث / السيد الخوئي ٧: ١٢٠ / ٤٤١٩.

الحديث العاشر

قال الشيخ الطوسي رحمته الله في كتاب الغيبة: ٢٢٣ - ٢٢٤ / ١٨٧:
«وروى سعد بن عبد الله، عن أبي هاشم داود بن القاسم الجعفري، قال: كنت
محبوساً مع أبي محمد عليه السلام في حبس المهدي بن الواثق، فقال لي: يا أبا
هاشم إن هذا الطاغى أراد أن يعذب بالله في هذه الليلة، وقد بتر الله تعالى عمره،
وقد جعله الله للقائم من بعده، ولم يكن لي ولد، وسأرزق ولداً.
قال أبو هاشم فلما أصبحنا وطلعت الشمس شغب الأتراك على المهدي
فقتلوه...».

نوع الحديث ورتبته:

الحديث، مسند، متصل صحيح بهذا الإسناد، ورواته كلهم ثقات.

ترجمة رواته:

١ - طريق الشيخ إلى سعد بن عبد الله:

صرّح الشيخ الطوسي في كتابه الفهرست بطريقه العام إلى جميع كتب
وروايات سعد بن عبد الله القمي وهو في أعلى درجات الصحة، قال: «أخبرنا
بجميع كتبه ورواياته عدّة من أصحابنا، عن محمد بن علي بن الحسين بن بابويه،
عن أبيه ومحمد بن الحسن، عن سعد بن عبد الله»^(١).

(١) الفهرست / الشيخ الطوسي: ١٣٥ / ٣١٦ (١).

وبناء على ذلك فطريق الشيخ إلى سعد صحيح مطلقاً.
والمراد بعدة من أصحابنا في كلام الشيخ: جماعة من مشايخه منهم الشيخ
المفيد كما صرح هو بذلك في تراجم كثيرة في الفهرست، والشيخ المفيد كفي عن
الترجمة وأما محمد بن علي فهو الشيخ الصدوق وهو كذلك أشهر من أن يترجم
له، وأبوه الصدوق الأول لا يقل عن جلالته ولده وقد مرّت ترجمته في الحديث
الأول، ومحمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد من أعظم القميين الثقات في زمانه
وقد سبقت ترجمته في الحديث الأول.

٢ - سعد بن عبد الله:

ثقة جليل، وفقه مشهور، تقدّمت ترجمته في الحديث الرابع.

٣ - أبو هاشم داود بن القاسم الجعفري:

ثقة جليل، عظيم المنزلة، تقدّمت ترجمته في الحديث التاسع.

الحديث الحادي عشر

قال الشيخ الصدوق في من لا يحضره الفقيه ١: ٢١٧ / ٩٦٦ (١)، باب (٤٧) سجدة الشكر والقول فيها: «روى عبد الله بن جندب عن موسى بن جعفر عليهما السلام أنه قال: تقول في سجدة الشكر: اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك وأنبيائك ورسلك وجميع خلقك إنك أنت الله ربي، والإسلام ديني، ومحمداً نبياً وعلياً والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلي بن موسى ومحمد بن علي وعلي بن محمد والحسن بن علي والحجة بن الحسن بن علي أئمتي، بهم أتولى، ومن أعدائهم أتبرأ، اللهم إني أنشدك دم المظلوم ثلاثاً، اللهم إني أنشدك بإيوائك علي نفسك لأعدائك لتهلكنهم بأيدينا وأيدي المؤمنين، اللهم إني أنشدك بإيوائك علي نفسك لأوليائك لتظفرنهم بعدوك وعدوهم أن تصلي علي محمد وعلي المستحفظين من آل محمد ثلاثاً، وتقول: اللهم إني أسألك اليسر بعد العسر ثلاثاً، ثم تضع خدك الأيمن علي الأرض وتقول: ياكهفي حين تعييني المذاهب وتضييق علي الأرض بما رحبت، ويا بارئ خلقي رحمة بي وكنت عن خلقي غنياً صلّ علي محمد وآل محمد وعلي المستحفظين

من آل محمد ثلاثاً، ثم تضع خدك الأيسر على الأرض وتقول: يا مذلّ كل جبار،
ويا معزّ كل ذليل قد وعزتك بلغ مجهودي ثلاثاً، ثم تعود إلى السجود وتقول: مائة
مرة شكراً شكرياً، ثم تسأل حاجتك إن شاء الله».

وطريق الشيخ الصدوق إلى ما رواه عن عبد الله بن جندب في كتاب من
لا يحضره الفقيه صحيح، إذ قال في مشيخته في آخر الكتاب ٤ : ٥٤ : «وما كان
فيه عن عبد الله بن جندب، فقد روئته عن محمد بن علي ماجيلويه رضي الله
عنه، عن علي بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن عبد الله بن جندب».

نوع الحديث ورتبته:

الحديث مسند، متصل، صحيح بهذا الإسناد، والنص على الأئمة عليهم السلام فوق
التواتر بدرجات، وسيأتي في هذه الموسوعة مفصلاً بجميع مصادره وطرقه.

ترجمة رواته:

١ - محمد بن علي ماجيلويه:

عدّه الشيخ في رجاله في من لم يرو عن واحد من الأئمة عليهم السلام (١).
وقد أكثر الصدوق الرواية عنه مترضياً عليه في جميع كتبه (٢)، وهو مما يشعر
بجلالته، والاعتماد عليه.

وقال الشيخ عبد النبي الجزائري: «وقد وصف العلامة طريق الشيخ الصدوق
إلى يحيى بالحسن بإبراهيم بن هاشم، وباقي الطرق بالصحة، وهو ظاهر في
تعديله، وهو الأقوى، كما يظهر من قرائن الأحوال» (٣).

(١) الرجال / الشيخ الطوسي: ٤٣٧ / ٦٢٥١ (٢).

(٢) أنظر: علل الشرائع ١: ٩ / ٣ و: ٧٥ / ١، وعيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٥٥ / ١٩٤ و ٢٣٨ / ٣٦،
والخصال: ١٤ / ٥، والتوحيد: ١٤٣ / ٨ وغيرها.

(٣) حاوي الأقوال / عبد النبي الجزائري ٣: ٢٤ / ٧٨٠.

ف ٧: التعامل بين العقل والشرع في معرفة هوية إمام الزمان عليه السلام ٤١٣

وقال الأردبيلي: «ويفهم من العلامة توثيقه إذ صحح طريق الصدوق إلى إسماعيل بن رباح وهو فيه، وكذلك طريق الحسين بن زيد وغير ذلك»^(١).

٢ - علي بن إبراهيم بن هاشم: ثقة، تقدّمت ترجمته في الحديث الثالث.

٣ - إبراهيم بن هاشم القمي: ثقة، تقدّمت ترجمته في الحديث الثالث.

٤ - عبد الله بن جندب البجلي (ثقة): عدّه البرقي في رجاله في أصحاب

الإمامين الكاظم والرضا عليهما السلام^(٢).

وعدّه الشيخ الطوسي تارة في أصحاب الإمام الصادق عليه السلام^(٣)، وأخرى في

أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام، قائلاً: «عبد الله بن جندب البجلي، عربي، كوفي،

ثقة»^(٤)، وذكره ثالثة في أصحاب الإمام الرضا عليه السلام، قائلاً: «عبد الله بن جندب

البجلي، كوفي، ثقة»^(٥).

وقال الشيخ في كتاب الغيبة في أخبار السفراء الممدوحين: «ومنهم عبد الله

ابن جندب البجلي، وكان وكيلاً لأبي إبراهيم وأبي الحسن الرضا عليهما السلام،

وكان عابداً رفيع المنزلة لديهما»^(٦).

ووثقه العلامة الحلبي وابن داود^(٧) وسائر المتأخرين.

(١) جامع الرواة / الأردبيلي ٢: ١٥٧ / ١١٧٩.

(٢) كتاب الرجال / البرقي: ص ٥٠، و ٥٣.

(٣) الرجال / الشيخ الطوسي: ٢٣٢ / ٣١٤٣ (٥٢).

(٤) الرجال / الشيخ الطوسي: ٣٤٠ / ٥٠٥٩ (٢٠).

(٥) الرجال / الشيخ الطوسي: ٣٥٩ / ٥٣١٦ (٢).

(٦) كتاب الغيبة / الشيخ الطوسي: ٣٤٨ ذيل ح / ٣٠٢.

(٧) خلاصة الأقوال ق ١: ١٩٣ / ٦٠١ (١٦)، وكتاب الرجال / ابن داود ق ١: ٢٠٠ / ٨٣١.

الحديث الثاني عشر

روى ثقة الاسلام الكليني عليه السلام بطريق صحيح في أصول الكافي ١ : ٣٤٠ /
١٩ باب في الغيبة من كتاب الحجّة:

قال «محمد بن يحيى ، عن محمد بن الحسين ، عن ابن محبوب ، عن إسحاق
ابن عمّار ، قال:

قال أبو عبد الله عليه السلام: للقائم غيبتان ، إحداهما قصيرة ، والأخرى طويلة ، الغيبة
الأولى لا يعلم بمكانه فيها إلا خاصّة شيعته ، والأخرى لا يعلم بمكانه فيها إلا خاصة
مواليه» .

نوع الحديث ورتبته:

الحديث مسند ، متصل ، صحيح بهذا الإسناد ، ورواته كلهم ثقات ، ومضمونه
متواتر كما سيأتي - إن شاء الله تعالى - في الجزء الخاص بموضوع الغيبة في هذا
الكتاب .

ترجمة رواته:

١ - محمد بن يحيى:

ثقة عين ، تقدّمت ترجمته في الحديث السابع .

٢ - محمد بن الحسين:

جليل، عظيم القدر، ثقة، عين تقدّمت ترجمته في الحديث السابع.

٣ - الحسن بن محبوب:

كوفي ثقة، جليل القدر، عظيم المنزلة، تقدّمت ترجمته في الحديث السابع.

٤ - إسحاق بن عمار الساباطي^(١):

عدّه البرقي في أصحاب الإمامين: الصادق والكاظم عليهما السلام^(٢).

وقال النجاشي: «إسحاق بن عمار بن حيّان مولى بني تغلب، أبو يعقوب

الصيرفي، شيخ من أصحابنا، ثقة، وإخوته: يونس، ويوسف، وقيس،

وإسماعيل، وهو في بيت كبير من الشيعة، وابنا أخيه: علي بن إسماعيل، وبشير

ابن إسماعيل كانا من وجوه من روى الحديث.

روى إسحاق، عن أبي عبد الله، وأبي الحسن عليهما السلام. ذكر ذلك أحمد

ابن محمد سعيد في رجاله.

له كتاب يرويه عدّة من أصحابنا...»^(٣).

ثمّ ذكر الطريق إلى كتابه، وهو طريق صحيح.

وعدّه الشيخ الطوسي في الرجال في أصحاب الإمام الصادق

عليه السلام^(٤)، وكذلك في أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام، قائلاً: «ثقة، له

(١) في بعض المصادر: الصيرفي.

(٢) كتاب الرجال / البرقي: ٢٨، و ٤٧.

(٣) الرجال / النجاشي: ٧١ / ١٦٩.

(٤) الرجال / الشيخ الطوسي: ١٦٢ / ١٨٣١ (١٣٥).

كتاب»^(١).

وقال في الفهرست: «له أصل، وكان فطحياً، إلا أنه ثقة، وأصله معتمد عليه. أخبرنا به الشيخ أبو عبد الله المفيد رضي الله عنه والحسين بن عبيد الله، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه، عن محمد بن الحسن بن الوليد، عن محمد بن الحسن الصفار، عن محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، عن ابن أبي عمير، عن إسحاق»^(٢).

وهذا الطريق في منتهى الصحة والوثوق، حتى كأن الشيخ به قد روى الكتاب عن مصنّفه بلا واسطة.

وقد روى الكشي بسنده عن الإمام الصادق، أنه كان عليه السلام «إذا رأى إسحاق بن عمار، وإسماعيل بن عمار، قال: وقد يجمعهما الله لأقوام، يعني: الدنيا والآخرة»^(٣).

وإسحاق هذا من مشاهير الرواة عن أهل البيت عليهم السلام، وقد أحصى السيد الخوئي رواياته في معجمه، فبلغت زهاء ألف رواية، مبيّناً أسماء من روى عنه، وفيهم أعظم الثقات وأجلاء الرواة في قائمة طويلة^(٤)، حتى يخيل من خلالها أنه لا يوجد ثقة أو جليل أو فقيه مشهور إلا وقد روى عن إسحاق بن عمار. ولهذا اتفق الكلّ على وثاقته.

(١) الرجال / الشيخ الطوسي: ٣٣١ / ٤٩٢٤ (٣).

(٢) الفهرست / الشيخ الطوسي: ٥٤ / ٥٢ (١).

(٣) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) / الشيخ الطوسي: ٤٠٢ / ٧٥٢.

(٤) معجم رجال الحديث / السيد الخوئي ٣: ٥٤ - ٥٦ / ١١٥٧.

الحديث الثالث عشر

قال الشيخ الصدوق في إكمال الدين ٢: ٣٦٨-٣٦٩ / ٦ باب (٣٤): «حدثنا أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني رضي الله عنه، قال: حدثنا علي بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن أبي أحمد محمد بن زياد الأزدي، قال: سألت سيدي موسى ابن جعفر عليهما السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾^(١) فقال عليه السلام: النعمة الظاهرة الإمام الظاهر، والباطنة الإمام الغائب، فقلت له: ويكون في الأئمة من يغيب؟ قال: نعم يغيب عن أبصار الناس شخصه، ولا يغيب عن قلوب المؤمنين ذكره، وهو الثاني عشر منا، يسهل الله له كل عسير، ويذل له كل صعب، ويظهر له كنوز الأرض، ويقرب له كل بعيد، ويبير به كل جبار عنيد، ويهلك على يده كل شيطان مرید، ذلك ابن سيده الإمام الذي تخفى على الناس ولادته، ولا يحل لهم تسميته حتى يظهره الله عز وجل، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً.

قال مصنف هذا الكتاب رضي الله عنه: لم أسمع هذا الحديث إلا من أحمد بن

(١) سورة لقمان: ٢٠/٣١.

زياد بن جعفر الهمداني رضي الله عنه بهمدان عند منصرفي من حج بيت الله الحرام، وكان رجلاً ثقة ديناً فاضلاً رحمة الله عليه ورضوانه».

نوع الحديث ورتبته:

الحديث مسند، متصل، صحيح، بهذا الإسناد، وموضوع الحديث متواتر، بل فوق التواتر بدرجات.

ترجمة رواته:

١ - أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني: ثقة، تقدّمت ترجمته في الحديث الثالث.

٢ - علي بن إبراهيم بن هاشم: ثقة ثبت، تقدّمت ترجمته في الحديث الثالث.

٣ - إبراهيم بن هاشم القمي: ثقة جليل، تقدّمت ترجمته في الحديث الثالث.

٤ - أبو أحمد محمد بن زياد الأزدي، وهو ابن أبي عمير: ثقة، ثقة، عظيم

المنزلة، بل أوثق الناس في زمانه، تقدّمت ترجمته في الحديث الخامس.

الحديث الرابع عشر

قال الشيخ الصدوق في إكمال الدين ٢: ٣٧١-٣٧٢ / ٥ باب (٣٥): «حدثنا أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني رضي الله عنه، قال: حدثنا علي بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن علي بن معبد، عن الحسين بن خالد، قال: قال علي بن موسى الرضا عليهما السلام: لا دين لمن لا ورع له، ولا إيمان لمن لا تقية له، إن أكرمكم عند الله أعلمكم بالتقية. فقيل له: يا ابن رسول الله إلى متى؟ قال: إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم خروج قائمنا أهل البيت، فمن ترك التقية قبل خروج قائمنا فليس منا. فقيل له: يا ابن رسول الله ومن القائم منكم أهل البيت؟ قال: الرابع من ولدي، ابن سيده الإمام، يطهر الله به الأرض من كل جور، ويقدرها من كل ظلم، [وهو] الذي يشك الناس في ولادته، وهو صاحب الغيبة قبل خروجه، فإذا خرج أشرق الأرض بنوره، ووضع ميزان العدل بين الناس، فلا يظلم أحدٌ أحداً، وهو الذي تطوى له الأرض، ولا يكون له ظلٌّ، وهو الذي ينادي منادٍ من السماء يسمعه جميع أهل الأرض بالدعاء إليه، يقول: أَلَا إِنَّ حِجَّةَ اللَّهِ قَدْ ظَهَرَ عِنْدَ بَيْتِ اللَّهِ فَاتَّبِعُوهُ، فَإِنَّ الْحَقَّ مَعَهُ وَفِيهِ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾^(١)».

(١) سورة الشعراء: ٢٦ / ٤.

نوع الحديث ورقبته:

الحديث مسند، متصل، صحيح بهذا الإسناد، ومعناه متواتر بلا شبهة.

ترجمة رواته:

١ - أحمد بن زياد الهمداني: ثقة، تقدّم ترجمته في الحديث الثالث.

٢ - علي بن إبراهيم: ثقة ثبت، تقدّم ترجمته في الحديث الثالث.

٣ - إبراهيم بن هاشم: ثقة جليل، تقدّم ترجمته في الحديث الثالث.

٤ - علي بن معبد بن نوح أبو الحسن المصري البغدادي (ثقة):

قال النجاشي: «علي بن معبد. أخبرنا أبو عبد الله بن شاذان، قال: حدّثنا علي

ابن حاتم، قال: حدّثنا الحميري، قال: حدّثنا أبي، قال: حدّثنا موسى بن جعفر،

قال: حدّثنا علي ابن معبد بكتابه»^(١).

وعده الشيخ الطوسي في رجاله في أصحاب الإمام الهادي عليه السلام، قائلاً: «علي

ابن معبد، بغدادي، له كتاب»^(٢).

وذكره ابن داود في قسم الثقات من رجاله، قائلاً: «علي بن معبد، له

كتاب»^(٣).

ووثّقه جمع من علماء العامة، منهم أحمد بن عبد الله العجلي، قال: «علي بن

معبد، يكنى أبا الحسن، ثقة، صاحب سنة»^(٤).

(١) الرجال / النجاشي: ٢٧٣ / ٧١٦.

(٢) الرجال / الشيخ الطوسي: ٣٨٨ / ٥٧٠٩ (٧).

(٣) كتاب الرجال / ابن داود ق ١: ٢٥١ / ١٠٦٩.

(٤) تاريخ الثقات / العجلي: ٣٥١ / ١٢٠٠.

ف ٧: التعامل بين العقل والشرع في معرفة هوية إمام الزمان عليه السلام ٤٢١

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: «وكان صدوقاً»^(١).

وذكره ابن حبان في كتاب الثقات، وقال: «مستقيم الحديث»^(٢).

٥ - الحسين بن خالد الصيرفي:

عده البرقي في أصحاب الكاظم عليه السلام^(٣).

وذكره الشيخ الطوسي في أصحاب الإمام الرضا عليه السلام^(٤).

وقال الوحيد البهبهاني في تعليقه: «والظاهر أن الحسين بن خالد الذي يظهر

من رواياته في التوحيد فضله هو هذا»^(٥).

واستظهر الشيخ محمد بن إسماعيل أبو علي الحائري جلالته^(٦).

وروى صفوان بن يحيى^(٧)، وابن أبي عمير^(٨) وهما من «الذين عرفوا بأنهم

لا يروون ولا يرسلون إلا عمّن يوثق به»^(٩).

(١) الجرح والتعديل / ابن أبي حاتم ٦: ٢٠٥ / ١١٢٥.

(٢) كتاب الثقات / ابن حبان ٨: ٤٧٢.

(٣) كتاب الرجال / البرقي: ص ٥٣.

(٤) الرجال / الشيخ الطوسي: ٣٥٥ / ٥٢٦٢ (٦).

(٥) منتهى المقال / أبو علي الحائري ٣: ٢٦ / ٨٦٥.

(٦) منتهى المقال ٣: ٣٦ / ٨٦٥.

(٧) فروع الكافي / الكليني ٥: ٣٩٩ / ٣، باب الرجل يتزوج المرأة ويتزوج ابنه ابنتها من كتاب النكاح.

(٨) فروع الكافي ٧: ٣٠ / ٢، باب الوصية لأُمَّهات الأولاد من كتاب الوصايا.

(٩) عدّة الأصول / الشيخ الطوسي ١: ٣٧٧-٣٧٨.

فهرس المحتويات

المقدمة	٥
المصلح العالمي كما استنبطه الفلاسفة والمتكلمون المسيحيون من الأناجيل	٩
غفلة المجتمع المسيحي المعاصر عن فكرة المصلح العالمي	١٥
المهدي الموعود في الإسلام من منظور أهل السنة	٢١
جمع الأحاديث من طرق أهل السنة وتقييمها	٢٣
الإفرازات الإيجابية أو السلبية للانتظار	٢٤
عوامل الوحدة	٢٨
لماذا وكيف تُهاجم ولاية إمام العصر أرواحنا فداه؟	٣٣
شكر و تقدير	٤٤

الفصل الأول

وجود المصلح العالمي من منظور الفطرة

(٤٥ - ١١٨)

المبحث الأول

الفطرة وأهمية المعلومات الفطرية	٤٧
معنى الفطرة	٤٧
من علائم الفطرة	٤٨

٤٢٤ بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية / ج ١

أهمية المعلومات الفطرية..... ٤٩

المبحث الثاني

ملامح الأفكار والنزعات الفطرية ٥٣

شمولية المعلومات الفطرية ٥٣

اصطباج الإدراكات الفطرية بلون الشهود لا بلون الاستدلال ٥٥

الإدراكات الفطرية لا تتأثر بالأوهام ولا تتعرض للخطأ ٥٥

المبحث الثالث

الفطرة من منظور القرآن الكريم والأحاديث ٥٧

الفطرة في القرآن الكريم..... ٥٧

الفطرة في الروايات ٦٢

المبحث الرابع

النزعات الفطرية من منظور الفلاسفة والعرفاء المسلمين ٦٥

١) الفارابي (ت / ٣٣٩هـ) ٦٥

٢) ابن سينا (ت / ٤٢٨هـ) ٦٦

٣) محيي الدين ابن عربي (ت ٦٣٨هـ) ٦٧

٤) صدر المتألهين الشيرازي (ت / ١٠٥٠هـ) ٦٨

٥) الحكماء الرواقيون ٦٩

٦) سعيد الدين الفرغاني (ت / ٧٠٠هـ) ٧٠

٧) السيد حيدر الآملي (كان حياً قبل ٧٨٧هـ) ٧١

٨) عبد الله الأنصاري وعبد الرزاق الكاشاني ٧٢

المبحث الخامس

٧٥	الفرعات الفطرية من منظور بعض المفكرين الغربيين
٧٥	الفطرية الديكارتية
٧٦	نقد الفطرية الديكارتية
٧٧	فطرية سبينوزا
٧٨	الفرعات الفطرية

المبحث السادس

٨١	خفاء وظهور الفطرة
٨٣	تنامي الفطرة
٨٣	الاهتمام بتربية حس حب الخير
٨٤	مراقبة النفس وحفظها من المعاصي
٨٧	عوامل ظهور وتنامي الفطرة
٨٨	تجاهل الأمور الفطرية
٩٢	الفطرتان الأولية والثانوية
٩٣	دور الإنحرافات في حبس الفطرة
٩٤	عوامل غروب واختفاء الفطرة
٩٤	(١) الجهل والشقاء
٩٧	(٢) الشرك
٩٨	(٣) الطغيان والتمرد
١٠٠	(٤) التقليد الأعمى

٤٢٦ بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية/ج ١

الأعمال التي تنجزها الفطرة ١٠١

الفطرة تختفي خلال الانحرافات لكنها لا تنعدم ١٠٤

المبحث السابع

كيفية دلالة الفطرة على وجود الإمام والمصلح العالمي ١٠٥

النزعة نحو العدالة والأمن العالمي نزعة فطرية ١٠٥

فطرة العقل وحاجة البشرية إلى المصلح العالمي ١٠٧

إنكار وجود المصلح لا ينافي كون الإيمان به فطرياً ١٠٨

ظهور واختفاء الفطرة من منظار برغسون ١٠٩

هتاف البطل ١١١

القيادة الإلهية وظهور العقل الفطري ١١٤

الاستنتاج ١١٧

الفصل الثاني

ولي العصر عليه السلام نقطة اعتدال

أسماء الجمال والجلال في الأرض

(١١٩ - ١٥٢)

المبحث الأول

معرفة أسماء الجمال والجلال (الأسماء الحسنى) ١٢١

«الذات»، و«الصفة»، و«الاسم» ١٢١

ما هو مظهرُ الأسماء؟ ١٢٢

٤٢٧	فهرس المحتويات
١٢٢	مثال من الطبيعة
١٢٢	مثال مما وراء الطبيعة
١٢٣	مثلث (علم الوجود، وعلم الكون، وعلم الإنسان)
١٢٤	بعض مظاهر أسماء الجمال والجلال (اللطيف والقهر)
١٢٨	أسماء الجمال إلى جانب أسماء الجلال

المبحث الثاني

١٣١	اسم (الولي) خاص بالله تعالى
١٣٣	لماذا الولاية لله؟

المبحث الثالث

١٣٥	ولاية الإنسان
١٣٩	أساس الولاية، القرب من الله
١٤٧	الإمام علي عليه السلام نموذج مظهر الجمال والجلال في التاريخ

المبحث الرابع

١٤٩	ولي العصر، نقطة الاعتدال في الأرض
١٤٩	إيضاح موجز للاعتدال
١٥٠	الاعتدال في علم الأخلاق
١٥٠	إشكال مهم حول وجود الإنسان المعصوم
١٥١	الرد على هذا الإشكال

الفصل الثالث

المهدي الموعود عليه السلام في دليل الاستقراء

(١٥٣ - ١٨٦)

المبحث الأول

١٥٥	أهمية الاستقراء في المعارف البشرية
١٥٥	الغرض والهدف
١٥٥	تقديم الدليل
١٥٦	استخدام الاستقراء وأهميته
١٥٧	الاستقراء المركب

المبحث الثاني

١٥٩	استقراء سيرة الأنبياء <small>عليهم السلام</small>
١٥٩	سلسلة الأوصياء في العهدين والأحاديث وكتب التاريخ والسيرة
١٥٩	وصايا الأنبياء في أسفار العهدين
١٦٠	أوصياء الأنبياء في كتب الحديث
١٦٢	وصايا الأنبياء في كتب التاريخ والسيرة
١٦٥	أوصياء الأنبياء في الأحاديث الشريفة
١٦٦	تنويه مهم

فهرس المحتويات ٤٢٩

المبحث الثالث

- ١٦٩ اختلاف الاستقراء المصطلح عن أسلوبنا الاستدلالي
- ١٧١ الاستقراء أو البحث عن أنواع الإدارات
- ١٧١ استقراء أسلوب العقلاء
- ١٧٢ الزعامة الدينية
- ١٧٣ استقراء أحاديث الرسول محمد ﷺ وتعاليمه
- ١٧٥ نظرية المفكر الشهيد السيد محمد باقر الصدر
- ١٧٧ الاستنتاج
- ١٨١ التوصل إلى قطب عالم الإمكان في استقراء الفخر الرازي
- ١٨٢ قطب العالم وصاحب الزمان
- ١٨٣ أقسام الناس من منظار الفخر الرازي

الفصل الرابع

برهان النظام الأحسن (الحكمة والعناية)

وضرورة وجود الإمام المعصوم عليه السلام

(١٨٧ - ٢٤٢)

المبحث الأول

- ١٨٩ في معنى البرهان
- ١٩٠ المعنى اللغوي والاصطلاحي للحكمة

٤٣٠	بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية/ج ١
١٩٠	الحكمة لغةً ..
١٩١	الحكمة اصطلاحاً ..
١٩١	الحكمة عند المتكلمين ..
١٩٢	الحكمة عند الفلاسفة ..
١٩٣	الحكمة في القرآن ..
١٩٥	العناية لغةً واصطلاحاً ..
١٩٥	العناية لغةً ..
١٩٥	العناية في اصطلاح الفلاسفة ..
١٩٧	العناية في العهدين ..
١٩٧	العلاقة بين مفهوم الحكمة ومفهوم العناية ..
١٩٨	النظام الأحسن يتميز بميزتين أساسيتين ..
١٩٨	برهان العناية في آثار الفلاسفة ..
١٩٩	أولاً - برهان العناية في آثار الفلاسفة اليونانيين ..
١٩٩	١ - أفلاطون (نحو / ٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) ..
١٩٩	٢ - أرسطو (نحو / ٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) ..
٢٠٠	ثانياً - برهان العناية في آثار الحكماء الرواقيين ..
٢٠١	ثالثاً - برهان العناية في الآثار الفلسفية الإسلامية ..
٢٠١	العناية في آثار الفارابي ..
٢٠١	العناية في آثار ابن سينا ..
٢٠٢	العناية في آثار ملا صدرا ..

٤٣١	فهرس المحتويات
٢٠٢	الحكمة، والعناية، والهداية
٢٠٣	العناية والحكمة عند هادي السبزواري

المبحث الثاني

٢٠٥	في بيان دليل البرهان
٢٠٥	الطريق الأول : برهان العناية وضرورة النظام الأحسن
٢٠٥	خصوصيات النظام الأحسن
٢٠٦	حقيقة الحسن
٢٠٨	الحيرة أمام جمال العالم
٢١٤	دور النبوة والإمامة في النظام الأحسن
٢١٧	الطريق الثاني : برهان العناية وبلوغ المرء غاية الخلقة
٢١٧	النظام الأحسن وغائيته
٢١٨	غاية خلق الإنسان، معرفة الله وعبادته
٢٢٠	ضرورة بلوغ الإنسان لغاية الخلقة
٢٢٠	الإمكانات المحدودة لوسائل المعرفة وضرورة تبين الوحي بواسطة الإمام
٢٢٠	١- الحس
٢٢٠	٢- العقل
٢٢١	٣- الفطرة
٢٢١	٤- الوحي والإلهام
٢٢٢	غاية الخلقة

٤٣٢ بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية/ج ١

٢٢٢ ١ - الإنسان بحاجة إلى السعادة بالفطرة

٢٢٣ ٢ - السعادة كامنة في الهداية

٢٢٤ ٣ - الهداية من الله

٢٢٧ برهان العناية ودلالته على استمرار الهداية الإلهية

المبحث الثالث

٢٢٩ الإمامة مصباح هداية الإنسان نحو غاية الخلقة

٢٣٠ دور الإمامة في هداية الإنسان من منظار القرآن والروايات

٢٣٤ (بيان / ١)

٢٤٠ خصوصيات الإمام وضرورة تعيينه من قبل الله

٢٤١ الاستنتاج النهائي

الفصل الخامس

مستقبل البشرية من منظار فلسفة التاريخ

(٣٢٨ - ٢٤٣)

المبحث الأول

٢٤٦ مفهوم الفلسفة النظرية للتاريخ

٢٤٦ مفهوم التاريخ

٢٤٧ مختلف معاني الفلسفة

٢٤٩ فلسفة التاريخ والفلسفة النظرية للتاريخ

٤٣٣	فهرس المحتويات
٢٥٦	وحدة التاريخ
٢٥٦	إفرازات حركة التاريخ
٢٥٧	آراء في الهدف التاريخي

المبحث الثاني

٢٥٩	نظريات في الفلسفة النظرية للتاريخ
٢٥٩	الحركة المستقيمة المتكاملة للتاريخ
٢٥٩	١- نظرية (ثقافية حركة التاريخ المستقيمة)
٢٦٠	٢- نظرية (الحركة التاريخية قائمة على تحسّن الوضع الاجتماعي)
٢٦٠	٣- نظرية (حركة التاريخ قائمة على تلبية الرغبات الفردية)
٢٦١	٤- النظرية العرقية
٢٦١	٥- النظرية الجغرافية
٢٦٢	٦- نظرية الأبطال
٢٦٣	٧- نظرية المادية التاريخية
٢٦٤	٨- نظرية (إلهية الحركة التاريخية)

المبحث الثالث

٢٦٧	رأي الإسلام في حركة التاريخ
٢٦٧	أسلوب القرآن الكريم في تسجيل الحدث التاريخي
٢٦٩	أهداف القرآن الكريم من النقل التاريخي
٢٦٩	القرآن وفلسفة التاريخ

٤٣٤بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية/ج ١
٢٧١ نظرة الإسلام للحركة التكاملية للتاريخ
٢٧٣ تبيان الحركة التكاملية للتاريخ على أساس الإرادة الإلهية
٢٧٤ المجتمع من منظار القرآن الكريم
٢٧٦ مفهوم التضاد ودوره في حركة التاريخ
٢٨٢ عدم تغاير التضاد مع وحدة المجتمع الإنساني
٢٨٤ الاستنتاجات
٢٨٧ حركة المجتمع نحو الغاية النهائية للتاريخ:
٢٩١ المدينة الفاضلة من منظار الفارابي
٢٩٤ علائم سعادة المجتمع في القرآن الكريم
٢٩٤ ١ - أفضل الأديان
٢٩٤ ٢ - الأمن
٢٩٦ ٣ - علاقة الناس بالله عزّ وجلّ

المبحث الرابع

٢٩٧المؤاخذات على الحركة التكاملية للتاريخ
٢٩٧ ١ - نظرية دورانية حركة التاريخ
٢٩٨ دراسة النظرية الدورانية ونقدها
٢٩٩ ٢ - نظرية رجعية حركة التاريخ
٣٠١ المؤاخذات على حركة التكامل التاريخي والرد عليها
٣٠١ المؤاخذة الأولى

٤٣٥	فهرس المحتويات
٣٠١	الرد
٣٠٨	المؤاخذة الثانية
٣٠٨	الرد
٣٠٩	المؤاخذة الثالثة
٣٠٩	الرد

المبحث الخامس

٣١١	المادية التاريخية
٣١١	نظرة الماديين للحركة التاريخية
٣١٢	المسار التاريخي للمجتمع من منظور الماديين
٣١٤	عيوب نظرية المادية التاريخية
٣١٧	إشكاليات حركة التاريخ من منظور المادية

المبحث السادس

٣٢١	الحتمية وأنواعها
٣٢١	١- الحتمية العلمية أو العلية (Scientific/ causal determinism)
٣٢٢	٢- الحتمية الدينية أو الكلامية (Theological determinism)
٣٢٣	٣- الحتمية التاريخية (Historical determinism)
٣٢٥	قصيدة دُعْبِل الخزاعي

الفصل السادس

قاعدة اللطف وضرورة تعيين إمام لهداية البشرية

(٣٢٩ - ٣٥٨)

المبحث الأول

- ٣٣١ معنى قاعدة اللطف
- ٣٣١ اللطف لغة
- ٣٣١ اللطف اصطلاحاً

المبحث الثاني

- ٣٣٣ اللطف في الآيات والروايات والأدعية
- ٣٣٣ أولاً: اللطف في الآيات
- ٣٣٦ ثانياً: اللطف في الروايات
- ٣٣٧ ثالثاً: اللطف في الأدعية

المبحث الثالث

كيفية دلالة قاعدة اللطف

- ٣٣٩ على ضرورة وجود إمام العصر
- ٣٤٣ الاستنتاج

فهرس المحتويات ٤٣٧

المبحث الرابع

اللفظ في الأديان السابقة ٣٤٤

نظرة توما الأكويني للفيض ٣٤٦

المبحث الخامس

الإشكالات المثارة حول دلالة قاعدة اللطف

على ضرورة وجود الإمام في كل عصر ٣٤٩

الإشكال الأول وجوابه ٣٤٩

الإشكال الثاني وجوابه ٣٥٠

الإشكال الثالث وجوابه ٣٥٣

الإشكال الرابع وجوابه ٣٥٤

فلسفة الغيبة ٣٥٧

الفصل السابع

التعامل بين العقل والشرع

في معرفة هوية إمام الزمان عليه السلام

(٣٦٣ - ٤٢٢)

الحديث الأول ٣٦٨

نوع الحديث ورتبته ٣٦٨

ترجمة رواته ٣٦٨

٤٣٨ بشارة الأمان .. المباحث الفلسفية والكلامية / ج ١

٣٧٢ الحديث الثاني

٣٧٣ نوع الحديث ورتبته.

٣٧٣ ترجمة رواته

٣٧٦ الحديث الثالث

٣٧٧ نوع الحديث ورتبته.

٣٧٥ ترجمة رواته

٣٧٩ الحديث الرابع

٣٧٩ نوع الحديث ورتبته.

٣٧٩ ترجمة رواته

٣٨٥ الحديث الخامس

٣٨٥ نوع الحديث ورتبته.

٣٨٦ ترجمة رواته

٣٨٩ الحديث السادس

٣٨٩ نوع الحديث ورتبته.

٣٩٠ ترجمة رواته

٣٩٧ الحديث السابع

٣٩٧ نوع الحديث ورتبته.

٣٩٧ ترجمة رواته

٤٠١ الحديث الثامن

٤٠٢ نوع الحديث ورتبته.

٤٣٩	فهرس المحتويات
٤٠٢	ترجمة رواته
٤٠٣	الحديث التاسع
٤٠٤	نوع الحديث ورتبته
٤٠٥	ترجمة رواته
٤٠٩	الحديث العاشر
٤٠٩	نوع الحديث ورتبته
٤٠٩	ترجمة رواته
٤١١	الحديث الحادي عشر
٤١٢	نوع الحديث ورتبته
٤١٢	ترجمة رواته
٤١٤	الحديث الثاني عشر
٤١٤	نوع الحديث ورتبته
٤١٤	ترجمة رواته
٤١٧	الحديث الثالث عشر
٤١٨	نوع الحديث ورتبته
٤١٨	ترجمة رواته
٤١٩	الحديث الرابع عشر
٤٢٠	نوع الحديث ورتبته
٤٢٠	ترجمة رواته
٤٢٣	فهرس المحتويات